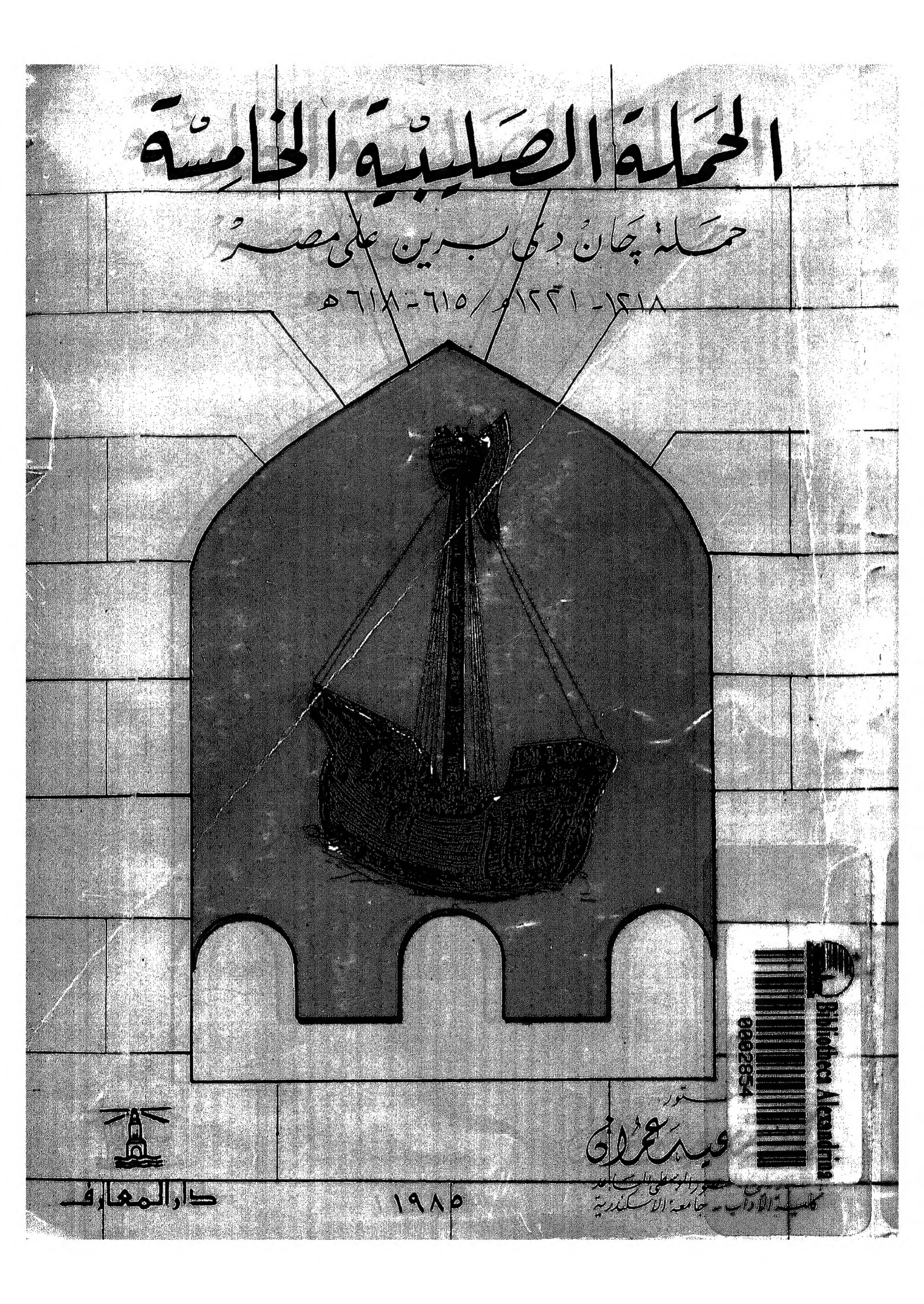
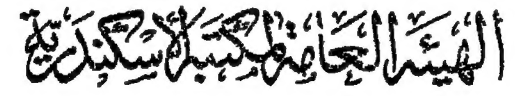

الحملة الصليبية الخامسة
حملة جان دي برين على مصر
١٢١٨-١٢٢١م / ٦١٥-٦١٨هـ
ستور
عيد عمران
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
١٩٨٥
دار المعارف
Bibliotheca Alexandrina
0602854




الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

مطبعة الانتصار
كوم الدكة - إسكندرية

الحملة الصليبية الخامسة

حملة جان دى برين على مصر

١٢١٨ - ١٢٢١م / ٦١٥ - ٦١٨هـ

دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إمنحنا القوة لكى نحافظ على حقوق مصر ،
وامنحنا الحب حتى نؤدى ما علينا من واجبات لمصر .

محتويات الكتاب

رقم الصفحة

الخرائط

رقم الصفحة

مقدمة الطبعة الثانية

نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عقيب صدوره مباشرة عام ١٩٧٨ . وكان عليّ أن أقوم باصدار طبعة ثانية ، ولكن ظروف تواجدى خارج البلاد حالت دون ذلك . ومن هنا فإنى أعتذر لطلابى فى جمهورية مصر العربية والعالم العربى عن التأخير فى إصدار طبعة أخرى . اكما دفعنى أيضا لاصدار هذه الطبعة ما رأيته من تشجيع زملائى وطلابى باعتبار هذا الكتاب المرجع الأول فى تاريخ الحملة الصليبية الخامسة التى كانت أول حملة صليبية تستهدف غزو مصر باعتبارها حصن العروبة ، وأن الطريق إلى بيت المقدس يمر عبر القاهرة . يضاف إلى ذلك اتصال بعض الأساتذة من انجلترا وأمريكا - المهتمين بالدراسات الصليبية - بى لطلب معونة أو مشورة حول أحداث الحملة . وانه ليسعدنى أن أقدم هذا الكتاب الذى يمثل جانبا هاما من تراثنا القومى ، واتمنى أن يصدر بالصورة اللائقة والمناسبة للجهد الذى بذل فيه . ولا يفوتنى فى هذه المناسبة أن اتقدم لأهل دمياط العظيم بعظيم شكرى وتقديرى على ما بذله من التضحية والفداء .

والله ولى التوفيق .

اسكندرية فى أغسطس ١٩٨٤ — محمود سعيد عمران

تقديم الطبعة الأولى

معرفتي بالدكتور محمود سعيد عمران مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ترجع إلى سنوات عديدة مضت . عرفته عن قرب أثناء ماضيه الجامعي الطويل ، ووجدت فيه الباحث الذى يمتاز بالنشاط والأمانة والإخلاص وحب العلم والتفانى فى تحصيله . حصل على درجة الليسانس فى الآداب من قسم التاريخ وعمل لدرجة الماجستير فجازها بتقدير « ممتاز » ، ثم الدكتوراه فى الآداب فأحرزها بمرتبة الشرف الأولى فى تاريخ العصور الوسطى .

وكتاب الزميل الدكتور / محمود سعيد عمران الذى يسعدنى أن أتقدم به وبمؤلفه إلى قراء العربية فى مصر وفى كافة أقطار العالم العربى ، يسد فجوة هامة فى المكتبة التاريخية العربية بوجه عام ، ومكتبة الحروب الصليبية على وجه الخصوص . إذ تناول بأسلوب علمى صحيح ومنهاج تاريخى سليم ، حلقة من أهم حلقات الصراع الطويل المرير بين الشرق والغرب فى عصر الحروب الصليبية ، وهى الحملة الصليبية الخامسة على مصر (٦١٥ - ٦١٨ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢١ م) المعروفة بحملة جان دى برين صاحب عكا اللاتينى والملك الاسمى لبيت المقدس آنذاك .

ويعتبر هذا الكتاب القيم أول دراسة علمية موضوعية متكاملة تظهر فى هذا الموضوع الهام ، وتلم بكل أطرافه وزواياه من مختلف المصادر والأصول ، من عربية ولاتينية وفرنسية قديمة ، خطية ومطبوعة ، بغية الوصول إلى أصدق النتائج وأصوبها التى يتمخض عنها النقد التاريخى السليم .

استهل المؤلف كتابة بمقدمة نقدية تحليلية لمصادر البحث ومنابعه نتبين إفادته منها إذا ألقينا نظرة فاحصة مدققة إلى حواشى الكتاب وامعنا النظر فى ثناياه . إذ رجع إلى عشرات المصادر العربية بعضها لا يزال خطيا لم ينشر بعد ، وإلى العديد من الأصول الأجنبية من كتب ووثائق ومراسلات بعضها لا يزال بلغته

الأصلية التى دون بها كاللاتينية أو الفرنسية القديمة . هذا ، إلى جانب الكثير من المراجع الحديثة من عربية وأجنبية . لقد غاص فى أعماق هذه الأصول والمراجع ، واستخرج منها مادة علمية من الطراز الأول . وقام بتحليلها تحليلا علميا مقارنا يدل على عمق فى الفهم وأصالة فى التفكير .

وكمدخل طبيعى للموضوع أشار المؤلف إلى المشاريع الصليبية السابقة للحملة الخامسة ، التى استهدفت مصر باعتبارها معقل القوى الإسلامية وحصنها المنيع ، وقلبها النابض بالحركة والحياة ، ومركز إمدادها بالمال والرجال والمؤن والسلاح . ثم تحدث فى الفصل الأول وعنوانه « أوروبا والشرق قبيل الحملة الصليبية الخامسة » عن الظروف السائدة فى الشرق والغرب قبيل الحملة ، من سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية . وخلص منها إلى أن أحوال أوروبا وقتها كانت تسمح لها باعداد حملة صليبية كبيرة ضد المسلمين ، وأن مصر – هى الأخرى – كانت على أتم استعداد لمواجهة الغزاه ودفعهم عن البلاد .

واستهل الفصل الثانى وعنوانه « أسباب الحملة الصليبية الخامسة والإعداد لها » ، بتحليل مختلف العوامل التى أدت إلى قيام الحملة ، من مباشرة وغير مباشرة ، داخلية وخارجية ، رئيسية وثانوية . وتوصل إلى أن اللاتين كانوا يهدفون إلى توجيه ضربة قوية إلى مصر تنتهى بالاستيلاء عليها حتى يتسنى لهم تحقيق كافة أطماعهم فى العالم الإسلامى . وفى الفصل الثالث وعنوانه « الجيش الصليبى فى جيزة دمياط » ، تناول المؤلف بعض القضايا الهامة التى توصل فيها إلى نتائج محددة . من بينها الأسباب التى جعلت الصليبيين يتخذون من دمياط بالذات ، دون غيرها من الثغور والموانى المصرية ، هدفا لهجومهم ، معتمدا فى ذلك على المصادر الأجنبية الأصلية المعاصرة للفترة موضوع البحث ، مثل مؤلفات جاك دى فترى وأوليفر أوف بادنبورن وروجر أوف وندوفر . وتناول بالتحليل أيضا مؤامرة ابن المشطوب التى استهدفت خلع الكامل محمد ملك مصر وتولية أخيه الصغير الفائز مكانه ليصير الحكم إليه ، مع بيان الآثار المترتبة على ذلك .

وعالج الباحث فى الفصل الرابع وعنوانه « سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين » عددا من القضايا التى لم يُبت فيها برأى قاطع ، فى حيدة وموضوعية وجدية ، منها عروض الصلح المتتالية التى تقدم بها الملك الكامل إلى الفرنج الدخلاء أثناء حصارهم لمدينة دمياط وبعد استيلائهم عليها بهدف إتاحة الفرصة له لمواجهة الغزاة وصدهم . فاستعرض الظروف التى لابست كل عرض من هذه العروض ، مع تحليل دقيق لمواقف مختلف الأطراف المعنية منها ، مستمدا مادته الأصلية من أصول البحث ومصادرة من عربية وأجنبية . أما الفصل الخامس والأخير وعنوانه « فشل الحملة الصليبية الخامسة » ، فقد تعرض فيه المؤلف للوقائع والأحداث التالية لسقوط دمياط فى أيدى الفرنج حتى هزيمة الحملة وجلائها عن مصر تجر وراءها أزيال الخيبة والخذلان . ومن المسائل الجديدة التى عالجها فى هذا الفصل الصراع بين بيلا جيوش ممثل البابا الرومانى فى الحملة وبين قائد الحملة جان دى برين حول الزعامة والسلطة ، وما ترتب عليه من آثار . واختتم الفصل بتحليل عميق لمختلف العوامل والأسباب التى أدت إلى فشل الحملة ، مما يدل على فهم كامل لكل خباياها ومشاكلها .

ولم تكن خاتمة الكتاب مجرد عرض موجز لتاريخ الحملة الصليبية وهزيمتها ، ولم تكن مجرد نتائج واستنتاجات فحسب ، ولكنها سلطت الأضواء بشكل قوى على قصة هزيمة العدو الدخيل والتجارب المستفادة منها . فأشار المؤلف إلى بعض الأفكار الهامة التى ترتبط بالحروب الصليبية باعتبارها حركة من أهم حركات التاريخ الوسيط وظاهرة من أبرز ظواهره ، من حيث موازين القوى ومراكز الثقل والأفعال وردود الافعال ، ودور مصر فى دفع العدوان وإلحاق شر أنواع الهزيمة به ومغزى ذلك ودلالته .

بهذا الاسلوب العلمى الجاد تناول الدكتور محمود سعيد عمران مختلف القضايا والمسائل المتعلقة بالحملة ، فى بحث مستقل قائم بذاته لم يدرس من قبل دراسة وافية ، تجمع بين العلم بأصوله ومنابعه العربية والأجنبية على السواء لقد ألم بوجهتى النظر إلماما تاما ، وناقش مختلف الروايات والأسانيد المتضاربة .

وقارنها بعضها ببعض ، سعيا وراء الحقيقة التاريخية المطلقة والنهج التاريخى الصحيح . وتوصل إلى آراء وأفكار تتميز بجدتها وأصالتها وقيمتها التاريخية .

أن كتاب الدكتور محمود سعيد عمران عن الحملة الصليبية الخامسة على مصر يعتبر كسبا واضحا للمكتبة التاريخية العربية ، وإضافة جديدة لها وزنها إلى سلسلة مراجع الحملات الصليبية .

جوزيف نسيم يوسف

استاذ تاريخ العصور الوسطى

الاسكندرية فى أول يناير ١٩٧٨ كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

تصـديـر

عرض وتحليل لمصادر الحملة

المصادر الاجنبية : مصادر شهود العيان – مصادر معاصرة – مصادر متأخرة زمنيا – المصادر العربية : مصادر شهود العيان والمعاصرين – مصادر متأخرة زمنيا . المراجع الأجنبية والعربية والمعربة .

موضوع هذا الكتاب هو حملة جان دى برين Jean de Brienne الصليبية على مصر (٦١٥ — ٦١٨ هـ / ١٢١٨ — ١٢٢١ م) المعروفة بالحملة الصليبية الخامسة . وقد إختار الباحث هذه الحملة موضوعا لدراسته لعدة أسباب ، منها خلو المكتبة العربية من كتاب قائم بذاته يتناول أحداث هذه الحملة . هذا بالإضافة إلى خلوها من بحث علمى يتناول وجهتى النظر الإسلامية والغربية لأحداثها ، كما أن لهذه الحملة فى تاريخ الحركة الصليبية أهمية خاصة لأنها أول حملة أعدتها البابوية وحشد لها الغربى الأوربى كل إمكانياته — تصل إلى مصر — بهدف الإستيلاء عليها باعتبارها حصن العروبة ومركز إمدادها بالمال والرجال والمؤمن والسلاح ، ومنها تخرج دائما صيحة الجهاد ضد الطارق الدخيل . وعلى ذلك رأى الصليبيون أن الإستيلاء على مصر يتيح لهم فرصة تحقيق أطماعهم ليس فى رقعة الشرق الأدنى الإسلامى فحسب وإنما فى العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه . وهذا يوضح التغيير الذى طرأ على الإستراتيجية العسكرية فى الفكر الأوربى وقتذاك . أضف إلى ذلك أن أحداث حملة جان دى برين حملت فى طياتها تنفيذ الفكرة التى أخذت تنادى إعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) بكثلكة العالم الإسلامى وذلك عندما كان رجال الدين الصليبين الذين إشتركوا فى الحملة يقومون بتعميد الأسرى خاصة الأطفال منهم . ومن ذلك يتضح أن الهدف الرئيسى للحملة هو الإستيلاء على مصر ، ليتمكن الغرب اللاتينى من نشر المسيحية على المذهب الكاثوليكى الرومانى فى الشرق كلية[1] ، عساه أن يحقق الأهداف التى أخفقت الحملات العسكرية خلال القرن الثانى عشر (السادس

---

(١) تتضح هذه الحقيقة بجلاء من الخطاب الذى أرسله الكاردينال جاك دى فترى — أسقف عكا وأحد الداعين للحملة فى أوربا والشام وأحد المشتركين فيها أيضا — إلى البابا — هونوريوس الثالث من دمياط (٢٢ سبتمبر ١٢١٩ م/ ١١ رجب ٦١٦ هـ) أنظر :

Vitry, Lettre, de Jacques de Virry edition Critique Par R. B. C. Huygons, Leiden, 1960. P. 103.

راجع أيضا Oliver or Padenborn, The Capture of Damietta tran. John J.Gavigan, Philadelphia. 1948, pp. 1-3.

الهجرى) فى تحقيقها . لهذه الأسباب وغيرها التى سيتناولها الباحث بالتفسير والنقد والتحليل فى ثنايا الكتاب ، تتضح أهمية دراسة هذه الحملة . ومن هذ الزوايا أدلى الباحث بدلوه فى هذا الموضوع مستهدفا عرض الحقائق فى صورة موضوعية ولا شىء خلاف ذلك . ثم أن الباحث وهو يتناول موضوعه نظر إليه نظرة عريضة شاملة باعتباره حلقة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب الذى ترجع جذوره إلى مئات السنين والذى لا يزال ممتدا حتى وقتنا هذا . فمصر الأمس هى مصر اليوم ، هى القلعة الصامدة المناضلة المكافحة .

والحروب الصليبية التى إكتوى العالم الإسلامى بنارها بالأمس ، تبدو اليوم فى شكل آخر يتمثل فى الوجود الصهيونى الاستعمارى فى بعض أجزاء الأرض العربية والهدف شبيه بنفس الهدف ، والأطماع قريبة من نفس الأطماع . فما أشبه اليوم بالبارحة .

ولما كان هذا البحث يتناول طرفا من العلاقات بين الشرق والغرب فى فترة زمنية محددة هى فترة الحملة الصليبية الخامسة ، لذلك تحتم على الباحث الرجوع إلى مصادرها العربية والأجنبية على قدم المساواة سعياً وراء الحقيقة التاريخية المطلقة التى هى فوق كل اعتبار . ولا شك أن ما إعترى الكتابات التاريخية فى هذا الميدان الفسيح من قصور ولبس فى بعض النواحى التى تناولوا فيها أحداث الحملة إنما يرجع إلى أن الكتاب الغربيين جنحوا إلى الاعتماد على شق واحد من أصول الحملة أكثر من إعتمادهم على الشق الآخر ، فانطبع إستعراضهم السريع المبتور لبعض قضايا البحث ومشاكله بطابع أنصاف الحلول . وعلى ذلك أصبحت مهمة الباحث فى التاريخ لهذه الحملة هى مناقشة مختلف الأسانيد والروايات التى تعرضت للحملة ومقارنتها ببعضها بغية الوصول إلى أسلم النتائج التى يتمخض عنها البحث التاريخى السديد .

لقد توخى الباحث هذا المنهج فى بحثه ، فرجع إلى المصادر الشرقية والغربية وبعضها لا يزال بلغته الأصلية التى كتب بها كالاتينية والبعض الآخر لا يزال مخطوطا لم ير النور بعد ، أهمها بلا شك مصادر شهود العيان ، ثم مصادر المعاصرين

والمتأخرين زمنيا الذين ينقلون عادة عن الأصول المفقود أو غير المفقود .

وقد هدانا البحث إلى وضع المصادر الأوربية فى المكانة الأولى تليها المصادر العربية . والسبب فى ذلك أن المصادر الغربية أسهمت فى وصف وقائع الحملة على العكس من المصادر العربية . فضلا عن أن معظم كاتبيها كانوا من شهود العيان الذين إشتركوا فى الحملة مشاركة فعلية وشهدوا وقائعها وأحداثها مما أكسب رواياتهم طابعا من الطراز الأول . والواقع أن الغوص فى أعماق هذه المصادر ليس بالأمر السهل ، فمعظمها مدون باللغة اللاتينية لم ينقل إلى اللغات الحديثة بعد . ثم أن بعض هذه المصادر لم يكن موجودا داخل جمهورية مصر العربية ، ولم يقف ذلك عقبه أمام الباحث الذى لم يدخر وسعا فى الحصول عليها فى الخارج . وبذلك استطاع أن يجمع ما يقرب من واحد وعشرين خطابا ووثيقة أصلية وأصيلة كانت مبعثرة هنا وهناك . هذا بالاضافة إلى المصادر الأخرى لشهود العيان وغير شهود العيان والمصادر المتأخرة زمنيا .

وقام الباحث بتصنيف هذه المصادر الغربية إلى مجموعات ، المجموعة الأولى منها خاصة بشهود العيان للحملة والمجموعة الثانية تتعلق بالمعاصرين من غير شهود العيان . والثالثة هى المصادر المتأخرة زمنيا وأرخت للحملة أو جانبا منها ، أما الرابعة فهى التى تتحدث عن الحوادث السابقة للحملة أو اللاحقة لها وأصحابها من شهود العيان لأحداث أزمانهم . هذا وتبلغ منابع الحملة فى مجموعها ثمانية وأربعون مصدرا أجنبيا .

وعلى رأس المجموعة الأولى الخاصة بشهود العيان ما كتبه المؤرخ الألمانى أوليفر أف بادنبون Ollver of Padenborn وتاريخ مولده وكذلك مسقط رأسه ليس معروفا لدينا ويعرف أيضا باسم أوليفر المعلم (سكولاستك) Scolastique وقد بدأ أسمه فى الظهور عام ١١٩٦ م عندما كان يعمل شماسا فى كنيسة بادنبورن بالمانيا . وفى عام ١٢٠٠ م عين مدرسا فى مدرسة الكنيسة نفسها وفى العالم التالى أصبح مدرسا فى مدينة كلونى Cologne وفى عام ١٢٠٧ م رحل إلى فرنسا وقضى بها بعض الوقت ثم عاد إلى كلونى مرة

أخرى . وساعد أوليفر فى أعمال مجلس اللاتيران الكنسى Lateran Council الذى عقد فى روما عام ١٢١٥ م وهو المجلس الذى دعى فيه للحملة الصليبية الخامسة موضوع الدراسة . وتوجه أوليفر بعد انتهاء أعمال المجلس إلى المانيا حيث وعظ وبشر للحملة . وفى عام ١٢١٧ م أبحر من مرسيليا مع بعض قوات الحملة فى طريقه إلى الشام حيث وصلها فى يوليو أو أغسطس . وفى العام التالى أبحر مع الحملة إلى دمياط وظل مع الحملة حتى هزيمتها ورحيلها فى خريف ١٢٢١ م ثم نزل فى مدينة عكا وبقى بالامارات الصليبية بعض الوقت حتى إبحر إلى كلونى التى وصلها فى عام ١٢٢٢ م حيث عين أسقفا لكنيسة بادنبون فى الفترة من ١٢٢٤ - ١٢٢٥ م وأسقف كنيسة سابينا Sabini بإيطاليا فى الفترة من ١٢٢٥ - ١٢٢٧ م ، كما تولى ايضا منصب الكاردينالية فى أواخر أيام حياته . ومات أوليفر فى عام ١٢٢٧ بالتحديد فى الفترة من أغسطس حتى التاسع من سبتمبر ودفن فى ايطاليا[1] . وأثناء تواجد الحملة فى مصر عمل أوليفر كاتبا للمندوب البابوى الحملة الكاريتال بلاجيوس Pelagius - لذلك فانه فضلا عن كونه من شهود العيان ، فقد كان ملتصقا بقيادة الحملة ومن هنا تتضح أهمية ما تركه لنا أوليفر من مادة تاريخية تتعلق بأحداث الحملة . والواقع أن أوليفر لم يكتب للحملة فقط فله كتابات تاريخية أخرى . وما يهنا ونحن بصدد التاريخ للحملة خطابين صادرين من أوليفر وهو فى دمياط وكتابه المعروف باسم تاريخ دمياط Historia Damiatana والخطاب الأول[2] موجه من أوليفر إلى إنجلبرت Engelbert رئيس اساقفه مدينة كلونى . وقد كتب هذا الخطاب بعد سقوط مدينة دمياط فى يد الصليبيين (٥ نوفمبر ١٢١٩ م / ٢٥ شعبان ٦١٦ هـ) .

واحتوى هذا الخطاب على معلومات تتعلق بغرق المعسكر الصليبى الذى أقيم فى جيزة دمياط (٢٩ نوفمبر ١٢١٨ م / ٩ رمضان ٦١٥ هـ) ومحاولات

(١) Oliver of Padenboir op. cit., pp. 1-3

(٢) النص الكامل لهذا الخطاب نشره بونجارز باللغة اللاتينية عام ١٦١١ م أنظر :
Bongars, J., Cesta Dei Par Francos, pp. 1185-1192.

الاستيلاء على برج السلسلة ، كما تضمن وصفا لمدينة دمياط وحالة سكانها عندما إستولى عليها الصليبيون ، هذا بالاضافة إلى واقعة قيام المعظم عيسى ملك دمشق (٦١٥ - ٦٢٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧ م) بهدم أسوار مدينة بيت المقدس وأبراجها ، ومعركة الثالث من مارس عام ١٢١٩ / ٤ ذو الحجة ٦١٥ هـ) ورحيل وقدوم بعض القوات الصليبية من وإلى دمياط وأخيرا معركة أكتوبر من العام نفسه (جمادى الثانى ٦١٦ هـ) .

والخطاب الثانى[1] أرسله أوليفر إلى الكامل محمد ملك مصر (٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م) بعد هزيمة الصليبين (٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م) ويشهد هذا الخطاب بالمعاملة الإنسانية التى عامل بها الملك الكامل الرهائن الصليبية ، فقد كان أوليفر نفسه ضمن الرهائن ، هذا بالاضافة إلى حسن معاملة الكامل لكافة جنود الحملة الصليبية بعد هزيمتها . أما كتاب أوليفر «سقوط دمياط »[2] فقد إشتمل على أحداث الحملة منذ قدوم الحملة الهنغارية إلى عكا فى سبتمبر عام ١٢١٧ م وحتى نهاية وقائع أحداث الحملة الصليبية الخامسة وتسليم مدينة دمياط للمسلمين . وقدم أوليفر عرضا طيبا عن أحداث الحملة الهنغارية التى دارت وقائعها فى الشام وأغارة الصليبيين على حصن الطور. وأهم ما قدمه أوليفر الأحداث الخاصة بتجمع الصليبيين فى قلعة الحجاج ثم إبحارهم إلى مصر حيث رست قواتهم فى جيزة دمياط . وأضاف إلى ذلك كافة الأحداث المتعلقة بالمحاولات المتعددة من جانب الصليبيين للاستيلاء على برج السلسلة والمناوشات التى وقعت بين المسلمين والصليبيين ، كما تناول أوليفر المؤمراة التى وقعت فى المعسكر الإسلامى المقام فى العادلية جنوبى دمياط وهروب الجيش الإسلامى وكيف انتهز الصليبيون الفرصة وعبروا إلى الضفة الشرقية للنيل . وسجل لنا أيضا المعارك العسكرية التى وقعت بين المسلمين والصليبيين فى الفترة الواقعة بين عبور القوات الصليبية وحتى سقوط مدينة

(١) قام رهرشت بنشر هذا الخطاب باللغة الألمانية عام ١٨٩٨ م . انظر :
Rohticht, R, Goschichte de Konigreichs. Jerusalem, p. 753.

(٢) نشر هذا الكتاب باللغة الانجليزية تحت عنوان (سقوط دمياط) أنظر ما سبق ص ٢٣ حاشية (١) .

دمياط بما فيها عروض الصلح التى تقدم بها الملك الكامل .

كما وصف لنا الحالة السيئة التى كانت عليها مدينة دمياط عندما دخلها الصليبيون ثم كان من تحويل جامع المدينة إلى كنيسة كاثوليكية للسيدة مريم وتعميد الأسرى خاصة الأطفال منهم . وقدم لنا أوليفر كذلك وصفا ممتازاً عن تحصينات مدينة دمياط وأسوارها وإبراجها وإسراديبها وهو مالم تسجله المصادر العربية ، كما صور لنا أحوال الصليبيين أثناء تواجدهم فى المدينة وحتى الزحف صوب القاهرة، وعرض لنا فى هذه الفترة الفساد الذى أنغمست فيه القوات الصليبية وأحداث سقوط مدينة تنيس والقيمة الاقتصادية لهذه المدينة بالنسبة لإيرادات مصر فى العصور الوسطى . وعرض لنا النشاط العسكرى الذى قام به الملك المعظم ضد بعض القلاع الصليبية فى الشام بغرض التخفيف من الضغط العسكرى على مصر ومغادرة الملك جان دى برين مدينة دمياط إلى عكا ثم إغارة الصليبيين على مدينة البرلس وغير ذلك من الأحداث الهامة التى أفادت جانبا كبيرا من هذا البحث .

أما الفترة التى تبدأ بالتفكير فى الزحف صوب القاهرة وحتى هزيمة الحملة وفشلها فقد قدم أوليفر عرضا حيا لكافة الأحداث المتعلقة بهذه الفترة وإستعداد الجيش الصليبى للتقدم جنوبا إلى المنصورة والبطولات الرائعة التى قام بها المسلمون لوقف تقدم الصليبيين ، كما قدم لنا الأخطاء التى وقعت فيها القوات الصليبية أثناء زحفهم إلى القاهرة ، ولعل أهمها إهمال مصب نهر المحلة وعدم الاهتمام بحراسته بقوات صليبية الأمر الذى سهل للقوات الإسلامية تطويق الجيش الصليبى من الخلف[1] ثم ما كان من أمر فيضان النيل وكسر المسلمين لبعض جسور النيل الذى أغرق المعسكر الصليبى ، واختتم هذه الأحداث بهزيمة الصليبيين وطلبهم الجلاء عن مصر دون قيد أو شرط .

والحق أن اوليفر قدم لنا مادة تاريخية وافية عن أحداث الحملة ضنت بالكثير منها المصادر العربية . ورغم هذا فان ما كتبه أوليفر يظهر فيه التعصب الدينى

(١) أنظر الخريطة رقم (٧) .

بشكل واضح ، كما أنها لا تخلو أيضا من الاساطير . ومما يؤخذ على أوليفر كمؤرخ الاستطراد فى بعض الاحيان وتقديم أو تأخير بعض الاحداث وتكرارها . وأخيرا نقول أن ما كتبه أوليفر بالنسبة لمعاصريه يتسم بالموضوعية إلى حد كبير[1].

وإلى جانب أوليفر توجد رسائل الكاردينال جاك دى فترى Jacques de vitry وقد ولد جاك حوالى عام ١١٨٠ م وتلقى تعليما دينيا ، وتقلد فى شبابه العديد من المناصب الدينية ، وسرعان ما أصبح أحد رجال الدين المرموقين وكان تأثيره على الحركة الصليبية فى بدايات القرن الثالث عشر الميلادى لا يقل عن تأثير بطرس الناسك Peter the Hermit فى زمانه ، وكان أيضا من الداعين للحملة الالبيجنسية التى قامت فى جنوب فرنسا ، كما بشر ووعظ ودعا فى فرنسا للحملة الصليبية الخامسة ، وكرس حياته لإعادة تعزيز الوجود الصليبى فى الأرض المقدسة .

وقد حضر إجتماعات مجلس اللاتيران الكنسى شأنه فى ذلك شأن زميله أوليفر . وفى عام ١٢١٦ م عين أسقفا لمدينة عكا ، وصاحب الحملة المنغارية فى هجومها على ممتلكات المسلمين بالشام عام ١٢١٧ م ، وصاحب جاك الحملة الصليبية من بدايتها حتى نهايتها عام ١٢٢١ م ، ثم عاد إلى عكا وظل مقيما بها حتى عام ١٢٢٧ م ثم عاد إلى روما . وشغل جاك بعد ذلك عديدا من المناصب الدينية منها وظيفة الكاردينالية وممثلا للبابا فى كل من فرنسا والمانيا ، وأخيرا عين بطريقا (اسميا) لمدينة بيت المقدس ولكنه توفى فى نهاية أول مايو عام ١٢٤٠ م قبل أن يتسلم مقاليد هذا المنصب[2].

وفضلا عن كون جاك دى فترى من شهود العيان ، فقد كان أيضا رجل الدين الثانى ويلى المندوب البابوى فى الحملة ، وكان يرسل التقارير من دمياط

(١) Runciman, A Hiotory of the Crusades, III, P. 484.

(٢) Vitry, op. cit., I, Hiatory of Jerusalem, pp. III- IV.

تباعا إلى البابا هونوريوس الثالث Honorius III (١٢١٦ – ١٢٢٧ م) . وبلغ مجموع هذه التقارير سبع رسائل خمس منها كانت أثناء تواجد الحملة فى مصر فقد كانت الرسالة الأولى مؤرخة فى أوائل أكتوبر ١٢١٦ م ، والثانية فى ربيع ١٢١٧ م ، والثالثة فى أغسطس ١٢١٨ م ، والرابعة فى سبتمبر ١٢١٨ م ، والخامسة فى سبتمبر ١٢١٩ م ، والسادسة فى ربيع ١٢٢٠ م ، والسابعة فى الثامن عشر من ابريل ١٢٢١ م ، ولازال هناك دراسات حول التحديد الدقيق لتواريخ هذه الرسائل التى نشرت أخيرا بلغتها الأصلية وهى اللاتينية فى عام ١٩٦٠ م[١] .

وتتمتع هذه الرسائل بأهمية بالغة ، ذلك أن كاتبها حضر الاجتماعات الرسمية الخاصة بالحملة قبل وصولها إلى مصر ، كما أن هذه الوثائق تحمل فى طياتها صفة الوثائق الرسمية لكونها تقارير كانت ترسل تباعا من شخصية رسمية إلى البابوية فى روما . وتعتبر هذه الرسائل ثقة فى تاريخ الحملة نظرا للمعلومات القيمة التى وردت بها واشتملت على العديد من تفاصيل وأحداث الحملة منذ قدومها إلى مصر ورسوها فى جيزة دمياط ، وتفاصيل الغارات المتتالية التى شنها الصليبيون حتى سقوط برج السلسلة وعبور الصليبيين للضفة الغربية للنيل . كما تناولت أيضا الأحداث التى وقعت بعد ذلك خاصة حادثة الثامن والعشرين من أغسطس عام ١٢١٩ م (١٥ جماد ٦١٦ هـ) ، ثم تفاصيل سقوط مدينة دمياط وما تلاهما من وقائع كتحويل جامع دمياط إلى كنيسة كاثوليكية وتعميد الاطفال وتوزيع الغنائم وسقوط قلعة مدينة تنيس ، وربطها بمطرانية دمياط . كما عالجت موضوع رحيل الملك جان دى برين وبعض الصليبيين من دمياط والأسباب الكامنة وراء هذا التصرف والنتائج التى ترتبت على ذلك ، وكذلك الفساد الذى تردت فيه القوات الصليبية أثناء تواجد الحملة داخل المدينة ، والتحصينات التى أقامها الصليبيون شرقى وغربى دمياط كما أنه تناول فى خطاباته إقامة الملك الكامل وعساكره فى المنصورة والكمائن التى كان ينصبها

---

(١) أنظر ما سبق ص٢٣ حاشية (١) .

المسلمون للصليبيين وجهود الكامل والمعظم فى إقلاق مضاجع الفرنج بمصر والشام . وتعرض جاك دى فترى لموضوع ظهور المغول وقتذاك وما له من أثر على موقف كل من المسلمين والصليبيين ، ويؤخذ على هذه الرسائل أنها غير مسلسلة الحوادث ففيها تقديم وتأخير وتكرار فى بعض الاحيان كما أنها لم تتناول المراحل الأخيرة من الحملة التى تبدأ بالزحف صوب القاهرة حتى هزيمتها والاستسلام . ويتضح من هذه الرسائل أن كاتبها كان متعصبا لديانته ومذهبه فقد كان من الذين نادوا بكثلكة الشرق الادنى الإسلامى .

وبالاضافة إلى رسائل الكاردينال جاك دى فترى الذى امدنا بمادة دسمة فى موضوع الحملة مؤلفه المعروف باسم « تاريخ الشرق » Hostoria Orientales الذى تناول فيه أحوال الشرق بصفة عامة مع الاشارة إلى مدنه وموانية والطرق التجارية وأهمية المدن المصرية من هذه الناحية . وقد استفاد الباحث مما ورد فيه عن مدينة دمياط إذ تعرض لبعض أحداث الحملة خاصة وصف برج السلسلة وأسوار مدينة دمياط وحالة المدينة بعد سقوطها فى ايدى الصليبيين .

وإذا كان ما كتبه جاك دى فترى يصل بأحداث الحملة إلى نقطة تقدم القوات الصليبية من دمياط فكان على الباحث أن يبحث عن شاهد عيان آخر يستكمل من كتابته بقية أحداث الحملة حتى يمكن مقارنتها بما كتبه أوليفر وحتى لا يعتمد الباحث فى هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ مصر القومى على وجهة نظر أوليفر فقط ، وقد عثر الباحث على ضالته المنشودة فى خطابين يتميزان بأهمية بالغة لانهما ينتسبان إلى بطرس أف مونتاجو Peter of Montagu رئيس جماعة الفرسان الداوية ١٢٢٠ م – ١٢٢٩ م وأحد شهود العيان ، وكان أيضا ضمن الرهائن الصليبية لدى الملك الكامل فى المرحلة الاخيرة من الحملة . والخطاب أرسله بطرس عقب إطلاق سراحه مباشرة فقد أرخ فى سبتمبر عام ١٢٢٢ م وهذا الخطاب مرسل إلى أسقف اليمونيوم Elimenum وعنوانه « أحوال الأراضى المقدسة بعد سقوط دمياط » وأهمية هذا الخطاب يرجع إلى أن بطرس كان فى دمياط وغادرها إلى عكا مصاحبا للملك جان دى برين ، وظل بها فترة من الوقت تبدأ من التاسع والعشرون من مارس

١٢٢٢ م[١] . وتناول بطرس فى هذا الخطاب أخبار سقوط دمياط وتنيس ، والإمدادات الصليبية فى حوض البحر المتوسط والضائقة المالية التى عانتها الحملة ، وقيام الملك المعظم بالهجوم على الممتلكات الصليبية فى الشام وأمل الصليبيين فى وصول الإمبراطور الالمانى فريدريك الثانى Frederick II (١٢١٢ - ١٢٥٠ م) للحاق بالحملة لقيادتها .

أما الخطاب الثانى فقد أرسله بطرس إلى حد رفاقه ويدعى مارتل martel وعنوان هذا الخطاب « ضياع دمياط » ، وإشتمل على أحداث مجلس الحرب الذى عقده المندوب البابوى وبعض القادة الصليبيين الذى تقرر فيه الزحف على القاهرة . كما تضمن أيضا عودة الملك جان دى برين من عكا إلى دمياط ، وتقدم القوات الصليبية وإقامتها قبالة المنصورة وبحر أشمون يفصل بينهم وبين المعسكر الإسلامى ، وسجل فيه كذلك تمرد بعض الصليبيين أثناء الزحف وعودتهم إلى دمياط ثم قيام المسلمين بكسر الجسور وإغراق المعسكر الصليبى ووصول هنرى Henry كونت مالطة إلى دمياط وإنضمامه إلى رفاقه الصليبيين الذين رفضوا الاستسلام للمسلمين . وقد ذيل هذا الخطاب بالمعاملة الإنسانية التى عامل بها الملك الكامل القوات الصليبية بعد هزيمتها ، وعقد الهدنة بين الطرفين،فقد كان هو الآخر ضمن الرهائن الصليبية . وأخيرا جلاء القوات الصليبية عن دمياط .

وفى ختام المجموعة الخاصة بشهود العيان ترد الخطابات الأربعة الصادرة من بعض رجال الدين وقادة الحملة اثناء تواجدهم ؛ دمياط للبابا هونوريوس الثالث وإلى بعض الشخصيات الأوربية.والخطاب الأول منها مؤرخ فى الخامس عشر من يونيو عام ١٢١٨ م أى بعد رسو الحملة فى جيزة دمياط بأسبوعين تقريبا ، والثانى والثالث والرابع مؤرخة فى العاشر والحادى عشر والثانى عشر على التوالى من شهر نوفمبر عام ١٢١٩ م ، أى أن الثانى مؤرخ بعد خمسة أيام فقط من تاريخ سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين . وتناولت هذه الخطابات

(١) Vitry, op. cit. p. 136

رسو الحملة فى جيزة دمياط وعرض الصلح الذى تقدم به الملك الكامل وبعض الأحداث التى سبقت سقوط مدينة دمياط ثم سقوط المدينة فى أيدى الصليبيين وحالتها عند استيلاء الحملة عليها ، هذا بالاضافة إلى طلب النجدات من البابا وحثه على إرسال الإمبراطور فريدريك للحاق بالحملة فى دمياط ثم أخبار تخريب أسوار مدينة بيت المقدس . ولهذه الخطابات أهمية تاريخية عظيمة لما حوته من معلومات عن الحملة رغم إنطباعها بالطابع الدينى كما أنها تؤيد بعض الأحداث التى رواها شهود العيان الآخرين[1] .

أما المجموعة الثانية من المصادر الأجنبية فهى الخاصة بالمعاصرين من غير شهود العيان فيتصدرها الخطاب الذى أرسله فيليب أف البنى Philip of Albeney إلى رالف إيرال شيستر[2] Ralph Earl of Chester . وفيليب هذا هو أحد الفرسان الإنجليز والمعلم المخلص للملك هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) . واستلقى المعلومات التاريخية التى وردت فى خطابه أثناء إبحاره فى البحر المتوسط بالقرب من دمياط وهو فى طريقه إلى الأراضى المقدسة عندما شاهد سفنا عديدة تغادر ميناء دمياط وتحدث مع أحد البحارة واستقى منه بعض المعلومات التى تتعلق بزحف الصليبيين من دمياط صوب القاهرة وهزيمتهم وعقد الهدنة وتبادل الرهائن وتسليم دمياط . ولما كانت هذه المعلومات مسجلة بعد الهزيمة مباشرة لذلك تتضح أهميتها التاريخية والتى ترقى إلى حد كبير إلى ما دونه شهود العيان .

ويلى ذلك ما كتبه روجر أف وندوفر Roger of Wendover باسم « زبدة التاريخ » Flowers of History ويشتمل هذا المؤلف على تاريخ الفترة الممتدة من سنة ٤٤٧ إلى سنة ١٢٣٥ م وقد تعرض فيه لأحداث الحملة موضوع الدراسة

(١) نشر رهرشت هذه الخطابات باللغة اللاتينية عام ١٨٩٢ م أنظر :
Rohricht. Funtten Kreuzzuges, pp. 39- 46.

(٢) جاء رالف إلى دمياط فى خريف عام ١٢١٨ م مع الامدادات التى أتى معها بلاجيوس وانظم إلى صفوف الحملة وظل بدمياط حتى ربيع عام ١٢٢١ م أنظر :
Roger of Wendover, Flowers of History, II, pp. 411- 2

وهو ينقل معظمها من أوليفر وجاك دى فترى ، لذلك تمتع هذا المصدر بأهمية كبرى خاصة أنه أورد بعض التفاصيل التى لم يرد ذكرها عند المؤرخين السابقين . وقد استفاد الباحث مما كتبه روجر خاصة المعلومات الخاصة برحيل القوات الصليبية من أوربا إلى الشرق ومساعدة بعض الصليبيين لإخوانهم ضد المسلمين فى أسبانيا كما تعرض أيضا للامدادات التى وصلت إلى دمياط فى سبتمبر ١٢١٨ م وعلى رأسها الكاردينال بلاجيوس ، هذا بالإضافة إلى الأمراض الجلدية التى انتشرت بين القوات الصليبية فى شتاء العام نفسه . ويؤخذ على هذا المصدر أنه انتهى بحوادث الحملة عند سقوط مدينة دمياط وتنيس ، ولكنه استطاع أن يكملها بنصوص الخطابين الخاصين ببطرس اف مونتاجو وكذلك الخطاب الخاص بفيليب أف البنى . والملاحظة أنه يؤرخ الأحداث على الطريقة السنتين شأن معاصريه لذلك جاءت أحداث الحملة غير مترابطة ومتداخلة مع غيرها من الأحداث .

ومن هذه المجموعة أيضا تاريخ هرقل[1] Eracles ويعتبر هذا المصدر أيضا ثقة فى تاريخ الحملة الصليبية الخامسة . فقد وردت به معلومات وتفاصيل لم ترد فى المصادر السابقة خاصة تفاصيل مهاجمة المسلمين لممتلكات الصليبيين فى الشام أثناء تواجد الحملة فى دمياط ، بالإضافة إلى تفاصيل عودة الملك جان دى برين من دمياط إلى عكا ومشكلة الوراثة فى أرمينية ، والميزة الخاصة التى يتمتع بها هذا المصدر هو ذكره لأسماء كبار الشخصيات التى اشتركت فى أحداث الحملة . ويلاحظ على تاريخ هرقل تحامله على المندوب البابوى إلى حد ما وعدم الدقة فى ذكر تاريخ الأحداث خاصة سقوط مدينة دمياط فى أيدى الفرنج ، كما أنه أخطأ عندما ذكر أن المسلمين طوقوا الصليبيين من الشمال ببعض السفن

---

(١) منشور اللغة الفرنسية القديمة فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية R. H. C. وهو من تذييلات وليم الصورى ولم يعرف كاتبه . ففى حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى قام أحد رجال ملك فرنسا بترجمة كتاب وليم الصورى وأضاف اليه ما عرف باسم تاريخ هرقل . وقد سمى بهذا الاسم لأن بداية الكتاب تبدأ بكلمة الامبراطور هرقل أنظر :

Runsiman, op. cit., 1, P. 477, III, P. 482.

التى أبحرت من رشيد ثم دخلت فى فرع دمياط من الشمال.والواقع أن المسلمين أحاطوا بالقوات الصليبية عندما أبحرت السفن الإسلامية من بحر المحلة جنوبا وإتجهت شمالا وخرجت من مصبة المواجه لشارمساح[1] .

وإلى جانب ذلك يوجد تاريخ بطارقة بيت المقدس الذى تضمن بعض المعلومات عن رجال الدين اشتركوا فى أعمال مجلس اللاتيران الكنس وفى الحملة نفسها . وكذلك تاريخ الأرشيف اللاتينى لقبرص وتاريخ البطارقة اللاتين لأنطاكية ، وإلى جانب ذلك يوجد تاريخ بطارقة بيت المقدس الذى تضمن بعض المعلومات عن رجال الدين إشتركوا فى أعمال مجلس اللاتيران الكنس وفى الحملة نفسها . وكلها تضمنت بعض المعلومات الهامة عن نشاط الأساقفة فى الاعداد للحملة ، ثم حوليات الاراضى المقدسة التى تعتبر مصنفا مختصراً لتذيلات وليم الصورى .

يضاف إلى هذه المجموعة أيضا النصوص الخاصة بقرارات مجلس اللاتيران الكنسى والخطاب الذى أرسله البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) فى سنة ١١٩٨ م إلى شعب البندقية بغرض تحريم الاتجار مع المسلمين ، والخطاب الذى صدر منه أيضا إلى البارونات الانجليز فى عام ١٢١٦ م يطالبهم فيه ببذل الولاء والطاعة للملك الانجليزى حنا . وكذلك التقرير الذى أرسله بطريق بيت المقدس إلى البابا انوسنت الثالث عام ١٢١٤ م الذى تناول فيه بعض المعلومات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية عن مصر وخطاب بيقولا الأول بطريق الروم الكاثوليك بالاسكندرية إلى البابا هونوريوس الثالث فى عام ١٢٢٢ م يطالبه فيه بارسال الامبراطور فريدريك الثانى لغزو مصر عن طريق فرع رشيد ، والوعد الذى قطعه فريدريك على نفسه باذلا فيه الولاء للبابا انوسنت الثالث . وتنتهى هذه المجموعة بما كتبه بول أويجلر Paul wiegler باسم « الامبراطور المهرطق » The Infidel Imperor وقد تناول فيه موقف الامبراطور من الحملة ومعاقبته لهنرى كونت مالطة - الذى

(١) أنظر الخريطة رقم (٧) .

وصل إلى دمياط عقب استسلام الصليبيين – على سوء تصرفه .

والمجموعة الثالثة الخاص بالمصادر الأجنبية هي المصادر المتأخرة زمنيا عن الحملة ثم كتب الرحالة . أما المصادر المتأخرة فأهمها ما كتبه متى أوف وستمنستر[1] Matthew of Westminester باسم « زبدة التاريخ » The Flowers of History الذى تنتهى حوادثه بعام ١٣٠٧ م . وما كتبه الرحالة فلكس فابرى[2] Felex Fabri باسم « كتاب الترحال » The Book of wandering الذى تنتهى حوادثه حوالى عام ١٤٨٣ م . وكلاهما تناول احداث الحملة باختصار . يضاف إلى ذلك ما كتبه بعض الرحالة الذين كتبوا عن بلاد الشام وأوصافها وهم بروكارد[3] Bruchard الذى سجل مشاهداته فى عام ١٢٨٠ م ، وما سجله مارينو سانوتو[4] Marino Sanoto فى عام ١٣٢١ م ؛ وما دونه ليودلف

---

(١) ينسب إلى مقاطعة وستمنستر فى انجلترا ، وكان أحد الرهبان البندكتيين ، وقد ذاع صيته مع مطلع القرن الرابع عشر الميلادى . وهو يعتمد فى تاريخه هذا على ما كتبه روجرلوف وندوفرومى الباريسى اللذين عاشا فى القرن الثالث عشر الميلادى ويعتبر بلا منازع من أعظم مؤلفى عصره ، ويستحق بجدارة الشهرة التى اكتسبها بين غيره من المؤرخين . أنظر :
Matthew of Westminster, The Flowers of History, I, PP. I- III.

(٢) عاش فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وكان أحد أفراد جماعة الدمنيكان . وقد زار الأرض المقدسة مرتين كانت الأخيرة منها فيما بين عامى ١٤٨٠ ، ١٤٨٢ م . وقد دون كتابه فى عام ١٨٨٤ م وفاء بوعد كان قد قطعه على نفسه أمام أحد رفاقه ، أنظر :
Fabri, F, The Book of Wandering, Vol. I, Part 1, P. I.

(٣) هو بروكارد الصهيونى Bruchard of Mount sion ، وهو ألمانى الأصل وعاش فى القرن الثالث عشر الميلادى . وقد قدم إلى الشرق عام ١٢٣٢ م . وزار مصر وسوريا ودون مشاهداته عام ١٢٨٠ م . أنظر :
Bruchard, A Description of the Holy land, PP. III-1V.

(٤) ويسمى أيضا مارينو سانودو Sanudo ويرجع أصله إلى احدى العائلات النبيلة فى البندقية وقد زار الشرق وسجل مشاهداته منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى حتى عام ١٣٢١ م . أنظر :
Marino Sanuto, Secrets for True Ciusaders, pp. III-1V.

فون سوكيم[1] Ludolph Von Suchem عام ١٣٥٠ م .

وتأتى بعد ذلك المجموعة الرابعة الخاصة بالمصادر التى تتحدث عن الحواد السابقة للحملة أو اللاحقة لها . والسابق منها يتصدرها ما كتبه جاك دى فتر . باسم « تاريخ بيت المقدس » The History of Jerusalem وما كتبه وليم الصورى[2] باسم « تاريخ الاعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر -- (Historia Renum in Partjbus) هذا بالاضافة إلى ما كتبه ريتشارد أوف ديفزس[3] Richard of Devizes وجودفرى دى فينسوف[4] Geoffrey de Vinsauf عن حملة ريتشارد قلب الأسد عام ١١٩١ -- ١١٩٢ م (٥٨٧ ٥٨٨ هـ) ، وما سجله روبرت كلارى عن سقوط القسطنطينية . وتنتهى هذه

---

(١) كان ليودلف قسيسا فى كنيسة سوكيم التابعة لأسقفية بادنبورن بالمانيا . وقد زار الأراضى المقد... فى الفترة من ١٣٣٦ - ١٣٤١ م ، وسجل مشاهداته فى عام ١٣٥٠ م . أنظر :
Ludolphe von Suchem, Description of The Holy Land, P. III.

(٢) ولد وليم الصورى فى بيت المقدس حوالى عام ١١١٠ م . ويبدو أنه نشأ فى بيت المقدس نفسها ، وكان يتقن اللغات اللاتينية والفرنسية والعربية فضلا عن المامه بالعبرية والفارسية واليونانية ، وقد عمل منذ حياته المبكرة فى السلك الكنسى وأصبح أحد رجال الكهنوت التابعين لرئيس أساقفة صور . وقد ارتبط بخدمة الملك عمورى الأول ملك مملكة بيت المقدس (١١٦٢ - ١١٧٣ م) الذى كلفه بكتابه تاريخه ، وعينه عمورى رئيسا لشمامسة كنيسة صور . وقد قام الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق بعمل دراسة تحليلية عن وليم الصورى تعتبر فى غاية الأهمية يضيق المقام هنا عن ذكرها . أنظر : عمر كمال توفيق : المؤرخ وليم الصورى ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد ٢١ (سنة ١٩٦٧) ص ١٨١ - ٢٠٠ .

(٣) لا نعرف الكثير عن حياته ، غير أنه كان من معاصرى ريتشارد قلب الاسد ملك أنجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩ م) وكان راهبا فى مقاطعة ونشستر . أنظر حوليه المؤرخ فى :
Chronicles of The Crusades (ed. Bonn. S) London 1848, p. III.

(٤) من عائلة نورمانيه ولكنه أنجليزى المولد وله مؤلفات عديدة أهمها الكتاب الذى رجع اليه الباحث ، وكان معاصرا وشاهد عيان لحملة ريتشارد على الشام . أنظر :
Chronicles of The Crusades, pp. III-V.

المجموعة بالخطاب الذى وجهه الكاهن يوحنا فى عام ١١٥٥ م إلى الامبراطور البيزنطى مانويل (١١٤٣ – ١١٨٠ م) والخطاب الذى وجهه البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ – ١١٨١ م) عام ١١٧٧ م إلى الكاهن يوحنا . أما المصادر التى أرخت للحوادث التالية للحملة ورجع اليها الباحث واستفاد منها فأهمها كتاب جوانفيل[١] Joinville عن حملتى لويس التاسع على مصر والشام ، هذا بالاضافة إلى ما دونه متى الباريسى[٢] Matthew Paris عن تاريخ انجلترا فى الفترة من ١٢٣٥ إلى سنة ١٢٧٣ م . وقد أمدت هذه المصادر الباحث بالمعلومات التاريخية خاصة بالأحداث السابقة للحملة والتى تعتبر من مقدماتها وكذلك بالنسبة لبعض نتائج هذا البحث ويبدو أثرها جليا فى ثنايا الكتاب.

---

(١) ولد جان دى جوانفيل حوالى عام ١٢٢٤ م . وكان أكبر أولاد والده سيمون حاكم جوانفيل وقد خلف والده فى حكمها ، ثم أصبح بعد ذلك حاكم شامبانيا . وقد كان هو أيضا أحد فرسان الملك لويس التاسع أثناء حملتيه على كل من مصر وسوريا فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى . وقد عرف بالدقة والصدق فيما يكتب.عن ذلك ومزيد من التفاصيل أنظر :

Joinville, Memoires of Louis JX, King of France, cf. Chronicles of the Crusades pp. 344-9.

وقد قام الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف بمزيد من التعريف بهذا المؤرخ والظروف التى دون فيها سيرة سيده لويس التاسع وبعض الجوانب الأخرى . أنظر : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٤ - ٥ ، العدوان الصليبى على الشام ص ٣ – ١٦ .

(٢) من كبار كتاب القرن الثالث عشر الميلادى . ولا نعرف شيئا عن تاريخ ميلاده أو سنى حياته الأولى . وقد انخرط فى سلك الرهبنة فى ٢١ يناير ١٢١٧ م . واشتهر بحكمته وعدالته ، وكان واسع الاطلاع غزير الثقافة أمينا منصفا فيما يكتب . ويبدأ تاريخه من عام ١٢٣٥ وينتهى عام ١٢٥٩ م وهى السنة التى مات فيها المؤلف واكمل هذا التاريخ حتى سنة ١٢٧٣ م راهب بدير القديس البنى بانجلترا يدعى وليم ريشانجيه عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر :

Matthew of Westminester, op. cit., II 316 - 7, Matthew Paris, English History V- VII.

أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على الشام ص ١٩ – ٢٢ .

هذا فيما يتعلق بالمصادر الأجنبية المعاصرة والمتأخرة ، أما المصادر العربية فأهمها على الاطلاق هو « تاريخ بطارقة الاسكندرية »[1] . وقد ورد فى قصة الكنيسة القبطية أن كاتبه هو أبو شاكر بن الراهب أبو بطرس بن المهذب شماس كنيسة السيدة العذراء الشهيرة بالمعلقة[2] . وهذا يعني أن كاتبه كان مقيما بمصر أثناء تواجد الحملة فى دمياط . والواقع أن تاريخ البطارقة يعتبر الحجة الأولى بلا منازع فى المصادر العربية التى أرخت للحملة . والمتصفح لصفحاته يلاحظ أن كاتبه كان ملتصقاً بالحوادث التصاقا وثيقا . فانه علاوة على ما ذكره من وقائع الحملة ، أورد وصفا دقيقا للقلعة العائمة التى شيدها الصليبيون للاستيلاء على برج السلسلة وكذلك وزن سلسلة البرج التى تتصل بالمدينة ، والغارة التى قام بها الصليبيون أثناء إقامتهم فى جيزة دمياط يوم الجمعة (٢٢ يونيه ١٢١٩ م / ٢٦ ربيع أول ٦١٥ هـ) وغارة يوم الأحد (١ يوليو ١٢١٨ م / ٥ ربيع ثانى ٦١٥ هـ) . كما أنه أشار إلى العواصف التى اجتاحت المعسكرين الإسلامى والصليبى يوم (٢٩ نوفمبر ١٢١٨ م — ٩ رمضان ٦١٥ هـ) وأثرها على المعسكرين ، وحادثة أحد السعف (٣١ مارس ١٢١٩ هـ / ١٣ محرم ٦١٦ هـ) أثناء حصار الصليبيين لدمياط ، وكذلك نشاط صفى الدين بن شكر فى إعداد المال والرجال لمواجهة القوات الصليبية. هذه وتلك من المعلومات التى لم ترد فى بعض المصادر الأجنبية أو العربية الأخرى مما يضفى على الكتاب أهمية خاصة . ونذكر منها على سبيل المثال أنواع الأطعمة التى قدمت للرهائن الفرنج وكذلك أسماء بعض الشخصيات الإسلامية التى قدمت كرهائن للصليبيين . هذا فضلا عن الحديث الذى دار

---

(١) يبدأ هذا التاريخ بعهد القديس مرقص وينتهى باحداث عام ١٢٦١ م ، وتوجد نسخة من الكتاب بمكتبة الفاتيكان باللغة العربية مع ترجمتها اللاتينية . انظر : ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ٣ ص ٢٤٦ . وقد قام بلوشيه Blochet بنشر الجزء الخاص بالحملة باللغة الفرنسية الحديثة وهو النص الذى رجع اليه الباحث . انظر :

Revue de L'Orient Latin, Vol XI, pp. 242 - 260

(٢) ايريس حبيب المصرى : المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ .

بين الملك الصليبي والمندوب البابوى للحملة الذى أنب فيه الملك المندوب البابوى باعتباره السبب فى الهزيمة التى لحقت بالحملة . ويؤخذ عليه بعض الأخطاء التى وقع فيها،منها ما ذكره من أن الملكة زوجة الملك جان دى برين كانت ضمن الرهائن الصليبية بينما كانت هذه الملكة قد ماتت منذ أكثر من عام . ورغم ذلك فان تاريخ البطارقة يعتبر أكثر المصادر العربية أسهابا فى سرد أحداث الحملة ووقائعها وأكثرها دقة فى ذكر تواريخ هذه الوقائع والأحداث .

وإلى جانب تاريخ البطارقة يوجد خمسة من المؤرخين المعاصرين هم إبن الجوزى وأبو شامة وإبن الأثير وإبن واصل وإبن خلكان . ويلاحظ على هذه المصادر جميعها إنها تناولت الحوادث الرئيسية للحملة فقط مع بعض التفصيلات البسيطة التى لا تغطى أحداث الحملة ، بينما مرت مر الكرام على كثير من وقائع الحملة التى لو كانت قد امدتنا بها لزودتنا بمادة قيمة لا يمكن تجاهلها .

فابن الجوزى[1] (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٥ م) صاحب كتاب « مرآة الزمان » كان صديقا للملك المعظم صاحب دمشق ، وقد حضر إلى دمياط وشاهد جانبا من أحداث الحملة ، كما كلف باعداد بعض الامدادات فى الشام وأرسلها إلى مصر . وخير ما ورد به تفاصيل الحوادث التى وقعت بالشام وأحوال البيت الأيوبى ابان الحملة على مصر ، بالاضافة إلى تفاصيل مؤامرة إبن المشطوب التى لم ترد فى غيره من المصادر .

---

(١) هو شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى، ولد عام ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م فى بغداد وكان أبوه معبدا تركيا . ودرس فى مسقط رأسه ثم شرع فى الرحلة منذ اوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وأصبح فى آخر الأمر مدرسا وكاتبا بدمشق . أنظر : أبو المحاسن : المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٥ وزنه ٥٨٩ – ٥٩١ . انظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على الشام ص ٣٤ حاشية ١ ، حاجى خليفة : كشف الظنون جـ ٢ ص ١٦٤٧ – ١٦٤٨ .

ويلازم إبن الجوزى أبو شامة[1] (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) ولم يأت أبو شامة فى كتابه « الذيل على الروضتين » بجديد أكثر مما ذكره إبن الجوزى إذ يلاحظ أنه نقل عنه . ولكنه مع ذلك امدنا بمعلومات طيبة عن غارة الصليبيين على البرلس (يوليو ١٢١٩ م / جمادى الأولى ٦١٧ هـ) ، إلا أنه صور عدد القتلى الصليبيين فى هذه الموقعة بصورة مبالغ فيها .

أما ابن الأثير[2] (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) فقد تعرض لحوادث الحملة فى كتابه « الكامل فى التاريخ » وقد تناول خطوطها العريضة شأنها فى ذلك شأن المصدرين السابقين . وخير ما ورد به الوصف الذى صور به الفزع الذى انتاب العالم الإسلامى من جراء تواجد الصليبيين فى دمياط والتتار فى الشرق الإسلامى وكذلك موقف العربان فى مصر من الحملة ومن القوات الإسلامية ، والفرح الذى عم العالم الإسلامى بعد هزيمة القوات الصليبية .

وإلى جانب ابن الاثير يقف إبن واصل[3] (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) فقد ورد فى مؤلفه « تاريخ الواصلين » المنشور جزء منه تحت اسم « مفرج

---

(١) هو عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان بن أبى بكر بن ابراهيم بن محمد المقدسى . ولد بدمشق سنة سنة ٥٥٩ هـ / ١٢٠٣ م . ويعرف بأبى شامه لوجود شامه على حاجبه الأيسر . و' عدة مؤلفات أهمها الروضتين فى أخبار الدولتين و « الذيل على الروضتين » الذى نشره عزت العطار تحت اسم « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » وهى نشره غير محققة . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : الكتبى : فوات الوفيات جـ ١ ص ٢٥٧ – ٢٥٩ ، جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٣٤ حاشيه (٢) ، يوسف سركيس : معجم المطبوعات العربية جـ ١ ص ٣١٧ .

(٢) هو أبو الحسن على بن أبى الكرم الملقب بعز الدين والمعروف بابن الأثير ولد عام ٥٥٥ هـ / ١١٦١ م فى جزيرة ابن عمر ونشأ بها وصار إلى الموصل وأهم مؤلفاته « الكامل فى التاريخ » . انظر : ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ٤٩٤ – ٤٩٥ .

(٣) هو جمال الدين أبو عبد الله بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل قاضى حماه . ولد عام ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧ م . وله مؤلفات كثيرة لعل أهمها « تاريخ الواصلين » وكان عمره إحدى عشر سنة عندما قدمت الحملة إلى دمياط . أنظر : السيوطى : بغيه الوعاء ص ٤٤ ، جمال الدين =

الكروب فى أخبار بنى أيوب » وقائع الحملة ، وقد نقلها عن إبن الاثير إذ كان صغير السن أثناء تواجد الحملة فى مصر . ولكنه زاد عليها بعض التفاصيل منها موقف الأمير شجاع الدين من الملك الكامل والصليبيين عند إستلامه مدينة دمياط ، عندما رفض الانصياع لأوامر الكامل وتلبية طلب الصليبيين وتمسكه بموقفه ورفضه تسليم الصوارى للقوات الصليبية عند جلائها .

ويختتم هذه المجموعة من المؤرخين العرب المعاصرين ابن خلكان[1] (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) . وتنحصر قيمة روايته عن الحملة فى مؤلفه « وفيات الأعيان » فقد جاء فى ثناياه ترجمته لبعض رجال عصره البارزين ، وعلى رأسهم العادل والكامل والافضل والاشرف والعزيز وهم الملوك الايوبيون الذين حركوا حوادث الحملة والاحداث السابقة واللاحقة لها.وقد جاء فى ثنايا هذه التراجم معلومات قيمة أفدنا منها كثيراً .

ويأتى بعد هؤلاء طائفة من الشعراء والآباء على رأسهم البهاء زهير (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) . وابن مطروح (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) وابن النبيه (٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م) ، وقد صوروا لنا ابتهاج المسلمين بالنصر على الصليبيين والفرح الذى عم العالم الإسلامى ابتهاجا بهذا النصر .

ويلى تلك المصادر التى اكتفى الباحث بذكرها فى هذا الموضع ، بعض المصادر الأخرى عاش أصحابها فى القرن الثامن الهجرى نذكر منها ، ذيل مرآة الزمان » (مخطوط) لليونينى (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٣٦ م) ، و « درر التيجان » و « كنز الدرر » (مخطوطان) لإبن أيبك (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م)

= الشيال : مفرج الكرب جـ ١ ص ٤ وما بعدها . وقد نشر تاريخه هنا حتى عام ٦١٥ هـ الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ويقع فى ثلاثة أجزاء ، أما الرابع الذى ينتهى بحوادث عام ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م فقد حققه الدكتور حسنين محمد ربيع تحت اشراف الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور وقد نشره دار الكتب عام ١٩٧٢ م .

(١) عن ابن خلكان أنظر : الكتبى : فوات الوفيات جـ ١ ص ٥٥ – ٥٩ .

و « نهاية الارب » (مخطوطة) للنويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٢٣٢ م) ، و « تاريخ أبى الفدا » و « تقويم البلدان » لأبى الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) ، و « تتمة المختصر » لابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) ، و « دول الإسلام » للحافظ الذهبى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٦٨ م) ، و « فوات الوفيات » للكتبى (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) ، و « البداية والنهاية » لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) .

ومن أهم المؤلفات التى تعرضت لحوادث الحملة فى القرن التاسع الهجرى « تاريخ الدول والملوك »[1] لإبن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) ، وكتاب « العبر » لإبن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٤ م) ، و « الخطط » للمقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) ، وكتاب « النجوم الزاهرة » و « المنهل الصافى » (مخطوط) لأبى المحاسن بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) ، و « فتوح النصر » (مخطوط) لابن بهادر (عاش فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) .

وبالإضافة إلى هذه المصادر توجد بعض المصادر الأخرى المتأخرة التى خدمت جانبا من هذا البحث أو زاوية من زواياه . كما اعتمدنا فى هذا البحث على بعض المصادر التى سجلت أخبار الحوادث السابقة للحملة باعتبارها المدخل الطبيعى لها ، وقد اعتمد عليها الباحث فى المقدمة أو بعض تفسيرات أخرى . ومن هذه المصادر « الديارات للشابشتى (ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) ، و « ذيل تاريخ دمشق » لابن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) ، و « أخبار مصر » لابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) ، و « تاريخ

(١) رجع الباحث إلى الجزء المنشور منه ابتداء من حوادث عام ٥٦٤ هـ حتى عام ٦١٥ هـ . وقد نشره الدكتور حسن محمد الشماع وساعدت جامعة البصرة على طبعه . وقد صدر تحت اسم (تاريخ ابن الفرات) ، والمجلد الرابع جـ ١ ويحوى الفترة من ٥٦٣ إلى ٥٨٦ هـ ، وقد طبع عام ١٩٦٧ م والجزء الثانى ويحوى الفترة من ٥٨٧ هـ إلى ٥٩٩ هـ وقد طبع عام ١٩٦٩ ، والجزء الخامس جـ ١ ويبدأ من حوادث عام ٦٠٠ هـ إلى ٦١٥ هـ ، وقد طبع عام ١٩٧٠ م . وعن الفرات انظر : أبو المحاسن : المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٥ ورقة ٣٠ ٣١ .

الفارق » لإبن الفارق (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) ، و « الفتح القدسى » للعماد الكاتب (ت ٤٨٩ هـ / ١١٩٣ م) ، و « قوانين الدواوين » لابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) ، و « معجم البلدان » لياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) ، و « النوادر السلطانية » لابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) ، و « الروضتين » لأبى شامه .

هذا بالإضافة إلى ما كتبه الجغرافيون والرحالة ، ونذكر منهم بنيامين التطيلى (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) وابن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) وإبن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م)أوالقزوينى (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) وإبن فضل الله العمرى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) وكل هذه المؤلفات لها قيمتها فى دراسة النواحى التاريخية والجغرافية والحربية التى سادت العصر .

أما المراجع الثانوية الأجنبية من كتب المحدثين فأهمها ما كتبه ستيفن رانسيمان[1] S. Runciman ، ورنيه جروسيه R. Grousset ، ومجموعة بنسلفانيا التى يقوم بنشرها ستون Setton ، وكذلك مؤلفات ميشو Michaud ، ورينهولد رهرشت R. Rohricht . هذا بالاضافة إلى ما كتبه ستيفن ، Stevenson ، وآرشر وكنجزفورد Archer & Kingsford ، وكلود كاهن C. Cahen ، والفرد دوجان A, Duggan ، وهارولد لامب H. Lamb ، وكامبل Campbell ، وباركر[2] Barker ، وممبورج Maimbourg ، ولدلو Ludlow ، وجيبون Gibbon ، وكالثروب Calthrop ، ولويس بريه L. Brehier ، ونختتم هذه المجموعة بالكتب الذى وضعه جوزيف دونفان J. Donovan « بلاجيوس الحملة الصليبية الخامسة » Pelaguis and the Fifth Crusabe .

---

(١) نقل كتاب A Story of The Crusades إلى اللغة العربية الدكتور السيد الباز العرينى تحت اسم « تاريخ الحروب الصليبية » وهو يقع فى ثلاث أجزاء ، طبع بيروت ١٩٦٧ - ١٩٦٩ .

(٢) نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور السيد الباز العرينى تحت اسم « الحروب الصليبية » - القاهرة ١٩٦٠ م .

ويقع ما كتبه دونفان فى كتيب من القطع الصغير وقد اكتفى بالرجوع إلى ما كتبه أوليفر أوف بادنبون من بين مصادر هذا البحث ووثائقه ومراسلاته . ويؤخذ على هذا الكتيب أنه لا يعرض تاريخ الحملة عرضا تفصيليا دقيقا ولا يهتم بمشاكل البحث وقضاياه . فضلا عن أنه تناول الحملة من وجهة نظر غربية بحته. لذلك فان استعراضه لتاريخ الحملة كان مبتورا وانطبع بطابع انصاف الحلول . ثم انه بعد هذا كله لا يزيد بل يقل عما جاء فى ثنايا المراجع الأجنبية الأخرى للمؤرخين المحدثين .

ونختتم الحديث عن المصادر والمراجع بالمراجع العربية التى أصبحت تسد فجوة كبيرة فى تاريخ الحركة الصليبية . وخير ما جاء فيها أنها تعبر عن وجهة النظر المحايدة البعيدة عن الميول والأهواء . ويتصدر هذه المؤلفات بالنسبة لموضوع البحث مؤلف الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور « الحركة الصليبية – صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى » . أما بقية المراجع الأخرى فهى مؤلفات الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق « مملكة بيت المقدس الصليبية » و « مقدمات العدوان الصليبى » ومؤلفات الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف « العرب والروم واللاتين » و « والوحدة وحركات اليقظة » و « العدوان الصليبى على مصر » و « العدوان الصليبى على الشام » . يضاف إلى ذلك ما كتبه الاستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور باسم « قبرس والحروب الصليبية » ، وكتاب « الحرب الصليبية الأولى » وكتاب « الشرق العربى بين شقى الرحى : حملة لويس على مصر والشام » و « نور الدين والصليبيون » للأستاذ الدكتور حسن حبشى ، و « حملة لويس التاسع على مصر » للاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وكتاب « الحروب الصليبية – إحدى حلقات الصراع بين الشرق والغرب » للدكتور أحمد شلبى ، وكتاب « معركة المنصورة وأثرها فى الحروب الصليبية » للدكتور عبد الرحمن زكى ، وكتاب « الشرق الأوسط والحروب الصليبية » للاستاذ الدكتور السيد الباز العرينى ، وكتاب « الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب » لمؤلفه محمد العروسى المطوى ، و « الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها

للدكتور محمد محمد مرسى الشيخ .

وعلى الرغم من أن بعض هذه المراجع لم يتعرض للحملة إلا فى بضعة أسطر أو فى بضع صفحات ، وعلى الرغم من أن بعضها لم يشر إليها اطلاقا ، إلا أن لها قيمتها العملية فى تاريخ الحركة الصليبية ، فهى تسد فجوات وثغرات عديدة فى تاريخ تلك الحركة التى تعرض لها العالم الإسلامى ، وفيها الكثير من المعلومات القيمة .

الفصل الأول

الاطماع الصليبية فى مصر فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى

كان الشرق الأدنى الإسلامى يخضع فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى لثلاث قوى رئيسية ، أولهما الخلافة العباسية فى بغداد ، وثانيهما الدولة الفاطمية فى مصر ، وثالثهما مسيحية رمزها الامبراطورية البيزنطية . وكانت الخلافة العباسية السنية فى بغداد قد حل بها الضعف والانهيار وسيطر عليها البويهيون الشيعيون تماما ، ولكن الحال ما لبث أن تبدل بها نتيجة قدوم الاتراك السلاجقة الذين ساعدوا الخليفة العباسىَ القائم بأمر الله (ت ٤٦٧ هـ / ١٠٧٤ — ١٠٧٥ م) على التخلص من البويهيين ، فأضحى السلاجقة بذلك حماة الخلافة العباسية . وقد استطاع السلاجقة بعد ذلك التوغل فى آسيا الصغرى وتمكن سليمان بن قتلمش (٤٧٤ — ٤٧٩ هـ/ ١٠٨١ — ١٠٨٦ م) من إقامة مملكة شملت بعض أراضى آسيا الصغرى وقيليقية على حساب الدولة البيزنطية[1] ، على حين غدت دولة السلطان السلجوقى الأعظم ملكشاه تمتد من أقليم ما وراء النهر إلى الاناضول وللشام كله ، بما فى دمشق وحلب وأنطاكية[2] .

غير أن وفاة ملكشاه سنة (٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) ، أعقبها تفكك دولته ، إذ أعلن أخوة تتش أمير الشام خروجه على بركياروق بن ملكشاه ، ولم يعترف بسلطنته ، وترتب على ذلك وقوع الحرب بينهما وانتصار بركياروق على عمه تتش سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ، بالقرب من الرى حيث لقى تتش مصرعه[3] ، ثم ما لبث أن تفكك ملك تتش بالشام بسبب ما وقع من نزاع بين ولديه رضوان ودقاق ، إذ أراد كل منهما أن يستأثر بملك أبيه بمفرده . فقد كان رضوان يحكم حلب ، على حين سيطر دقاق على دمشق وديار بكر والجزيرة ، وانحاز إلى رضوان قبيلة كلاب العربية وسكمان بن أرتق التركمانى صاحب سروج ، على حين إنضم الى دقاق ياغى سيان صاحب أنطاكية والغازى

(١) عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٢) الاصفهانى ، عماد الدين محمد : تاريخ آل سلجوق ص ١١ ، ١٢ ، ٥٥ .

(٣) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ١٣٠ — ١٣٢ .

الأرتقى ، ثم تحول ياغى سيان إلى جانب رضوان ، واشتعلت الفتنة وجرت الاستعدادات العسكرية لمهاجمة دمشق . وعلى أية حال لم تنته الفتنة بين المسلمين حتى جاءت الانباء بقدوم الصليبيين ، وبدأ كل فريق يستعد لحماية ممتلكاته من الخطر الجديد ، بدلا من التكتل ضد المعتدى الدخيل مما سهل على الصليبيين غزو بلاد الشام[1] .

والقوة الإسلامية الأخرى هى الخلافة الفاطمية فى مصر . ولقد كان لها أكبر الأثر فيما وقع من حوادث بالشرق الأدنى الإسلامى قبيل الحروب الصليبية ، بسبب النزاع على زعامة العالم الإسلامى من الناحية الدينية . ولقد نجح الفاطميون فى الإستيلاء على بلاد الشام لتكون مركز إنطلاق لدعوتهم الشيعية ونجحوا فى مد نفوذهم على الشام كله بين ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م وسنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، عدا أنطاكية التى كانت تحت سيطرة الامبراطورية البيزنطية[2] ولكن المد الفاطمى لم يستمر طويلا وبدأ ينحصر رويداً رويداً بسبب سوء الأحوال الأقتصادية والحربية والسياسية فى مصر. وحاول الفاطميون إستعادة مركزهم فى الشام مره أخرى عن طريق الحملات العسكرية ، إلا أنهم لم يتمكنوا إلا من إستعادة المدن الساحلية حتى مدينة جبيل ، وهى المدن التى ظلت بأيديهم حتى قدوم الصليبيين .

أما القوة المسيحية ومركزها الامبراطورية البيزنطية فكانت قد تعرضت قبل الحروب الصليبية لتغيرات بالغة الأهمية أثرت فى تطور مجرى الحوادث فى الشرق الأدنى الإسلامى . ذلك أن إنتصار السلطان ألب أرسلان السلجوق (٤٥٥ – ٤٦٥ هـ / ١٠٦٣ ١٠٧٢ م) على الامبراطور البيزنطى رومانوس

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ١١٣ .

(٢) تمكن الامبراطور نقفور فوكاس من الاستيلاء على انطاكية عام ١٩٦٧ م ، وضمت إلى الحكم البيزنطى لتبقى خاضعة له حتى ١٠٨٤/ ٥٧٧ هـ ، حين استولى عليها سليمان بن أقتلمش السلجوق . راجع عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١١٣ – ١١٤ .

الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes (١٠٦٨ - ١٠٧١ م) فى موقعة مانزكرت[١] سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م ، كان كارثة عظمى على الامبراطورية البيزنطية ، إذ فقدت خيرة رجالها فى هذه الموقعة ونتج عن هذه الهزيمة أن إستولى السلاجقة بقيادة سليمان بن قامش على معظم أراضى آسيا الصغرى وأخذ الخطر السلجوقى يحدق بالعاصمة البيزنطية . والمهم أنه لم يبق للامبراطورية البيزنطية عندما تولى عرشها الكسيوس كومنين Alexius Comnen (١٠٨١ - ١١١٨ م) من الأراضى فى آسيا الصغرى سوى سواحل البحر الأسود وبعض المدن الداخلية المتناثرة التى إنقطعت صلتها إلى حد ما بالحكومة المركزية فى القسطنطينية . ويلاحظ أنه فى الوقت نفسه لم تكن القوة السلجوقية فى آسيا الصغرى قوة موحدة بل خضعت بعض المدن لأمراء إعترف بعضهم بسلطان سلاجقة الروم سليمان بن قتلمش ، على حين أعلنت أغلبية الأمراء الولاء للسلطان السلجوقى ملكشاه فى بغداد .

بقى إلى جانب السلاجقة والامبراطورية البيزنطية فى آسيا الصغرى الامارات العديدة التى أسسها الأرمن ، أهمها إمارة روبان Roupen فى قيليقية الوسطى ، وإمارة أوشين Oshin فى قيليقية الغربية ، وإمارة فيلاريتوس Philaretus التى إمتدت من جبال طوروس إلى ما وراء نهر الفرات[٢] . وللأرمن فى تاريخ الشرق الأدنى الإسلامى أهمية كبرى ، إذا إنتشروا فى الشام كما إنتقل عدد كبير منهم إلى مصر ودخلوا فى صفوف جيش الخلافة الفاطمية . وكان لهم أثر كبير فى أحوال الدولة الفاطمية . وفى وسط هذا الصراع بين

---

(١) عن تفصيل هذه الموقعة أنظر : صدر الدين ابى الحسن : أخبار الدولة السلجوقية ص ٤٦ وما بعدها ، ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٩٩ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٣٥ Psellos, Histoire d'un Siecl de Byzance, 11, p. 168 ff, William of Tyre, A History of Deeds Done Beyend the Sea, 1, P. 18.
وحول نتائج هذه المعركة راجع ، عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٢٣ حاشية (١) .

(٢) Runciman, A History of the Crusades, 1, pp. 73-4.

المسلمين بعضهم البعض وبين السلاجقة والإمبراطورية البيزنطية ، قدمت جحافل الصليبيين من أوربا إلى الشام لتجد أمامها ممتلكات فتتها العداوة ، وحكاما يصارعون بعضهم البعض مما مكنهم من إقامة أربع إمارات صليبية فى الشام هى الرها وأنطاكية وطرابلس وبيت المقدس[1] .

والواقع أن مصر لم تقف مكتوفة الأيدى أمام الغزو الصليبى ، بل قامت بدور ملحوظ فى مقاومته ، فلقد زحفت الجيوش الفاطمية على الشام وانتزعت مدينة بيت المقدس من أيدى حاميتها السلجوقية فى رمضان ٤٩٢ هـ / أغسطس ١٠٩٨ م ، ولم تلبث أن إستولت عل فلسطين كلها[2] إلا أن القوات الصليبية تمكنت من هزيمتها حتى إستولت فى آخر الأمر على بيت المقدس كما سبق أن أوضحنا .

وتجدر الاشارة هنا أنه إزاء مقاومة الجيوش الفاطمية المصرية للقوات الصليبية قبل استيلائها على بيت المقدس ، أن الصليبيين فكروا فى غزو مصر قبل الزحف على بيت المقدس ، والدليل على ذلك أنهم أثناء تواجدهم فى الرملة فى أوائل يونيه من عام ١٠٩٩ م (رجب ٤٩٢ هـ) عقدوا مجلسا للحرب انتهوا فيه إلى أن مفاتيح مدينة القدس موجودة بالقاهرة وأن الصليبيين إذا أرادوا أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة فى الأراضى المقدسة فعليهم أولا الاستيلاء على دلتا النيل[3] وهذا يعطى لنا صورة واضحة عن مدى عمق الاستراتيجية العسكرية التوسعية تجاه المنطقة . ومع ذلك لم يوضع تفكير الصليبيين فى غزو مصر والسيطرة عليها موضع التنفيذ فى حينه ، وربما يكون ذلك بسبب عدم توفر الامكانات الصليبية للقيام بهذا العمل وقتذاك ، إلا أن هدف غزو مصر ظل باقيا أمام الحكام الصليبيين بعد قيام الإمارات الصليبية وحاول بعضهم تنفيذه المرة تلو الأخرى كلما لاحت لهم فرصة مواتية لذلك .

---

(١) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ، ص ٥٠ وما بعدها

(٢) محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٣

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١ ص ٣٤ .

والمهم أنه بعد تأسيس الآمارات الصليبية بالشام.تم إختيار جود فرى أوف بوايون Godfrey of Bouillon (١٠٩٩ – ١١٠٠ م) أول حاكم لمملكة بيت المقدس[١] ، وخلال حكمه قامت مصر الفاطمية بارسال جيشا كبيرا بغرض إستعادة مدينة بيت المقدس والقضاء على الصليبيين[٢]، وكان فى هذا خطر كبير عليهم لدرجة أن القيادة الصليبية فى الشام إستدعت كافة قواتها لمواجهة هذا التهديد ، ولم يتخلف عن الاشتراك فى صد هذا الخطر المصرى سوى العجزة والشيوخ الذين بقوا تحت رعاية بطرس الناسك Peter the Hermit ليقوموا بالابتهالات للرب لنصرة الصليبيين[٣]. وبذلك تأكد لجودفرى فاعلية القوة المصرية فى مقاومتها للوجود الصليبى ، لذلك فكر جود فرى فى الاستيلاء على مصر واعلن استعداده للتنازل عن مركزه فى الدولة الصليبية فى بيت المقدس بعد تنفيذ فكرته[٤] ، ولكن مدة حكمه القصير لم تمكنه من تنفيذ ذلك . ومن ذلك يتبين لنا الجهاد المصرى ضد الغزو الصليبى منذ بدايته والاطماع الصليبية فى الاستيلاء على مصر لتأمين الامارات الصليبية فى الشام التى تم إنشاؤها منذ وقت قصير .

وبعد موت جود فرى ورث بلدوين أوف بلونى Baldwin of Boulogne أميرالرها أخاه ، وأعلن نفسه ملكا على مملكة بيت المقدس (١١٠٠ – ١١١٨ م)[٣] . وأدرك بلدوين أيضا أن الدولة الفاطمية فى مصر هى منبع

---

(٢) لم يعين جودفرى ملكا على بيت المقدس ولم يلبس تاجا ، بل أعطى لقب حامى الضريح Advocatus Sancti Sepulchri وأثناء حكمه كان يخاطب بالدوق نسبة إلى مركزه فى الغرب كدوق اقليم اللورين السفلى . أنظر ، عمر كمال توفيق ، المرجع السابق ص ٦٢ . ولمزيد من التفاصيل أنظر : Fulcher of Chartres, Chronicle, pp. 71-2.

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٣) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ، ص ١٢١ – ١٢٢ .

(٤) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ، ص ٤ .

(٥) استعمل بلدوين لقب ملك مملكة بيت المقدس فى عام ١١٠٤ م أنظر ، عمر كمال توفيق المرجع السابق ص ٧٧ . ولمزيد من التفاصيل أنظر : William of Tyre, op, cit, 1, p. 427.

الخطر على المملكة الصليبية ، لذا نجده يقوم ببعض الهجمات على المراكز الفاطمية المتبقية فى الشام ، ونجحت هذه الهجمات إلى حد ما بسبب سوء خطط القادة الفاطميين فى الشام وعدم تنسيق الأعمال العسكرية فى البر والبحر . وبعد أن نجح بلدوين فى تأمين ممتلكاته فى الشام ، رغب فى تأمين حدود المملكة الصليبية فى المنطقة الجنوبية فى وادى عربه ، وقد تمكن من السيطرة على المنطقة التى تمتد من جنوب البحر الميت إلى ميناء إيلات على خليج العقبة وأكد سيطرته على هذا المكان ببناء قلعة حصينة هى قلعة الشوبك[1] Mount Royal أو Montreal . وقد قام بلدوين بهذا العمل بغية عزل مصر عن بقية العالم الإسلامى[2] ، فيسهل عليه مهاجمتها وغزوها فى الوقت المناسب .

ولم يكتف بلدوين بذلك بل رغب فى اكتشاف مزيد من الأراضى المجاورة لمملكته ومصر وهى منطقة صحراء سيناء فاتجه فى عام ١١١٦ م (٥٠٩ - ٥١٠ هـ) ومعه بعض الخبراء والمرشدين وحاشية تكفى لهذا الغرض وعبر الصحراء حتى وصل إلى ميناء إيلات . وعندما وصل إليها وجدها خالية من السكان الذين هربوا فى القوارب إلى البحر[3] . ومن ميناء إيلات اتجه إلى دير سانت كاترين[4] ، وأرسل فصيلة من رجاله عدتها أربعون فارسا على ما قيل لمفاوضة رهبان الدير لامداده بالمعلومات التى تمكنه من الزحف على أطراف الدلتا ولكن الرهبان رفضوا ذلك . وأثناء عودة الفرسان إعترضهم بعض العربان وأبادوهم عن آخرهم ولذلك يعرف هذا المكان باسم الأربعين نسبة

---

(١) James of Vitry : The History of Jerusalem, pp. 6-7.

(٢) Runciman. op. cit, 11, p. 97.

(٣) William of Tyre. op. cit. 1. p. 619.

(٤) يقع هذا الدير أعلى جبل الطور فى صحراء سيناء وسمى باسم القديسة كاترين وهو البتول العظيمة التى حكم عليها الرومان بالموت عام ٣٠٧ م ويقال أن الملائكة نقلوا جسدها إلى هذا المكان وبنى هذا الدير للروم الارثوذكس عام ٥٤٥ . أنظر الشابشتى ، الديارات ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، المقريزى ، الخطط جـ ٤ ص ٤٢١ - ٤٢٣ .

إلى عددهم ولازال معروفا حتى وقتنا هذا[١] .

وفى عام ١١١٨ م (٥١١ هـ) رأى بلدوين إعادة الكره مرة أخرى على الأراضى المصرية لكشف الطريق الشمالى إلى مصر من ناحية رفح والعريش ، فأعد حملة خفيفة تكونت من مائتى وستين من الفرسان وتسعمائة من المشاه[٢] ويرى وليم الصورى والرحالة فلكس فابرى أن بلدوين تقدم بقوة عظيمة للانتقام من المصريين[٣] ، ولكن سير الحوادث التالية توضح لنا أن القوة لم تكن كبيرة . ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن الغرض من هذه الحملة هو مناوشة الفاطميين فى مصر حتى تقوم الحاميات الفاطمية فى صور وعسقلان بعمل عسكرى ضد الصليبيين فى الشام فيكون ذلك ذريعة يتخذها الصليبيون للاستيلاء على هذه المعاقل المصرية إذا تيسر لهم ذلك[٤] .

وعلى أية حال تقدم بلدوين إلى رفح وأغار عليها بغتة فى الظلام واستولى عليها ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الفرما (بلزيوم) شرقى بور فؤاد الحالية فوصلها فى الحادى والعشرين من مارس فى نفس السنة (٢٥ ذو الحجة ٥١١ هـ) فانزعجت حاميتها ولازت بالفرار[٥] . فقام بلدوين بالهجوم على المدينة وقتل جميع من فيها وأحرق مساجدها[٦] ، ثم سار إلى مدينة تنيس وأحرقها[٧] . ثم تقدم حتى وصل إلى فم النيل[٨] ، وسبح فيه[٩] ولم يمكنه التقدم بعد ذلك لصغر

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٦ .

(٢) James of Vitry, op, cit. p. 96.

(٣) William of Tyre, op., cit., 1, p. 515, Fabri, The Book of Wandering, Vol II, p. 1 p. 314.

(٤) Archer, The Crusades, p 140.

(٥) محمد مصطفى ، المرجع السابق ص ٦ .

(٦) النويرى الكندى ، نهاية الأرب فى فنون الادب جـ ٢٦ لوحة ٨٢ ، مخطوط .

(٧) الحافظ الذهبى ، دول الإسلام ، جـ ٢ ض ٢٦ .

(٨) William of Tyre, op cit., 1, p. 515.

(٩) ابن الاثير ، المرجع السابق حـ . ١ ص ٣٨١ .

قواته[1] . وقضى يومى الثالث والعشرين والرابع والعشرين من مارس فى الراحة[2] .

وازاء هذا العدوان والأعمال التخريبية التى قام بها الصليبيون ، لم تقف مصر مكتوفة الأيدى ، فقد أرسل الوزير الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوس العساكر إلى والى الشرقية يطلب منه أن يتقدم بنفسه والعربان على رأس هذه القوات لمقاومة الصليبيين[3] ، ولما علم بلدوين بقدوم القوات المصرية وتحقق أن « الإقامة لا تمكنه » ، أمر جنوده بالنهب والتخريب وإحراق المساجد وعزم على الرحيل[4] . ولو كان لدى بلدوين قوات كبيرة كما ذكر وليم الصورى والرحالة فلكس فابرى لما عزم على الرحيل بل تصدى للقوات المصرية ، هذا بالاضافة إلى أن المدة التى قضاها بلدوين منذ وصوله إلى مدينة الفرما فى الحادى والعشرين من مارس وقيامه بالاغارة عليها فى اليوم التالى ثم خلوده للراحة فى الثالث والعشرين والرابع والعشرين لم تكن كافية لتحريك جيش كبير فى تلك الأزمنة .

وكان بلدوين أثناء هذه الفترة تناول وجبة افطار من السمك شعر بعدها بألم شديد ، وكان الألم مرجعه إلى جرح قديم ، وذلك فى الوقت الذى أمر جنوده بالعودة ، ولكنه عجز عن إمتطاء فرسه لشدة المرض فأحضر رفاقه محفة ووضعوه فيها بعد معاناه ، وإتجه الصليبيون حاملين ملكهم المريض إلى العريش فى طريقهم إلى بيت المقدس ، ولكنه مات بين الفرما والعريش[5] ، فى المكان الذى يسمى جورا[6] فى الثانى من أبريل بين يدى روجر Roger اسقف

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق جـ ١ ص ٣٢٩ .

(٢) Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem, P. 119.

(٣) تدل هذه العبارة على تكاتف الجيش والشعب لصد العدوان الصليبى .

(٤) المقريزى ، الخطط جـ ١ ص ٣٤٢ .

(٥) Annales de Terre Sainte, P. 41

(٦) النويرى الكندى : المصدر السابق جـ ٢٦ لوحة ٨٢ .

الرملة[1] . وكتم رفقاؤه خبر موته وقاموا بشق بطنه ودفنوا أحشاءه بالعريش وقد صار الناس كلما مروا بهذا المكان – المعروف بسبخة البردويل – رجموه[2] . ثم حمل الصليبيون جثمان بلدوين إلى بيت المقدس فوصلوه بعد خمسة أيام فى السابع من أبريل ودفن فى كنيسة القيامة فى موضع الجلجثة بجوار أخيه جودفرى[3] . وهكذا فشلت محاولات بلدوين للنيل من مصر بفضل إمتناع رهبان دير سانت كاترين عن تزويده بالمعلومات التى تمكنه من ذلك وبفضل تكاتف الجيش والشعب فى التصدى لقواته وإجباره على الرحيل من البلاد .

وإذا كان مشروع غزو مصر فكرة فى رأس جودفرى ، وحاول بلدوين الأول تنفيذها المرة تلو المرة ، فانه من الملاحظ أنه فى عهد بلدوين الثانى (١١١٨ – ١١٣١ م) وعهد فولك الأنجوى Fulk of Anjou (١١٣١ – ١١٤٤ م) لم تمدنا المصادر الأوربية أو العربية المعاصرة للحوادث أو المتأخرة زمنياً بأية محاولة أو فكرة لغزو مصر ، وربما يرجع ذلك إلى مشاكل الصليبيين الداخلية والحروب التى دارت فى الشام بينهم وبين المسلمين . وقد طالت هذه الفترة واستمرت إلى ما بعد رحيل الحملة الصليبية الثانية[4] – التى إنتهت بالفشل ومغادرتها الأراضى المقدسة ١١٤٩ م – بثلاث سنوات حيث جدد –

---

(1) Rohricht, Geschichte der Kreuzzuges. p. 69.

(2) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٦٣ .

(3) William of Tyre, op, cit., 1, p. 516.

(4) قامت الحملة الصليبية الثانية بسبب سقوط الرها فى يد عماد الدين زنكى عام ١١٤٤ م ، وتولى قيادتها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك المانيا . عن الحملة الثانية أنظر :
Odo of Deuil, De profectione Ludovici VII in Orientem, William of Tyre op. cit., 11, pp. 172 ff.

ومن المصادر البيزنطية أنظر :
Niectas Choniates. Historia, PP. 82 ff., Cinnamus, John, Epitome Historiarum. pp. 76 ff.

الصليبيون غاراتهم مرة أخرى فى عهد بلدوين الثالث (١١٤٤ - ١١٦٢ م) وذلك فى شهر رجب ٥٤٥ هـ (أكتوبر - نوفمبر ١١٥٢ م) . ذلك أنهم أغاروا على الفرما ونهبوها وأحرقوها وعادوا إلى بلادهم[١] . ومن الواضح أنها كانت من الغارات التى تهدف إلى السلب والنهب لا إلى غزو مصر ، وربما قام بها الصليبيون للحفاظ على الأوضاع الصليبية فى الشام بعد النجاح الذى حققه نور الدين زنكى . والمهم أن الوزير الفاطمى العادل بن السلار لم يغفر للصليبيين فعلتهم ، فجهز فى العام التالى فى شهر ربيع الأول ٥٤٦ هـ (يونية - يوليو ١١٥٤ م) المراكب الحربية وشحنها بالرجال واتجهوا إلى يافا وأحرقوا وأسروا وقتلوا ما وقع تحت أيديهم كما استولوا أيضا على بعض السفن الصليبية ، ثم اتجهوا إلى عكا وفعلوا بها مثلما فعلوا بمدينة يافا وأرسلوا ما استولوا عليه من سفن وأسرى إلى مصر ثم قصدوا صيدا وبيروت وطرابلس وكان ما فعلوه بتلك المدن لا يقل عما فعلوه بمدينتى يافا وعكا[٢] ، ولابد أن مثل هذه الضربات المصرية قد أكدت للصليبيين مرة أخرى أن مصر هى معقل القوى الإسلامية وأن القضاء عليها تأمين للممتلكات الصليبية بالشام .

ولم يكن الصليبيون بالشام هم وحدهم الطامعون فى أرض مصر ، بل أن إخوانهم أهل صقلية قد داخلهم الطمع أيضا فى مصر وذلك بسبب ضعف القائمين على أمرها فى هذه الفترة ، ويذكر إبن الأثير أنه فى عام ٥٤٨ هـ (مارس ١١٥٣ - مارس ١١٥٤ م) نهبت مراكب صقلية مدينة تنيس بالديار المصرية[٣] .

ويذكر إبن القلانسى فيما هو شبيه بمثل هذه الغارة أنه وقع فى أيام من جمادى الأولى ٥٤٩ هـ (يوليو - أغسطس ١١٥٤ م) وأن عدة وافرة من

---

(١) ابن ميسر ، أخبار مصر جـ ٢ ص ٩١ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٣

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣١٥ ، النويرى : المصدر السابق جـ ٢٦ ، ص ٩٣ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ١٦٥ ، ابن الوردى : تتمه المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٥٤ ، ميشيل أمارى : المكتبة الصقلية جـ ٢ ص ٤١٧ .

مراكب صقلية هاجمت مدينة تنيس على حين غفلة من أهلها وأنزلت فيهم القتل والأسر والسبى طيلة ثلاث أيام وهرب أهلها إلى البحر[1] ، ويضيف إبن الفارق أن عدد المراكب التى قامت بهذه الغارة كانت أربعين مركباً وأن الغنائم التى استولوا عليها بيعت فى أنحاء الشام أما الأسرى قد ذهبوا إلى صقلية[2] .

كما أن المقريزى قد روى مثل هذه الوقائع وذكر أنها وقعت فى عهد الخليفة الفاطمى الفائز (٥٤٩ هـ / ١١٥٤ – ١١٦٠ م) ووزيره الصالح طلائع إبن رزيك (٥٤٩ – ٥٥٦ هـ) ، وذلك أنه فى شهر جمادى الآخر عام ٥٥٠ هـ (٢ – ٣٠ أغسطس ١١٥٥ م) أغارت نحو ستون مركباً بعث بها صاحب صقلية فعاثوا وقتلوا ونزلوا مدينة تنيس ورشيد والاسكندرية[3] .

ولما كانت هذه الروايات الثلاث تكاد تكون متشابهة تقريباً ، وأن ما قام بالهجوم هو أسطول صقلية ، وأن مدينة تنيس هى القاسم المشترك الأعظم مع كل المؤرخين ، فمن الأرجح أنها واحدة حدثت أيضاً مرة واحدة فى جمادى الأولى عام ٥٤٩ هـ (يوليو – أغسطس ١١٥٤ م) وذلك إعتماداً على أقوال المؤرخين المعاصرين للحوادث فعلا . والمهم أن هذه الغارة لم تلق مقاومة سواء من الأهالى أو من القوات المصرية مما يشير إلى أفول نجم الدولة الفاطمية فى أخريات أيامها .

ولما كان الصليبيون لمصر بالمرصاد ، فان ضعف الخلافة الفاطمية وما تعانيه من مظاهر التفكك والإنحلال ، لم يكن خافيا على الصليبيين ، لذلك قاموا على ما يبدو بحملة إستطلاعية على الحدود المصرية عند العريش فى عام ١١٥٨ م/ ٥٥٣ هـ ، ولكن العساكر المصرية تمكنت من التصدى لهم وأنزلت فيهم القتل والأسر والسلب[4] ، ومن ذلك يتضح يقظة مصر رغم ضعفها وتصديها لأى

(١) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٣١ .

(٢) ابن الفارق : تاريخ ابن الفارق على هامش ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ص ٣٢٨ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٤٦ .

(٤) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٣٥٣ ، ابن ميسر ، المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٧ .

معتد دخيل .

وفى أخريات عهد بلدوين الثالث كانت الصراعات الداخلية فى مصر على أشدها ، وكلما زادت أحوال مصر سوءاً زاد طمع الصليبيين فى الاستيلاء عليها والنيل منها ضمانا لسلامة ممتلكاتهم فى الشام ، ولقد كان الصليبيون على علم بالأحوال الداخلية فى مصر كعادتهم فى تقصى أخبارها لاختيار الوقت المناسب لمهاجمتها ، لذلك نجد بلدوين يهدد فى عام ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) بغزو مصر . ولم يرجع عن تهديده إلا بعد أن وعده الوزير طلائع بن رزيك باسم الخليفة الطفل العاضد (٥٥٥ – ٥٦٧ هـ / ١١٦٠ – ١١٧٢ م) بجزية سنوية قدرها مائة وستون الف دينار . ومات بلدوين سنة ١١٦٢ م وتولى بعده أخوه عمورى الأول Amalric 1 حكم مملكة بيت المقدس دون أن تقوم القاهرة بدفع شيء من هذه الجزية[١] . وهذا يدل على عدم جدية بلدوين فى تهديده بغزو مصر أو عدم توافر الامكانات العسكرية لقيامه بهذا العمل أو سوء الحالة الاقتصادية فى مصر وعدم قدرتها على دفع الجزية ، أو ربما وجدت مصر نفسها فى وضع من القوة العسكرية يمكنها من دفع الصليبيين إذا قاموا بالهجوم على مصر .

مات بلدوين الثالث دون وريث من اولاده فقد ماتوا جميعا فى حياته ، وتمكن أخوه عمورى الأول من إعتلاء عرش مملكته بيت المقدس (١١٦٢ – ١١٧٣ م)[٢] وفى هذا الوقت إزدادت أحوال الخلافة الفاطمية سوءا بمقتل الوزير إبن رزيك وإبنه وحلول شارو حاكم الصعيد فى الوزارة ، ولكن ضرغام تمكن من عزله وتولى أمر الوزارة وكان فى ذلك الصراع الداخلى فرصة للملك عمورى للتدخل فى شئون مصر بحجة عدم دفع الجزية التى وعد بها إبن رزيك[٣]. لذلك قام عمورى فى أوائل سبتمبر سنة ١١٦٣ م أوائل شوال

(١) William of Tyre. op. cit., 1, p. 303.

(٢) James of Vitry, op. cit., p. 77.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٨١ – ٦٨٢

٥٥٨ هـ) على رأس جيش كبير من الفرسان والمشاة وإتجه إلى مصر وحاصر الفرما ، ولكن ضرغام تصدى له وقطع بعض جسور النيل فغمرت الأرض المياه ، وحالت بين الجيش المصرى وبين الجيش الصليبى ، فاضطر عمورى إلى الانسحاب لبلاده[١] . وإن دل ذلك على شيء فانما يدل على ظهور قوة عسكرية بمصر دافعت عن أرضها ببسالة وتمكنت من رد المعتدين على أعقابهم مدحورين .

ومن الملاحظ أن كافة الغارات التى شنها الصليبيون — منذ تأسيس ملكهم فى الشام — على مصر لم تتعد أطراف البلاد أو موانيها . وربما كان الصليبيون يقتنعون بمثل هذه الغارات طالما بقيت بمصر حكومة ضعيفة وهى الدولة الفاطمية الشيعية التى لا يمكنها الاتحاد مع الممالك الإسلامية السنية فى الشام والعراق[٢] . ولكن الفترة من ٥٥٩ — ٥٦٤ هـ (١١٦٤ — ١١٦٩ م) شهدت صراعا خطيرا على إمتلاك مصر بين نور الدين محمود بن زنكى أتابك الشام وبين الملك الصليبى عمورى . وقد مهد لهذا الصراع عدة عوامل بعضها يرجع إلى الجانب الإسلامى والبعض الآخر للجانب الصليبى ، فقد تمكن نور الدين فى الفترة السابقة لعام ١١٦٤ م من فرض نفوذه على معظم البلاد الإسلامية بالشام وبلاد الجزيرة ، وكانت الموصل ترسل قواتها لتخدم تحت إمرته بالشام ، كما كان عمورى شابا طموحا يسعى لتقوية مركزه فى المملكة الصليبية بالاستيلاء على مصر[٣] .

وبداية هذا الصراع أن شاور كان فى صراع مع ضرغام على تولى الوزارة فى مصر ، وقد تمكن ضرغام من الانتصار على خصمه شاور وولده طى ، ففر

(١) William of Tyre, op. cit., II, P. 302.

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٨٧ — ٢٩١ ، راجع أيضا جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ص ٢٦٠ .

(٣) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٧١ ، راجع ايضا : جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٢٥ وحواشيها

شاور إلى الشام واتجه إلى نور الدين لمساندته على ضرغام وإعادته إلى الوزارة[1]، وعرض عليه أن يكون نائبه بمصر ويتصرف طبقا لما يراه[2]، ويقدم جزية سنوية تعادل ثلث إيراد مصر علاوة على نفقات إقامة العساكر النورية بمصر[3].

وقد وافق نور الدين بعد تردد على هذا العرض المغرى وأرسل مع شاور أقرب المقربين إليه وأعظمهم ثقة عنده وهو أسد الدين شيركوه على رأس حملة كبيرة إلى مصر وذهب مع هذه الحملة إبن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وخرجت هذه القوة من الشام فى جمادى الآخرة عام ٥٥٩ هـ (ابريل - مايو ١١٦٤ م)[4]، ورافق نور الدين هذه القوات بعساكره حتى أطراف الشام لحمايتها من تعرض الصليبيين لها ثم واصل أسد الدين شيركوه سيرة تجاه القاهرة ، وعندما علم ضرغام بما تم عليه الاتفاق بين شاور ونور الدين أحس أنه هالك لا محالة ، فارسل يطلب النجدة من الملك الصليبى عمورى الذى وجد فى ذلك فرصة لا تعوض لدخول مصر - وهو الأمل الذى كان يسعى اليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن - فأعد حملة على الفور وتولى قيادتها بنفسه واتخذ طريقه إلى مصر[5].

إتجه أسد الدين شيركوه صوب القاهرة وخرج ضرغام لملاقاته والتقى

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٣٦ - ١٣٨ .

(٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين جـ ١ ص ١٣٠ .

(٣) ابن الشحنه : روضة المناظر بهامش مروج الذهب للمسعودى جـ ٢ هامش ص ١٣٠ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٠ ، ويروى ابن الاثير أن هذه القوات خرجت من الشام فى جمادى الأول ووصلت مصر جمادى الآخرة من نفس العام ، أنظر : ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ١٩٧ ، ويتفق ابن شداد مع أبى شامه فى الشهر ويذكر أن ذلك حدث فى عام ٥٥٨ هـ ، أنظر : ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٦ .

(٥) William of Tyre, op, cit., II, P. 306

وأنظر أيضا ، سعيد عاشور ، المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٨٣ .

الإثنان على مشارف القاهرة ، وهزم ضرغام وقتل قبل أن تصل القوات الصليبية لنجدته وتولى شاور أمر الوزارة بمصر ، إلا أنه لم يف بالوعود التى قطعها على نفسه ، كما ظهرت منه أيضا إمارات الغدر لمناصرة أسد الدين شيركوه ، فأشار عليه صلاح الدين بالتقهقر إلى بلبيس[1] . وليس ذلك فحسب ، بل أن شارو إتبع ما إتبعه ضرغام من الاستنجاد بالصليبيين على شيركوه[2] ، وبذل لهم وعودا عظيمة إذا ناصروه ، ومن هذه الوعود نفقات الحملة الصليبية كلها ، وبذلك لم تضع الفرصة على عمورى لدخول مصر وإن إختلف الحليف – وهو مالا يهم الصليبيون ، فكل ما يعنيهم هو السيطرة على مصر بشكل أو بآخر . وجد عمورى فى السير ، ووصل إلى المكان المعروف بمدينة فاقوس الحالية فى أغسطس عام ١١٦٤ م (رمضان – شوال ٥٥٩ هـ) وانضمت اليه قوات شارو ، وحاصروا أسد الدين شيركوه فى بلبيس طوال ثلاثة أشهر . ولكى يخفف نور الدين الضغط على شيركوه قام بمهاجمة الصليبيين فى الشام وإستولى على حصن حارم ثم إتجه إلى بانياس ، وعندما بلغ عمورى ما قام به نور الدين راسل شيركوه يطلب منه الصلح وعودة كل منهما إلى بلاده وتم الإتفاق على ذلك وعاد عمورى إلى بيت المقدس وإتخذ شيركوه طريقه إلى الشام ، وفى أثناء عودته كمن له الصليبيون باعتباره العقبة الكأداء التى حالت دون إستيلائهم على مصر ، ولكن شيركونه علم بذلك وترك الطريق الذى عليه الكمين وسلك طريقا آخر ووصل سالما إلى دمشق[3] ، فوصلها فى الثامن عشر من ذى الحجة عام ٥٦٠ هـ (٢٦ أكتوبر ١١٦٤ م)[4] ، وبذلك أنقذ شيركوه مصر من أيدى الصليبيين وأنقذ حياته أيضا بتجنبه الكمين ليقف مرة أخرى حجرة عثرة فى وجه الصليبيين ويحول دون إستلائهم على مصر .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٥ – ٣٤٧ .

(٢) أبو شامة : المصادر السابق جـ ١ ، ١٣١ ، الحافظ الذهبى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٢

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ١٩٨ .

(٤) أنظر : Schlumberger, G, Campagnes de Roi Amauny I, pp, 36-18.

ولم ينته الصراع على مصر عند هذا الحد ، لأن كل من نور الدين وعمورى كان يمنى نفسه بإمتلاكها ، وكان كلاهما يعلم تمام العلم أن فوزه بمصر يعنى إنتصاره الحاسم على خصمه . وتجددت الحوادث مرة أخرى فى السادس من ربيع ثان عام ٥٦٢ هـ (٣٠ يناير ١١٦٧ م) عندما تحرك الجيش الصليبى للمرة الثالثة تجاه مصر بقيادة الملك عمورى[١]. وسبب ذلك أنه منذ عودة شيركوه من مصر عام ١١٦٤ م وهو يعمل على إقناع نور الدين بالعودة إلى مصر حتى لا يستولى عليها الصليبيون . وفى الوقت الذى إقتنع فيه نور الدين بوجهة نظر شيركوه وبدأ الجيش الإسلامى يستعد للقدوم إلى مصر ، علم شاور بهذه الترتيبات فاستنجد بالصليبيين « وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه تمكينا كليا» ، وعلم نور الدين بذلك ، لذلك فاننا نجد أن قوات نور الدين بقيادة شيركوه ومعه صلاح الدين وكذلك القوات الصليبية يسارعون بالحضور إلى مصر[٢]، وكل منهما يخشى أن يسيطر الطرف الآخر على مصر فيهدد من يملكها ممتلكات الطرف الثانى فى الشام .

إستطاع شيركوه وقواته أن يصلوا إلى مصر قبل أن يصلها الصليبيون وقصد مدينة أطفيح ومنها عبر النيل إلى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف فى النواحى التى سيطر عليها وظل منتظراً قدوم الصليبيين وأقام بالمنطقة أربعة وخمسين يوما[٣]. أما الجيش الصليبى بقيادة عمورى فقد وصل إلى بلبيس عن طريق العريش ، وقد تشكك شاور فى نواياهم رغم إستنجادة بهم ، وخشى أن تتحول القوات الصليبية للعمل ضده ، فأرسل بعض الكشافين للحصول على بعض المعلومات عن الجيش الصليبى[٤]. وبعد أن حصل شاور على هذه المعلومات خرج واستقبل عمورى خارج القاهرة وأنزله فى موقع ممتاز

---

(١) William of Tyre, op. cit. II. 314-5.

(٢) ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٧ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٢ .

(٤) William of Tyre op. Cit., II, P. 315

على النيل فى منتصف الطريق بين القاهرة والفسطاط . وفى هذا المكان عقد شاور مع عمورى إتفاقا خلاصته أن تدفع مصر لمملكة بيت المقدس مائتى الف دينار معجلة ، ومثلها فيما بعد بشرط ألا يرحل عمورى عن مصر إلا بعد إجلاء شيركوه عنها ، وصادق الخليفة الفاطمى على هذه المعاهدة[1]. وطبيعيا أن يرحب الصليبيون بهذه الإتفاقية التى تجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية[2].

وبعد إبرام الاتفاقية إستعد شاور وقواته وعمورى والجيش الصليبى لمهاجمة شيركوه فعبروا النيل إلى الضفة الغربية ، فاتجه شيركوه جنوبا حتى وصل جنوب المنيا فى المكان الذى يعرف بالبابين ، ونظرا لكثرة قوات شارو وعمورى فقد أشار بعض قواد شيركوه عليه بعبور النيل إلى الضفة الشرقية والعودة إلى بلاد الشام ، ولكن شيركوه أصر على القتال وأيده فى ذلك صلاح الدين ، والتقا الجيشان وانتصر شيركوه فى هذه الموقعة المعروفة باسم البابين بفضل الخطة التى وضعها شيركوه . وبعد هذه الموقعة اتجه شيركوه إلى الفيوم ومنها إلى مدينة الاسكندرية التى فتحت له أبوابها عن طيب خاطر لكرهها لشاور[3].

إستطاع شاور وعمورى إعادة تنظيم صفوفهما بعد الهزيمة التى لحقت بهما ثم إتجها إلى الاسكندرية فى أثر قوات شيركوه وحاصروا المدينة براً وبحراً وكان شيركوه قد ترك صلاح الدين فى الاسكندرية وإتجه إلى الصعيد لجمع المال والرجال لمساندته على أعدائه ، واشتد الحصار على صلاح الدين فاستنجد بعمه الذى عاد اليه ، وفى هذا الوقت بدأ شاور وعمورى فى مراسلة شيركوة لطلب الصلح نظير خمسين الف دينار سنويا وعدم بقاء الصليبيين بمصر « وألا

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ١٦

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق جـ ١ ص ٦٩

(٣) ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٧ ، ابن واصل . المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٠ - ١٥١ ،
William of Tyre op, cit., II, p. 332

يتملكوا منها قرية واحدة »[1] . ويروى وليم الصورى أن شيركوه هو الذى بدأ فى طلب الصلح – وهو الرأى الأرجح – وأنه أرسل لهذا الغرض أرنولف Arnulf صاحب تل باشر[2] ، الذى كان أسيراً لدى شيركوه فى معركة البابين واقترح « أن ينصرفوا كلهم عن مصر » وذلك بسبب الشدائد والأهوال التى عانها شيركوه أثناء إقامته بمصر[3] . وقد وافق عمورى على الصلح نظرا لما قام به نور الدين من الهجوم على معاقل الصليبيين فى الشام وفتح حصن المنيطرة وبعض القلاع الأخرى[4] . وعاد شيركوه إلى بلاده فى الثامن عشر من ذى القعدة ٦٦٢ هـ[5] (١١٦٦ – ١١٦٧ م) وبعد جلاء شيركوه عن مصر إتفق الصليبيون مع شاور أن تكون لهم حامية بالقاهرة وتكون أبوابها بيد فرسانهم للحيلولة دون دخول عساكر نور الدين اليها ، هذا بالاضافة إلى مائة الف دينار من دخل مصر سنويا[6] . وبذلك تأكدت الحماية الصليبية على مصر[7] ، وترتب على هذا سباق نورى صليبى لحر على مصر[8] .

منذ عودة شيركوه وعمودى من مصر وفكرة العودة اليها لا تغيب عن بال أى منهما . ورأى عمورى الاستعانة بالامبراطورية البيزنطية لتنفيذ هذا المشروع الذى لا يمكنه القيام به بمفرده نظراً لموقف القوات النورية من حملاته السابقة على مصر . فأرسل سفارة إلى القسطنطينية على رأسها المؤرخ وليم الصورى

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٢١٥ .

(٢) William of Tyre..op. cit., II, pp. 339 - 340

(٣) ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٨ .

(٤) Setton, A History of the Crusades, 1, p.

(٥) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٢ .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٣ ، الحافظ الذهبى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٤، ابن الوردى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٢ ، ابن الشحنة : المصدر السابق ص ١٣٧ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٤٩ .

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٦٢ .

(٨) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ص ١٨ .

للاتفاق مع الإمبراطور البيزنطى مانويل الأول Manuel I (١١٤٣ - ١١٨٠ م / ٥٤٧ - ٥٧٦ هـ) على قيام حملة صليبية بيزنطية للاستيلاء على مصر وإقتسامها فيما بينهما[١] . وقد تم الإتفاق على ذلك ، ولكن مجرى الحوادث حال دون تنفيذ هذه الاتفاقية - فى تلك السنة - وتقدم عمورى بجيشه إلى مصر قبل أن يعود وليم الصورى إلى بيت المقدس[٢] .

وبداية حوادث هذه الحملة أن الحامية الصليبية الموجودة بالقاهرة كتبت إلى عمورى تستدعيه لإمتلاك مصر « وأعلموه خلوها من موانع وهونوا أمرها عليه »[٣] . ولكن عمورى خشى الإقدام على ذلك خشية مقاومة الشعب المصرى ، ولعل مما يشرف مصر وتاريخها أن يعمل الصليبيون حسابا لشعب مصر فى الوقت الذى يدركون فيه ضعف الحكام وانحلالهم[٤] . ولما كان الصليبيون يطمعون فى إمتلاك مصر فقد الح الفرسان على ملكهم عمورى بأعداد حملة لغزو مصر وهونوا عليه الامر بأنه كشف عوراتها من قبل[٥] ، فأعد جيشا كبيراً لهذا الغرض ناكثا الوعود التى استقرت من قبل بسبب طمعه فى مصر[٦] . وتظاهر الجيش الصليبى بأنه قاصداً مدينة حمص ولكنه جد فى السير فى الطريق إلى مصر . ويقال أن عمورى عندما وصل إلى الداروم قرب غزة ، كتب إلى شاور يقول له « إننى قصدت إلى الخدمة ، على ما قررته إنما جعلته لك منى متى إحتجت إلى نجدتك ، إذا قدم على عدو ، فأما مع خلو بالى من الأعداء فلا حاجة لى إليك »[٧] . ولكن عمورى كان طامعا فى مصر ولم

---

(١) William of Tyre op. cit., II, p. 349.

(٢) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) ابن الاثير ، المصدر السابق جـ ١ ، ١ ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، أبو شامة ، المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٤ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٩٦ .

(٥) أبو المحاسن ، المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٥٠ .

(٦) ابن شداد ، المصدر السابق ص ٨ .

(٧) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ جـ ١ ص ٢١ .

يكن ما كتبه – إن صح ذلك – إلا حجه واهية لدخولها ، فواصل سيره حتى وصل إلى بلبيس فى صفر ٥٦٤ هـ (نوفمبر ١١٦٨م) ، وحاصر الصليبيون المدينة واستولوا عليها عنوة وعاثوا فيها فسادا وأقاموا بها خمسة أيام[١] . وعزم عمورى على السير إلى القاهرة بتشجيع من بعض أعيانها ، فقام شاور باحراق مدينة الفسطاط فى التاسع من صفر (١٢ نوفمبر) حتى لا يملكها الصليبيون وظلت النيران مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما[٢] .

وفى هذه الاثناء كتب الخليفة الفاطمى العاضد إلى نور الدين يستنجد به على الصليبيين وبذل له ثلث البلاد المصرية وأرسل فى الكتب شعور نساء القصر ، ويروى إبن شداد أن شاور هو الذى كتب إلى أسد الدين يستصرخه ويستنجده »[٣] ، بينما يذكر أبو المحاسن أن شاور « لم يجد بدا من مكاتبة نور الدين بأمر الخليفة العاضد »[٤] كما أرسل شاور فى نفس الوقت إلى عمورى يعرض عليه الصلح وحقن الدماء والجلاء عن مصر مقابل « أربعمائة ألف دينار وقيل ألفى ألف دينار يعجل منها مائة ألف دينار ».ووافق عمورى على ذلك وحمل إليه شاور مائة الف دينار على دفعات وأخذ يماطله فى الباقى إنتظارا لقدوم عساكر نور الدين[٥] . فجهز أسد الدين شيركوه الذى إصطحب معة صلاح الدين على كره منه ، ولم يتمكن نور الدين من السير بنفسه إلى مصر خوفا على بلاده من الصليبيين وحتى يهاجمهم فى الوقت المناسب كعادته إذا ما واجه جيش شيركوه ضغطا صليبيا بمصر كما أنه كان منشغلا بأمر الموصل[٦] .

وكان عمورى بعد عقد الهدنة مع شاور قد إنسحب خارج القاهرة إنتظارا

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٤ .
(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٢١ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤٦ .
(٣) ابن شداد : المصدر السابق ص ٣٩ ، الحافظ الذهبى : جـ ٢ ص ٥٥ .
(٤) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٥٠ .
(٥) أبو شامة : المصدر السابق ص جـ ١ ص ١٧١
(٦) أبن شداد : المصدر السابق ص ٣٨ - ٣٩

للحصول على باقى المبلغ المتفق عليه، ولكن شيركوه فاجأهم بالهجوم فانسحب الصليبيون إلى بلبيس[(١)] . ولما وجد الصليبيون إتحاد القوات المصرية مع القوات الإسلامية الآتية من الشام بقيادة شيركوه شعروا أن بقاءهم بمصر أصبح مستحيلا فاضطروا للانسحاب إلى بلادهم وعادوا بخفى حنين خائبين[(٢)] ، وهكذا برهنت الحوادث، أن إتحاد مصر والشام ضرورى لإبعاد الخطر الصليبى .

زاد إنزعاج الصليبيين لحكم شيركوه لمصر وضياعها من أيديهم[(٣)] ، واتحاد القوات الإسلامية فى مصر والشام ، وأيقنوا أن ممتلكاتهم بالشام أصبحت « على شفا جرف هاو »[(٤)] . لذلك فاننا نجد عمورى يعمل على حشد القوى الصليبية ليقوم بعمل عسكرى كبير ضد مصر ليقضى على القوة الجديدة الناشئة فى مصر . وبدأ تنظيم قواته بالشام وأغرى فرسان الاسبتارية[(٥)] للمشاركة مشاركة فعالة فى مشروعه الجديد ، وذلك بمنحهم بعض الامتيازات الاقطاعية والمالية فى مصر[(٦)] . واتصل بالامبراطور البيزنطى مانويل ليجدد معه اتفاقية عام

(١) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٧١

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٢٢٣

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٣٢١

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٧٩

(٥) الاسبتارية : Hospitallers ويعرفون أيضا بفرسان القديس يوحنا . أنظر : جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على بلاد الشام ص ٢٣٥ حاشية (١) ، وهم من الفرسان الصليبيين ، وقد تأسست جماعتهم سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وكان هدفها الأول علاج المرضى وايواء الحجاج ومساعدتهم . ولكنها تطورت فاصبح أعضاؤها رجالا يلبسون مسوح الرهبان ويقاتلون من فوق ظهور الخيل فى نفس الوقت . راجع : العماد الاصفهانى : المصدر السابق ص ٦٢ حاشية (٧) . وقد لعبت هذه الجماعة دورا كبيرا فى تاريخ الحركة الصليبية عندما تحولت إلى القتال . وللمزيد من التفاصيل عن تأسيس هذه الجماعة والدور الذى قامت به ، إنظر : حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٩٦ - ٩٧ ، راجع أيضا :
King, The knights Hospitallers, pp. 1-51

(٦) **King, op. cit., pp. 110-1**

١١٦٨ م ، التى أبرمها المؤرخ وليم الصورى من أجل غزو مصر[١]. وفى الوقت نفسه إستنجد بفرنسا وصقلية وبقية الغرب الأوربى[٢]، وأخبرهم أن الصليبيين أصبحوا « خائفون على بيت المقدس »[٣]. ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى طعن شيركوه من الخلف وكاتب بعض أعيان المصريين لمساعدته على تنفيذ فكرته[٤]، ويضمن القضاء على شيركوه قضاءاً نهائياً ، وبذلك هيأ الملك عمورى الظروف داخليا وخارجيا للقيام بغزوته على مصر .

وبعد أن قام عمورى باعداد الترتيبات اللازمة داخل مملكته الصليبية لهذه الغزوة قام الامبراطور البيزنطى بارسال حوالى خمسين ومائة سفينة محملة بالجنود بالاضافة إلى ستين سفينة لنقل المعدات[٥]، وحوالى عشر أو اثنى عشر سفينة أخرى ، ووصلت هذه السفن إلى صور ثم اتجهت منها إلى عكا[٦]. ومن الملاحظ أن أوربا لم تشترك ولم تستجب لنداء عمورى ، وربما يرجع ذلك إلى مشاكلها الداخلية فى هذه الفترة ، ورغم ذلك فان عمورى صمم على غزو مصر مكتفيا بالتحالف البيزنطى الصليبى . وكانت الخطة الصليبية البيزنطية هو القيام بغزو مدينة دمياط برا وبحرا « ويتخذونها ركابا للاستيلاء على مصر »[٧] وتنفيذا لذلك يقوم الإسطول البيزنطى بحصار دمياط بحرا ويقوم عمورى وقواته بحصارها برا فيسهل عليهم بذلك الاستيلاء عليها . واتجه الإسطول من

---

(١) William of Tyre, op cit., 11, p 349

(٢) عن وسائل عمورى إلى الغرب الأوربى أنظر :

Bouquet, Recueil des Historiens des Gaules et la France, XVI, pp. 187-8.

(٣) ابن الاثير : المرجع السابق جـ ١١ ص ٢٣١ .

(٤) المقريزى الأثير : الخطط جـ ١ ص ٢٣١ .

(٥) Fabri, op. cit., vol 2, p.I, P. 329.

(٦) Schlumberge, op. cit., 7. 269.

(٧) ميشيل أمارى : المكتبة الصقلية جـ ٤ الملحق ص ٨ .

عكا إلى دمياط وسار عموري بجيشه من عسقلان[١] في أول ذى الحجة عام ٥٦٥ هـ (١٦ أغسطس ١١٦٩ م) متخذا الطريق الساحلى ولكنه إضطر للاتجاه إلى الفرما لصعوبة السير على الساحل فوصلها فى التاسع من محرم عام ٥٦٦ هـ (٢٥ أغسطس ١١٦٩ م) ومنها إتجه إلى دمياط فوصلها بعد يومين وحاصرها ، أما السفن الصليبية فقد تمكنت من دخول فم النيل ولكنها لم تستطع التقدم أكثر من ذلك – وظلت فى موقع بين البحر والمدينة – لوجود برج دمياط ذو السلاسل الحديدية[٢].

وكان صلاح الدين قد علم بأخبار هذه الحملة من قبل وصولها إلى دمياط ، لذلك قام بتحصين بلبيس والاسكندرية والقاهرة ظنا منه أن الحملة ستسلك إحدى الطرق التى سلكتها فى الحملات السابقة[٣] . وبقى صلاح الدين بالقاهرة خشية قيام مؤامرة شيعية ضده[٤]. ولما علم بحصار القوات المتحالفة لدمياط أرسل اليها السلاح والرجال بقيادة ابن اخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين[٥] ، كما أرسل عددا كبيرا من السفن التى اتخذت طريقها إلى الشمال فى فرع دمياط لنجدة المدينة[٦]. وفى الوقت نفسه أرسل إلى نور الدين فى دمشق يخبره بما حدث ، فقام نور الدين بارسال الإمدادات لمصر كما قام بالاغارة على ممتلكات الصليبيين فى الشام كعادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبى[٧] .

---

(١) سقطت مدينة عسقلان فى يد الصليبيين عام ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) أنظر : ابن القلانسى المصدر السابق ص ٣١٩ – ٣٢٠ ، ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ١٢٤ – ١٢٥ .

William of Tyre, op. cit. II p. 363.

(٢) وعن برج دمياط والسلاسل الحديدية أنظر الفصل الخامس من الكتاب .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق جـ ٢ ص ٧١٢ .

(٤) النويرى الكندى . المصدر السابق جـ ٢٦ لوحة ١١٦ ، ابن خلدون . العبر جـ ٥ ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

(٥) أبو شامة . المصدر السابق جـ ١ ص ١٨١ .

(٦) William of Tyre, op. cit., II. p. 364.

(٧) ابن الاثير . المصدر السابق جـ ١١ ص ٢٢١ ، ابن واصل . المصدر السابق جـ ١ ص ١٨١ .

ظل حصار القوات الصليبية والبيزنطية بحرا لدمياط مدة خمسين يوما إستمرت خلالها الاشتباكات العسكرية من الجانبين ، ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها بسبب الإمدادات التي وصلت اليها وقلة المواد التموينية لدى المهاجمين[١] ، هذا بالاضافة إلى ما أشيع داخل المعسكر الصليبى بأن البيزنطيين ينوون الإحتفاظ بالمدينة لأنفسهم بعد سقوطها[٢] ويذكر وليم الصورى أن سبب فشل الاستيلاء عليها هو عدم الهجوم عليها برا وبحرا فى الوقت المناسب[٣] .

وعندما أيقن الصليبيون فشل الإستيلاء على دمياط أحرقوا كل آلات الحصار فى الحادى والعشرين من ربيع الأول عام ٥٦٥ هـ / ١٦ ديسمبر ١٩٦٩ م ، حتى لا يستولى عليها المسلمون ، وجلت القوات الصليبية البيزنطية عن دمياط[٤] وبهذه الحملة تنتهى الحلقة الأخيرة من حلقات الصراع على مصر بين عمورى ونور الدين ، فقد مات كل منهما بعد قليل وظهر على مسرح الحوادث صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية[٥] .

وإن كان هذا الصراع إنتهى بقيام الدولة الايوبية فى مصر فانه فى الحقيقة أكد لنا مدى أهمية مصر للشام سواء إلى الجانب الإسلامى أو إلى الجانب الصليبى ، فقد حاول كل من الجانبين إمتلاك مصر ليقوى بها على الآخر ، وبعد أن تمكن صلاح الدين من توحيد الجبهة الإسلامية بمصر والشام من أنزل أعنف الضربات بالصليبيين وألحق بهم أشد الهزائم ، وهو ما كان يدركه

---

(١) Jacque de Vitry, op. cit., P. 25.

(٢) Runciman, op. cit. 11, p. 387.

(٣) William of Tyre, op. cit., 11, p 315.

(٤) ولمزيد من التفاصيل أنظر المؤرخ البيزنطى Nicetas op cit., pp. 208-210. وابن شداد : المصدر السابق ص ٤٣ .

(٥) ابن واصل ، المصدر السابق جـ ١ ص ١٦٨ وما بعدها ، جمال الدين الشيال . تاريخ مصر الإسلامية جـ ١ ص ٢٦١ – ٢٦٦ ، جـ ٢ ص ١٢ – ٢٠ ، راجع أيضا : عمر كمال توفيق مملكة بيت المقدس ص ١٨٢ ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٢٧ .

الصليبيون وعملوا على إمتلاك مصر ليضمنوا أمنهم فى إماراتهم الصليبية بالشام .

بعد أن تمكن صلاح الدين من مصر طلب منه نور الدين قطع الخطبة للخليفة الفاطمى العاضد وإقامتها باسم الخليفة العباسى فى بغداد ، وقد وافق صلاح الدين بعد تردد على القيام بهذا العمل ، وتم ذلك فى خطبة يوم الجمعة السابع من محرم عام ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر ١١٧٤ م) دون علم الخليفة الفاطمى لمرضه ولم يلبث أن توفى بعد ثلاثة أيام[١] . وبذلك إنتهى حكم الخلافة الفاطمية لمصر نهائيا . والمهم أنه لم يرض بما حدث بعض كبار رجال الشيعة فى مصر لأن الحكومة الجديدة قطعت أرزاقهم وأخذت أموالهم[٢] ، وهم الذين كانوا يتصرفون فى الخلافة الزائلة . لذلك أخذ هؤلاء الشيعة يتآمرون للقضاء على النظام الجديد وإعادة الخلافة الفاطمية وكان على رأس هؤلاء المتآمرين الشاعر عماره اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى الأعز سلامة العوريس ، والقاضى المفضل ضياء الدين ، والشريف الجليس ، ونجاح الحمامى وداعى الدعاة عبد الجبار بن اسماعيل ، والواعظ زين الدين بن نجا[٣] . ومهد المتآمرين لذلك باضعاف قوات صلاح الدين عندما زين الشاعر عمارة اليمنى لشمس الدولة توران شاه أخ صلاح الدين فتح بلاد اليمن لبسير القوات الصلاحية إليها . وقد وافق صلاح الدين على هذا الفتح لتكون اليمن ملاذا له إذا ما فكر نور الدين فى دخول مصر . وبعد أن اطمأن المتآمرون إلى خروج توران شاه بالجيش ، بدأوا يضعون خطة عملهم موضع التنفيذ وذلك باستدعاء القوات الصليبية من ساحل الشام ومن صقلية للقدوم إلى مصر ، وإتفقوا معهم « على شىء بذلوه لهم من المال والبلاد »[٤] وكانت فرصة للصليبيين لتحقق

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٢٤١ ٢٤٢ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٠ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٣ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٢٦٠ – ٢٦١ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٠ .

أطماعهم وغزو مصر لا سيما أنهم « عملوا تغيرات الأحوال بالديار المصرية »[1]. بعد ما زاد يقينهم مرة بعد أخرى أن مصر هى مصدر الخطر الرئيسى على ممتلكاتهم بالشام[2].

ولكى يتصل الصليبيون بالمتآمرين فى القاهرة أرسلوا رسولا منهم إلى صلاح الدين « بهديه ورسالة وهو فى الظاهر اليه والباطن إلى أولئك الجماعة[3] وعن طريق هذا الرسول تم الاتفاق على تنفيذ المؤامرة فى « ليلة عينوها .. وقرروا معهم الوصول اليهم فى ذلك الزمان »[4]. ويبدو أن الاتفاق تم على وصول القوات الصليبية من الشرق فى الوقت الذى يهاجم فيه الأسطول الصقلى مدينة الاسكندرية ، فيتحرج موقف صلاح الدين ، فان خرج لملاقاة أى من الطرفين سهل على الطرف الآخر غزو البلاد بمساعدة المتآمرين ، وان لم يخرج للقتال وأناب عنه بعض قواده ، أصبح بدون جيش ويسهل على المتآمرين القبض عليه ، ولكن إبن نجا أخبر صلاح الدين بالمؤامرة[5]. فطلب منه مسايرة المتآمرين وأن يكون على صلة دائمة به ليطلعه على ما يدبره المتآمرون فى حينة[6] وفى الوقت نفسه كلف صلاح الدين أحد الأقباط لثقته به فى مراقبة الرسول الصليبى[7] ، وفى ذلك دلالة ذات معنى قوى فى تاريخ الوحدة الوطنية فى مصر . وبعد أن تأكد صلاح الدين من حقيقة المؤامرة قبض على المتآمرين الذين اعترفوا بما يدبروه فأمر بصلبهم[8].

بالقضاء على التآمر فى مصر أنهار أحد أركان المؤامرة الثلاثة ، وبقى

---

(١) ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٨ .

(٢) Setton, op. cit. 1. p. 566.

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٢٦٣ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٠ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٥٣ .

(٦) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٢٦٣ .

(٧) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٤٥ .

(٨) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٢٠ .

الجانبان الصليبي والصقلي . أما من جهة الصليبيين بالشام فان الزمن لم يمهل عموري لتحقيق أمله وحلمه الكبير وهو غزو مصر ، فلم يلبث أن مات فى الحادى عشر من يوليو عام ١١٧٤ م(١) . وبذلك إنهار الجانب الثانى فى المؤامرة ولم يبقى سوى الجانب الصقلى . ورغم علم وليم الثانى William II ملك صقلية (١١٦٦ - ١١٨٩ م) بفشل المؤامرة والقبض على المتآمرين فقد أعد عدته للاغارة على الاسكندرية تدفعه الرغبة فى الحصول على المجد والثروة(٢) . وربما يكون ذلك مرجعه إلى الصراع الذى كان دائرا بين صقلية والامبراطورية البيزنطية فى هذه الفترة(٣) وما رآه وليم الثانى من تحالف بيزنطه والصليبيين لغزو مصر عام ١١٦٩ م ، وكان ذلك يقوى مركز الامبراطور فى الشرق وبالتالى على صقلية فرأى وليم الثانى الاستحواذ على مصر حتى لا تقع فى يد أعدائه البيزنطيين ولكى يقوى بها عليهم . لذلك أرسل وليم الثانى أسطولا عظيما مكونا من مائتى سفينة(٤) ، تحت قيادة تانكرد Tancred, Count of Lecce إلى الاسكندرية(٥) . ويذكر إبن شداد أن الإسطول كان مكونا من ستمائة قطعة ما بين شينى(٦) وطراده(٧) وبسطه(٨) ، وغير ذلك ، وأن جملة العساكر بلغت

---

(١) William of Tyre, op. cit., II, p. 399.

(٢) أومبرتو ريتزتيانو : صفحة من تاريخ العلاقات بين وليام الثانى النورمانى وصلاح الدين الأيوبى : انظر : مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية - ١٩٤٩ - ص ٤٧ - ٥٨ .

(٣) Vasiliev, A, A. History of the Byzantine Empire, II pp. 76 ff.

(٤) William of Tyre, Ibid.

(٥) Runciman, op, cit., II, p. 408.

(٦) الشيشنى : أقدم أنواع السفن الرومانية وزادت أهميتها فى العصور الوسطى ، وكانت من أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلة ، وعليها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم وكان متوسط ما يحمل عليها من الرجال مائة وخمسون رجلا ، ولها حوالى مائة مجداف . انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٠ .

(٧) الطرادة . أو الطريدة ، وهى سفن كانت مخصصة لحمل الخيل وتتسع الطريدة الواحدة لحمل أربعين فرسا ، وكانت تفتح عادة من الخلف حتى تصعد اليها الخيل ، كذلك تستخدم لحملة المقاتلة والمؤن والسلاح ، كما كانت تستخدم لانتقال الناس . أنظر : السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية ص ١٣٥ ، ابن مماتى ، المصدر السابق ص ٣٣٩ . =

ثلاثين الفا[1] ، بينما يذكر أبو شامه أن الحملة تكونت من مائتى شينى لحمل الرجال وستة وثلاثين طريده لحمل الخيل وست مراكب كبار لحمل الآلات الحربية وأربعين مركبا لحمل المواد التموينية وأن جملة العساكر كانت خمسين ألفا[2] ويضيف إبن الأثير إلى ما ذكره أبو شامة ألف وخمسمائة تركبلى[3] . وعلى أية حال فان ذلك يصور لنا مدى ضخامة الحملة التى هاجمت الاسكندرية ، كما يدل على أن الحملة لم تكن تنوى الاغارة بغية السلب والنهب وإنما كانت تبغى الإقامة بمصر إذا تمكنت من ذلك .

هاجم الاسطول الصقلى مدينة الاسكندرية فى السادس والعشرين من ذى الحجة عام ٥٦٩ هـ (يوليو ١١٧٤ م)[4] ، على حين غفلة من أهلها ، فسارع أهل المدينة لمقاومة المعتدين ولكن والى المدينة منعهم من ذلك وأمر بملازمة سور المدينة فمكن بذلك الأعداء من إغراق بعض السفن الإسلامية الراسية فى الميناء ، كما تمكنوا أيضا من إنزال جنودهم مما يلى المنارة[5] ، وأقاموا ما يقرب

= البطسة : نوع من المراكب عظيم الحجم كثير القلوع يصل عددها إلى حوالى أربعين شراعا ، وهى أشهر أنواع السفن الصليبية ، وكانت تزود بالمنجانيقات والمقاتلة والأسلحة والذخيرة وسائر الآت الحرب فضلا عن المؤن اللازمة . وكانت ذات سطح عالية وطبقات متعددة كل منها خاص بفئة من الجند الذين يصلون إلى ستمائة وخمسين جندى أو أكثر . أنظر أحمد مختار العبادى والسيد عبد العزيز سالم . المرجع السابق ص ١٣٦ ، سعاد ماهر . البحرية فى مصر الإسلامية ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(١) ابن شداد : المصدر السابق ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) ابن شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣٤ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٢٧٢

(٤) **William of Tyre, op. cit., 11, 399 n6**

(٥) هى منارة الاسكندرية ، وكانت قائمة على الزاوية الشرقية من جزيرة فاروس عند مدخل الميناء وقد شيدها المعمارى اليونانى Cnidos Tostratos سنة ٢٩٠ ق . م . وفرغ منها عام ٢٨٠ ق . م فى عهد بطليموس الثانى ٣٨٥ - ٣٤٧ ق . م وكان ارتفاعها ٤٥٠ قدما وقاعدتها مربعة ووسطها مستدير، وكانت النار توقد فى أعلاها لهداية السفن وكانت ترى على أكثر من ٧٠ ميلا أنظر : بنيامين التطيلى . رحلة بنيامين التطلى ص ١٧٧ وحاشيه رقم (٣) ، راجع أيضا رحلة ابن جبير ص ١٤٩ . ومقام مكانها حاليا قلعة قايتباى التى شيدت عام ١٤٨٠ م . انظر : محمد عواد حسين وآخرين . تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٣٠ .

من ثلاثمائة خيمة ونصب ثلاث دبابات بكباشها وثلاث منجانيقات كبار لضرب المدينة تضرب بحجارة سوداء إستصحبوها من صقلية ، وتعجب المسلمون من شدة ضربها وعظم حجمها[1] . ورغم كل هذا لم تستلم المدينة وأبلى أهلها بلاء حسنا فى الدفاع عنها وأظهروا رباطه جأش وشجاعة نادرة المثال قبل أن تصل لهم الإمدادات من القاهرة[2] . وكان صلاح الدين بمدينة فاقوس عندما كتب إليه أهل الاسكندرية يبلغوه أنباء هذا الهجوم فبلغه الخبر فى اليوم الثالث لهجوم الاسطول[3] ، فأمر بارسال القوات إلى مدينة دمياط خشية مهاجمة الصليبيين لها أيضا كما أرسل فى الوقت نفسه القوات إلى الإسكندرية للدفاع عنها ، فتشجع أهل الاسكندرية بالقوات التى وصلت اليهم وزاد حماسهم فى الدفاع عن مدينتهم عندما سمعوا بقرب وصول صلاح الدين اليهم وهاجموا المعتدين وإنقضوا على خيامهم ، وغنموا ما بها ، وحاول بعض الجنود الصقليين تقريب سفنهم من الساحل لحمل أمتعتهم وزملائهم إستعدادا للفرار ، ولكن المسلمون لم يمكنوهم من ذلك ، إذ غاص بعضهم فى الماء وأحرق بعض الشوانى فغرقت ، فدب الرعب فى قلوب الأعداد وأقلعوا بسفهم وما عليها من الجنود الذين تمكنوا من اللحاق بها ، وبقى حوالى ثلاثمائة من الفرسان تعذر عليهم اللحاق باخوانهم فاحتموا بأحد التلال ولكن المسلمون قاتلوهم ومن نجا من القتل وقع فى الاسر[4] . هكذا فشل الجانب الثالث والأخير من المؤامرة .

ويبدو أن الهزيمة التى لحقت بالصقليين جعلتهم يقومون بالاغارة على مصر مرة بعد أخرى ، ومرجع ذلك شدة طمعهم فى مصر ، ففى عام ٥٧١ هـ (١١٧٥ — ١١٧٦ م) وصل إلى نيس نحو أربعين سفينة وحاصروا المدينة

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤ .

(٢) أومبرتو ريتزيتانو : المرجع السابق ص ٥٥

(٣) المقريزى : السلوك . جـ ١ ق ١ ص ٥٧ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١١ ص ٢٧٣ ، راجع أيضا عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٧٧ ، جوزيف نسيم يوسف . العدوان الصليبى على مصر ص ٢٦
Crousset, Histoire des Croisades, 11, pp. 594-597

مدة يومين ، ولكنهم لم ينالوا منها شيئا فأقلعوا ، وعادوا الكره مرة أخرى على المدينة نفسها عام ٥٧٣ هـ (١١٧٧ - ١١٧٨ م) ، وربما يكون مرجع هذه الغارة الأخيرة هو الترتيبات التى أعدتها الامبراطورية البيزنطية مع بلدوين الرابع (١١٧٤ - ١١٨٥ م) ملك مملكة بيت المقدس من قيام حملة مشتركة يتولى قيادتها فيليب كونت فلاندرز Philip Count of Flanders للهجوم على مصر(١) ، فيقوى نفوذ بيزنطة فى الغرب خاصة فى جنوب إيطاليا . والمهم أن الصقليين هاجموا مدينة تنيس بحرا وقاتلوا أهلها حتى استولوا عليها ، ولم يتمكن محمد بن إسحق قائد الأسطول المصري من نجدة المدينة فى أول الأمر ولكنه تمكن من الوصول إلى المدينة ليلا ومعه بعض العساكر وهجم على المعتدين وهم فى غفلة وأسر منهم مائة وعشرين وقطع رقابهم ، ودار قتال بين الفريقين قتل فيه من المسلمين حوالى سبعين رجلا وهرب الباق إلى دمياط وقد تمكن الصقليون من إضرام النار فى مدينة تنيس فأحرقوها وعادوا إلى بلادهم وقد إمتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى بعد أن أقاموا بالمدينة أربعة أيام(٢) . وهذا يوضح لنا مدى الأطماع الأوربية فى مصر لا من مراكزهم الصليبية فى الشام بل من المراكز الرئيسية فى أوربا .

سبق أن أشرنا إلى تحالف بلدوين الرابع مع الامبراطورية البيزنطية لغزو مصر ، ومرجع هذا التحالف هو أن بلدوين الرابع تبنى فكرة غزو مصر كسلفه عمورى الأول . وقد لاحت له الفرصة عندما وصل فيليب كونت فلاندرز ومعه عدد كبير من الاتباع إلى الاراضى المقدسة وإستبشر بلدوين والصليبيين بقدومه خيرا لما عرف عن والده من تحمسه للحركة الصليبية(٣) . ويبدو أن الصليبيين إعتقدوا أنه لا يقل حماسا عن والده وجدد فى نفس بلدوين

---

(١) William of Tyre, op. cit., II. p. 420

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٣) Runciman, op. cit., pp. 414-5.

الامل فى عزو مصر . ومما شجع بلدوين أيضا على غزو مصر أن سفراء الامبراطور البيزنطى مانويل الأول (١١٤٣ - ١١٨٠ م) كانوا لديه يعرضون عليه القيام بعمل مشترك لغزو مصر ، وقد جاءت هذه السفارة عقب هزيمة مانويل أمام السلاجقة فى موقعة ميريوكيفالوم Myriocephalum سنة ١١٧٦ م وربما لجأ مانويل إلى تجديد فكرة غزو مصر بعد هذه الهزيمة أمام السلاجقة فى آسيا الصغرى[١] . وإستعد مانويل للمشروع الجديد وأرسل إلى عكا أسطولا مكونا من سبعين سفينة عليها قوة كبيرة من المحاربين لهذا الغرض[٢] .

ولما كان بلدوين لازال فى دور النقاهة من مرض الملاريا ، فقد طلب من فيليب تولى قيادة الحملة[٣] ، يعاونه فى ذلك رينو أف شاتيون Reynald of Chatillon (أرناط) صاحب حصن الكرك[٤] ، ولكى يغريه للقيام بهذا العمل وعده بالوصاية على مملكة بيت المقدس ، ولكن فيليب خشى القيام بهذا العمل رغم ما عرض عليه من وصاية ومال ومساعدة بيزنطية وتعلل بأنه أتى إلى فلسطين لتزويج إبنتى عمه الاميرتين سبيلا Sibylla وإزابيلا Isabella من ولدى أحد أتباعه المخلصين وهو روبرت أف بيتون Robert of Bethune.وأثار رفض فيليب غضب فرسان بيت المقدس الطامعين فى الديار المصرية ، ولكنه لم يعبأ بذلك[٥] . وبذلك فشل المشروع البيزنطى الصليبى فى غزو مصر[٦] .

وبعد فشل المشروع الصليبى البيزنطى قام الصليبيون بالعمل من جانبهم وأغاروا على مدينة تنيس والعريش مرتين فى عامين متتاليين ، وكانت الأولى عام

---

(١) عن هذه الموقعة أنظر : Nicetas, op. cit., pp. 236 ff

Cinnamus ap cit., p. 279 . Roger of Hovenden. Chronicle 11, p. 101.

(٢) William of Tyre, op. cit.11. p. 422.

(٣) Rohricht, op. cit., p. 310

(٤) Schlumberger, Renau de Chatillon, p. 143.

(٥) William of Tyre, op. cit. II, pp. 421 - 2

(٦) Setton, op. cit., I, p. 595.

٥٧٦ هـ (١١٨٠ — ١١٨١ م) حيث نزل إفرنج عسقلان بالسفن على مدينة تنيس وتمكنوا من أسر جماعة من أهل المدينة ، وكان على مصر فى ذلك الوقت العادل من قبل أخيه صلاح الدين الأيوبى الذى كان بالشام فى هذه الفترة . وبعد أن نهب المعتدون ما وقع تحت أيديهم تمكن أهل المدينة من القبض على قائدهم فقطعوا يديه ورجليه وصلبوه[1]، وذلك جزاء لما اقترفت يداه .

أما المرة الثانية فكانت فى شهر ربيع الأول سنة ٥٧٧ هـ (يوليو — أغسطس ١١٨١ م) عندما استولى الصليبيون على إحدى المراكب المصرية التجارية وقاموا بأعمال السلب والنهب فى جمادى الآخرة (اكتوبر — نوفمبر) من العام نفسه ، عندما هاجمو مدينة العريش وقطعوا عددا كبيرا من النخل وحملوه إلى بلادهم[2] ومن الواضح أن هذه الأعمال كانت بغرض السلب والنهب ومن الغارات عديمة الجدوى .

والحقيقة الماثلة أمامنا الآن أن فكرة غزو مصر لم تغب عن بال الحكام الصليبيين فى مملكة بيت المقدس يشاركهم فى ذلك الامبراطورية البيزنطية ومملكة صقلية . وجدير بالذكر أن هذه الفكرة راودت أفكار ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا عندما أتى إلى الشام عام ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) مع فيليب أغسطس ملك فرنسا على رأس الحملة الصليبية الثالثة . فقد آمن ريتشارد بضرورة غزو مصر ، وكان يرى أنه لا سبيل لاستعادة بيت المقدس إلا بالاستيلاء على مصر[3] . ولذلك خطط مع الجنيويين لهجوم مباشر على مصر بعد الاستيلاء على عكا[4]، ولكنه لم يتمكن من تنفيذ ذلك المشروع ، وربما يكون ذلك بسبب الظروف التى أحاطت بريتشارد نفسه ، وعندما عزم على الرحيل إلى بلاده فى أكتوبر ١١٩٢ م ، لم يكن يدور برأسه سوى أن الاستيلاء

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٩٢ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢١ ص ٧٢ ، ٧٤ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٣٥

(٤) Heyd, Histoire du Commerce, p. 400.

على مصر هو السبيل الوحيد لاستعادة مملكة بيت المقدس كما آمن بهذه الفكرة أيضا بعض رجاله قبل رحيلهم إلى بلادهم[1].

مما تقدم يتضح لنا بجلاء أن فكرة غزو مصر كانت هدفا رئيسيا من أهداف الحركة الصليبية الماثلة فى مملكة بيت المقدس ، فضلا عن المتعصبين للحركة الصليبية فى أوربا والامبراطورية البيزنطية طوال القرن الثانى عشر الميلادى - السادس الهجرى ، وتبين لنا أيضا الغارات والحملات والمشروعات والأفكار التى دارت فى رأس القادة الصليبية بقصد السيطرة على مصر أو النيل منها كلما أمكن لهم ذلك ، ولكنها باءت جميعها بالفشل لصلابة الجبهة المصرية وأصالة الشعب المصرى بكل طوائفه - عدا قلة من ذوى الأغراض الشخصية - من جهة أخرى ، هذا بالاضافة إلى تكاتف الجبهة الإسلامية فى الشام ومصر ، خاصة بعد زوال الخلافة الفاطمية وتوحيد القيادة الإسلامية فى مصر والشام .

ومع بداية القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) ظلت مصر هدفا رئيسيا للصليبيين ، وأيقنوا بعد تجارب مائة عام أن مصر هى قلعة الإسلام وحصنه المنيع وأن القضاء عليها يسهل السيطرة على العالم الإسلامى . لذلك قاموا باعداد حملة صليبية كبرى وهى المعروفة بالحملة الرابعة فى عام ١٢٠٤ م (٦٠٠ هـ) للاستيلاء على مصر ، ولكن هذه الحملة انحرفت عن هدفها لتستولى على القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية وتؤسس بها امارات لاتينية حتى عام ١٢١٦[2]. ومع ذلك قام صليبيو الشام بالإغارة على مصر فى العام نفسه (١٢٠٤ م) ، كما أغاروا عليها أيضا عام ١٢١١ م (٦٠٨ هـ) . وربما كانت هاتان الغارتان بغرض السلب والنهب أو للحفاظ على هيبة الاوضاع الصليبية فى الشام ، أو ربما كانتا أيضا بغرض الاستكشاف إستعداداً لحملة صليبية أخرى ، إلا أنهما تصوران أن مصر لم تغب عن أعين الصليبيين وإعداد العدة لضربها فى الوقت المناسب ليتمكنوا من سحق باقى القوى

---

(١) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق نفس الصفحة .

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر : عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ١٥٩ وما بعدها

الإسلامية فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى ، وهذا ما تجلى فى الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة أو حملة جان دى برين .

ويجدر بنا قبل التعرض لأحداث الحملة أن نلقى الضوء على أحوال الشرق والغرب حتى يكون لدى القارىء خلفية مناسبة تساعده على تفهم أحداثها والظروف التى قامت فيها .

الفصل الثانى

أوربا والشرق قبيل الحملة الصليبية الخامسة

- مصر والشام قبيل الحملة .
- إشتباكات ومناوشات غير حاسمة بين المسلمين والصليبيين .
- أحوال الشرق اللاتينى : مملكة بيت المقدس – انطاكية – طرابلس – أرمينية – قبرص .
- الغرب الأوروبى : إيطاليا والبابوية – ألمانيا – فرنسا – إنجلترا – أسبانيا .
- الدولة البيزنطية : الحملة الصليبية الرابعة وآثارها – موقف البابوية من امبراطورية اللاتين فى القسطنطينية .
- حملتا الصبيان .

عندما وصلت طلائع تلك الحملة إلى مصر كان يحكمها سيف الدين ..دن ابن أيوب (٥٩٦ - ٦١٥ هـ / ١٢٠٠ - ١٢١٨ م) أخو ورفيق نضال صلاح الدين الأيوبى مؤسس الأسرة الأيوبية بمصر التى قام على أكتافها عبء الدفاع عن مصر والعالم الإسلامى ضد الغزو الصليبى .

وإن نظرة مدققة إلى أحوال مصر والشرق الأدنى الإسلامى قبيل الحملة تبين لنا أن الفترة منذ وفاة صلاح الدين حتى إستيلاء العادل على مصر كانت فترة معقدة مليئة بالتواريخ والأسماء والوقائع والأحداث التى أشارت اليها المصادر العربية بالتفصيل . وقد تخللها المناورات والصراعات والضغائن والأهواء . ونعرف أنه بعد وفاة صلاح الدين فى السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ (٤ مارس ١١٩٣ م) قسمت مملكته بين أولاده وأخوته فكان من نصيب إبنه الأكبر الأفضل دمشق والساحل وبيت المقدس وصرخدوبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم[١] ، بالاضافة إلى بصرى التى كانت بيد إبنه الملك الظافر خضر وهو فى خدمة أخيه الأفضل[٢] . أما الملك المجاهد أسد الدين شيركوه[٣] فتولى حمص والرحبة كما حكم الملك الامجد[٤] بعلبك وكلاهما فى خدمة الملك الافضل أيضا[٥] . وتولى حكم مصر العزيز صلاح الدين حيث كان بها عند وفاة أبيه فاستولى عليها ، وفيما يختص بابنه الملك الظاهر غازى فقد أخذ حلب وجميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وأعزاز وبرزويه ودربساك ومنبج وغير ذلك ، وأقام محمود بن تقى الدين على حماه وهو فى خدمة عمه الظاهر[٦] . وإذا كان ذلك ما آل لأولاده صلاح الدين من بعده فقد اختص

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٢ ص ٦٣ . انظر هذه المواقع على الخريطة رقم (١) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٣ ص ٤ .

(٣) المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بن صلاح الدين . أنظر . العماد الأصفهانى . الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٦٣٤ .

(٤) الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب . أنظر . أبو المحاسن . النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(٥) العماد الأصفهانى : المصدر السابق ص ٦٣٣ .

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٦٣ .

أخوه الملك العزيز سيف الإسلام باليمن(٢) ، ولم يظفر العادل من هذه التركة إلا بالكرك والشوبك والرها وسميساط والرا(١) وقلعة جعبر وديار بكر وميافارقين(٢). وتوزعت باقى البلاد والحصون على جماعة من أمراء الدولة الأيوبية(٣).

ويهمنا فى هذا الموضع من البحث الملك العادل الذى تمكن من بسط نفوذه على معظم أملاك أخيه وتولى حكم المملكة الايوبية . فقد كان العادل يرى أن الاقطاعات التى يحكمها لا تتناسب مع أهميته ونضاله باعتباره رفيق صلاح الدين فى الكفاح ضد الصليبيين ، كما أن العادل لم يكن بالذى يتقوقع فى مكانه تاركا الحوادث تسير على هواها(٤) . ولاحت له الفرصة عندما بدأ الخلاف يدب بين ولدى أخيه الافضل والعزيز ، إذ إستهل الأفضل حكمه بابعاد أكابر أمراء أبيه وأصحابه وأقبل على اللهو والشراب تاركا الأمور لوزيره ضياء الدين ابن الاثير(٥) . فاساء التصرف فى أمور الرعية(٦) ، كما زين للأفضل التنازل عن بيت المقدس لأخيه العزيز لانها « تحتاج إلى أموال ورجال وكلفة عظيمة » فسر بذلك العزيز وشكر الأفضل . ولكن ولاة القدس خافوا من محاسبة العزيز لهم فاتفقوا مع الافضل على بقاء القدس بأيديهم دون الحاجة إلى أموال الافضل فوافق وكتب إلى أخيه بذلك « فتغير لذلك الملك العزيز وتكدر باطنه »(٧). وبدأت العلاقات تسوء بين الاخوين . وزين الامراء الصلاحية(٨) للعزيز

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٣ .

(٢) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ١٢١ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٤ ، أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ ٢ ص ٩٢

(٤) يروى عن العادل أنه قال أن « الملك ليس بالأرث ، وإنما لمن غلب . وأنه يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر صلاح الدين » أنظر : المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٥٢ .

(٥) ولد عام ٥٥٨ هـ (١١٦٢ م) بجزيرة ابن عمر من أسرة شيبانية عريقة وهو شقيق المؤرخ عز الدين بن الأثير وكان من نوابغ الفكر العربى وتوفى عام ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل ، أنظر . محمد زغلول سلام : ضياء الدين بن الأثير ، ص ٢٢ وما بعدها .

(٦) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ عن ١٢٠ .

(٧) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤ — ١٥ .

(٨) الصلاحية ، هم مماليك صلاح الدين الأيوبى ومقدمهم فى هذا الوقت فخر الدين جها. أنظر ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ١١ ، حاشية (١) .

الاستيلاء على دمشق خاصة بعد ما سلم متولى مدينة جبيل المدينة للصليبيين نظير ما بذلوه له من المال ، وتعذر على الافضل إسترداد المدينة مرة أخرى[1] . وعندما تحقق للأفضل قصد أخيه كاتبه يسترضيه ويعرض عليه أن تكون الخطبة والسكة باسمه ولكن وزيره ضياء الدين حرضه عليه وشجعه على قتاله فخرج الافضل لملاقاته واستنجد بآل البيت الايوبى وبعمه العادل لثقته به ، ولكن العزيز لم يمهله وفاجأه وهو نازل على الفوار[2] . وكاد ينتصر عليه ، فأسرع الافضل وعاد إلى دمشق فدخلها فى الخامس من جمادى الآخر سنة ٥٩٠ هـ (٢٨ مايو ١١٩٤ م)[3]. وتحين العادل هذه الفرصة بالتوسط فى الصلح بين الاخوين وتقابل مع العزيز فى صحراء المزه غربى دمشق وعقد الصلح بينهما على أن يحتفظ الافضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ويأخذ العزيز مدينة بيت المقدس وما جاورها من أعمال فلسطين ويأخذ الظاهر جبله واللاذقية وذلك علاوة على ما بأيديهما فعلا[4]. وكللت هذه التسوية بأن طيب العادل نفس العزيز وزوجه إحدى بناته[5] ، وبذلك أثبت العادل أنه الرجل العاقل الذى يحافظ على مصالح البيت الايوبى والمسلمين[6] .

ولم ينته الصراع بهذه التسوية لأن بعض الامراء وعلى رأسهم فخر الدين جهاركس ، مقدم الفرقة الصلاحية ، وهو الحاكم فى الدولة[7] ، كانوا لا يزالون يوغرون صدر العزيز على أخيه الافضل ويزينوا له الاستيلاء على دمشق ، لذلك

(١) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١١٦

(٢) الفوار ، يعرف هذا المكان بوادى الفوار من أعمال طرابلس قريبا من حصن الأكراد وقد سمى بهذا لأن به بئرا يفور يوما واحدا كل اسبوع . انظر القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ص ٧٤ ، ابن الشحنة . الدار المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ص ٢٦٦ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ١٧ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٢٧ .

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩١٥ .

(٧) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات المجلد الرابع جـ ٢ ص ١٤٨ .

حرج العزيز فى العام التالى ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) قاصدا الشام . ولم يكن أمامه الافضل إلا الاستنجاد بعمه العادل وأخيه الظاهر ، وتم الاتفاق بين الثلاثة على أن يملك الافضل مصر ويملك العادل دمشق ، ولما علم العزيز بذلك الاتفاق عاد مسرعا إلى مصر مما سهل على الافضل والعادل الاستيلاء على بيت المقدس ثم إتخذا طريقهما إلى مصر ليتسلمها الافضل . ورغم هذا فقد كان العادل يشك فى نوايا الافضل ويخشى إستيلائه على مصر ولا يسلمه دمشق ، لذلك بادر بمراسلة العزيز سرا وهما فى طريقهما إلى مصر يتعهد له بعدم انتزاعها منه[1] . وما أن وصل إلى مدينة بلبيس حتى بدأ العادل ينفذ ما وعد به العزيز فمنع الافضل من القتال أو التقدم إلى مصر حرصا على وحدة البيت الأيوبى وحقنا للدماء . وفى الوقت نفسه أرسل إلى العزيز سراً مرة أخرى يطلب منه إرسال القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى[2] للتوسط فى الصلح ، ونفذ العادل ما أراد وتم الصلح وبمقتضاه يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن وأن يقيم العادل بمصر[3]. وقد أختار العادل البقاء بمصر لكراهية الفرقة الأسدية[4] للعزيز وإنحيازهم إلى جانبه، وبذلك يضمن مساعدتهم له فى تنفيذ خطته وحكم الديار الأيوبية مستغلا الخلافات بين أولاد صلاح الدين والهدنة المعقودة مع الصليبيين بمقتضى صلح الرملة ومدتها ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تنتهى فى شهر محرم عام ٥٩٢ هـ (ديسمبر ١١٩٥ م)[5]

---

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ١٢٤ .

(٢) ولد فى عسقلان عام ٥٢٩ هـ (١١٣٥ م) وتولى أبوه قضاء مدينة بيسان ولهذا نسب اليها وخدم فى ثغر الاسكندرية وكان وزير صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن وبرز فى صناعة الانشاء . وبعد وفاة صلاح الدين استمر على ما كان عليه من المنزلة والرفعة حتى ملك العادل الديار المصرية وتوفى عام ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) . ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٠٢ - ٤٠٥ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ١٥٦ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٧٨ .

(٤) الأسدية ، هم مماليك أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبى ومقدمهم فى هذا الوقت سيف الدين أزكش . أنظر : أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ١٤٥ .

(٥) Crousset op. cit., III 144.

وأثناء إقامة العادل بمصر أشار العزيز عليه بضرورة الإستيلاء على دمشق وتسليمها له[1]، خاصة وأن الأفضل تمادى فى إهمال شئون الرعية ، فضلا عن استبداد ضياء الدين بالحكم الذى كان له اسوأ الأثر فى نفوس أهل الشام حتى ضجوا بالاثنين معا[2]. ولم يكن العادل بالذى يتراخى فى تنفيذ ما أشار به العزيز فخرجا إلى دمشق واستوليا عليها فى السادس والعشرين من شهر رجب ٥٩٢ هـ (٢٥ يونيه ١١٩٦ م)[3]، وأخذ العزيز لنفسه لقب السلطنة وأناب عنه العادل فى حكم دمشق ، وأمر بنقل الأفضل إلى صرخد[4]. ولكن الحوادث أسفرت بعد قليل عن إستيلاء العادل على دمشق وعودة العزيز إلى مصر[5].

وكانت الإمارات الصليبية بالشام وقتها على علم بهذه المنازعات ، كما انها أعطت الفرصة إلى هنرى كونت شامبانى Henry count of Champagne حاكم المملكة الصليبية فى عكا (١١٩٢ - ١١٩٧ م) أن يعيد إلى مملكته قدرا من الأمن والطمأنينة . ثم أن هذا الصراع لم يكن أيضا خافيا عن الغرب الأوربى مما أغرى هنرى السادس إمبراطور المانيا (١١٩٠ - ١١٩٧ م) وهو من أشد المتحمسين للحروب الصليبية إلى العمل على إستعادة بيت المقدس وتحقيق أطماعه الواسعة باخضاع الشرق اللاتينى والامبراطورية البيزنطية للامبراطورية العالمية المقدسة فى الغرب[6]، فأعد حملة صليبية لهذا الغرض بقيادة كونراد Conrad رئيس أساقفة مينز Mainz وأدولف Adolf كونت هولشتين Holestein، وقد وصلت طلائع هذه الحملة إلى عكا فى اغسطس ١١٩٧ م (شوال

---

(١) أبو الفدا : المصدر السابق جـ ٢ ص ٩٧ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٢٩ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٦٢ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٣١ .

(٥) لمزيد من التفاصيل أنظر : ابن الأثير المصدر السابق جـ ١٢ ص ٨٠ .

(٦) Tout, T., The Empire and The Papacy, P. 304.

٥٩٤ هـ)[١] ، وبذلك تعكر الهدوء النسبى الذى كان سائداً بين المسلمين والصليبيين[٢] . وكان وصول هذه الحملة فى الوقت الذى كان يرى فيه هنرى كونت شامبانى اتباع سياسة التفرقة بين آل البيت الأيوبى بدلا من سياسة الحرب . وعلى أية حال تقدمت الحملة بدون إذن من هنرى من عكا إلى الجليل للاغارة عليها[٣] . ولكن العادل تمكن من رد القوات المغيرة ثانية إلى عكا كما تمكن من الاستيلاء على يافا فى شوال ٩٥٣ هـ (أغسطس سبتمبر ١١٩٧ م) وإمتلأت ايدى المسلمين بالسبى والغنائم[٤].

وبينما هذه الحوادث تسير فى مجراها مات هنرى كونت شامبانى فى عكافى العاشر من سبتمبر ١١٩٧ م[٥] فوقعت المملكة الصليبية فى ذعر شديد بحيث تعذر عليها إستعادة مدينة يافا التى كان المسلمون قد استولو عليها[٦] . وأنقذ الموقف بزواج ابرابيلا Isabella أرملة هنرى من عمورى الثانى Amaury II ملك قبرص (١١٩٧ - ١٢٠٥ م)[٧] وبذلك تم توحيد المملكتين[٨] .

وفيما يتعلق بنشاط الحملة الألمانية بعد ذلك فقد كان محدودا ، إذ إقتصر على بعض الاشتباكات بين الطرفين وعلى هجوم المسلمين على مدينتى صور وصيدا وسقوط بيروت فى يد الصليبيين[٩] ثم توقف نشاط الحملة بعد ذلك بسبب وفاة الامبراطور هنرى السادس ، وقرر زعماؤها العودة إلى أوروبا فى

---

(١) Eracles, op. cit., II, p. 211.

(٢) ذكر ابن الاثير أن الملك العزيز جدد الهدنة مع هنرى كونت شامبانى ملك مملكة بيت المقدس الاسمية (١١٩٢ - ١١٩٧ م) وزاد من مدة الهدنة راجع ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٨٢ .

(٣) Runsiman, op, cit., III, p. 91.

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٨٢ - ٨٣ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٧٥

(٥) Eracles, op. cit., p. 220.

(٦) Previté- Orton, C.W., A History of Europe, P. 120.

(٧) Vitry, History of Jerusalem, P. 166, Eracles, op. cit., p. 223.

(٨) Mas Latric, Histoire de l'ile de Chypre I, P 146.

(٩) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٨٤ .

الوقت نفسه الذى تدفقت فيه العساكر الإسلامية من مصر على الشام فساد الذعر صفوف القوات الألمانية فأسرعت بالرحيل . وعقب مغادرة الصليبيين سواحل الشام شرع عمورى فى إجراء مفاوضات مع العادل أنتهت بعقد الهدنة بين المسلمين والصليبيين فى الرابع والعشرين من شعبان سنة ٥٩٤ هـ (أول يوليو ١١٩٨ م) وبمقتضاها تكون يافا للمسلمين وجبيل وبيروت للصليبيين واقتسام صيدا بين الطرفين[١] .

وبعد توقيع الهدنة بخمسة أشهر مرت الدولة الأيوبية ببعض الحوادث المتلاحقة أدت إلى توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى تحت قيادة العادل ، فقد توفى العزيز فى العشرين من شهر محرم سنة ٥٩٥ هـ (٢٢ نوفمبر ١١٩٨ م) . كان إبنه الأكبر المنصور ناصر الدين لا يزال فى العاشرة من عمره ، كما كان الأمر يتطلب وصياً على الملك الصغير فاتفقت الاسدية على تولية الافضل كما إتفقت الصلاحية على تولية العادل ، وأرسل أزكش للأفضل يخبره بما تم الاتفاق عليه وفى الوقت نفسه أرسل جهاركس للعادل يطلب منه الحضور إلى مصر . وعلم الأفضل بذلك قبل العادل كما التقى برسول الصلاحية قبل أن يصل للعادل[٢] وكانت فرصة لا تعوض بالنسبة للأفضل فأسرع إلى مصر . وصل بلبيس فى السابع من شهر ربيع الأول من العام نفسه مما جعل فخر

---

(١) Runsiman, op, cit., III, pp. 97.

ومن الملاحظ أن بعض المصادر العربية أشارت بان مدة الهدنة ثلاث سنوات . أنظر : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٧٨ ، ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع جـ ٢ ص ١٣٩ ولم تشر بعضها إلى مدتها بل اكتفت بذكر « حتى استقرت الهدنة » راجع . أبو شامة المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٣٤ . كما ذكر بعضها أن الهدنة وقعت فى شعبان سنة ٥٩٤ هـ (يونيه ١١٩٨ م) وأوردوا عبارة « انتظم الصلح » . أنظر : ابن الأثير . المصدر السابق جـ ١٢ ص ٨٤ . بينما ذكرت المصادر الأجنبية أن مدة الهدنة كانت خمس سنوات وثلاثة أشهر . انظر : Eracles, op. cit., p. 228. ومن سير الحوادث يتضح أن مدة الهدنة كانت أكثر من خمس سنوات بدليل أن الحديث عن تجديد الهدنة لم يرد ذكره قبل عام (٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م) كما يتضح من الصفحات التالية .

(٢) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤٧ .

الدين جهاركس يخاف على نفسه وينتحل الاعذار ليغادر البلاد . وبالفعل إتجه إلى بيت المقدس وتقابل مع جماعة من أعوانه وأرسلوا للعادل الذى كان يحاصر ماردين[1] وأبلغوه بما انتهت اليه الحوادث[2].

وفى الوقت الذى كان يدبر فيه فخر الدين جهاركس وأعوانه أمر استدعاء العادل لحكم مصر زين الامراء الاسدية للأفضل – الذى مالوا اليه فى ذاك الوقت – الخروج إلى دمشق ، فخرج اليها فى الثالث من شهر رجب من العام نفسه أيضاً ، ولما علم العادل بذلك ترك إبنه الكامل على حصار ماردين وعاد مسرعاً إلى دمشق فدخلها فى الحادى عشر من شعبان (٨ يونية) وتمكن الافضل من دخولها أيضاً بعد يومين ، وأخذ كل منهما يعزز قواته عساه أن يحقق النصر على الطرف الآخر . وفى النهاية تمكن العادل من هزيمة الافضل مما اضطره للخروج من دمشق ، وإنتهت هذه الجولة بعودة الافضل إلى مصر[3] . ولكنها لم تنه أطماع العادل فى حكم أملاك أخيه ، لذلك أخذ يستعد للاستيلاء على مصر ليكون وصيا على الملك القاصر ويصير الأمر كله بيده ، وعندما علم الافضل بذلك بدأ يستعد هو الآخر لمحاربة عمه ودفعه عن مصر . ولكن العادل أتى مسرعا إلى مصر وهزم الافضل فى السابع من ربيع الآخر عام ٥٩٦ هـ (أواخر يناير ١٢٠٠ م) ، وعلى ذلك لم يجد الافضل طريقا أمامه غير الصلح بعد ما رأى تخاذل أعوانه ، وانتهى الأمر بالاتفاق بين الطرفين على أن يكون

---

(١) ماردين ، قلعة مشهورة على جبل الجزيرة المشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وأمامها ربض عظيم به أسواق وخانات ومدارس ومنازل ذات طوابق . أنظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٩٠ . وكان سبب حصار العادل لها هو ما ظهر من مؤامرات فى الشمال الشرقى من الدولة الأيوبية بقصد اعادتها إلى حكم الزنكيين بعد موت صلاح الدين : راجع . ابن الأثير . المصدر السابق جـ ١٢ ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٩١ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ . أنظر أيضا : أبو الفدا المصدر السابق جـ ٢ ص ١٠١ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ١٥٠ .

للافضل ميافارقين وحانى[1] وجبل جور[2] بالاضافة إلى صرخد . وغادر الافضل مصر إلى الشام ولكن الأوحد نجم الدين بن الملك العادل لم يسلمه ميافارقين وسلم اليه ما عداها[3] .

هكذا أصبح العادل مسيطراً تقريباً على معظم الممالك الايوبية . ولكنه لم يقتنع بهذا الوضع ، لذلك أحضر جماعة من الامراء وقال لهم « انه قبيح بى أن أكون أتابك صبى صغير ، مع التقدم والشيخوخة » وكان العادل يقصد من وراء ذلك خلع الملك المنصور وتولى حكم مصر . وفعلا تم الاتفاق على خلعه وتمت الخطبة للعادل فى الحادى عشر من شوال ٥٩٦ هـ (١٥ يوليو ١١٩٩ م) . وأعقب ذلك قيام العادل باخراج الملك المعزول ومعه والدته وأخواته إلى الشام[4] ، فأقام بحلب عند عمه الظاهر[5] .

ومع بداية حكم العادل لمصر واجهته بعض المتاعب الاقتصادية بسبب قلة الفيضان وندرة الأقوات ، وتزايد الاسعار وعظيم الغلاء إذ بلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير[6] وقد أدى ذلك إلى هجرة عدد كبير من مصر إلى الشام،

---

(١) حانى ، مدينة معروفة بديار بكر وتمتاز بوجود معدن الحديد بها : أنظر : ياقوت الحموى . المصدر السابق جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٢) جبل جور ، كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينية ، أهلها نصارى أرمن ، وفيها قلاع وقرى . أنظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٠ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ١٥٢ — ١٥٣ . راجع أيضا : أبو شامة المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٣٧ .

(٤) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٥٣ — ٩٥٣ . أنظر أيضا . ابن واصل . المصدر السابق جـ ٣ ص ١١١ .

(٥) ابن واصل . المصدر السابق جـ ٣ ص ١٤١ ، أبو الفدا . المصدر السابق جـ ٢ ص ١٠٨ .

(٦) الدينار ، مكان من الذهب وبعضه حقيقة وبعضه مسمى كالدينار الجيشى . وكانت فيه لا تلبث على حال والعبرة فى وزنة بالمثقال . وضابطة أن كل سبعة مثاقيل تساوى ٢٤ قيراطا وكل قيراط يزن ٧٢ حبة شعير وسط باتفاق العلماء خلافا لابن حزم فانه قدره بأربع وثمانين حبة وهذا يعنى أن الدينار يساوى ورن الف وسبعمائة ثمانية وعشرون حبة من الشعير المتوسط أو الفين وستة عشر حبة تقديرا لابن حزم . أنظر القلقشندى . صبح الاعشى جـ ٣ ص ٤٤٠ — ٤٤٣ . وقد

وظل الحال على هذا طوال ثلاث سنوات ، فكان الناس يموتون جوعا فى الشوارع ، وبلغ من كفنهم العادل مائة وعشرين ألف نسمة[1] . وزاد سوء الحال بمصر ، أن تفشت الأمراض والأوبئة حتى أن الفلاحين كانوا يموتون وهم قابضين على محاريثهم[2] .

وبينما كان العادل يواجه هذه المصاعب الاقتصادية فى مصر إتفق الأفضل والظاهر على حصار دمشق . ولكن العادل أسرع اليهما وظلت المناوشات والاشتباكات بين الأطراف المتصارعة حتى نهاية عام ٥٩٧ هـ (سبتمبر ١٢٠١ م) إتبع خلالها العادل سياسة الايقاع بين الاخوين حتى سيطر على الموقف ، وأسفرت الحوادث عن حكم الافضل لسميساط وسروج[3] ورأس العين[4] وغيرها ورحل الاخوان من دمشق فى أول المحرم سنة ٥٩٨ هـ (أول أكتوبر ١٢٠١ م)[5] . وبذلك أصبح العادل حاكما لمصر ودمشق وبيت المقدس بالاضافة إلى أملاكه فى الشرق[6] .

وما أن استتب الامر للملك العادل سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ - ١٢٠٢ م)

= قدرت قيمتة بحوالى ستون قرشا فى عام ١٩٣٤ م . أنظر . جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ص ٣٣٠ حاشيه (٧) .

(١) قد يكون فى هذا نوع من المبالغة ولكنه يدل على كثرة عدد من ذهبوا ضحية هذه المجاعة .

(٢) المقريزى ، المصدر السابق جـ ١ ق ١٥٦١ - ١٥٨ . ولمزيد من التفاصيل عن هذه الفترة العصيبة أنظر أيضا . النويرى الكندى . نهاية الارب فى فنون الأدب (مخطوط) جـ ٢٧ لوحة ١ مرعى المقدسى نزهة الناظرين (مخطوط) ورقة ٣٢ أو أبن الاثير . المصدر السابق جـ ١٢ ص ١١٢ ، ابن الفرات . المصدر السابق المجلد الرابع جـ ٢ ص ٢٠٧ - ٢٠٩ ، أبو المحاسن ، المصدر السابق جـ ٦ ص ١٧٣ - ١٧٤ ، المقريزى ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٢٩ ٣٣ .

(٣) سروج ، بلد قريبة من حران . أنظر ، ياقوت الحموى ، المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٥ .

(٤) رأس العين ، وتسمى أيضا رأس عين ، وهى مدينة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر وبها عيون كثيرة . ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٣١ - ٧٣٢ .

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ١٠٧ .

(٦) النويرى الكندى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٥ .

حتى بدأ فى إعادة تنظيم المملكة بعد التفكك الذى إنتابها أثر وفاة صلاح الدين ، فولى إبنه الاكبر الكامل محمد حكم مصر نيابة عنه ، كما أناب عنه المعظم عيسى ثانى أبنائه فى حكم دمشق ، بينما تولى إبنه الثالث الاشراف موسى حران والرها وابنه الرابع الأوحد نجم الدين ميافارقين ، واستقر بقلعة جعبر أبنه الحادى عشر الحافظ نور الدين ، فى حين بقى الظاهر فى حلب والافضل فى سميساط وأعمالها وهما تابعين له . أما المنصور ابن العزيز – ملك مصر السابق – فقد أقطعه العادل حماة وأعمالها[1] .

وبصرف النظر عن هذه الصراعات التى قامت بين أفراد البيت الأيوبى والآثار التى ترتبت عليها ، فقد إتميز عهد العادل بسياسة الدفاع عن مملكته ضد الصليبيين ، ولم يأخذ بسياسة الهجوم لأنه كان يرى أن الهجوم على ممتلكات الصليبيين فى الشام ربما يؤدى إلى قيام حملة صليبية جديدة[2] ، قد تكون عواقبها غير مضمونه فى الوقت الذى انشغل فيه باموره الداخلية . لذلك نجده لا يمانع فى عقد هدنه جديدة مع الصليبيين كلما إنقضت مدة الهدنة السابقة . ومما هو جدير بالذكر أن العادل لم يكن أقل من غيره من أمراء البيت الأيوبى حرصا على الجهاد ضد الصليبيين على الرغم من سياسة المهادنة التى انتهجها حيال الصليبيين فى بداية حكمه والتى كان لها مبرراتها وقتها . ولذلك فان الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين كانت لا تكاد تنقطع طوال الفترة السابقة للحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة (٦١٥ – ٦١٨ هـ) (١٢١٨ – ١٢٢١ م) .

ومن هذه الاشتباكات ما حدث عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) عندما أتى إلى الشام كثير من الصليبيين حيث نزلوا بعكا متشجعين بامتلاك أخوانهم

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٥٩ . ويلاحظ أن عدد أولاد العادل كانوا تسعة عشر ولدا عدا البنات ولمزيد من التفاصيل أنظر : النجوم الزاهرة ، المصدر السابق جـ ٦ ص ١٧٢ وحواشيها وص ١٧٣ .

(١) Duggan, A., The story of The Crusades, pp. 211-2.

الصليبيين لمدينة القسطنطينية فى العام نفسه[1]. وكانوا عازمين على الاستيلاء على مدينة بيت المقدس وأخدها من المسلمين، فقاموا بأعمال النهب والسبى بنواحى الأردن[2] وكان العادل حين ذاك بدمشق فخرج منها واتجه إلى جبل الطور[3] الذى يقع فى الجنوب الشرقى من عكا ليمنع الصليبيين من التقدم إلى الممتلكات الإسلامية. وأرسل فى الوقت نفسه يطلب النجدة من مصر ومن كافة البلاد الاسلامية فوصت إليه من كل ناحية فى الوقت الذى أغار فيه الصليبيون على كفر كنا[4]، وأسروا من كان هناك، وسلبوا ونهبوا[5]. ولم يطق الأمراء الذين كانوا مع العادل صبرا ازاء هذه الأعمال فأخذوا يحثونه على الهجوم على الممتلكات الصليبية. ولكن العادل المسالم لم يوافق الأمراء على رأيهم. وظل الحال على هذا المنوال « والعادل قبالتهم مرابط لهم، والرسل متردده بينهم وبينه فى الصلح »[6] وأخيرا تم الصلح وتقررت الهدنة بين الطرفين وفى هذه المرة أيضا لم تشر المصادر العربية إلى مدة الهدنة، بينما ذكرت المصادر الأجنبية ان مدتها كانت ست سنوات[7] وبمقتضى هذا الصلح أصبحت يافا للصليبيين وتنازل العادل عن النصف الخاص بالمسلمين فى اللد والرملة[8].

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٥٩ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ١٢٧ – ١٣٨ .

(٣) جبل الطور ، جبل مطل على طبرية والاردن ، بينهما أربعة فراسخ ، بنى عليه الملك المعظم عيسى بن العادل قلعة حصينة ثم هدمها عام ٦١٥ هـ (١٥١٨ م) أثناء حصار الصليبيين لدمياط . ياقوت الحموى . المصدر السابق جـ ٣ ص ٦٥٥ .

(٤) كفر كنا ، بلد بين طبريه والناصرة . انظر – ياقوت الحمودى – المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٩٠ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٦٣ ، ابن الفرات – المصدر السابق المجلد الخامس جـ ١ ص ١٣ .

(٦) ابن واصل المصدر السابق جـ ٣ ص ١٦٣ .

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور – المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٤٦ حاشية ٢ ، ٣ ، ٤ والواقع أن مدة الهدنة كانت ست سنوات لأن الحديث عن تجديد الهدنة بين العادل والصليبيين لم يذكر قبل عام ٦٠٦ هـ (١٢١٠ م) .

(٨) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٦٢ .

ويضيف إبن الاثير أن العادل أعطى لهم الناصرة[1] وغيرها)[2] .

وربما يكون الملك عمورى هو الذى سعى إلى هذا الصلح بعدما ذهب بعض الفرسان الصليبيين إلى القسطنطينية طمعا فى إمتلاك أراضيها فى الوقت الذى كان فيه العادل حريصا على إنهاء القتال بسبب تفوق البحرية الصليبية التى أعاقت حركة التجارة بين مصر والممتلكات الإسلامية فى الشام[3] . وعلى أية حال ، فقد عاد العادل بعد توقيع الهدنة إلى مصر[4] .

وكان ما توقعه العادل من تفوق البحرية الصليبية قد تجلى فى الهجوم على مصر ، ففى شهر شوال ٦٠٠ هـ (يونية ١٢٠٤ م) عندما دخلت عشرون سفينة صليبية فرع رشيد وتوغلت حتى وصلت إلى مدينة فوه[5] ، وأقاموا بها « يسبون وينهبون »[6] . ولم ينج من بطشهم إلا من استطاع الهرب[7] ، وأسرعت العساكر المصرية وعسكرت فى الضفة المقابلة لهم على النيل ، ولكنها لم تستطع الاشتباك مع الصليبيين « لعدم وجود الأسطول العادلى »[8] . وعاد الأسطول الصليبى بعد خمسة أيام من « حيث دخل غانما سالما »[9] . وربما ترجع أسباب هذه الغارة إلى أن الملك عمورى حاول أن يحافظ على مكانته بين

---

(١) الناصرة ، قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلا ، ومنها اشتق اسم النصارى لأن المسيح عليه السلام سكنها فنسب اليها . أنظر ياقوت الحموى المصدر السابق جـ ٤ ص ٧٢٩ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ٣١ ص ١٢٨ .

(٣) Runciman, op. cit., III, P. 103

(٤) ابن الفرات : المصدر السابق جـ ٣١ ص ٢١ .

(٥) فوه ، بليده على شاطىء النيل ، من نواحى مصر ، قرب رشيد بينها وبين البحر خمسة أو ستة فراسخ . انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٩٢٤ .

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ١٣٠ ، أبو الفدا . المصدر السابق جـ ٣ ص ١١١ .

(٧) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١١٨ ، ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ٣ ص ١٩٤ .

(٨) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٦٣ .

(٩) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ٥٠

الصليبيين بعد فشل الحملة الصليبية الرابعة وإنحرافها إلى القسطنطينية وكان المفروض أن تقوم بالهجوم على مصر تحقيقا للأطماع الصليبية فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى[1] . ويحتمل أيضا أن تكون للانتقام من المسلمين بسبب الاعتداء الذى قام به والى صيدا المسلم على سفن الصليبيين من قبل[2] . وربما كانت غارة إستكشافية تمهيدا لفتح الديار المصرية[3] .

كذلك لم تنقطع المناوشات فى أعالى الشام بين المسلمين والصليبيين ، وكان يتزعم هذه الغارات فرسان الاسبتارية فى كل من حصن الاكراد[4] وحصن المرقب[5] ضد الملك المنصور صاحب حماه ليجبروه على تسليم حصن بعرين[6] ولكنهم هزموا مرتين فى عام ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) مما إضطرهم إلى توقيع الهدنة . ثم عادوا مرة أخرى فى العام التالى للانتقام وأغاروا على حماه خاصة

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٣ ص ٩٤٤ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٣٧ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق نفس الصفحة .

(٤) حصن الأكراد ، حصن منيع على جبل الجليل المتصل بجبل لبنان ويقع بين بعلبك وحمص من جهة الغرب . ياقوت الحمورى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٧٦ . وكانت قلعة هذا الحصن تابعة لفرسان الاسبتارية وتمتاز بمناعتها وتحميها الأبراج وتحوطها الخنادق ، ولها سوران يحدقان بها وقد استولى عليها الاسبتارية سنة ١١١٠ م واستعادها الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ (١٢٧١ م) راجع أبو الفدا : تقويم البلدان ص ٢٥٩ ، راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف المرجع السابق ، نفس الموضع .

(٥) حصن المرقب ، قلعة على قمة جبل يشرف على بانياس وعلى سواحل جر الشام ، وهى الأخرى من قلاع الاسبتارية الحصينة تحرسها الأبراج ، وفى أسفلها صخور ضخمة ، وكانت هندستها خليطا من هندسة الحصون الواقعة جنوبى فرنسا والهندسة البيزنطية ، وقد استولى عليها الصليبيون حوالى عام ١١١٧ - ١١١٨ م وسلمت للسلطان قلاوون سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٥ م) أنظر . أبو الفدا : المصدر السابق ص ٢٥٥ ، أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق نفس الموضع .

(٦) بعرين ، بليدة بين حمص والساحل ، وهكذا تتلفظه العامه وهو خطأ ، والصواب هو ما فى ياقوت الحموى ، المصدر السابق جـ ١ ص ٦٧٢

وأن هدنتهم مع الملك المنصور كانت قد انقضت[1] . وفى هذه المرة إنضم إلى الاسبتارية عدد كبير من الصليبيين وقاموا بأعمال النهب والقتل والسلب وعادوا إلى بلادهم بعد أن ملأوا أيديهم بالسبايا[2] . وفى الوقت نفسه أغار الصليبيون فى طرابلس على جبله واللاذقية حمص وفعلوا بتلك البلاد مثلما فعلوا بحماه . وازاء هذه الغارات قامت قوات الملك الظاهر صاحب حمص بهجوم كبير على حصن المرقب وكادوا يستولون عليه بعد ما هدموا برجه ثم عادوا محملين بالغنائم[3] .

كذلك شارك الأرمن الصليبيين فى الهجوم على الممتلكات الإسلامية وهو إمتداد للدور نفسه الذى قامت به منذ بداية الحركة الصليبية فى أخريات القرن الخامس الهجرى (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى) عندما بادروا بمساعدة الصليبيين فى الحملة الصليبية الأولى ضد المسلمين[4] وفى هذه المرة قام ملكها ليو الثانى Leo II (١١٧٧ – ١٢١٩ م) بالهجوم على حلب « فنهب وحرق وأسر وسبى » ، وجمع الظاهر عساكره كما أرسل فى طلب النجدة فتوافدت عليه القوات وتقدم لملاقاة ليو ، وجعل على رأس جيشه ميمون القصرى[5] . وعسكر ليو فى موقع حصين يتعذر الوصول إليه إلا عن طريق جبال وعره . وأمر الظاهر قائده ميمون بارسال المؤمن والسلاح إلى حصن دربساك[6] .

(١) ابن الجوزى ، مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٥٢٣ – أبو شامة ، المصدر السابق ص ٥١ ، ابن الفرات ، المصدر السابق المجلد الخامس جـ ١ ص ٢٠ .

(٢) ابن واصل ، المصدر السابق جـ ٣ ص ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٦٢ – ١٦٣ .

(٣) المقريزى ، المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٦٤ .

(٤) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٢٣٥ .

(٥) ميمون القصرى ، من كبار الأمراء الصلاحية . وكان فى خدمة الأفضل ، وبعد فساد احواله اتصل بالعزيز فى مصر فولاه حكم نابلس بعد زوال ملك الأفضل وتوفى عام ٦١٠ (١٢١٤ م) عن ذلك انظر ، ابن واصل المصدر السابق جـ ٢ ص ١١ ، ٧٤ ، ١٢٠ .

(٦) دربساك ، قلعة مرتفعة حصينة لها أعين وبساتين ولها فى شرقها مروج كثيرة العشب وهى فى شمال بغراس بميله إلى الشرق وبينهما عشرة أميال راجع العماد الأصفهانى : المصدر السابق ص ٣٥٤ حاشية (٢) ، أبو الفدا ، تقويم البلدان ص ٢٦١ .

القريب من معسكرهم ليتمكن من الصمود أمام قوات ليو ، نفذ ميمون ما طلب منه وأرسل مع هذه المؤن والاسلحة أكثر عساكره ، وبقى معه العدد القليل . وعلم ليو بهذه الخطة فلم يهاجم القوات الرئيسية بل هجم على ميمون وعلى من تبقى معه من العسكر واشتد القتال بين الفريقين وسقط عدد كبير من القتلى من كلا الجانبين ، وإنتهت المعركة بهزيمة ميمون وعوده ليو وقواته محملين بالغنائم . وأثناء عودتهم التقوا بالقوات التى كانت فى طريقها إلى حصن دربساك فهزموها أيضا وقفلوا عائدين إلى بلادهم[1] .

ويروى إبن الجوزى أن الملك الظاهر خرج من حلب ونزل إلى مرج دابق[2] واتجه إلى حارم[3] وهزم الملك ليو وقام بتخريب قلعة دربساك[4] . أما ابن واصل فيؤكد هزيمة المسلمين ويروى أن الملك الظاهر حاول التحالف مع بوهمند الرابع Bohemond IV أمير أنطاكية وطرابلس (١١٨٧ – ١٢٣٣ م) على أن يمده بعشرة آلاف رجل ويقصدون معا ممتلكات ليو فى أرمينية بهدف « استئصال شأفته » . ولكن ليو علم بهذه الاتصالات فبادر بارسال الأسرى الذين عنده إلى الظاهر وتم الصلح بينهما[5] .

وتجددت الاشتباكات مرة أخرى فى أوائل عام ٦٠٣ هـ (أواخر ١٢٠٦ م) عندما زحف الصليبيون تجاه حمص وأغاروا عليها . فارسل الظاهر لنجدتها المبارز يوسف بن خطلخ[6] . ووصل الخبر إلى العادل بمصر كما بلغه أمر مغادرة

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ١٥٨ - ١٥٩ ، ابن الفرات ، المجلد الخامس جـ ١ ص ٤١ .

(٢) مرج دابق ، قرية قرب حلب من أعمال أعزاز أو عزاز تبعد عن حلب أربعة فراسخ . أنظر ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٥١٤ .

(٣) حارم ، حصن و كوره جليلة تجاه أنطاكية ، وهى من أعمال حلب فى هذه الفترة وفيها أشجار كثيرة . أنظر ، ياقوت الحموى ، المصدر السابق حـ ٢ ص ١٨٤ .

(٤) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٣ ق ٢ ص ٥٦٣ .

(٥) ابن واصل : المصدر السابق ، حـ ٣ ص ١٧٠ ١٧١ .

(٦) من كبار الأمراء الصلاحية ، وكان فى خدمة الملك الظاهر بحلب وبعد وفاة الملك الظاهر عام =

الصليبيين فى حصن الأكراد وطرابلس وأغارتهم على حمص فأسرع إلى الشام[1] ويرى إبن الأثير أن خروج العادل من مصر قاصدا الشام كان بسبب إستيلاء القبارصة على بعض قطع الأسطول المصرى وأسر من فيها . وتقاعس يوحنا أف إبلين John of Iblin سيد بيروت والوصى على مملكة بيت المقدس (١١٠٥ – ١٢١٠ م)[2] عن رد الأسرى بحجة عدم خضوع مملكة قبرص له[3] . وعلى أى حال ، فقد خرج العادل من مصر واتجه إلى عكا فصالحه أهلها وأطلقوا سراح ما عندهم من أسرى المسلمين ، وتوجه بعد ذلك إلى دمشق وأعد العدة للجهاد . ومنها ذهب إلى بحيرة قدس[4] حيث صام رمضان ٦٠٢ هـ (ابريل ١٢٠٧ م) ، ثم أغار على حصن الأكراد وفتح برج أعناز[5] وأسر منه خمسمائة شخص بالاضافة إلى الأموال والسلاح[6] . ثم هاجم بعض القلاع القريبة من طرابلس وأخذها صلحا ثم خربها بعد أن حصل على ما فيها من الدواب والسلاح وأغار بعد ذلك على طرابلس « فنهب وأحرق وسبى وغنم »[7]، وعاد بعد هذه العمليات الناجحة إلى بحيرة قدس مرة أخرى فى أوائل ذى الحجة من السنة نفسها (أواخر يونية ١٢٠٧ م)[8].

= ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) تولى حكم حلب من بعده الأشرف موسى ابن الملك العادل ، وظل فى خدمة الأشرف أيضا وهو من الأمراء الذين حضروا لنجدة الملك الكامل أثناء مهاجمة الصليبيين دمياط عام ٦١٥ هـ (١١١٨ م) . أنظر : أبو المحاسن المصدر السابق جـ ٦ ص ١٩٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ .

(١) أبو شامة : المرجع السابق ص ٥٧ ؛ ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٢ ق ٢ ص ٢٥٩ .

(٢) مات عمورى سنة ١٢٠٥ م وعين يوحنا أف ابلين وصيا على وريثه العرش ايزابيلا وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٢١٠ م .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ١٨١ .

(٤) بحيرة قدس ، قرب حمص طولها اثنا عشر ميلا وعرضها أربعة أميال تقع بين حمص وجبال لبنان ويخرج منها شمالا نهر العاصى . راجع ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ١ ص ٥١٦ .

(٥) حصن أعناز ، يقع بين حمص والساحل . أنظر ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ١ ص ٦١٣

(٦) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٧٢ .

(٧) ابن الأثير : المصدر السابق ، نفس الجزء ونفس الصفحة .

(٨) ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الخامس جـ ١ ص ٥١ .

وقد أدت هذه الغارات إلى انزعاج بوهمند الرابع فأرسل إلى العادل « يلتمس الصلح ، وسير مالا وثلاثمائة أسير وعده هدايا » . ووافق العادل على عقد الصلح بعد أن ملت عساكره من طول القتال[1] .

وكيفما كان الأمر ، فبعد أن تقرر الصلح بين العادل وبوهمند عاد العادل إلى جبل الطور المطل على الناصره ، وطلب من إبنه المعظم إقامة قلعة على هذا الجبل لتكون بمثابة خط دفاع أمامى ضد الجبهة الصليبية . فشرع فى بنائها وجلب اليها الصناع من كل البلاد وباشر عملية البناء فى وجود أبيه . وساهمت العساكر فى عملية البناء ونقل الحجاره ، وكان يعمل بها خمسمائة من البنائين بخلاف الفعلة والنحاتين ، وأنفق عليها الكثير من الأموال . وظل العمل فى بناء القلعة إلى قبيل وفاة العادل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ، وأصبحت قلعة منيعة مزودة بالرجال والسلاح[2] .

وجدير بالذكر أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين كانت قد انتهت فى شهر المحرم من سنة ٦٠٧ هـ (يوليو ١٢١٠ م) أثناء بناء قلعة الطور وقبل وصول جان دى برين - الملك الاسمى الجديد لمملكة بيت المقدس - بشهرين . وأرسل العادل إلى عكا يطلب تجديد الهدنة . ولم تتفق جماعة الفرسان الاسبتارية والداوية[3] على رأى فى هذا الموضوع بسبب مشكلة الوراثة فى انطاكية ، إذ رأت جماعة الداوية عدم تجديد الهدنة حتى لا يرتبط الملك المنتظر

---

(١) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٦٦ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٢ ق ٢ ص ٥٤٥ ، ابو شامة : المصدر السابق ص ٧٧

(٣) الداوية ، جماعة من الافرنج أسسها هيودى بايتز Hugh de Pyens وجودفرى أف سانت أومر Godfrey of St. Omer فى سنة (١١١٨ - ١١١٩) ووضعت قواعدها فى مؤتمر تروى Troyes فى فرنسا سنة ١١٢٨ م وكان لها دور كبير فى الحروب الصليبية . ويطلق عليها أيضا اسم فرسان المعبد Templers . أنظر : العماد الأصفهانى : المصدر السابق ص ٦٢ حاشية ٦ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٣٣ حاشية (٣) ، جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٤٥ حاشية (٤) . وللمزيد من التفاصيل أنظر :

Bongses, Gesta Dei per Francos, pp. 819 ff., Thatcher, O., A., Source Book for Medieval History, pp. 492- 4.

بسياسة معينة . وترتب على ذلك أن قامت المناوشات الحربية بين الطرفين ، وفزع الصليبيون عندما رأوا العادل يقوم بعمارة حصن الطور واضطر للموافقة على عقد الهدنة لمدة خمس سنوات وكان ذلك بعد وصول حان دي برين إلى عكا[1] . وأرسل الملك الجديد في هذا الوقت رسالة إلى بابا روما إنوسنت الثالث يطلب منه العمل على إعداد حملة صليبية تكون مستعده للوصول إلى فلسطين عند انقضاء أجل الهدنة[2] .

وجدير بالذكر أن جزيرة قبرص التي كانت في قبضة اللاتين وقتذاك قد ساهمت هي الأخرى في الإغارة على ممتلكاته المسلمين . إذا حدث في أوائل عام ٦٠٨ هـ (يونيه ١٢١١ م) أن أغار ولترأف مونتبليارد Walter of Montbeliard على دمياط[3] . وولتر هذا هو الوصي السابق على عرش قبرص وتذكره المصادر العربية باسم البال القبرصي ، ونزل بألف ومائة من الفرسان والجنود[4] ، ووصل حتى قرية بورة[5] وهاجمها فجرا وسبى أهلها وإستولى على ذخائرها . وعندما بلغ الخبر أهل دمياط توجهوا إليه ولكنه عاد مسرعا إلى سفينته « وامتنع عن طالبه » ووصل بالاسرى والغنائم إلى عكا[6] . وكانت هذه الغارة شأنها شأن غيرها من الغارات السابقة قليلة الجدوى وغير فعالة .

---

(١) حدد رانسيمان مدة الهدنة بخمس سنوات تبدأ من أول يوليو ١٢١٢ م (٢٩ محرم ٦٠٩ هـ) أنظر : Runciman op. cit., III, p. 133.

(٢) Vitry, The History of Jerusalem, p. 119.

(٣) Eracles, op. cit., p. 316

(٤) King, op. cit., p. 183.

(٥) بورة ، بلد مندرسه على الضفة العربية للنيل جنوب غرب دمياط ينسب اليها السمك البورى ومكانها اليوم كفر البطيخ . والظاهر أنه لكثرة رواعة صنف البطيخ بأراضيها اشتهرت به وتغلب عليها واختفى اسم بوره . محمد رمزى : القاموس الجغرافي في البلاد المصرية حـ ١ ص ١٧٦ ، ١٧٩ . وكانت مساحتها مائة وتسعة وستون فدانا . أنظر : ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٦٣ وقد احتلها الصليبيون عام ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) أثناء تواجد الحمله الصليبية الخامسة بمصر وسيرد ذكرها في الفصل الرابع . أنظر أيضا الخريطة رقم (٤) .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ص ٧٧ . أنظر أيضا Grousset, op. cit., III p. 194

ومما تجدر الاشارة إليه أنها تمت بموافقة جان دى برين[1] .

ورغم الهدنة المعقودة بين المسلمين والصليبيين فان الصليبيين من قبرص وعكا وطرابلس وأنطاكية إجتمعوا بالاضافة إلى من انضم اليهم من قوات أرمينية لقصد بلاد المسلمين بسبب قتل الاسماعيلية[2] ريموند بن بوهمند الرابع صاحب انطاكية وطرابلس[3] . فحاصروا حصن الخوابى[4] عام ١٢١٤ م (٦١١ هـ) حصارا شديدا ، فخرج الظاهر للدفاع عن الحصن وفك الحصار وبدأ فى ارسال النجدات إلى الحصن كما أرسل إلى الصليبيين يعلمهم انه لن يمكنهم من الاسماعيلية ، فرحلوا إلى انطاكية بعدما أخذوا منهم حوالى ثلاثمائة أسير[5] . وأخيرا تم عقد الصلح بين الاسماعلية والصليبيين بعد تدخل ووساطة الملك الظاهر[6] .

لعلنا نلمس مما سبق أن الفترة منذ وفاة صلاح الدين كانت فترة معقدة مضطربة فهى عبارة عن مناورات وصراع بين خلفاء مؤسس الأسرة الأيوبية

---

(١) Runciman. Ibid

(١) الاسماعيلية ، تنسب هذه الطائفة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق (ت ١٤٥ هـ) الذى لجميع اتباعه فى اقامة الدولة الفاطمية . وحدث أن انشق اسماعيلية الشام بعد موت الخليفة المستنصر الفاطمى (٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م) على الدعوة القديمة ونادوا بامامة ابنه نزار . وعرف فرع الشام باسم الاسماعيلية النزارية وباسم الحشيشية أيضا . عن ذلك أنظر : ابن الشحنة : المصدر السابق ص ٢٦٤ – ٣٣٥ ، جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٢٢٥ وما بعدها ، كما سموا أيضا بالباطنية . ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢١٩ ، محمد كرد على : خطط الشام جـ ٦ ص ٢٦٠ ، وللمزيد من التفاصيل راجع دائرة المعارف الإسلامية مادة (تناسخ) .

(٣) Oliver of padenborn, op. cit., p. 51

(٤) الخوابى ، أحد قلاع طائفة الاسماعيلية ويقع فى جهة الشمال من طرابلس . أنظر : القلقشندى : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٤٦ – ١٤٧ ، جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٣٣ حاشية (٣) وعن قلاع الاسماعيلية فى بلاد الشام أنظر الخريطة رقم (٥) من المرجع نفسه.

(٥) أبو شامة : المصدر السابق ص ٨٩ .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٣٢ . أنظر أيضا : المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٨٠ .

من ابنائه وأخوته . واستمر الصراع والخلاف بين العادل وأفراد أسرته عدة سنوات عمل فيها جاهدا على إعادة تشييد مملكة أخيه الأمر الذى شغله بعض الوقت عن مواجهة الصليبيين . ولكن بعد أن إستقر له الأمر بدأت فترة من المناورات والمصادمات بين المسلمين والصليبيين فى مصر والشام امتدت بضع سنوات ، ولم تكن بينهما هجمات حاسمه بالمعنى المفهوم فى الوقت الذى كانت فيه سياسة العادل ترمى إلى الدفاع دون الهجوم تجنبا لأى حرب كبيرة قد تكون عواقبها فى غير صالح المسلمين ، وحتى تتهيأ له فترة من الأمن والهدوء والاستقرار تمكنه من تحصين دولته والعمل على حمايتها من مفاجآت الفرنج وشر هجومهم عليها . وقد صح ما توقعه العادل فقد كان الغرب اللاتينى والصليبيون فى الشام يستعدون لحملة صليبية كانت مصر وجهتها هذه المرة .

وإذا كانت أحوال مصر والشام قبيل حملة جان دى برين تمكنها من مواجهة الصليبيين بعد أن أستتب الأمر للعادل ، فماذا كانت أحوال الامارات الصليبية بالشام ؟ هل كانت ظروفها الداخلية والخارجية تساعدها على القيام أو المساهمة فى حرب صليبية جديدة تضاف إلى زميلاتها من الحملات التى تعرضت لها بلاد الشام أو مصر منذ أخريات القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) بهدف الإستيلاء على مزيد من الممتلكات الإسلامية أو الاستحواذ على مدينة بيت المقدس بعد أن استردها المسلمون ؟

كان يحكم مملكة بيت المقدس الاسمية فى أخريات القرن الثانى عشر الميلادى هنرى كونت شامبانى . وبعد أن لقى مصرعه تزوجت أرملته ايزابيلا من عمورى الثانى ملك قبرص ، وبذلك تم توحيد عرشى قبرص ومملكة بيت المقدس[1] ولكن هذا التوحيد لم يشمل سوى العرش والسياسة الخارجية فقط . وفيما يتعلق بالناحيتين الادارية والاقتصادية فقد أعلن عمورى فى بداية الأمر أن المملكتين ستكونان تحت إدارتين منفصلتين ، وأن أموال قبرص لا تنفق من

(١) Vitry, op. cit., p. 116.

أجل الدفاع عن مملكة بيت المقدس[1] . ومن الملاحظ أنه فى العام نفسه الذى تولى فيه عمورى عرش مملكة بيت المقدس تجددت الهدنة بين المسلمين والصليبيين[2] واحترم عمورى الهدنة ، ولم يقم بأى عمل من شأنه استفزاز المسلمين حتى تصل الحملة المرتقبة التى دعا إليها البابا انوسنت الثالث سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ -- ٥٩٥ هـ) وهو العام نفسه الذى أعتلى فيه الكرسى البابوى . ولكل هذا لم يوافق عمورى الفرنسان الفلمنكيين الثلاثمائة الذين أتوا إلى عكا فى عام ١٢٠٢ م (٥٩٨ - ٥٩٩ هـ) والجموع الفرنسية القليلة التى لحقت بهم فى مطلع العام التالى ، لم يوافقهم على مهاجمة المسلمين لقلة عددهم، وحتى يدخر قواته لعمل عسكرى شامل كان يعد العدة له[3] فاتجه فريق منهم إلى انطاكية حيث دخلوا فى خدمة أميرها بوهمند[4] ، وكانت أنطاكية آنذاك فى حالة حرب مع ليو الثانى ملك أرمينية بسبب مشكلة الوراثة على عرش انطاكية .

وبعد عقد الهدنة بين المسلمين والصليبيين مرة أخرى عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) ، لمدة ست سنوات لم يعش عمورى طويلا ، إذ مات فى أول أبريل عام ١٢٠٥ م (٩ شعبان ٦٠١ هـ)[5] ، كما ماتت أرملته ايزابيلا وابنه الطفل عمورى الثالث فى العام نفسه أيضا ، وأصبحت ماريا Maria الابنة الكبرى لايزابيلا من كونراد أف مونتفرات[6] Conrad of Montferrat وريثة للعرش ، وتقرر تعيين يوحنا أف أبلين سيد بيروت وصياعليها.وعندما بلغت

(١) Runciman, op. cit., III, p. 95.

(٢) أنظر ما سبق ص ٩٤ ٩٥ .

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المصدر السابق حـ ٢ ص ٩٤١ .

(٤) Vitry, op. cit., pp. 118 - 9.

(٥) Mas Latrie, op. cit., I, p. 166.

(٦) أختير كونراد فى أبريل ١١٩٣ م لعرش مملكة بيت المقدس ولكنه مات فى الثامن والعشرين من الشهر نفسه . وللمزيد من التفاصيل راجع سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق جـ ٢ ص ٨٨٥ وحاشية (٤) .

الملكة ماريا السابعة عشر من عمرها فى عام ١٢٠٨ م (٦٠٤ - ٦٠٥ هـ) أصبح الأمر يتطلب البحث لها عن زوج مناسب يتولى حكم مملكة بيت المقدس . فأرسل الوصى عليها إلى فيليب أغسطس Philippe Auguste ملك فرنسا (١١٨ - ١١٢٣ م) سفارة مكونة من ايمار أف لايرون Aymar of Layron سيد قيسارية وولتر الفلورنسى walter of Florence أسقف عكا لترشيح من يراه مناسبا زوجا لها ، ووقع إختيار الملك الفرنسى على جان دى برين[١] .

وفى الواقع لم يحز إختيار جان دى برين القبول لدى البارونات الصليبيين ، إذ كان مفلساً ، لذلك زوده البابا أنوسنت الثالث والملك فيليب بمبلغ كبير من المال . ثم إنه كان فى الستين من عمره . ورغم هذا فقد كان ذكيا وصليبيا متحمسا للفكرة الصليبية مع أنه قضى حياته فى خمول نسبى كواحد من قواد فرنسا القدامى . ويقال أن المقصود بهذا الإختيار هو إبعاده عن فرنسا بسبب ما أشيع عن علاقة غرامية بينه وبين احدى الكونتيسات . وعلى أيه حال ، فقد وصل جان دى برين إلى عكا فى الثالث عشر من سبتمبر عام ١٢١٠ م (٢١ ربيع ثانى ٦٠٧ هـ) ومعه حوالى ثلاثمائة فارس صليبى[٢] . وفى اليوم التالى زوجة البرت Albert بطريق بيت المقدس الأسمى ماريا وتوج الملكان فى كاتدرائية صور فى الثالث من أكتوبر من نفس العام[٣] ووعد جان دى برين بأن يعيد الأراضى المقدسة إلى حدودها السابقة[٤] . وكتب إلى البابا يطلب منه إعداد حملة صليبية تصل إلى الأراضى المقدسة عند إنتهاء وقت الهدنة التى كان قد عقدها مع الملك العادل[٥] .

---

(١) Eracles, op. cit., p. 306.

(٢) Grousset, op. cit., 111. pp. 192-3. Mas Latrie, op. cit., p.179. Cambridge Medieaval History, Vol, 5.p. 314.

(٣) Annales de Terre Saint, of, A, O, L., 11, p. 436.

(٤) King, op. cit. i p. 182.

(٥) Oilver of Padenborn, op. cit., p. 12.

المال . ثم إنه كان فى الستين من عمره . ورغم هذا فقد كان ذكيا وصليبيا متحمسا للفكرة الصليبية مع أنه قضي حياته فى خمول نسبى كواحد من قواد فرنسا القدامى . ويقال أن المقصود بهذا الإختيار هو إبعاده عن فرنسا بسبب ما أشيع عن علاقة غرامية بينه وبين أحدى الكونتيسات . وعلى أية حال ، فقد وصل جان دى برين إلى عكا فى الثالث عشر من سبتمبر عام ١٢١٠م (٢٩ ربيع ثانى ٦٠٧ ه) ومعه حوالى ثلاثمائة فارس صليبى (١) . وفى اليوم التالى زوجة البرت Albert بطريق بيت المقدس الأسمى ماريا وتوج الملكان فى كاتدرائية صور فى الثالث من أكتوبر من نفس العام (٢) ووعد جان دى برين بأن يعيد الأراضى المقدسة إلى حدودها السابقة (٣) . وكتب إلى البابا يطلب منه إعداد حملة صليبية تصل إلى الأراضي المقدسة عند إنتهاء وقت الهدنة التى كان قد عقدها مع الملك العادل (٤) .

ولم يكد جان دى برين يستقر فى مملكته حتى تزعزع مركـــزه بوفاة زوجته ماريا عام ١٢١٢ م (٨ - ٩ - ٦٠٩ ه) بعد أن أنجبت منه طفلة تدعى إيزابيلا Isabelle كما كان يطلق عليها اسم يولاند Yolande (٥) . وبذلك لم

---

(١) Grousset, op. cit., iii. pp. 192 - 3. Mas Latrie, op. cit, i p. 179. Cambridge Medieaval History, Vol, 5.p. 314

(٢) Annales de Terre Saint, cf, A.O.L., 11, p. 436.

(٣) King, op. cit.i p. 182.

(٤) Oilvar of padenborn, op. cit., P. 12.

(٥) هى الأميرة التى تزوجها الامبراطور فريدريك الثانى عام ١٢٢٥ م . عن ذلك أنظر : Eracles, op. cit., p. 320

(٥٨٧ هـ)[١] . فانحازوا إلى جانب بوهمند فى الوقت الذى انضم فيه الاسبتارية إلى ليو الأرمينى[٢] .

وأدرك الفرنج الدخلاء أنه من الضرورى تسوية هذه المشاكل الداخلية وتوحيد الجبهة الصليبية من أجل نجاح الحركة الصليبية نفسها . كما أحس البابا انوسنت الثالث أن من واجبه التدخل لفض هذا النزاع ، فأرسل مندوبا عنه للقيام بهذه المهمة يدعى سوفرد أف سانت براكسيدس Sofred of Saint Praxedis ، ثم أوفد مندوبا ثانيا إلى أرمينية وانطاكية هو بطرس أف سانت مارتل Peter of Saint Martel وسعى كل منهما على حده ، ثم كلاهما متجمعين للتوصل إلى حل لمشكلة الوراثة فى انطاكية وكذلك مشكلة قلعة بغراس . وقد أظهر ليو التجاوب مع المندوبين ولكنه رفض إعادة القلعة إلى الداوية ، كما أن بوهمند أنكر حق البابوية فى التدخل فى مشكلة تعتبر إقطاعية بحته ، ولذا فشل المندوبان فى مهمتهما[٣] .

وبالاضافة إلى مشاكل بوهمند مع ليو وحلفائه فقد كان يعانى من الاضطرابات الداخلية . ذلك أن سلطانه لم يكن كاملا على كل من إماره أنطاكية وطرابلس خاصة فى الريف رغم تأييد حكومة انطاكية له . ويتضح ذلك من حركة التمرد التى قام بها أحد أفصاله ويدعى رينوارت Reneart صاحب نفين أو أنفه[٤] ، عندما تزوج بدون إذن منه وريثه حصن عكار[٥] فى نهاية عام ١٢٠٤ م (٦٠١ هـ) . وقد تصاعد هذا التمرد عندما إنحاز إلى جانب رينوارت كثير من السادة الصليبيين من بينهم رالف Ralph الطبرى

---

(١) Oussot, op. cit., 111, p. 194,

(٢) Runciman, op. cit., 111, p, 136,

(٣) Cahen, C., La Syria du Nord, p 615,

(٤) أنفة ، Nephin وتسمى أيضا رأس الشقة وتقع على الساحل جنوب طرابلس ومعظمها داخل فى البحر و كانت حصن أمير انطاكيه . أنظر .

Burchard, A Description of The Holy Land, p. 16.

(٥) حصن عكار ، يقع فى جنوب نهر البقاع فى منتصف الطريق بين طرابلس وحصن الاكراد تقريبا . =

الذى كان أخوه أوتو Otto قد لحق ببلاط ليو الأرمنى عدو بوهمند[1]. وزاد من تعقيد المشكلة أن هذا التمرد قد لقى التأييد من الملك عمورى ملك قبرص والملك الاسمى لمملكة بيت المقدس آنذاك. وبذلك تحرج مركز بوهمند فى الداخل مع السادة الصليبيين وفى الخارج مع كل من البابا وليو وعمورى والاسبتارية، ولم يقف معه سوى الداوية.

واستغل ليو هذه الحوادث وحاصر أنطاكية فى الرابع من ديسمبر سنة ١٢٠٤ م (٢٧ ربيع أول ٦٠٠ هـ) فى الوقت الذى كان فيه بوهمند يسعى للقضاء على تمرد رينورات ومؤيديه. فاستنجد بوهمند بالملك الظاهر صاحب حلب. وخرج الظاهر من حلب متجها إلى حارم، وسرعان ما إنسحب ليو عندما علم بقدوم الملك الظاهر وعاد مسرعا إلى بلاده، كما عاد الظاهر أيضا إلى حلب. ولكن ليو أعاد الكرة مرة أخرى على أنطاكية عندما راسله أهلها، وضمنوا له تمليكها « فهاجمها فجأة فى السابع عشر من ربيع الثانى من العام نفسه (٢٤ ديسمبر). وتحصن بوهمند فى قلعة المدينة ونادى بشعار الملك الظاهر، فخرج بعساكره وقصد انطاكية »[2]، فعاد ليو إلى بلاده دون أن يشتبك مع قوات بوهمند أو الظاهر لما وجده من تجمعات عسكرية كبيرة ضده[3]، وكان من الطبيعى أن يبادر الظاهر إلى تلبية نداء بوهمند عساه أن يحقق من وراء ذلك نصرا إسلاميا على حساب الفريقين الصليبيين المتخاصمين.

= وهو حصن منيع على ارتفاع سبعمائة متر فوق سلسلة جبال لبنان وقد استولى عليه الفرنج عام ١١٠٩ م (٥٠٢ - ٥٠٣ هـ) واختص به الفرسان الاسبتارية واستعاده المسلمون عام ٦٥٨ هـ (١٢٧١ م) عن ذلك ولمزيد من التفاصيل انظر :

Dussaud, R, & Others, La Syrie Antique et Medival Illustrée, planche 146, 7.

(١) Runciman, op. cit., III., p. 136.

(٢) ابن واصل، المصدر السابق جـ ٢ ص ١٥٤ - ١٥٥، ابن الفرات : المصدر السابق المجلد

(٣) الخامس جـ ١ ص ٢ - ٣.

King, op, cit., p. 182.

وارتاح بوهمند من مساندة عمورى للمتمردين عند مماته عام ١٢٠٥ م (٦٠١ هـ) وإمتناع يوحنا أف أبلين الوصى على عرش المملكة عن مساندة الثوار . وانتهز بوهمند هذه الفرصة وأنزل الهزيمة بالمتمردين وفرض سيطرته الكاملة على أنطاكية وطرابلس ، ولم يبق أمامه سوى ليو وحلفاؤه من الاسبتارية . وفى هذا الوقت كان بوهمند يبحث عن مساندة خارجية ضد ليو . ولذلك سارع لاستقبال مارى Marie كونتيسة شامبانى وزوجه بلدوين Baldwin الامبراطور اللاتينى بالقسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٠٥ م) فى عكا وهى فى طريقها إلى زوجها - وقدم لها يمين الولاء تأكيدا لما أعلنه من قبل بتبعية أنطاكية إلى إمبراطور القسطنطينية[١]. وقد زادت سياسة بوهمند هذه من غضب البابوية التى كانت غير راضية عن حكام القسطنطينية اللاتين الذين إنحرفوا بالحملة الصليبية الرابعة .

وتشجيع بوهمند بعد إعلان ولائه للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية وعزل بطرس Peter بطريق أنطاكية بسبب إنحيازه للملك ليو وعين بدلا منه البطريق اليونانى سيمون Simon . وساندت روما البطريق المعزول فأنزل قرار الحرمان الكنسى على بوهمند وحكومته . ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى تدبير المؤامرات ضده وإستطاع بطرس فى نهاية عام ١٢٠٧ م (٦٠٤ هـ) أن يدخل إلى أنطاكية بعض الفرسان الموالين له الذين حاولوا الاستيلاء على جنوب المدينة، ولكن بوهمند تمكن من رد المعتدين إلى خارج أنطاكية وقبض على بطرس والقى به فى السجن دون طعام أو شراب وعندما استبد ببطرس اليأس شرب زيت مصباحه ومات بعد عذاب أليم[٢] .

وتجددت الحرب بين ليو وبوهمند مرة أخرى فى عام ١٢٠٨ م (٦٠٤ - ٦٠٥ هـ) إذ قام ليو بتخريب ضواحى أنطاكية كما قام الاسبتارية بالإغارة على طرابلس[٣] . ولم يلجأ بوهمند إلى الاستنجاد بالملك الظاهر كما سبق ، وربما

(١) Runciman, op cit., III, p. 136

(٢) Cahen, op cit., pp. 612-3

(٣) Runciman, op. cit., III, p. 137.

يكون ذلك بسبب حرصه على عدم إغضاب العادل – الذى وقع الصلح فى أواخر عام ٦٠٣ هـ (يوليو ١٢٠٧ م) – لاختلافه مع الظاهر فى ذاك الوقت[١]. لذلك لجأ بوهمند إلى السلاجقة لمساندته ضد ليو . وانزعج البابا الرومانى من ذلك ، فاستنجد بالظاهر صاحب حلب لإنقاذ انطاكية من تدخل السلاجقة .

ومما تجدر الاشارة إليه أن أمر استنجاد البابا بالملك الظاهر لم يرد فى المصادر العربية على الإطلاق . كما أن لجوء البابا للظاهر وهو الحاكم المسلم أثار دهشة الكتاب الغربيين[٢] ويبدو أن البابا فضل أن يستنجد بالظاهر لحماية أنطاكية على دخول السلاجقة فيها حتى تبقى المملكة الصليبية على حالها أملا فى الوصول إلى حل بين ليو وبوهمند تمهيداً لحملة صليبية أخرى وهو ما أكدته الأحداث فيما بعد .

وقد زادت الخلافات بين ليو وبوهمند من قلق البابوية فعادو البابا التدخل لفض هذا النزاع وطلب من البرت بطريق بيت المقدس الإسمى فى مارس ١٢٠٩ م (رمضان ٦٠٥ هـ) التوسط لحل هذه المشكلة ، فى الوقت نفسه الذى سعى فيه بوهمند للتقرب من البابوية وقبل تعيين بطريق لاتينى على الإمارة من قبل البابا . وقد أدى التقارب بين البابا وبوهمند إلى غضب ليو ، وتفاخر بأنه عقد تحالف مع امبراطورية نيقية nicaea البيزنطية فى المنفى ، كما تقرب إلى هيو Hugh ملك قبرص (١٢٠٥ – ١٢١٨ م) . وتم زواج ريموند المطالب بعرش أنطاكية من هلفيس Helvis أخت هيو[٣] ولعل ليو قصد بذلك ضمان مساندة قبرص له ولابن أخته ريموند فى المطالبة بعرش أنطاكية ، كما منح ليو

---

(١) ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الخامس جـ ١ ص ٥١ .

(٢) Cahen, op. cit., p. 617.

(٣) Runciman, op. cit., III, pp. 137- 8.

طائفة التيوتون[١] بعض القلاع فى قيليقية[٢] ، وتعقد الموقف أكثر من ذى قبل .

ولكن هذه الخلافات ما لبثت أن تبددت عندما قتل الاسماعيلية ريموند أكبر أبناء بوهمند فى كاتدرائية أنطرطوس[٣] ، فتجمعت القوات الصليبية من قبرص وعكا وطرابلس وأنطاكية وأرمينية لقصد بلاد المسلمين ، ولم يتراجعوا إلا بعد خروج الظاهر لملاقاتهم . وزاد التقارب بين كل من مملكة بيت المقدس وأرمينية وقبرص عندما تزوج جان دى برين من إستيفانى إبنة ليو الذى ظل يتحين الفرص لتنصيب إبن اخته ريموند أميرا على أنطاكية وتمكن الملك ليو فى عام ١٢١٦ م (٦١٣ - ٦١٤ هـ) من إحتلال أنطاكية بالتآمر مع بطريق المدينة أثناء غياب بوهمند فى طرابلس ونصب ريموند فى الرابع عشر من فبراير ١٢١٦ م وأعاد قلعة بغراس إلى الداوية وتصالح مع البابا[٤] « وأطلق جماعة من أسرى المسلمين » وتصالح مع الملك الظاهر[٥] فى الوقت الذى كانت فيه الاستعدادات قائمة على قدم وساق فى أوربا لإرسال الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر .

أما فيما يتعلق بقبرص فقد تولى أمرها عمورى الأول فى الفترة : من سنة ١١٩٧ إلى سنة ١٢٠٥ م كما حكم أيضا مملكة بيت المقدس الإسمية من سنة ١١٩٨ إلى سنة ١٢٠٥ م نتيجة زواجه من ايزابيلا . وعند موته إنفصلت

---

(١) يرجع أسس طائفة التيوتون Teutonic فى الأراضى المقدسة الى زمن الحملة الصليبية الثالثة .
= ١١٩١ م (٥٨٧ هـ) وقد زاد نموها بقدوم حملة الألمان عام ١١٩٧ م (٥٩٣ - ٥٩٤ هـ) ، لأن بعض الفرسان الألمان رفضوا العودة إلى بلادهم . وفى سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ ٥٩٥ هـ) اعترف بهم البابا أنوسنت الثالث كهيئة عسكرية وهى مثل جماعة الاسبتارية والداوية . انظر :
Runciman, op. cit., pp. 98-9.

(٢) Cahen, op, cit., p. 6-8

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢١٩ أنظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٣ ص ٩٥٣ .

(٤) Cahen, op. cit., p. 621.

(٥) ابن الجوزى . المصدر السابق جـ ٢ ق ٢ ص ٥٧٢ .

المملكتان عن بعضهما وحكم قبرص إبنه هيو وكان صبيا دون العاشرة من عمره . فتولى أمر الوصاية عليه ولتر أف مونتبيليار[١] الذى تزوج من برجنديا Burgundia أخت هيو الكبرى . وفى عام ١٢١٠ م تسلم هيو مقاليد الحكم. وتزوج بعد ذلك من أليس Alice أميره بيت المقدس وهى إبنة زوجة أبيه . واشتهر هيو بحدة المزاج ، ولذا ظلت علاقاته عاصفة مع جيرانه وأتباعه وكنيسته والبابوية . إلا أنه تمكن من تثبيت دعائم الحكم فى مملكته[٢] وقد شارك هيو فى الحملة الهنغارية على الشام عام ١٢١٧ م (٦١٤ هـ) ، ومات فى فبراير ١٢١٨ م (ذو القعدة ٦١٤ هـ) قبل أن يعود إلى بلاده[٣] ، ودفن فى قلعة طرابلس[٤] .

هكذا ظل الصراع حادا بين الحكام الصليبيين فى المناطق والإمارات التى كانت لا تزال فى قبضتهم ، وكان ذلك بسبب المنافسة على السلطة والأرض . ولا شك أن هذا الصراع كان من العوامل التى أنهكت الوجود الصليبى فى الأراضى المقدسة وساعدت فيما بعد على تقلصه وزواله . ولا يعنى هذا أن الحروب بين المسلمين والصليبيين قد توقفت خلال تلك الفترة من الزمن التى سبقت وصول طلائع الحملة الصليبية الخامسة إلى الشام ، إذ كانت المصادمات بين الفريقين تكاد لا تنقطع منذ مطلع القرن السادس الهجرى (بدايات القرن الثالث عشر الميلادى) كما كانت أيضا من قبل . فالصليبيون فى نظر المسلمين أعداء إحتلوا أرضهم واستولوا على ديارهم . ومن الطبيعى ألا يهنأ للمسلمين بالا إلا إذا إستردوا أرضهم المغتصبة وأجلوا الغزاة عنها . وما كانت الهدن التى تعقد بين الطرفين إلا وقتا لإلتقاط الأنفاس حتى يستعد المسلمون لطرد العدو الغاصب من بلادهم .

---

(١) Eracles, op, cit., p. 305.

(٢) Runciman, op. cit., III, pp. 134-5.

(٣) Annales de Terre Saint, p. 437.

(٤) Histoire des Archeveques Latins de ! L'ils de Chypre C.A.O.L. p. II, 126.

هكذا فتتت الصراعات الشرق اللاتينى وإن كان قد ساده هدوء نسبى قبيل قيام الحملة ، بينما كان الجانب الإسلامى فى حالة تمكنه من مهاجمة الغزاة ودفعهم . وإذا إنتقلنا إلى الجانب الأوربى وهو الجانب الذى قام بإمداد الحملات الصليبية بالرجال والمال والسلاح ، فاننا نجد أن البابوية لعبت دورا رئيسيا فى الحوادث التى سادت أوربا فى الفترة السابقة لقيام الحملة الخامسة . فقد إعتلى كرسى البابوية البابا أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ — ١٢١٦ م) ، وكان على درجة واسعة من العلم والمعرفة ، إذ درس اللاهوت فى باريس كما درس القانون فى بولونيا[١] . ولم يكن لملوك أوربا وأباطرتها المعاصرين له قوته وبصيرته ، فقد برهن على أنه سياسى ماهر سريع البديهة متطور لمقتضيات الظروف والاحوال[٢] . وكانت آمال إنوسنت الثالث تنحصر فى العمل على تسوية كافة مشاكل الممالك ليسودها السلام كى يتمكن من تسخير كافة القوى الأوربية فى غزو مدينة بيت المقدس التى إستردها صلاح الدين فى السابع والعشرين من رجب سنة ٨٥٣ هـ (٢ أكتوبر ١١٧٨ م) خاصة بعد أن نجح أخوه العادل إلى جمع شمل البيت الأيوبى وأن يتبوأ مكان الصدارة على عرش مصر[٣] التى كانت مصدر قوة المسلمين ومعقلهم المنيع ومركز تموينهم بالمال والمؤمن والسلاح[٤] . وغير خاف أن البابا إنوسنت الثالث كان يرمى من وراء ذلك إلى رفع شأن البابوية وأن يكون له السلطة العليا الدنيوية . وكان فى الدعوة إلى الحملة الجديدة فرصة طيبة لتحقيق تلك الآمال ، فضلا عن الهدف البعيد المدى الذى ينحصر فى فرض سيطرة الغرب الأوروبى على العالم الإسلامى

لذلك بدأ البابا إنوسنت عهده بالكتابة إلى البنادقة يطلب منهم الا يبيعوا أو يتبادلوا مع المسلمين المواد الاستراتيجية كالسفن والسلاح والحديد وغير ذلك من المواد ذات التأثير الفعال فى الحرب وإلا تعرضوا لغضب الكنيسة وتوقيع

(١) Miller, W., Mediaeval Rome, p. 55

(٢) Stephenson, C., Mediaeval History, p. 333.

(٣) Grousset, op. cit., III, pp. 164-6

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ٤٦٨ .

أشد العقاب عليهم[١]. كذلك سارع بالكتابة فى عام ١١٩٩ م إلى بطريق بيت المقدس الإسمى أيمار موناكو .Aymar Monaco يطلب منه تقريرا مفصلا عن الحالة فى بلاد الشام مع تدعيم هذا التقرير بكافة البيانات التى تتعلق بالحكام المسلمين وطبيعة العلاقات بين بعضهم البعض ، كما طلب الشيء نفسه فى عام ١٢١٣ م من الداوية والاسبتارية[٢]، ويبدو أن هذه التقارير كانت ترسل اليه من آن لآخر . فقد أرسل اليه بطريق بيت المقدس الإسمى أيضا تقريراً فى عام ١٢١٤ م ، وقد اشتمل هذا التقرير على معلومات على جانب كبير من الأهمية تضمنت بعض النواحى السياسية والإجتماعية والعسكرية الخاصة بالمسليمن . فمن الناحية السياسية تضمن الحديث عن البلاد التى يحكمها كل من العادل وأولاده الكامل والمعظم ، وإشتمل الجانب الإقتصادى الحديث عن النيل وموعد فيضانه وبعض المنتجات الزراعية فى مصر ، وعن الناحية الإجتماعية تناول الحديث أحوال المسيحيين واليهود وعلاقتهم الطيبة بالمسلمين . والجانب الخطير فى هذا التقرير هو الجانب العسكرى ، فتحدث عن بعض البلدان المصرية والمسافة بين بعضها البعض وكان ما تناوله بالتفصيل من المدن هى مدينة دمياط وعدد أبراجها وأسوارها وبرج السلسلة وكيفية دخول السفن من دمياط التى كانت مفتاح مصر آنذاك[٣]. والواضح من هذا أن البابا انوسنت الثالث كان يضع مسألة الشرق اللاتينى وغزو بيت المقدس نصب عينيه لتحقيق الآمال الكبار التى رسمها لنفسه وللكنيسة .

وإذا كان البابا قد إستهل عهده بالعمل على دعم الحركة الصليبية التى بدأ يشوبها الفتور ، فان الحوادث التى جرت فى أوربا أثناء تولية كرسى البابوية ، مكنته من أن يبسط نفوذه على معظم ربوع أوربا تقريبا . واستطاع أن يعلى

(١) Innocent III, Letter to The People of Vencie, of. Thatcher op. cit., pp. 335-7.

(٢) Luchaie, La Question d'Otient, p. 15.

(٣) Patriarche de Jerusalem, Raport an Pape Innocent III, G.F.Y, Kamal, Mon. Cart. t. III, face. IV. p. 992.

شأن البابوية لما قام به من جهد طوال فترة بابويته حتى أصبح السيد الأوحد الذى لا منازع له مما هيأ الجو للدعوه إلى الحملة الصليبية الخامسة بعد أن إنحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها وفشلت فى تحقيق أغراضها[1] .

هذا عن البابوية ومشروع الحملة الصليبية أيام انوسنت الثالث ، أما أوربا فقد كانت فى ذلك الحين نهبا للانقسامات والاضطرابات والمشاكل التى صرفتها عن الاشتراك بصورة فعالة فى الحملة التى كانت البابوية تستعد للدعوة لها . ففى المانيا تمكن هنرى السادس إمبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة (١١٩٠ - ١١٩٧ م) من الحصول على موافقة الأمراء الألمان بأن يخلفه على العرش إبنه فريدريك الثانى . ومات هنرى وهو يستعد للحاق بالحملة الصليبية التى وصلت طلائعها إلى الشام فى أغسطس ١١٩٧ م (شوال ٥٩٤ هـ) ورفض الأمراء الألمان إعتبار فريدريك الذى كان لا يزال فى الثالثة من عمره مرشحا للعرش . ولم تبذل أية محاولات لحصول فريدريك الصغير على تاج المانيا وصقلية ، وآثرت والدته كونستانس Conatance الوصية عليه - أن تحتفظ بعرش نابلى وصقلية وأن تدفع جزية سنوية للبابا وأن تبتعد عن ألمانيا ومشاكلها وأعلنت تبعيتها للبابا[2] .

ومن الطبيعى أن يرتاح البابا لهذا الوضع الذى ضمن به ولاء صقلية للنفوذ البابوى فى وقت كان فيه إنوسنت الثالث يسعى سعيا حثيثا لفرض نفوذه الدينى والدنيوى على الغرب المسيحى كله . وظل فريدريك تحت وصاية والدته ، ولكن الوصاية إنتقلت إلى البابا نفسه بعد وفاتها عام ١١٩٨ م . وكان ذلك بناء على رغبتها[3] وقد أعطى ابتعاد كونستاس عن المانيا الفرصة إلى فيليب Philip دوق سوابيا - عم فريدريك الثانى - الذى تسانده فرنسا ، فتوجه مسرعا إلى المانيا عساه أن يتمكن من الحصول على عرش الامبراطورية لنفسه

(١) Mahmud, F., A Short History of Islam, P. 223.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٩٩ .

(٣) Tout, The Empire and The Papacy, p. 317.

وأيده فى ذلك حزب الجبليين[1] الإمبراطورى وإنتخبوه إمبراطورا للامبراطورية الرومانية فى العام نفسه . ولكن حزب الجلف البابوى المعزز بالنفوذ الإنجليزى إنتخب أوتو أف برونزويك Otto of Brunsuwick وهو الإبن الثانى لهنرى الثانى Hennry II ملك إنجلترا ١١٥٤ - ١١٨٩ م . وفى الوقت نفسه كونت مدن شمال إيطاليا إدارة لنفسها ، وعلى ذلك سادت الحرب الأهلية كلا من لمبارديا وتسكانيا وألمانيا[2] .

وتدخل البابا إنوسنت الثالث مؤيدا أوتو نظرا لوعده بالخضوع للبابوية ، ولكن فيليب دوق سوابيا لم يذعن للأمر وظل يتحين الفرصة للقضاء على أوتو . وتمكن فى عام ١٢٠٧ م من هزيمته فاضطر إلى الفرار واتخذ من حليفته إنجلترا مأوى له . ولم تستقر الأمور على هذا الحال فقد قتل فيليب فى العام التالى ، وأنعش ذلك الأمل فى نفس أوتو للعودة للمطالبة بالعرش وأيده أمراء الهوهنشتاوفن الألمان فى طلبه بشرط زواجه من ابنه غريمه فيلب . ووافق أوتو على ذلك وذهب إلى روما وأعلن ولاءه للبابا وتوج فى أكتوبر ١٢٠٩ م[3] ، وارتاح البابا لهذه النتيجة لأن كل ما كان يعنيه هو خضوع السلطة الزمنية للسلطة البابوية فى وقت إشتد فيه الصراع بين البابوية والامبراطورية حول المسائل الدنيوية .

ولكن العلاقات تأزمت بين البابا وأوتو عندما قام الأخير بغزو جنوب

١

---

(١) الجبليون ، هم دوقات أسرة هوهنشتاوفن نسبة إلى قلعة فى اقليم سوابيا تعرف بهذا الاسم ، والجلفيون هم أمراء سكسونيا . عن ذلك أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ٣٧٦ . وكان لهذين الحزبين أثر كبير فى سير الحوادث فى ألمانيا فى هذه الفترة بالذات حتى أن الامبراطور فريدريك الثانى أنشأ فى عام ١٣٢٤ م جامعة نابلى فى صقلية لتكون تابعة لحرب الجبلين بدلا من ذهاب طلاب صقلية إلى التعليم فى مراكز حزب الجلف البابوى ، وبذلك يضمن ولاءهم للامبراطورية . راجع : جوزيف نسيم : نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ص ٢٥٤ .

(٢) La - Monte, The World of Middle Ages. P. 417.

(٣) Stubbs, W., Germany in The Early Middle Ages, p. 219

صقلية فى عامى ١٢١٠ ، ١٢١١ م[١] ، وهو ما لم تكن ترضى عنه البابوية لما يترتب عليه من توحيد ألمانيا وصقلية ، فأصدر البابا قرار الحرمان ضد أوتو . ويبدو أن الأمراء الألمان قد ضايقهم حكم أوتو ، فاستغلوا قرار الحرمان واعتبروه قرارا بعزلة وإختاروا فريدريك الثانى ملك صقلية ملكا عليهم[٢] ، وكان لا يزال تحت وصاية البابوية . فعاد أوتو مسرعا من إيطاليا إلى ألمانيا وسانده حنا ملك أنجلترا (١١٩٩ - ١٢١٦ م) وأمير فلاندرز ، وفى الوقت نفسه ساند فريدريك الثانى فيليب أوغسطس ملك فرنسا بحكم عدائه القديم لملك إنجلترا وحتى لا يكون على الأراضى الأوربية قوة يخشى بأسها على فرنسا فيما بعد ، كما أيدته البابوية ، وبدت أوربا وقد إنقسمت إلى معسكرين . ويلاحظ أن النبلاء الانجليز لم يساندوا مليكهم حنا ، فاعتمد على بعض الجنود المرتزقة فى ذلك الصراع[٣] . وإنتهى الأمر بوقوع الحرب بين القوتين المتحالفتين وهزم أوتو وحلفاؤه فى موقعه بوفان Bovines فى سهول بلاد الفلاندرز فى السابع والعشرين من يوليو عام ١٢١٤ م . وتعتبر هذه الموقعة نقطة تحول كبير فى تاريخ أوربا الوسيط ، أبرزت كلا من فرنسا وألمانيا المؤيدين من البابوية كأعظم قوة فى أوربا وقتذاك[٤] .

وليس معنى ذلك أن فيليب أوغسطس ملك فرنسا كان على وفاق دائم مع البابوية فقد تعرض لقرار الحرمان عام ١٢٠٠ م بسبب تنكره لزوجته الأولى إنجبرج Ingeberg وزواجه مرة أخرى من إبنه دوق إشرق بافاريا المسماه أجنس أف ميران Agnes of Meran[٥] وقاوم فيليب فى أول الأمر ولكنه إستسلم

---

(١) La-Monte, op. cit., p. 418.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ٤٠٠ - ٤٠١ .

(٣) Matthew of Westminster, The Flowers of History, II, p. 11

(٤) للمزيد من التفاصيل عن موقعة بوفان أنظر :

Matthew of Westminster, op. cit., II, p. 120, Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 298-304.

(٥) Ency. Inter., Vol. 9, p. 302.

فى العام التالى وأعاد زوجته الأولى[١]. وكان ذلك انتصارا لكلمة البابوية تمشى مع سياسة البابا أنوسنت الثالث التى كان يرمى اليها[٢]. وبعد أن ضمن البابا ولاء الملك فيليب له استغله فى التهديد لغزو إنجلترا عندما تأزمت مشلكة تعيين رئيس أساقفة كانتربرى فى عام ١٢٠٥ م كما إستغله أيضا فى ضرب أوتو أوف برونزويك عندما تمرد على البابوية وقام بغزو صقلية ولجأ اليه أيضا فى القضاء على الهراطقة فى جنوب فرنسا .

وكان ظهور حركات الهرطقة من الأمور التى شغلت بال البابوية خاصة بعد أن إستفحل أمرها . وحاول أنوسنت فى أول الأمر إقناع الهراقطة بالعودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية فى روما وإتباع تعاليمها ولكن ببعوثية فشلوا فى هذه المهمة . وتعاطف ريموند Raymond كونت تولوز مع الهراطقة وتقبل آراءهم ورفض إمداد البابوية بالقوة الكافية للقضاء عليهم . وأخيرا إتجه البابا إلى فيليب ملك فرنسا فى عام ١٢٠٤ م ، إلا أن فيليب كان مشغولا بصراعه ضد حنا ملك انجلترا . وكرر البابا نداءه لملك فرنسا عام ١٢٠٥ م وأيضا فى عام ١٢٠٧ م[٣] دون جدوى .

وتطورت الحوادث وأصدر البابا قرار الحرمان ضد ريموند التولوزى لرفضه إعادة الكنائس التى استولى عليها ، فضلا عن قيام أحد فرسانه باغتيال مندوب البابا . ولم يطق البابا صبرا على هذا التمرد الذى من شأنه القضاء على النفوذ البابوى فى الممالك الأوروبية ، فدعا إلى حملة صليبية ضد هؤلاء الهراطقة وهى المعروفة بالحملة الالبيجنسية[٤]، وكان على رأس الداعين لها جاك دى فترى

---

(١) La- Monte, op. cit., p. 419.

(٢) Matthew of Westminster, op. cit., II p. 131.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٤) هى نوع من الحروب التى لا صلة لها بالحركة الصليبية بمفهومها الدقيق لعدم توفر الصفات العامة التى تعتبر من مستلزماتها ومع ذلك اطلق عليها تجاوزا اسم الحرب الصليبية . أنظر : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٥٠ وحاشية (٢) وعن هذه الحملة انظر :
Roger of Wendover, of, cit., II, pp. 278 ff.

الذى عين فيما بعد أسقفا لعكا وجاء مع الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط عام ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) وأرخ لها أيضا(١). ولبى بعض الأمراء دعوة البابا وعلى رأسهم سيمون أف مونتفرات Simon of Montfort وتوليا قيادة الحملة(٢)، وإستطاع هزيمة ريموند فى عام ١٢١٣ م ، لذلك كافأه البابا بأن ولاه بعض الإمارات الاقطاعية المجاوره له وهذا يدل على مدى النفوذ البابوى وسيطرته على السلطة الزمنية . ولم يستطع فيليب أن يقف مكتوف الأيدى ويصم آذانه عما يحدث حتى لا تضيع هيبته أمام البابوية وأوربا فأرسل ابنه لويس Louis للمشاركة فى هذه الحملة عام ١٢١٣ م ، وقد اعترف سيمون بالتبعية لفيليب ، إلا أن سلوك سيمون بعد ذلك تجاهه جعل فيليب يساند ريموند كونت تولوز فى استرداد أملاكه ، ثم قتل سيمون فى عام ١٢١٨ م(٣) وهى السنة التى وطأت فيها أقدام الصليبيين مدينة دمياط ، ومشكلة الهراطقة قائمة فى جنوب فرنسا .

أما فيما يتعلق بالوضع فى انجلترا فقد تولى الملك حنا (١١٩٩ - ١٢١٦ م) حكم البلاد(٤) ، وهو الذى إختاره المجلس الكبير دون معارضه داخل انجلترا نفسها ، رغم أن المقاطعات الانجليزية فى فرنسا كانت تؤيد آرثر Arther دوق بريتانى ضد عمه الملك حنا ليكون ملكا على انجلترا . وكان فى ذلك فرصة إستغلها فيليب ملك فرنسا للاستيلاء على أملاك انجلترا فى شمال فرنسا ، لذلك قام بتشجيع آرثر على مهاجمة مقاطعة أكويتين الانجليزية الواقعة إلى الجنوب من مقاطعة برتانى . وفى الوقت نفسه قام فيليب بنفسه بغزو مقاطعة نورماندنيا . وقد أيد البابا الملك الفرنسى فى موقفه حتى يكسبه - وهو الأقوى - إلى جانبه . ونجح حنا فى السيطرة على أكويتين وقبض على آرثر فى

(١) Vitry, op. cit., Preface. IV. cf, also : Setton, KM., The History of The Crusades, II, p. 281.

(٢) Tout, op. cit., p. 400

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ٢٣٦ .

(٤) جيمس دورثى : العهد الأعظم الأعظم ترجمة مصطفى حبيب طه ص ٥٦ وما بعدها .

عام ١٢٠٢ م الذى لم يلبث أن أغتيل بعد ذلك . أما إنورماندىا فقد سقطت قلاعها الواحدة تلو الأخرى فى يد فيليب ، وحتى عام/١٢٠٤ م كانت انجلترا قد فقدت كل أملاكها فى شمال فرنسا وآلت هذه المناطق إلى فرنسا نفسها[1] .

والحدث الثانى الذى وقع فى إنجلترا فى هذه الفترة وكان فرصة مواتية للبابوية لترمى فيه بكل ثقلها ، هو موضوع تعيين رئيس أساقفة كانتربرى . ففى التاسع والعشرين من شهر يونية عام ١٢٠٥ م مات هوبرت والتر Hubert Walter رئيس أساقفة كانتربرى ، وانتهز رجال الدين فى إنجلترا هذه الفرصة واختاروا سرا مرشحا لهذا المنصب وهو ريجنالد Reginald وأرسلوه إلى البابا فى روما ، وعندما علم الملك حنا بذلك رشح من جانبه حنا أف جراى John of Grey أسقف نورونش Norwich ولكن البابا أعرض عن المرشحين وتم انتخاب ستيفن لانجتون Stephen Langton لشغل هذا المنصب[2] . وغضب الملك حنا لرفض مرشحه وأدى ذلك إلى سوء التفاهم بين البابا والملك الإنجليزى وإنتهى الأمر بأن أصدر البابا ضده قرار الحرمان فى عام ١٢٠٨ م[3] . ولما كانت الغالبية من رجال الدين تدين بالولاء للبابوية فقد قام الملك باضطهادهم ومصادرة أملاكهم كما قام أيضا بنهب الكنائس الإنجليزية[4] ، الأمر الذى أثار البابا ضد الملك ، وحرض فيليب أوغسطس العدو القديم للملك حنا على غزو انجلترا نفسها .

ورحب فيليب بهذه الفكرة لا سيما أن ابنه لويس كان يطالب بعرش إنجلترا عن طريق زوجته بلانش Blanche صاحبة قشتالة إبنة هنرى أخى الملك حنا

---

(١) Roger of Wendover, o. cit' II' pp 205, 213, cf, also, Muir, R., British History, p. 59.

(٢) Matthew of Westminster, p. cit., II, pp. 102-3, 106.

(٣) Roger of Wendover, op cit., II, pp. 250-1, Matthew of Westminster, Ibid.

(٤) La-Monte, op. cit., p. 421.

وبدأ لويس يستعد لهذا الغزو ، ولكننا نجد الملك الإنجليزى يستلم فى إذلال للبابوية فى عام ١٢١٤ م ويقبل تعيين ستيفن لانجتون – مرشح البابا – رئيسا لأساقفة كانتربرى(١). كما قام الملك باعادة جميع رجال الدين إلى مناصبهم وقبل الخضوع للنفوذ البابوى مع دفع جزية سنوية ضخمة للبابا عن كل من إنجلترا وايرلندا(٢). ويتضح أن هذا التصرف من قبل الملك حنا قد زاد من هيبة البابوية وأضاع على فرنسا فرصة القيام بعمل عسكرى ضد انجلترا لتحقيق أطماعها فيها .

وكان لهذه النكبات أثر بالغ الأهمية على سلطة الملك فى انجلترا . فقد بدأ سخط النبلاء على الملك يزداد يوما بعد يوم خاصة عندما بدأ الملك فى المطالبة بفرض ضرائب جديدة تساعده على استئناف القتال مع حليفه أوتو أف برونزويك ضد فرنسا وألمانيا . ولكن النبلاء تكتلوا ضد الملك وأجبروه فى النهاية على توقيع الوثيقة المعروفة باسم العهد الأعظم Magna Carta فى عام ١٢١٥ م التى سلبت الملك الكثير من الامتيازات التى كان يتمتع بها ، ويبدو أن الصراع بين الملك حنا والنبلاء لم ينته عند هذا الحد لعدم إحترام العهد الأعظم من كلا الجانبين(٣). وتطور الأمر وإتخذ شكلا مسلحا وإحتل النبلاء لندن دون مقاومة فى السابع عشر من مايو ١٢١٥ م وإنتخبوا لويس بن فيليب أوغسطس ملكا على انجلترا وأرسلوا اليه يطلبون منه الحضور(٤). ولكن البابا الذى كان يحرص فيليب بالأمس على غزو إنجلترا لم يرض عن التدخل من جانب فرنسا بعد أن أعلن الملك حنا ولاءه للبابوية وهو كل ما كان يأمله البابا. لذلك أخذ يتعاطف مع الملك الإنجليزى ويسانده وكتب إلى النبلاء فى إنجلترا يعنفهم على مقاومتهم للملك ويأمرهم بالإنصياع لأوامره وتأدية الخدمات له

---

(١) Roger of Wendover, op. cit, II, pp. 265 ff,

(٢) Matthew of Westminster, op cit., II, pp. 118-9

(٣) Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 308 ff, Matthew of Westminster, op. cit., II. pp. 121-2.

(٤) Roger of Wendover, op cit., pp. 337- 8

طبقا لما كان متبعا من قبل[١] . ولم يكتف بذلك بل أرسل أيضا الكاردينال جوالو Gualo مندوبا عنه لحماية الملك حنا . وقد قام هذا المندوب وهو فى طريقه إلى إنجلترا ، بزيارة فرنسا وطلب من الملك فيليب عدم إرسال إبنه لغزو إنجلترا ولكن فيليب لم ينصت لقول المندوب وأرسل إبنه لويس لغزو إنجلترا متحديا بذلك رغبات البابا . ونزل لويس فى خليج ساندويتش Sandwich وإستولى على المنطقة بما فيها مدينة دوفر[٢] وتقدم تجاه لندن[٣] . وكان لهذا الغزو العسكرى ضد إنجلترا أسوأ الأثر فى نفس البابا مما دفعه إلى إصدار قرار الحرمان ضد لويس[٤] .

وعندما تقدم لويس إلى لندن كان الملك حنا يهاجم أمراء الشمال المتمردين. وفى هذا الوقت العصيب من تاريخ إنجلترا مات الملك حنا فى قلعة نيوارك Newark عام ١٢١٦ م . وبعد موته تقابل المندوب البابوى مع كثير من النبلاء الانجليز وتم الاتفاق على إعلان هنرى الثالث أكبر أبناء حنا ملكا على البلاد . وبادر لويس بالعودة إلى فرنسا للحصول على المزيد من المعونة من والده بعدما تخلى عنه النبلاء الانجليز . ولم يلبث أن عاد مرة أخرى إلى انجلترا ، ولكنه هزم فى موقعة بحرية بالقرب من دوفر وأرغم على عقد معاهدة سلام مع انجلترا[٥] .

وعن الموقف فى اسبانيا قبيل الحملة فان البابا إنوسنت الثالث لم تسنح له فرصة إلا وإنتهزها لدعوة الممالك المسيحية فى أسبانيا لطرح عداواتها جانبا وأن تجمع نفسها لتتمكن من إخراج المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية . ولم يكتف بذلك بل دعا إلى حملة صليبية فى عام ١٢١١ م لطرد المسلمين من أسبانيا[٦] .

---

(١) Innocent III, Letter to The English Barons, of., Thatcher, op. cit., pp. 219- 220

(٢) Roger of wendover, op. cit., pp. 371-5.

(٣) Matthew of westmenister, op. cit., pp. 126- 8.

(٤) Monte, op. cit., p. 419.

(٥) Matthew of Westmenister, op. cit., II. pp. 129 - 132

(٦) Runciman, op. cit., III, p. 139

ونجحت جهود البابا إذ إتحدت أراجون ونافار وقشتاله وتمكنت من هزيمة المسلمين فى موقعة العقاب فى السادس عشر من يوليو عام ١٢١٢ م (١٤ محرم ٦٠٩ هـ) وهو الإنتصار الذى رجح الكفة المسيحية على المسلمين ، وأعقبه عديد من الانتصارات التى إنتهت بخروج المسلمين نهائيا من اسبانيا(١) ولكن هذه الحروب شغلت الممالك المسيحية فى الشمال الاسبانى عن المساهمة الفعالة فى الحملة الصليبية التى كان البابا يستعد لإرسالها لاستعادة مملكة بيت المقدس .

وهكذا كان الغرب الأوربى فى أواخر القرن الثانى عشر وبدايات القرن الثالث عشر للميلاد مسرحا للقلاقل والاضطرابات والمشاكل الداخلية والحروب المستمرة التي حالت بينه وبين القيام بحملة صليبية فعالة ضد المسلمين . وكان على رأس البابوية فى ذلك الحين شخص من أقوى شخصيات العصور الوسطى هو البابا انوسنت الثالث الذى كان يعتبر نفسه خليفة الله على الأرض وأن الحكام والملوك إتباعه وعماله ، وليس أدل على ذلك من مواقفه من ملوك الغرب وحكامه . وقد بلغت البابوية أوج عظمتها وقوتها فى عهده بعد أن أصبحت أوربا تحت رحمته وبعد أن دانت له كافة دول الغرب بالولاء . وأتاحت له هذه الظروف الفرصة للتفكير فى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة ضد العالم الإسلامى تحقق اغراض البابوية ومطالعها وتعيد مدينة بيت المقدس إلى حظيرة اللاتين التى فشلت الحملة الصليبية الثالثة فى استعادتها .

وإذا رجعنا على شرق أووربا نجد أنه عندما اعتلى البابا انوسنت الثالث كرسى البابوية كان يجلس على عرش الامبراطورية البيزنطية الكسيوس الثالث Alexis III (١١٩٥ - ١٢٠٣ م) وكان هذا الامبراطور قد استولى على العرش أثر ثورة قام بها ضد أخيه وسمل عينيه وزج به وبابنه فى السجن . وقام

---

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١ ص ٥٦٨ ، ينشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى جـ ١ القسم الثانى ترجمة زيادة ، العرينى ص ٣٩٤ أنظر أيضا : يوسف شباخ : تاريخ الاندلس جـ ٢ ص ١٣٦ وما بعدها .

الامبراطور الجديد باغداق الأموال على من عاونوه فى الاستيلاء على العرش فارهق خزينة الدولة[1] ، فى الوقت الذى كانت فيه هيبة الامبراطورية قد ضاعت من قبل فى الخارج بسبب ثورة بلغاريا[2] ، بالاضافة إلى ضياع قبرص واستيلاء ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩ م) عليها فى مايو ١١٩١ م وهو فى طريقه إلى عكا مع الحملة الثالثة[3] . ويعتبر ضياع قبرص أول إشارة إلى ضياع هيبة الاباطرة البيزنطيين فى القسطنطينية[4] .

وعلى أية حال ، لم يقم الامبراطور البيزنطى الجديد بأى عمل ناجح من شأنه إعادة أملاك دولته الضائعة فى قبرص وإعلاء شأن الامبراطورية البيزنطية مرة أخرى ، فقد واصل الحرب البلغارية بنفس الفشل الذى صاحب سلفه ، كما تنازع مع الامبراطور الألمانى هنرى السادسب بسبب إدعاء هنرى العرش بيزنطة عن طريق والد زوجته روبرت الصقلى Robert of Sicily[5] . واستعد هنرى فعلا لغزو بيزنطة إلا أن المرض داهمه وأصيب بالحمى التى قضت عليه عام ١١٩٨ م[6] .

وإن كانت الامبراطورية البيزنطية قد أمنت شر هنرى بمماته ، فانها تعرضت بعد قليل إلى ما هو أشد فتكا عندما إجتاحتها جحافل جنود الحملة الصليبية الرابعة واستولت على معظم أراضيها فى الفترة من سنة ١٢٠٤ إلى سنة ١٢٦١ م . وقد بدأت فكرة هذه الحملة فى عام ١١٩٩ م ، عندما ظهرت فى

---

(١) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ترجمة حسن حبشى ص ١١ .

(٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية تعريب مصطفى طه بدر ص ٢١٦ .

(٣) Richard of Devizes & Geoffrey de Vinsauf, Crusade of Richard Coeur de Lion, cf, Crusades. Bohns ed. pp. 165-198

هذا وقد سلم ريتشارد جزيرة قبرص إلى جاى لوزجنان فى عام ١١٩٢ م عوضا عن مملكة بيت المقدس الأسمية وقام بها حكم أسرة لوزجنان . وللمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٨٨٧ - ٨٨٨ .

(٤) Conder, The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 298.

(٥) Mahmud, op. cit., II, p. 234.

(٦) أومان : المرجع السابق ص ٢١٦ .

أوربا مجموعة من المتحمسين للحركة الصليبية على رأسهم فولك Fulk أسقف نيللى Neuilly يدعو لحملة صليبية ضد المسلمين . وقام بنفس الدور الذى قام به بطرس الناسك من قبل[١] ومن الطبيعى أن يوافق البابا أنوسنت الثالث على مثل هذه الحملة طالما ترمى إلى تحقيق الآمال التى تصبو اليها نفسه[٢] وقد إنضم اليها عدد كبير من الأمراء الفرنسيين على رأسهم ثيبوت الرابع Thibaut IV كونت شامبانى الذى أخذ على عاتقه تمويل الحملة وبلدوين التاسع Baldwin IX كونت فلاندرز وفلهاردوين Villehardouin مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة وغيرهم . واستمرت الإستعدادات لهذه الحملة مدة عامين (١١٩٩ - ١٢٠٠ م) ، وتم اختيار ثيبوت ممول الحملة قائدا لها[٣] . كما تم الاتفاق على نقل قوات الحملة بحرا وأن تكون وجهتها مصر باعتبارها زعيمة العالم الإسلامى ومعقل القوى الإسلامية ، ولأن غزوها يجعل الصليبيين يستولون بسهولة على فلسطين[٤] وأرسل القادة ضمن خطة عملهم سفارة إلى البندقية على رأسها فلهاردوين لاجراء الترتيبات اللازمة لنقل الحملة بحرا . وإتصلوا بهزى داندلو Henry Dandolo دوج البدقية وعقدوا معه الاتفاقية المعروفة باتفاقية مارس ١٢٠١ م. وبموجب هذه الاتفاقية تعهد البنادقة باعداد السفن اللازمة لنقل الحملة المكونة من أربعة آلاف وخمسمائة فارسا وتسعة آلاف مقاتلا وعشرين الفا من الجنود المشاة مع تموينهم لمدة تسعة أشهر فقط ، وذلك مقابل خمسة وثمانين ألف مارك[٥] ، وبشرط أن تكون نصف الغنائم للبنادقة . ووافق البابا أنوسنت

---

(١) بطرس الناسك من الذين كرسوا نشاطهم لنشر الفكرة الصليبية ومن الذين قادوا الحملة الشعبية التى سبقت الحملة الصليبية الأولى . انظر : عمر كمال رفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٣١ ، ٣٦ .

(٢) Les Patriarches Latins d. 'Antioche, cf, R.O.L., P. 195.

(٣) روبرت كلارى : المصدر السابق ص ١٢ .

(٤) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية جـ ٢ ص ١٠٢ . أنظر أيضا :
Vasiliev, Histoire de L'Empire Byzantin, II, p. 101.

(٥) المارك ، كان هناك نوعان من المارك ، المارك الذهبى والمارك الفضى وكل مارك ذهبى تتراوح قيمته من ٨ إلى ١٠ ماركات فضية وكل مارك فضى يساوى حوالى ٢,٣ جرام . أى أن المارك =

الثالث على هذه الاتفاقية بعد تردد وذلك بسبب إشتراك آل مونتفرات فى هذه الحملة باعتبارهم أصدقاء لأسرة الهوهنشتاوفن الألمان أعداء البابوية[١] ، كما تم الاتفاق أيضا على أن يكون أسطول البنادقة معدا لنقل الحملة فى موعد غايته السادس والعشرين من يوليو عام ١٢٠٢ م[٢] .

ولكن الأمور لم تسر طبقا للخطة الموضوعة بسبب موت ثيوت قائد الحملة ومموِّلها فى مايو سنة ١٢٠١ م ، لذلك عقد اجتماع فى مدينة سواسون فى يونيه من العام نفسه تم فيه اختيار بونيفاس Boniface ماركيز مونتفرات قائدا للحملة[٣] . وعجز القائد الجديد عن دفع كل المبلغ المتفق عليه عندما أعد البنادقة السفن اللازمة لنقل الحملة ولم يتمكن إلا من دفع تسعة وأربعين الف مارك فقط . ووجد داندلو فرصته فى عجز القادة عن دفع باقى المبلغ المتفق عليه ففرض عليهم إعفاءهم من باقى المبلغ إذا ساعدوه فى إخضاع مدينة زارا Zara الواقعة على ساحل دالماشيا – التى تمردت عليه واعلنت خضوعها لملك هنغاريا[٤] ويرى بعض المؤرخين أن داندلو قصد توجيه الحملة وجهة أخرى غير مصر حتى لا يفسد العلاقات التجارية معها وهو أمر له أهميته بالنسبة للبنادقه ، ويؤيد هذا الفريق من المؤرخين ذلك بقوله أنه فى اللحظة التى كان يتم فيها التفاوض بين البنادقة والصليبيين على نقل الحملة كان سفراء البنادقة يوقعون معاهدة تجارية مع مصر ، وقد تم توقيعها بالفعل فى (ربيع عام ١٢٠٢ م – منتصف عام ٥١٦ هـ)[٢،٥] .

= الذهبى على أقل تقدير يساوى ١٨،٤ جرام وعلى أقصى تقدير ٢٣ جراما من الفضه . أنظر : الجمعيه التاريخية . بحوث فى التاريخ الاقتصادى ترجمة توفيق اسكندر ص ٢١ وحاشية (٣) وص ٢٥ وحاشية (٢) . وعن المارك راجع أيضا حسنى عبد الرحمن : النقود ص ٢٠ ، سليم أمين حداد : الرياضيات التجارية والمالية مجلد ١ جـ ١ ص ١٨٤

(١) Runciman op. cit., II. 113.

(٢) ... كلاى : المصدر السابق ص ١٣ .

(٣) Grousset, op cit, III p. 110

(٤) Les Patriarches Latins d'Antioche, op. cit., p. 195.

(٥) Runciman, op, cit., III, p. 113.

وعلى أية حال وافق الصليبيون على عرض داندلو الخاص بمدينة زارا ، ولكن البابا هدد بقرار الحرمان عندما علم بذلك . ولم يعبأ الصليبيون بهذا التهديد واتجهوا إلى مدينة زارا وحاصروها وسقطت فى أيديهم فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٢٠٧ م(١) . ويعتبر سقوط هذه المدينة فاتحة عهد جديد فى تاريخ الحروب الصليبية اتجهت فيه إلى قتال المسيحيين بدلا من المسلمين(٢) . وثار البابا على ما حدث وأصدر قرار الحرمان على الحملة بأكملها . وعندما تيقن أن الصليبيين كانوا ضحايا قاداتهم سامحهم وابقى قرار الحرمان على البنادقة فقط الذين تعارضت سياستهم مع سياسة البابا فى الشرق الإسلامى(٣) وربما قصد البابا برفع قرار الحرمان عن الحملة نفسها هو أن يكسبها إلى جانبه وتقوم بالاتجاه إلى مصر .

وكان المفروض أن تتجه الحملة بعد سقوط مدينة زارا إلى مصر طبقا للخطة الموضوعة ولكنها انحرفت مرة أخرى واتجهت إلى القسطنطينية . ويرجع ذلك إلى أن الكسيوس إبن الامبراطور البيزنطى السابق إسحق — استطاع الفرار من سجنه ولجأ إلى زوج أخته فيليب أف سوابيا الامبراطور الألمانى فى ذاك الوقت. وقد وجد فيليب فى مساندة الكسيوس وإعادته إلى عرشه فرصة لتحقيق أمنيته الموروثة عن هنرى السادس وهى احتواء عرش بيزنطه . ولكى يتم ذلك دبر أمر الاتصال بين الكسيوس والصليبيين أثناء تواجدهم فى مدينة زارا ، وعرض الكسيوس على الصليبيين مائتى ألف مارك نظير مساعدته فى استرداد عرش بيزنطة ، كما تعهد بتبعية الكنيسة الشرقية للكنيسة الغربية اللاتينية وأن يقدم عشرة آلاف جندى للمساهمة فى استرداد الأراضى المقدسة . ولقد لقيت

---

(١) روبرت كلارى : المصدر السابق ص ١٥ ، ٤٦ وعن سقوط مدينة زارا أنظر أيضا :
Bracles, op. cit., p. 253 Balazani, U., Early Chronicles of Europe, p. 257, Ostrgorsky G., History of The Byzantine State. p. 366.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ٤٦٨ .

(٣) Brehier, L., L'Eglise et L'Orient au Moyen Age : Les Croisades, p. 190, Ency, inter., Vol. 5, p. 340

مهاجمة بيزنطة التأييد من معظم كبار المسئولين الأوربيين بالاضافة إلى موافقة البابا نفسه على هذا المشروع طالما أنه يحقق فكرة البابوية العالمية فى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سيادة روما بعد قطيعة سنة ١٠٥٤ م[١] . ووافق فيليب أف سوابيا على ذلك لأنه يحقق سيطرته على عرش بيزنطه إلى حد ما ، كما وافق البنادقه على ذلك لإبعاد الضربة عن مصر بعد أن منحهم الملك العادل امتيازات تجارية قيمة فى ميناء الاسكندرية جعلت جميع التجاره مع ممالك الهند فى ايديهم[٢] ومن جهة أخرى اقتنع البنادقة بأنه طالما بقيت هذه الامبراطورية فى القسطنطينية فانهم لا يأمنون بقاء مراكزهم التجارية الإحتكارية فى حوض البحر المتوسط ، وان الحل الوحيد لتأمين تجارتهم هو تسخير هذه الحملة للقضاء على الامبراطورية البيزنطية[٣] . كذلك وجب قادة الحملة الصليبية بهذه الفكرة لارضاء البابوية بعد تمردهم عليها عندما هاجموا مدينة زارا . وتم الاتفاق فى يناير عام ١٢٠٣ م على مهاجمة الامبراطورية البيزنطية[٤] ، ومما تجدر الاشارة اليه هو أن أغلبية الحملة وافقت على أن تكون مصر هى وجهتهم بعد ذلك[٥] . أما بعض المتحمسين للحركة الصليبية وهم الأقلية فقد رفضوا الاشتراك فى هذا العمل غير المقدس من وجهة نظرهم ، وأصروا على تنفيذ هدف الحملة الأصلى وهو مهاجمة مصر مباشرة ، ولكنهم كانوا قلة بحيث لم يستطيعوا أن يؤثروا فى مجرى الحوادث . وهكذا انحرفت الحملة رسميا عن هدفها الأصلى واتجهت صوب القسطنطينية واستولت عليها فى الثالث عشر من ابريل عام ١٢٠٤م[٦] وهرب الامبراطور البيزنطى الكسيوس

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٢٤ .

(٢) أومان : المرجع السابق ص ٢١٧ ، راجع أيضا :

Heyd, Histiore du Commerce du Lavant, I, pp. 401-2.

(٣) Ostrogorsky, op. cit., pp. 365-9

(٤) روبرت كلارى – المصدر السابق ص ١٦ .

(٥) Vasiliev, op. cit., II, p. 103.

(٦) عن سقوط القسطنطينية أنظر : ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١ ص ١٢٤ وما بعدها ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٦٠ ، راجع أيضا : روبرت كلارى : المصدر السابق =

الثالث وجلس على العرش إسحق الثانى وإلى جانبه إبنه الكسيوس الرابع الذى ما لبث أن إنفرد بالعرش ، ولكنه عجز عن الوفاء بوعوده المالية لقادة الحملة فانتهى الأمر بعزله وإقامة الإمبراطورية اللاتينية التى جلس على عرشها بلدوين التاسع كونت فلاندرز . وقسمت الامبراطورية الزائلة إلى حين على القادة الصليبيين والبنادقة كما طرد البطريق البيزنطى ونصب بدلاً منه أسقفا من البنادقة وأرسلت الأخبار إلى البابا تنبئه بتوحيد الكنيستين[1] ، وهو أمل طالما كان يتمناه ويسعى اليه بعد قطيعة سنة ١٠٥٤ م .

وعندما نصب بلدوين وعد بتحرير الأرض المقدسه ، ولكنه لم يفعل وربما يرجع ذلك إلى حروبه مع البلغار التى انتهت بوقوعه أسيرا فى يد قيصر البلغار الذى قتله بعد أشهر من أسره . وتولى بعده أخوه هنرى (١٢١٥ — ١٢١٦ م) الذى واجهته متاعب كبيرة رغم انتصاره على الامبراطورية البيزنطية المتقلصة فى بروسه ، لأن البلغار لم يتركوه يهنأ بهذا النصر ، وظل الصراع مع البلغار حتى عام ١٢٠٧ م عندما مات قيصر البلغار جوهانتزا Johannitza وعقد هنرى معاهدة مع بلغاريا[2] ، وقد اعطت هذه المعاهدة للامبراطور اللاتينى الفرصة للسيطرة على أملاكه إلى حد ما . ولكن موت هنرى عام ١٢١٦ م أضاع كل أمل فى استقرار دولة اللاتين فى القسطنطينية[3] ، الأمر الذى لم يسمح لها بالمساهمة الفعلية فى الحملة الخامسة .

أما عن موقف البابا من الامبراطورية فى القسطنطينية فانه حتى عام ١٢٠٦ م كان لديه الأمل بأن تستعمد الحملة وتتجه إلى مصر ، ومما شجع على هذا الإعتقاد أن الامبراطور هنرى عبر فى خطاباته للبابا عن حماسه للحملة وأنه

---

(١) ... ص ١٦ وما بعدها : Eracles, op. cit., pp. 251-2

Les Patrieches Latins d'Antioche, p: 195.

(٢) أومان : المرجع السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٣) Foord, E., The Byzantine Empire, p. 381.

على إستعداد للمساهمة بجيشه لتحرير بيت المقدس . ولكن شيئا مثل هذا لم يحدث. ويرجع ذلك لعدة أسباب ، منها فتور الحماس الصليبي عن ذى قبل بعد أن أصبح الناس يتشككون فى جدوى حرب صليبية ضد المسلمين والصراع بين هنرى وأتباعه من جانب وبين هنرى وبلغاريا من جانب آخر ، بالإضافة إلى الصراع بين هنرى وتيودور لاسكاريس Theodore Lascaris الذى كان يحاول إستعادة عرش بيزنطه من منفاه فى بروسه . كما أن صليبى الحملة الرابعة أنفسهم لم يفضلوا ترك مواقعهم الجديدة بعد ما رأوا هجرة إخوانهم الصليبيين من الشام إليهم . يضاف إلى ذلك الأوضاع السياسية التى سادت أوربا فى ذاك الوقت والتى جعلت الحكام ينشغلون بتأمين ممتلكاتهم عن أى عمل آخر[١] .

وبينما تجرى الحوادث على هذا النحو فى الشرق والغرب وفى الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ظهر فى مايو سنة ١٢١٢ م عند كنيسة سانت دنيس بفرنسا صبى من رعاه الغنم – من مدينة كلويس Cloyes – فى الثانية عشرة من عمره يدعى ستيفن Stephen وقدم إلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا – حيث كان يعقد مجلسا مع رجال بلاطه – قدم خطابا ذكر فيه أن السيد المسيح أتاه وأمره بالدعوة لحملة صليبية جديدة[٢] . ولم يهتم الملك بالصبى وطلب منه العودة إلى منزله . ولكن ستيفن لم ينصاع للأمر وأعلن أنه سينجح فى إنقاذ المسيحية وفى إسترداد الأراضى المقدسة[٣] ، وأن البحر سينشق أمام مؤيديه ويتمكنوا من عبوره من أوربا إلى بيت المقدس كما عبر موسى عليه السلام البحر الأحمر[٤] . وبدأ فى الدعوة لحملته وبالفعل تجمع حوله عدد كبير من الصبيان من بينهم كثير من أبناء وبنات الأمراء وبلغوا فى مجموعهم حوالى خمسين ألف

---

(١) للمزيد من التفاصيل راجع : عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٦٣ – ١٦٤ . راجع أيضا :
Brchier, op. cit., pp. 178-7.
Stevenson, W.B., The Grusaders in The East, p. 301.

(٢) Runciman op. cit., III. p. 139

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٥٤ - ٩٥٥ .

(٤) Brentano, Les Croisades, p. 114

صبيا ، وانضم إليهم بعض القساوسة والشبان والحجاج وتجمعوا فى وسط باريس إستعداداً للرحيل[١].

ورحل الجميع عن طريق تولوز وليون إلى مرسيليا سيرا على الأقدام ، وهلك عدد كبير منهم بسبب مشقة الطريق وطول المسافة . وما أن وصلوا إلى مرسيليا حتى رحب بهم أهلها وشجعوهم على المضى لتنفيذ فكرتهم ووفروا لهم ما أمكن من المأكل والإيواء . وعندما تجمع الصبيان أمام البحر لم تحدث المعجزة ولم ينشق البحر أمامهم كما كانوا يظنون ، فثار البعض على ستيفن ، وعاد من تمكن منهم العودة إلى وطنه ، بينما ظل البعض الآخر مع ستيفن ، إنتظارا لحدوث المعجزة التى لم تحدث لهم . وفى هذا الوقت عرض تاجران هما هيو أف إيرون Hugh of Iron ووليم الخنزير William the pig أن يضعا السفن تحت تصرف الصبيان وينقلونهم بدون أجر إلى فلسطين[٢] ، وقد تم ذلك وركب الصبيان وظل مصيرهم مجهولا لفترة من الوقت .

ومما تجدر الاشارة اليه أن أحد الرحالة الغربيين الذين عاشوا فى القرن الخامس عشر الميلادى ذكر أن مقدم الاسماعيلية[٣] فى الشام إستغل إثنين من الأساقفة المنشقين على الكنيسة اللاتينية فى أن يهيئوا لستيفن ولصبى آخر فى ألمانيا يدعى نيقولاس Nicolas هذه الرؤية الباطلة[٤] التى أدت إلى هلاكهم أو بيعهم كعبيد فى مصر أو تونس[٥] . ومن وصل منهم سالما إلى عكا آثار دهشة

---

(١) King, op. cit., p. 186.

(٢) Runciman, op. cit., III, p. 111.

(٣) هو كبير اسماعيلية الشام ويعرف لدى مؤرخى الحروب الصليبية باسم شيخ الجبل أو عجوز الجبل The Old Man of The Mountain وربما ترجع تسميته بهذا الاسم هو أن قلاع الاسماعيليه كانت مشيدة فوق الجبال . عن ذلك انظر انظر جوزيف نسيم العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٢٢٩ حاشية (١) وربما سمى بهذا الاسم لحكمته وليس لكبر سنه . أنظر :
Burchard, op, p. 105, Sanuto, op. cit, 5.

(٤) Fabri, F. The Book of The wanderings, Vol 2 prat I, pp. 351- 2

(٥) Tompson J.W., History of The Middle Ages p, 206.

أهلها الذين إعتقدوا بعدم وجود حكومات أو قوانين فى أوزبا تمنع هذا الجنون الذى أعتبر عارا على أوروبا بأسرها[١] .

أما نيقولا الذى ظهر فى كلونى بألمانيا فى الوقت نفسه الذى ظهر فيه ستيفن فى فرنسا ، فانه أدعى أيضا أنه سيخلص بيت المقدس عن طريق نشر المسيحية بين المسلمين . ونجح فى أن يجمع حوله بضعة آلاف من الصبيان الذين إنضم اليهم أيضا كثير من العاهرات والرجال الذين لا أخلاق لهم[٢] وإدعى أيضا أن البحر سينشق أمامهم مثلما إدعى ستيفن . وتولى نيقولا بنفسه قيادة ما يقرب من عشرين ألفا وأتخذوا طريقهم إلى إيطاليا عبر جبال الألب وقابلوا البابا فى روما ، لكنه فشل فى إعادتهم إلى أوطانهم . وكان لابد أن يهلك الكثير منهم فى الطريق ، فلم يصل إلى إجنوه إلا الثلث فقط . ولم تحدث لهم المعجزة التى كانوا ينتظرونها . وإنتهى بهم الأمر بأن أبحر بعضهم من بيزا وبرنديزى إلى الشرق وتبنى الايطاليون من تبقى منهم . ولم يختلف مصير هؤلاء الصبيان عن مصير الصبيان الذين صاحبوا ستيفن . وعندما علم آباؤهم بهذه الكارثة ثاروا على والد نيقولا لتشجيع إبنه وشنقوه[٣] .

هذه هى أحوال مصر والشام الإسلامية والشرق اللاتينى بأقسامه الخمسة ، مملكة بيت المقدس الاسمية وإماره كل من انطاكية وطرابلس ومملكة أرمينية بالاضافة إلى مملكة قبرص ، فى بدايات القرن السابع الهجرى (أوائل القرن الثالث عشر الميلادى) ، فضلا عما كان يسود الغرب الأوروبى والدولة البيزنطية فى نفس هذه الفترة التى سبقت قيام الحملة الصليبية الخامسة . ومن الملاحظ أيضا أنه بسبب إنحراف الحملة الصليبية الرابعة ولأسباب أخرى عديدة سنتناولها فى الفصل التالى بدأ الاستعداد والدعوة لحملة صليبية أخرى

---

(١) Michaud, op. cit., I, p. 203.

(٢) Brentano, op. cit., p. 114.

(٣) Runciman, op. cit, 111, pp. 142-3.

هى الحملة الصليبية الخامسة لتحقيق الهدف الأصلى للحملة المنحرفة وهو غزو مصر توطئة للاستيلاء على الأراضى المقدسة بعد ما فشلت كافة المشروعات السابقة للقيام بهذا الغرض .

الفصل الثالث

أسباب الحملة الصليبية الخامسة والاعداد لها

- أسباب الحملة .
- مجلس اللاتيران الكنسى .
- الدعوة للحملة والتبشير بها .
- موقف البابوية والغرب الأوربى من الحملة .
- الحملة الهنغارية .

تنقسم الأسباب المباشرة إلى أقسام ثلاثة : الأول منها يتعلق بالجانب الإسلامى ، والثانى يختص بالجانب الصليبى فى الشام والثالث يرجع إلى الجانب الأوربى . وعن الجانب الإسلامى فان صلاح الدين الأيوبى تمكن من ضرب الصليبين وإنزال الهزيمة تلو الأخرى بهم وذلك بعد توليه حكم مصر والشام . أما بعد وفاة صلاح الدين فان الدولة الأيوبية كانت تعانى من التمزق والاضطراب بسبب الفرقة والخلاف بين أفراد البيت الأيوبى . وربما إرتاح الصليبيون والغرب الأوربى إلى ما وصلت اليه حالة الممالك الإسلامية من التفكك والانقسام ، ولكن بعد أن تمكن العادل من جمع شمل البيت الأيوبى تحت لوائه ومن أن يحتل إلى حد ما مكانة أخيه صلاح الدين من الناحية السياسية على الأقل ، فان ذلك أزعج أهل الغرب الأوربى والصليبيين فى الأرض المقدسة وجعلهم يعجلون بضربة أرادوها أن تكون قاصمة للعالم الإسلامى قبل أن يتمكن العادل من تطريق الإمارات الصليبية فى الشام والقضاء على البقية الباقية من الوجود الصليبى فى المنطقة، فى الوقت الذى لم تكن فيه الإمارات الصليبية المتقلصة لا تتحمل ضربة أخرى مماثلة لضربة صلاح الدين بسبب ما كان يعتريها من ضعف وتفكك وانقسام نتيجة الخلافات التى قامت بينها ، فضلا عن عوامل الإنهيار الأخرى الكامنة فيها .

وفيما يتعلق بالجانب الصليبى نجد أن بعضها يتعلق بشخصية العادل وسلوكه تجاه الصليبيين . فالمعروف أن العادل كان يبادر أو يوافق على عقد هدنة جديدة كلما إنقضت مدة الهدنة السابقة . كما أنه لم يقم بالهجوم على الممتلكات الصليبية ، وإنما التزم واجب الدفاع عن ممتلكاته إذا ما أغار الصليبيون عليها . وربما لجأ العادل إلى هذه السياسة فى أول الأمر بسبب المشاكل الداخلية التى إعترت الدولة الأيوبية – بعد وفاة مؤسسها – من نزاع على الحكم أو بسبب المجاعات التى وقعت فى مصر[1] . أما عن التزام العادل بهذه السياسة بعد أن استقر له الأمر ، فان ذلك مرجعه إلى طبيعة العادل

---

(١) المقريزى : اغاثه الأمة بكشف الغمة ص ٢٩ وما بعدها .

القسطنطينية على أنقاض الامبراطورية البيزنطية . ومما لا شك فيه أن إنحراف الحملة عن هدفها الأصلى وفشل البابا فى السيطرة عليها وتوجيهها إلى مصر قد أضاع الكثير من هيبة البابوية فى الوقت الذى كان يسعى فيه البابا جاهدا لإعلاء شأنها باحتوائها الحركة الصليبية والسيطرة على الغرب الأوربى دينيا ودنيويا . وإذا كانت هذه الحملة قد أضاعت بعضا من النفوذ البابوى ، فان حملتى الصبيان اللتين قامتا فى عام ١٢١٢ م وما آلت اليه من نتائج قد قضيتا أيضا على جزء كبير من هيبة البابوية ، لدرجة أن بعض المؤرخين الغربيين إعتبروها عارا على أوربا بأسرها . وإذا أمعنا النظر فى الحملة الرابعة وحملتى الصبيان نجد أن البابوية قد فشلت فشلا زريعا فى القيام بأى عمل عسكرى تجاه الشرق ، وكان على البابا إنوسنت الثالث أن يقوم بعمل صليبى ضخم عساه يجنى من ورائه نصرا يعوض به فشل الحملة الرابعة ويمحو الآثار التى ترتبت على حملتى الصبيان وأخيرا ليستكمل به إنتصاراته على ملوك أوربا وأباطرتها .

ويتضح من ذلك أن العوامل المباشرة للحملة تنحصر فى توحيد العادل للقوى الإسلامية فى مصر والشام وبناء حصن الطور ، وإقتناع الغرب الأوربى والقادة الصليبيين بضرورة ضرب مصر لتأمين ممتلكاتهم فى الشام وإستعادة السيطرة على البيت المقدس . وبالاضافة إلى العوامل المباشرة التى أسلفنا اليها ، هناك بعض العوامل الأخرى التى مهدت السبيل لقيام الغزو الصليبى ، ويرجع بعض هذه العوامل إلى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى سادت أوربا قبيل قيام طلائع الحملة الصليبية الخامسة فى عام ٢١٧ م .

فالعامل السياسى الذى ساعد على قيام الحملة هو أن البابا إنوسنت الثالث سعى جاهدا طوال فترة بابويته إلى فرض سلطانه على الممالك المسيحية فى أوروبا . وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير لدرجة أنه أصبح سيدا على كل ربوع أوروبا تقريبا خاصة بعد ما تمكن من فرض سلطانه على الملك حنا ملك انجلترا، وعلى فيليب أغسطس ملك فرنسا الذى يعتبر القوة المنفذة لأدارة البابا ، وتأييده للامبراطور فريدريك الثانى فى إعتلائه عرش ألمانيا . وتجلت السيادة

البابوية فى موقعة بوفان عام ١٢١٤ م[1] . كما يبدو أيضا أن البابا قد تشجع للدعوة إلى الحملة الخامسة بعد إنتصار المسيحيين على المسلمين فى أسبانيا فى موقعة العقاب عام ١٢١٢ م (٦٠٨ - ٦٠٩ هـ)[2] ، فأراد أن يكلل هذا النصر فى الغرب بنصر آخر فى الشرق بغزو مصر .

والجانب الاقتصادى الذى ساعد على قيام الحملة هو ترحيب أهل المدن الايطالية كالمعتاد بالحملات الصليبية لما يعود عليهم من منافع اقتصادية[3] . حقيقة أن العادل قد منحهم بعض الامتيازات فى بعض الموانى الإسلامية وبصفة خاصة مدينة الاسكندرية ، إلا أنهم كانوا يطمعون فى الاستيلاء على الموانى نفسها ، وتتضح أطماع الايطاليين فى ميناء دمياط فى معارضتهم الجلاء عنها عندما تقدم الكامل بعرض السلام إلى قادة الحملة الصليبية الخامسة قبل وبعد استيلاء الصليبيين على المدينة[4] .

أما عن العامل الاجتماعى فرغم معارضة الرأى العام الغربى المعاصر للحركة الصليبية[5] ، إلا أن العامة كان ينخرطون فى صفوفها لما يعود عليهم من فوائد . فقد كانت الحملات الصليبية هى الوسيلة الوحيدة التى يهربون عن طريقها من وطأة الظلم الاجتماعى ومن دفع الديون وفوائدها فضلا عن البحث عن مناخ أفضل للحياة، بالاضافة إلى التكفير عن خطاياهم بالاشتراك فى هذا العمل المقدس من وجهة نظرهم[6] . وقد ساعد على ذلك الجهد الكبير الذى قام به

---

(١) Roger of Wendover op, cit., II, pp. 298- 302.

(٢) Cambridge Medieaval History, Vol. VI, p. 410.

(٣) السيد الباز العرينى : مصر فى عهد الأيوبيين ص ٩ .

(٤) Roger of wendover, op. cit., II, p. 420 . وسنتناول ذلك بالتفصيل فى الفصلين الخامس والسادس .

(٥) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى والرأى العام العربى ، أنظر سلسلة المحاضرات العامة بجامعة الاسكندرية للعام الجامعى ٦٧/ ١٩٦٨ ص ٣٤ ٣٥ .

(٦) عمر كمال توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٣١ - ٣٣ ، جوزيف نسيم يوسف . الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية ص ١٨٣ وما بعدها .

يطالبه بتسليم بيت المقدس[1] . ويبدو أن العادل لم يعبأ بمثل هذا الخطاب ولم يتوقع وصول حملة صليبية فى القريب العاجل بدليل أنه لم يستعد عسكريا لملاقاة الحملة المرتقبة . وأنه كان بمصر عندما وصلت طلائع الحملة إلى الشام فى صيف عام ١٢١٧ م (٦١٤ هـ)[2] .

وبعد أن قام البابا بالدعاية المبدئية للحملة والدعوة لمجلس اللاتيران الكنسى[3] ، انعقد المجلس فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٢١٥ م (٢٠ رجب ٦١٢ هـ) . ويعتبر هذا الإجتماع من أعظم الإجتماعات المسيحية لم ينعقد مثله منذ سبعة قرون قبل ذلك التاريخ كما أنه لم يكن مثل مؤتمر نيقية أو القسطنطينية أو خلقدونية[4] ، لأنه لم ينظر فى خلافات وإنشقاقات مذهبية وإنما نظر فى بعض الشئون المتعلقة بالكنيسة وكذلك مسألة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية فضلا عن الإعداد للحملة الصليبية الخامسة[5] وهو الهدف الرئيسى الذى من أجله عقد المؤتمر ، وحضر المجلس كبار رجال الدين من الشرق والغرب وعلى رأسهم جاك دى فترى وأوليفر أف بادنبورن كما حضره أيضا يوستورج Eustorge رئيس أساقفة نيقوسيا بقبرص[6] ، ورادلف أف ميرنكورت Rodulph of Merencourt بطريق بيت المقدس[7] ، أما جرماس

---

(1) Iorga, Histoire des, Croisades p. 152.

(2) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢٠٩ .

(3) عقدت خلال القرن الثانى عشر الميلادى ثلاثة مجالس دينية فى كنيسة لاتيران :
الأول عام ١١٢٣ م فى عهد البابا كالسكستس الثانى والثانى فى عام ١١٣٩ م فى عهد البابا انوسنت الثانى والثالث فى عام ١١٧٩ م فى عهد البابا الكسندر الثالث عن ذلك أنظر :
Tout, op. cit., pp. 149, 269.
Combridge Medieaval History, V, pp. 108, 368, 451.

(4) عن هذه المؤتمرات : انظر سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ١٣٦ - ١٣٧ ، ٣٩ ، ٤٨ .

(5) Runciman, op. cit., III, p. 144.

(6) Histoire des Archeveques Latine de L'ils de Chypre, p. 216.

(7) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 343.

Jeremias بطريق أنطاكية فلم يتمكن من حضور هذا المؤتمر لمرضه[1] ، ولذلك أناب عنه فى الحضور بلدوين أسقف أنطرطوس[2] وعلاوة على بطارقة وأساقفة الشام وقبرص فقد حضر فولك أسقف تولوز بفرنسا والقديس دومنيك[3] Dominic وبطريق القسطنطينية[4] .

ولم يقتصر الأمر على حضور رجال الدين لهذا المؤتمر ، فقد أعلن البابا فى جميع أنحاء العالم المسيحى عن رغبته فى عقد هذا المجلس وأنه بوسع الحكام الدنيويين حضور هذا الاجتماع وأن الذين لا تسمح لهم الظروف بالحضور فيمكنهم إرسال مندوبين عنهم . وبالفعل حضر يوحنا التورى John of Tours مندوبا عن الملك جان دى برين[5] ، بالاضافة إلى مندوب عن كل من الإمبراطورية الرومانية فى الغرب وفرنسا وإنجلترا وأسبانيا ، فضلا عن مندوب الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ومندوب هنغاريا[6] .

وإلى جانب رجال الدين البارزين والمندوبين الممثلين عن الأباطرة والملوك ، فقد حضر المؤتمر أيضا جمع كبير من المهتمين بالشئون الدينية والسياسية . واختلف المؤرخون فى تحديد عدد الذين حضروا المؤتمر فيذكر روجر أوف

---

* عين رادلف أو رالف أرواؤل بطريقا لبيت المقدس فى ١٤ سبتمبر ١٢١٤ م خلفا للبطريق البرت أف فرسى Albert of Veiceil أنظر :

Les Patriarches Latihe de Jerusalem, p. 21.

(١) Roger of Wendover, Ibid.

(٢) Rohricht, op, cit., 14.

(٣) عاش القديس دومنيك فى الفترة من ١١٧٠ إلى ١٢٢١ م وهو من أصل أسبانى أسس جماعة الوعاظ أو الاخوان السود أو جماعة الدومنيكان Dominican Order فى عام ١٢١٥ م بقصد القضاء على الهرطقة التى كانت سائدة فى عصره ، أنظر :

Ency. Brit. Vol. 7, p. 518.

أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ١٩٤ حاشية (٥) .

(٤) Roger of Wendover, Ibid, Fabri op. cit., Vol. 2, part I, pp. 350-1.

(٥) Bracles, op. cit., pp. 318-9.

(٦) Roger of Wendover, op, cit., II. pp. 343-4, Fabri, Ibid, Michaud, op. cit., II, p. 210.

وندوفر أن عدد الحاضرين كان يزيد عن ألف ومائتين وتسعة وثمانين وأشار أن من بينهم كان إثنان من البطارقة وسبعة وسبعون من المطارنة وأكثر من ثمانمائة من رؤساء الأديرة[١] . ويشير المؤرخ متى أف وستمنستر أن عدد الحاضرين كان يزيد عن ألف ومائتين ثلاثة وستين منهم واحد وستون من رؤساء الأساقفة وأربعمائة وإثنان من الأساقفة بالاضافة إلى ثمانمائة من رؤساء الأديرة[٢] . بينما يروى الرحالة فلكس فابرى أن جملة من حضروا بلغ ألف وثلاثمائة[٣] . ويسجل رهرشت أن الذين تجمعوا فى هذا المؤتمر يزيد على ألف ومائتين ثلاثة وثمانين ، منهم سبعون من المطارنة وأربعمائة واثنى عشر أسقفا وأكثر من ثمانمائة من رؤساء الأديرة[٤] . ويشير آرشر وكنجزفورد Archer & Kingsford أن عدد الأساقفة بلغ أربعمائة واثنى عشر ولم يذكر باقى الطوائف الأخرى[٥] . كما ذكر جون لامونت J. La-Monte أن عدد من حضروا هذا المؤتمر بلغ ألف وثلاثمائة ويتفق فى ذلك مع ما يذكره الرحالة فلكس فابرى - بينما بلغ مجموع الفئات التى ذكرها لامونت ألف ومائتين ثلاثة وثمانين وهى تتفق فى تفاصيلها مع ما ذكره رهرشت[٦] . وكتب كارل ستيفن أن جملة الحاضرين بلغت ألفا ومائتين وخمسين من الأساقفة ورؤساء الأديرة والوعاظ ورجال القانون الذين حضروا لصياغة قرارات المؤتمر[٧] ومن ذلك يتضح أن مجموع من حضر المؤتمر يتراوح بين ألف ومائتين وخمسون وألف وثلاثمائة .

ومن الواضح أن عقد مثل هذا المؤتمر بهذه الصورة قد رفع من شأن البابوية إلى حد كبير ، لأن الأباطرة والملوك الذين أرسلوا نوابا عنهم لحضور المؤتمر قد

---

(١) Reger of Wendover, Ibid.

(٢) Matthew of Westminster, op cit., II, pp. 121-2.

(٣) Fabri, op, cit., Vol 2, part I p 35.

(٤) Rohricht, op. cit., p 194.

(٥) Archer & Kingsford, op. cit., p 374.

(٦) La- Monte, op cit., p 402.

(٧) Stephenson, Medieval History, p 337.

إعترفوا ضمنا بالسادة البابوية على سلطانهم ، علاوة على ما ساد جو هذا المؤتمر من الاعتقاد بأن الكنيسة هي الطريق الوحيد للخلاص وأن رضاء الكنيسة من رضاء الله[1] .

وفى وسط هذه العظمة التى أحاطت بالبابوية إفتتح البابا إنوسنت الثالث أعمال المجلس فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٢١٥ م[2] . وألقى على المجتمعين خطابا عبر فيه عما تقاسيه مدينة القدس تحت حكم المسلمين ، وأن المسلمين ينتهكون حرمات كنيسة القيامة ويتهكمون على صليب السيد المسيح[3] . كما أشار البابا إلى أن الوقت قد حان للقضاء على المسلمين ، وطالب الحاضرين بمساعدته فى القيام بهذا العمل المقدس[4] ، من وجهة نظره ونظر المجتمعين . ومن الواضح أن البابا المعروف بفصاحته حاول جذب أذهان الحاضرين عندما بدأ خطابه بهذا الجانب الدينى ليؤثر تأثيرا مباشرا فى قلوب وعقول الناس لا سيما فى هذه الفترة من الزمن التى ساد فيها التزمت الدينى المجتمع الغربى الوسيط[5] . ومما لا شك فيه أن ما ذكره البابا عن سلوك المسلمين فى بيت المقدس يبعد كل البعد عن الحقيقة . والدليل على ذلك هو حسن معاملة صلاح الدين للأسرى الصليبيين بعد إسترداد مدينة القدس والمدن الأخرى وقد شهد المؤرخون الصليبيون أنفسهم بذلك[6] . وعلى أية حال ، فقد إستطاع البابا أن يهيىء الجو المناسب فى المؤتمر حتى يضمن تحقيق أهدافه لدرجة أنه أعتذر شخصيا لرجال الدين الذين إشتكوا من تصرف

---

(١) La- Monte, op. p,405.

(٢) Les Patriarches Latine de Jerusalem, Ibid. Cf. also, Eracles, op. cit., p. 318.

(٣) يلاحظ أن هذه النغمة كان الغربيون يلجأون اليها عندما يفكرون فى حملة صليبية جديدة ضد المسلمين بقصد اثارة الغرب الأوربى ضد العالم الاسلامى .

(٤) Michaud, op. cit., II, pp. 202-3, 211, 215

(٥) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٥٣ ، العرب والروم واللاتين : ص ٦٤

(٦) Eracles, op. cit., pp. 98-99.
أنظر أيضا : عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ١٩٧ .

روبرت أف كورسن بسبب تحديه لحقوقهم أثناء قيامه بعملية الدعاية للحملة فى فرنسا قبيل إنعقاد المؤتمر(١) .

ودارت عدة مناقشات فى المؤتمر يهمنا منها ما يتعلق بالحملة الصليبية الخامسة . فقد تحدث يوحنا التورى مندوب جان دى برين ملك مملكة بيت المقدس الاسمية فتكلم عن الحالة السيئة التى وصلت اليها المملكة وأشار بأن المدنة مع المسلمين سوف تنتهى فى صيف عام ١٢١٧ م(٢) . وناقش المؤتمر عدة مشروعات لاستعادة بيت المقدس ، وكان من بينها مشروع مهاجمة مصر ، وانتهى الأمر بأن قرر المجلس غزو مصر(٣) . وتسهيلا لأعمال المؤتمر فوض الحاضرون البابا إنوسنت الثالث فى وضع الخطة اللازمة لوضع هذا القرار موضع التنفيذ(٤) .

وبعد أن تحددت مصر لتكون هدف الحملة الصليبية المقبلة بدأ رجال القانون الذين حضروا المؤتمر فى صياغة القرارات التى تضمنت موعد تجمع الحملة ، وواجبات رجال الدين والحكام ، ومصادر تمويل الحملة والامتيازات التى تعود على المشتركين فيها ، مع تحريم الاتجار مع المسلمين والتهديد لمن يخالف هذه القرارات(٥) .

وفيما يتعلق بتاريخ تجمع الحملة فقد تحدد أول يونية من عام ١٢١٧ م موعدا لذلك على أن يكون الالتقاء فى ميناء برنديزى أو مسينا فى صقلية أو أى مكان آخر على خليج مسينا للابحار منه إلى الشرق . أما الذين سيذهبون

(١) Setton, op. cit., p, 380.
(٢) Eracles, op. cit., p., p, 319.
(٣) Oliver, of Padenborn op. cit., p. 22.
(٤) Setton, op. cit., II, p. 382.
(٥) عن البنود الواردة فى قرار مجلس اللاتيران الكنسى البالغ عددها سبعة عشر بندا أنظر :
Thatcher, op. cit., pp. 538-544, Cf. Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 344- 6.

بالطريق البرى فعليهم أيضا أن يكونوا مستعدين فى الوقت نفسه ، وأتفق على أن يتولى المسئولون إبلاغهم بخطة العمل وعلى أن يرافقهم المندوب البابوى[1] .

وعن واجبات رجال الدين فقد طلب منهم البابا أن يتخلوا عن منازعاتهم وأحقادهم وأن يكونوا قدوة للصليبيين قولا وعملا ، وأن يحثوا الذين يتعهدون بالذهاب مع الحملة على الوفاء بوعدهم[2] . وأما الفرسان والادواق والأمراء والكونتات ومن فى مستواهم فعليهم الكف عن المنازعات والحروب لمدة ثلاث سنوات حتى يسود السلام كافة انحاء أوربا وتتمكن الحملة من القيام فى الموعد المحدد[3] .

وإذا انتقلنا إلى مصادر تمويل الحملة ، فان البابا بدأ بنفسه وقدم ثلاثين الف جنيه ، علاوة على ثلاثة آلاف مارك فضى . كما فرض على نفسه وعلى كافة الكرادلة فى الكنيسة الغربية أن يقدموا عشر دخلهم ، أما باقى الطوائف الدينية فيتحملوا ۱/۲۰ من دخلهم . كما طلب البابا من الذين سوف لا يذهبون مع الحملة بكافة طبقاتهم أن يمدوا إخوانهم الصليبيين المتوجهين مع الحملة بالمصاريف الضرورية لمدة ثلاثة سنوات . وعهد البابا إلى بطريق بيت المقدس وإلى رئيس جماعتى الفرسان الداوية والاسبتارية أمر الصرف من هذه الأموال لصالح الحملة[4] .

وأوضحت القرارات التى صدرت عن المؤتمر بعض الامتيازات الروحية للذين يساهمون فى الحملة بطريق مباشر أو غير مباشر . فقد وعد البابا الذين يقدمون سفنهم لحمل الجنود أو الذين يعملون فى بناء هذه السفن أو يساهمون فى نفقات الحملة بغفران خطاياهم ، فضلا عن الإعفاءات المادية للذين سيذهبون مع الحملة على نفقتهم الخاصة . فقد قرر البابا إعفاءهم من دفع

---

(۱) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 345.

(۲) Thatcher op. cit., pp. 538-9.

(۳) Thatcher, op. cit., pp. 539-40. 543.

(٤) Thatcher, op, cit., pp. 540-2, Roger of Wendover op. cit., II, p.344.

الضرائب بمجرد حمل الصليب ، بالاضافة إلى وضع أملاكهم تحت حماية الكنيسة لحين عودتهم وإرجاء دفع ما عليهم من ديون لليهود . وكلف البابا رجال الدين بتنفيذ ذلك[1] .

كذلك تقرر منع الاتجار مع المسلمين مع تهديد من يخالف ذلك بمصادرة تجارته . وفوق هذا وذاك فقد أعطت القرارات الحق لمن يقبض على أى تاجر لاتينى يتعامل مع المسلمين أن يعامله معاملة الأسرى[2] .

ومن الطبيعى أن يهدد البابا بقرار الحرمان كل من يخالف أى بند من البنود السبعة عشر التى صدرت عن مجلس اللاتيران فى التاسع عشر من يناير عام ١٢١٦ م ، كما وعد كل من يعمل على تنفيذ هذه التعليمات بنصيب من الغفران كل بقدر إسهامه فى تخليص الأرض المقدسة . كذلك أمر البابا باعلان هذه القرارات فى أيام الآحاد والأعياد الرسمية فى كافة أنحاء البلاد الخاضعة للكنيسة اللاتينية فى روما[3] .

ولكى يضمن البابا تنفيذ هذه القرارات وقيام الحملة فى الموعد المحدد ، قام بارسال الدعاة والمبشرين للدعوة لها فى كافة أرجاء الغرب حتى يعملوا على تهيئة أذهان المسيحيين للانخراط فى سلكها . وإنتشر الوعاظ فى معظم ربوع أوربا لتهيئة الرأى العام الغربى عن طريق الخطب والاجتماعات لحشد الصليبيين . ولجأ الوعاظ إلى دفع النبلاء على حمل الصليب ليكونوا قدوة للعامة ، كما لجأ

---

(١) Thatcher, op, cit., pp. 515-4, Roger of Wendover, op. cit., II. p. 355.

(٢) لجأ بعض الباباوات والأباطرة إلى اصدار مثل هذا التحريم من وقت لآخر والخاص بمنع التعامل مع المسلمين ومن ذلك ما لجأ اليه البابا أنوسنت الثالث عام ١١٩٨ م . أنظر ما سبق ص ١١٥ . كما أصدر الامبراطور يوحنا تزيمكس نفس هذا التحريم فى يوليو ١٩٧١ م عن ذلك أنظر عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ص ١٧٨ وما بعدها . ومن الملاحظ أن هذا التحريم لم يكن يحترم فى كثير من الأحوال ، وفقد فاعليته بعد كثرة استخدام البابوية فى الغرب له ضد معارضيها فى ميدان السياسة تحقيقا لأغراضها أو مصالحها الدينية .

(٣) Thatcher, op. cit., II. p. 211.

بعضهم إلى الاشارة بأن القوة الإلهية قد وعدتهم بالنصر على المسلمين(١) .

والمنابع الغربية مليئة بالامثلة الدالة على إستغلال النعرة الدينية لدى أهل الغرب للاشتراك فى الحملة ، من ذلك ما ذكره أوليفر وروجر أوف وندوفر فى أحداث سنة ١٢١٧ م ، من أنه فى شهر مايو من السنة المذكورة (محرم - صفر ٦١٤ هـ) ، ظهر فى السماء المسيح مصلوبا على خشبة الصليب ثلاث مرات فى ثلاث مناطق متفرقة بمقاطعة كولونى بألمانيا ، الأمر الذى جعل الشعب الأوربى يهب عن بكره للانخراط فى صفوف الحملة وتخليص بيت المقدّس . ويزودنا الكاتب بتفاصيل هذه الظاهرة قائلا أنه لاح فى السماء شيئا أشبه ما يكون بالصليب فى ثلاثة أماكن ، الأول تجاه الشرق وكان الصليب أبيض اللون والثانى تجاه الجنوب وبنفس اللون والشكل ، أما الثالث فكان يتوسطهما ولكن لونه كان أسود . والصليب الأوسط الأسود هو الذى يمثل السيد المسيح مصلوبا والآخرين للصين كما هو معروف عند المسيحيين . ويستطرد موضحا أن المسيح كان مثبتا عليه وقد دقت المسامير فى يديه وقدميه بينما رأسه متدلية إلى أسفل . ويقول أن هذه الظاهرة تكررت أكثر من مرة فى سماء المقاطعة وفى إحدى المرات ظهر بالقرب من الشمس صليب أزرق اللون وأن العديد قد شاهدوه ، وفى مرة أخرى ظهر صليب أبيض كبير الحجم شاهده كثير من الناس ويضيف بأن هذا الصليب كان يتحرك ببطء من الشمال إلى الجنوب(٢) .

ومن الواضح أن مثل هذه الظواهر هى أقرب إلى الاساطير والخرافات التى كان المسئولون فى الغرب يستغلونها لتحريك الشعور الدينى لدى مواطنيهم ضد المسلمين فى وقت كان عامة الشعب فى الغرب الأوربى يغط فى الجهل كما كانت

---

(١) Michaud, op. cit., II, p. 211.

(٢) Oliver, of Padenborn of cit., p.21

انظر أيضا : Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 388-9

الكنيسة الكاثوليكية متسلطة على مصائر الأفراد تحركهم كيفما تشاء

كما لعب الشعر دورا فى الدعاية للحملة الصليبية فضلا عن أن بعض الوعاظ أعلن أن البابا إنوسنت الثالث سيتوجه بنفسه على رأس هذه الحملة لزيادة حماس الصليبيين ، وازداد التبشير والدعاية للحملة خاصة فى فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيرلندا وأسكتلندا والمدن الايطالية فضلا على الإمارات الصليبية فى الشام .

وفيما يتعلق بالدعوة للحملة والتبشير بها فى فرنسا . نجد أن ذلك بدأ قبل إنعقاد مجلس اللاتيران عندما أوفد البابا روبرت أف كروسون اليها ولكن نظرا لاستياء رجال الدين من تصرفات روبرت ، فقد أرسل البابا إلى فرنسا بعد انتهاء المؤتمر جاك دى فترى الذى يعتبر أشهر من قام بالتبشير للحملة[٢] . فقد سبق له الدعاية للحملة الالبيجنسية فى جنوب فرنسا ، وقد أعطته هذه التجربة السابقة خبرة واسعة فى مثل هذه الأمور . لذلك نجح نجاحا كبيرا فى المهمة التى كلف بها واكتسب صفة شعبية واسعة أثناء جولاته فى فرنسا . والمعروف أنه بذل جهداً كبيراً لحث أهل فرنسا على حمل السلاح والتوجه إلى الشرق مشجعا إياهم على الوفاء بوعدهم للاشتراك فى الحملة[٣] . ورغم هذا ، فقد صادف جاك دى فترى بعض الصعوبات أثناء قيامه بواجبه ، ذلك أن الفرنسيين كانوا

---

(١) ومن الوسائل التى كانت البابوية تلجأ اليها لاثارة النعرة الدينية لدى الغربيين وحثهم على الاشتراك فى الحملات الصليبية ضد المسلمين ، الاسطورة التى تقول أنه ظهر لكثيرة من الغربيين خلال الحملة الصليبية الأولى قتال عنيف بين المسيحيين والمسلمين انتصر فيه الأولون ، وماتراءى للويس التاسع قبل قيامه بحملته على مصر بأن مسيحيا ومسلما يتقاتلان وأن المسلم انتصر على المسيحى ، وقد فسرت الرؤيا عن حاجة بقايا الامارات اللاتينية فى الشرق إلى الغرب . عن ذلك أنظر :
Bray, A, E., The Good Saint Lopis and his Times, p. 54.
راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٦٤ ، العدوان الصليبى على مصر ٥٣ .

(٢) **Eracles, op, cit., p, 319**

(٣) **Vitry, op, cit., pp, III-V**

لا يرغبون فى العمل إلى جانب الألمان فى الحملة المرتقبة أو حتى التجمع معهم فى مدينة برنديزى أو مسينا للتوجه إلى الأرض المقدسة . وعلى أية حال ، فقد استمر جاك دى فترى يعظ فى فرنسا حتى عين أسقفا لمدينة عكا التى وصل اليها فى الرابع من نوفمبر عام ١٢١٦ م(١) . وخلفه فى فرنسا سيمون Simon أسقف مدينة صور التى كانت فى أيدى الصليبيين وقتها ، وقد بدأ عمله فى فرنسا فى الشهر التالى من العام نفسه(٢) .

ويبدو أن سيمون لم يكن بليغا كسلفه جاك دى فترى . فلم تكن إجاباته على تساؤلات المواطنين الفرنسيين مقنعة خصوصا فيما يتعلق بقرارات المؤتمر . وكثيرا ما كان يكتفى بذكر أن البابا لم يغير شيئا من خطته . والمهم أن عملية الوعظ والتبشير فى فرنسا قد أتت أكلها ، وتجمع عدد كبير من الصليبيين . ومما تجدر الاشارة اليه أن بعض رجال الدين فى فرنسا سمحوا لبعض النبلاء الذين سجلوا أسماءهم فى سجل الحملة بتأجيل الوفاء بوعدهم ورحيلهم إلى الشرق فى الموعد المحدد ، فى الوقت الذى كانوا يهددون فيه العامة بقرار الحرمان إذا ما طلبوا الشىء نفسه ، وقد سبب هذا التصرف من قبل رجال الدين قلقا كبيرا للبابا شخصيا ، علاوة على الغضب الذى ساد صفوف العامة(٣) . وربما لجأ رجال الدين إلى هذا الإجراء للحصول على المال من النبلاء . هذا يفسر فتور الروح الصليبية بين أهل الغرب من ناحية وعلى أن رجال الدين اتخذوا من الفكرة الصليبية ذريعة لاكتناز المال من ناحية أخرى .

هذا وقد قام بالتبشير بالحملة فى فرنسا أيضا الكاردينال جريفاس Grivas الذى حث أودو Odo دوق برجنديا وتيبوت Thibaut دوق اللورين على حمل الصليب والذهاب مع الحملة حتى يستفيدا من كافة الإمتيازات التى يتمتع بها كل من انخرط فى سلك الحملة(٤) .

(١) Vitry, Lettres de Jacques de Vitrys, p. 1.

(٢) Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge in Umriss, p. 195.

(٣) Setton, op. cit., II, p. 385.

(٤) Runciman, op. cit., III, p. 145.

وانضم إلى طائفة الوعاظ فى فرنسا القديس دومنيك الذى أطلق لحيته منذ انعقاد مجلس اللاتيران كدليل منه على الذهاب مع الحملة ، وقام بالتبشير لها فى فرنسا إلى جانب زملائه ، كما إستغل وجوده فى فرنسا وقام بالدعوة للحملة الالبيجنسية فى جنوب فرنسا فى الوقت نفسه[1].

وبالاضافة إلى هؤلاء الوعاظ فقد توجه إلى فرنسا – عقب الانتهاء من أعمال المؤتمر – يوحنا التورى مندوب الملك جان دى برين ليبلغ الملك فيليب أوغسطس وابنه لويس والبارونات الفرنسيين بقرارات المجلس ، وليحثهم على التشاور فيما بينهم من أجل إستعادة بيت المقدس[2] . ويبدو أن الملك الفرنسى وباروناته لم يكونوا على إستعداد للذهاب مع الحملة ، فاكتفوا بتقديم المساعدات المالية . فقدم فيليب ١/٤٠ من دخله لدعم الحركة الصليبية ومساهمة منه فى نفقات الحملة[3]، وقد حذا حذوه كثير من النبلاء فى تقديم المساعدات المالية للحملة[4].

وصفوة القول أنه رغم إهتمام البابا بالدعوة للحملة فى فرنسا وإرسال مشاهير رجال الدين وأكثرهم فصاحة اليها ، فقد وجدت فى فرنسا بعض المشاكل ، منها فتور الروح الصليبية عند النبلاء بعكس العامة رغم شعورهم بعدم وجود النبلاء إلى جانبهم . وثانيا عدم رغبة الفرنسيين فى العمل إلى جانب الألمان ، وثالثا جشع رجال الدين فى ابتزاز أموال النبلاء للترخيص لهم بتأجيل الوفاء بوعدهم كما أسلفنا .

وأسند البابا مهمة الدعوة إلى الحملة فى المانيا إلى بعض الأساقفة ورؤساء الأديرة وبعض رجال الدين الآخرين . ولكن أعظمهم نجاحا كان أوليفر أف

---

(١) Fabri, op. cit., Vol. 2, part I, p. 351.

(٢) Bracles, op. cit., p. 319.

(٣) Conder, op. cit., p. 307.

(٤) Michaud, op. cit., II, p. 20.

بادنبورن الذى كان يتولى أسقفية بادنبورن فى ألمانيا . وقام أوليفر بالتبشير للحملة فى أقاليم فريزيا وفلاندرز وبارابانت وأترخت وبعض المناطق الأخرى، ونجح فى مهمته نجاحا كبيرا واستطاع أن يجمع ما يقرب من خمسين ألفا من الصليبيين وأن كان هذا العدد مبالغ فيه إلى حد ما[1] . ويبدو أن أعمال أوليفر قد حازت رضا البابا لذلك عينه كاتبا للمندوب البابوى فى الحملة[2] .

وقام ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربرى فى إنجلترا بتعبئة الشعب الإنجليزى للمشاركة فى الحملة[3] ، رغم ما كان يسود إنجلترا فى ذاك الوقت من الإضطرابات . ووعد الملك يوحنا بحمل الصليب والذهاب مع الحملة ، ولكنه قصد من وراء ذلك أن يضع تاجه تحت حماية الكنيسة والحصول على مزيد من رضا البابوية[4] ، لمساندته ضد باروناته الثائرين عليه . وكان النبلاء الإنجليز أوفى عهدا من ملكهم ، فقد رحل مع الحملة النبلاء الذين وعدوا بحمل الصليب وبروا بوعدهم[5] .

كما طاف المبشرون بايرلندا وأسكتلندا للدعاية للحملة وتشجيع أهل هذه البلاد للانضمام إلى صفوفها . أما المدن الايطالية فان التنافس التجارى بينها وبخاصة بين كل من بيزة وجنوه لم يجعلهما قادرتين على العمل جنبا إلى جنب فى صفوف الحملة . وقد أخذ البابا على عاتقه تسوية هذا النزاع ، ولكنه مات وهو فى طريقه إلى الجنيويين والبيازنة للعمل على فض هذا النزاع[6] .

وكان لابد أن تحظى الدعاية للحملة والتبشير بها بعناية خاصة فى الإمارات الصليبية بالشام باعتبارها محصلة الحركة الصليبية ومنطقة المواجهة مع

---

(١) Setton, op. cit., II, p, 381.

(٢) Ruuciman, op, cit., III, pp. 483-4

(٣) Michaud, op. cit., 11, p. 208.

(٤) Conder, op. cit., p. 307.

(٥) Mattew of Westminester, op. cit., II, p 134

(٦) Roger of Wendover, op. cit, II, p. 393

المسلمين ، فضلا على أنه يوجد بالشام الأماكن المقدسة التى قامت من أجلها الدعوة للحركة الصليبية منذ أكثر من مائة عام قبل ذلك التاريخ . لذلك رأى البابا هونوريوس الثالث الذى خلف البابا إنوسنت الثالث أن يرسل إلى تلك الامارات الكاردينال جاك دى فترى نظراً لفصاحته وبلاغته وتحمسه الزائد لمشروع الحملة . فعينه البابا هونوريس أسقفا لمدينة عكا ليتولى مهمة الوعظ والتبشير والدعوة للحملة المقبلة،ووصل جاك دى فترى إلى عكا فى الرابع من نوفمبر عام ١٢١٦ م ليتولى مهام منصبه الجديد . وإستاء جاك دى فترى مما وجده فى المجتمع الصليبى فى بلاد الشام ، فقد وجد مجتمعا صليبياً غير مترابط يحوى فى طياته كثيراً من التناقضات . كما شاهد التنافس الشديد بين أهالى المدن الإيطالية الذين إنضموا إلى المجتمع الصليبى فى الشام لا بدافع الولاء للفكرة الصليبية ولكن سعيا وراء الأرباح التى تعود عليهم من وراء التجارة . وقد أدت هذه المنافسة إلى المشاجرات الدامية بينهم مما كان له أسوأ الأثر فى الإمارات الصليبية خاصة فى كل من صور وعكا[١] . ولذلك أطلق عليهم جاك دى فترى إسم المرتزقة ، كذلك عانى الكثير من الأفرنج المتمشرقين الذين كان يطلق عليهم إسم بولان[٢] والذين تأثروا بالعادات الشرقية خاصة فى ملبسهم وإستخدامهم اللغة العربية فى حياتهم اليومية ، هذا بالاضافة إلى افتقارهم للروح الصليبية واعتيادهم على حياة الكسل والترف والفساد . ولذلك اعتبرهم جاك دى فترى جماعة من الخونة الغشاشين الأفاقين لتفشى الفجور والدعارة بينهم فضلا عن كونهم جواسيس للمسلمين[٣] . أما المسيحيون الشرقيون فى الشام فقد كانوا يكرهون حكم الصليبيين ويفضلون عليه حكم المسلمين[٤] . وربما

(١) Vitry, op. cit., p. 86. Cf. also Vitry, History of Jerusalem, pp. 65-7.

(٢) يطلق اسم البولانيين Poulains على سلالة الصليبيين الذين ولدوا وتربوا فى الأراضى المقدسة بعد سقوط مدينة القدس فى ايدى اللاتين كما يطلق أيضا على الطفل المولود من أم فرنسية وأب شرقى وذلك على سبيل السخرية والتحقير . أنظر :

Joinville, Jean de, Saint Louis; King of France, p. 322 n.3

راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ١٠٦ حاشية (٣) .

(٣) Vitry, op. cit., pp. 57-8

(٤) Runciman, op. cit., III, p. 146

يرجع ذلك إلى إختلافهم مع الصليبيين مذهبيا ، فقد كانوا من السريان واليعاقبة والنساطرة والموارنة والأرمن[1] .

هذا علاوة على الخلافات السياسية بين الامارات الصليبية نفسها . لذلك كانت المهمة الملقاة على كاهل جاك دى فترى صعبة ومعقدة ، ولكنه رغم ذلك كله فقد إستطاع أن يجدد الحماس الصليبي بعض الشيء فى الامارات الصليبية[2] .

ولم يقتصر الأمر على أصوات الوعاظ ومندوبى البابا ورجال الدين فى التبشير بالحملة ، فقد لعب الشعر دوراً كبيراً فى حث الأوربيين على حمل الصليب . واختار الشعراء فكرة الحملات المقدسة لتكون موضوعا لأشعارهم[3] . وقد عبر الشاعر بونز أف كابدول Pons of Capdolh فى شعره عن رغبته فى عقد الصلح بين ملكى إنجلترا وفرنسا ليسود بينهما السلام ، وأن يتصافى كل من فريدريك الثانى وأوتو الرابع فى المانيا من أجل إستعادة بيت المقدس . كما أعجب الشاعر إمرى Aimery بتحمس البابا للحملة ، وأرسل أشعاره إلى الماركيز وليم أف مونتفرات William of Montferrat يحثه على التوجه إلى الأرض المقدسة ، فضلا عن الأشعار التى رفعت غفلا من الامضاء إلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وأوتو منافس الامبراطور فريدريك الثانى فى المانيا ، ويوحنا ملك انجلترا تحثهم على إنهاء الحروب الدائرة بينهم والتوجه إلى الأرض المقدسة[4] .

وإذا كان الوعظ للحملة والدعوة لها قد تطلب جهدا كبيرا من البابا ورجاله ، فان عملية جمع الأموال طبقا لقرار مجلس اللاتيران قد واجهت بعض

---

(١) Rohricht, op. cit., p. 195.
(٢) Setton, op cit., II, p. 282.
(٣) Michaud, op. cit., II. p. 213.
(٤) Setten. Ibid.

لمتاعب أيضا . ففى أسبانيا كانت الحرب دائرة بين المسلمين والمسيحيين وهى الحرب التى دعا اليها البابا أنوسنت الثالث فى عام ١٢١١ م[١]، وقد تطلب ذلك جمع الأموال اللازمة لتغطية نفقاتها . ولذلك فان جمع أية مبالغ أخرى للحملة الصليبية الخامسة قد قوبل باحتجاج شديد . كما أن تحصيل الأموال فى اسكتلندا لم ينفذ بكل دقة . أضف إلى هذا أن بعض الناس فى أنحاء أوربا كانوا يتساءلون عن فائدة الأموال المردوعة فى خزانة البابا والأموال التى يدفعها رجال الدين . ورغم هذا كله فقد تم جمع مبلغا كبيرا من المال للانفاق على الحملة المرتقبة . وتجمعت هذه الأموال لدى أمين مال الفرسان الداوية فى باريس ، ثم أرسلت إلى أمين مال الداوية وإلى رئيس هيئة الاسبتارية فى الأرض المقدسة وإلى القادة الصليبيين ليوزعوها بمعرفتهم بالعدل على جنودهم[٢]. ومن الملاحظ أن الأموال لم تسلم من الاختلاسات ، فقد أتهم روبرت أف كورسون باختلاس بعض هذه الأموال ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى أبعاده عن مهمة الوعظ فى فرنسا . كما أن البابا قد استاء أيضا من هذا التصرف وأمر باجراء التحقيق معه فى هذه الواقعة[٣] . وإن دل ذلك على شىء فانه ليدل على ضعف الروح الصليبية حتى لدى كبار رجال الدين وإتخاذهم من الحركة الصليبية ، وسيلة لابتزاز الأموال .

هكذا نجح البابا إنوسنت الثالث فى عقد مجلس اللاتيران الكنسى وفى أرسال الوعاظ إلى كافة انحاء أوربا للدعوة للحملة والتبشير بها ، يساعدهم فى ذلك رجال الدين ، بل أنه كان على إتصال دائم بهم للوقوف على مدى إستجابة أهل الغرب الأوربى للحملة ، وتلقى وجهات نظرهم[٤] . فضلا عن أنه تبنى موضوع تسوية الخلافات التى كانت قائمة بين المدن الايطالية ، ولكنه مات فى

---

(١) Runciman, op. cit., III, p. 139

(٢) Setton, op cit., II, p. 386.

(٣) Michaud, op. cit., II, p. 308.

(٤) Runciman, op. cit., III. p. 145.

بروجيا Perugia في شمال إيطاليا وهو في طريقة لتسوية هذه الخلافات عام ١٢١٦ م عن ست وخمسين عاما بعد أن تولى كرسي البابا لمدة ثمانية عشر عاما[١] ، قضاها في عمل دائم ومستمر من أجل سيادة البابوية ونجاح الحركة الصليبية دون أن يتطرق إلى نفسه اليأس أو الملل . وتولى بعده الكاردينال سنسيوس Censius تحت إسم البابا هونوريوس الثالث . وسار هونوريوس على هدى المبادىء التي اتخذها مجلس اللاتيران فيما يتعلق بالحملة . وربما يرجع ذلك إلى أن البابا الجديد كان هادىء الطبع ولم يرغب في الدخول في صراعات مع الحكام الزمنيين . ولذلك فضل توجيه جهده وجهد العالم الأوربي نحو الحرب الصليبية[٢] ، خاصة بعد أن هيأ له سلفه الجو المناسب لقيامها ، ووضع كافة الخطوط الرئيسية الخاصة بها .

ولما كان على البابا هونوريس الثالث أن يطلع العالم الصليبي على موقفه من الحملة فقد كتب إلى الملك جان دى برين يشجعه ويؤكد له عزمه على إرسال الحملة وأنه سيتم العمل الذى بدأه سلفه إنوسنت الثالث بنفس الحماس والإخلاص ، كما كتب أيضا إلى جميع الأساقفة ورجال الدين يحثهم على الإستمرار في الدعوة للحملة والتبشير بها والعمل على زيادة حماس البارونات والفرسان إستعدادا للذهاب إلى الأرض المقدسة[٣] . هذا ، فضلا عن إيفاده جاك دى فترى إلى الأراضى المقدسة ليتولى منصب رئيس أساقفة عكا بالاضافة إلى الدعوة للحملة المقبلة في الإمارات الصليبية بالشام . ومن الملاحظ أن موت البابا إنوسنت الثالث لم يؤثر تأثيرا كبيرا على قيام الحملة[٤] . فقد عمل البابا هونوريوس الثالث بكل جهده لقيام الحملة في موعدها للسيطرة على بيت المقدس[٥] ، ورغم هذا فقد صادف البابا الجديد كثيراً من الصعاب ، أهمها

(١) Matthew of Westminster, op cit., II, p. 132.
(٢) Lamb, op, cit., p. 240.
(٣) Michaud, op, cit., II, pp. 215-6.
(٤) Stephenson, op. cit., p. 301.
(٥) Duggan op, cit., p. 213.

الصراع الحاد الذى تجدد فى إنجلترا بين الملك هنرى الثالث والبارونات عقب موت الملك يوحنا عام ١٢١٦ م ، ومطالبة أوتو الرابع بعرش ألمانيا مرة أخرى ، وعدم وفاء الامبراطور فريدريك الثانى بوعده فى قيادة الحملة[١].

وإذا كان موقف البابا هونوريوس من الحملة هو نفس موقف البابا إنوسنت الثالث فما هو موقف الملوك والأباطرة فى أوربا من الحملة ؟ من الملاحظ أنه حتى قبيل إجتماع مجلس اللاتيران الكنسى فى عام ١٢١٥ م كان الصراع والتطاحن بين الملوك والأباطرة يسود القارة الأوربية من أقصاها إلى أقصاها تقريبا . هذا بالاضافة إلى الحملة الالبيجنسية القائمة فى جنوب فرنسا والحرب بين المسلمين والمسيحيين فى شبه جزيرة إيبريا مما شغل الأوربيين إلى حد ما .

وفيما يتعلق بموقف الملك يوحنا ملك انجلترا فنجد أنهُ قد وعد بحمل الصليب ، وبهذا لاح الأمل للبابوية فى الملك الانجليزى لقيادة الحملة[٢]. ولكن الملك يوحنا كان يعلم جيدا أنه لو ترك انجلترا فان البارونات الانجليز سينجحون فى الحصول على مزيد من الامتيازات على حساب الملكية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان الملك الانجليزى لم يكن على وفاق مع البابا ، وإن ما حدث من تقارب بين الرجلين هو تقارب ظاهرى قصد البابا والملك من ورائه مصلحتهما فقط . وعلى أية حال فقد مات إنوسنت ويوحنا قبيل قيام الحملة وخلف يوحنا الملك هنرى الثالث[٣] . وقد وعد الملك الجديد بحمل الصليب لا رغبة منه فى الذهاب مع الحملة بل رغبة فى الحفاظ على رضاء البابوية فقط[٤].

وبالنسبة لموقف فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد كان أمل البابا فيه أكثر من أمله فى الملك الانجليزى يوحنا وذلك لارتباط فيليب إرتباطا كبيراً بمملكة

---

(١) Setton, op. cit., p. 384.

(٢) Michaud, op, cit., II, p. 216.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., II, p, 379

(٤) Michaud, Ibid,

بيت المقدس الصليبية الاسمية.فقد كان مستشارا للصليبيين ، وهو الذى رشح جان دى برين لعرش مملكة بيت المقدس الاسمية بالزواج من ماريا وريثة عرش بيت المقدس،كما أن يوحنا التورى مندوب الملك حان دى برين توجه إلى فيليب أوغسطس بعد انتهاء أعمال مجلس اللاتيران ليحثه على إنقاذ مملكة بيت المقدس. علاوة على هذا ، فقد وجه البابا إلى فرنسا إهتماما زائداً للدعوة للحملة والتبشير بها قبل وبعد انعقاد مجلس اللاتيران الكنسى فى عام ١٢١٥ م.

وبالاضافة إلى هذا كله فان العلاقة بين البابا وفيليب كانت طيبة إلى حد بعيد فى معظم الأوقات . ورغمَ هذا فقد إعتذر فيليب أوغسطس عن حمل الصليب وقيادة الحملة . وكان عذره فى ذلك هو إنتشار الهرطقة فى جنوب فرنسا وأن إبنه لويس يحارب مع عساكره فى الحملة الالبيجنسية للقضاء على هؤلاء الهراطقة[1] .

أما فى النرويج فقد نجحت الدعوة للحملة ووعد الملك إنجى الثانى Ingi II بحمل الصليب والتوجه إلى الأرض المقدسة ولكنه مات فى ربيع عام ١٢١٧ م[2] .

ورغم أن البابا كان يأمل فى ذهاب الملك يوحنا والملك فيليب أوغسطس مع قواتهما إلى الأراضى المقدسة ضمن الحملة المزمع قيامها فان أمله الكبير كان معقودا على الامبراطور فريدريك الثانى . ذلك لأن فريدريك يعتبر صنيعة البابوية ، فقد كان البابا إنوسنت الثالث وصيا عليه بعد وفاة والدته أيام كان صبيا يحكم صقلية ، كما أن البابا سانده بكل ثقله فى صراعه ضد أوتو عندما قام الأخير بغزو صقلية عامى ١٢١٠ و ١٢١١ م،مما ترتب عليه عزل أوتو وإختيار فريدريك الثانى ملكا على المانيا،وعندما توج فريدريك الثانى فى عام ١٢١٢ م فى مدينة إكس لاشابل رد هذا الجميل للبابا إنوسنت الثالث ووعد بحمل

(١) Tilly, A, Mediaeval France, p 57.

(٢) Runciman, op. cit., III p. 146.

الصليب[١] ومما لا شك فيه أن هذا الاعلان من قبل فريدريك الثانى قد زاد الأمل فى نفس البابوية ، فضلا عن ذلك فان الامبراطور فريدريك الثانى كان إبنا بارا للبابوية – قبل قيام الحملة – وكان يعمل دائما للحصول على رضا البابوية . ففى عام ١٢١٢ م أعلن ولاءه للكنيسة وجعل البابا المرجع الأخير فى كافة الأمور التى تتعلق بالكنيسة فى مملكته[٢] ، ولذلك ساندته البابوية مرة أخرى ضد أوتو وحلفائه[٣] . ومما أكد أمل البابا فى فريدريك لقيادة الحملة هو ما أعلنه الأخير – بعد ما توجه سيفريد Sifride رئيس أسقافة مينز إمبراطورا للامبراطورية الغربية[٤] – عن إشتراكه فى الحملة التى قررها مجلس اللاتيران الكنسى[٥] . وأضاف أنه ليس لديه عمل أفضل من محاربة المسلمين[٦] . وكان لموقف فريدريك الثانى من البابوية ومن قرارات مجلس اللاتيران الكنسى ووعده بالذهاب إلى الأرض المقدسة أثرا كبيرا فى نفوس الأمراء الألمان ، فقد حذوا حذو إمبراطورهم وعقدوا اجتماعات متعددة لهذا الغرض كما إنضم إليهم كبار رجال الدين وبدأوا يعملون جميعا جنبا إلى جنب ، وزاد من اطمئنان البابوية أن فريدريك كان يجلس بنفسه فى الكنيسة ويطالب المواطنين الالمان بالانضمام إلى صفوف الحملة[٧] ، وكلل هذا النشاط الكبير الذى تزعمه الامبراطور فريدريك بانضمام عدد كبير إلى الحملة من البافاريين والفريزيين والسكسون وأهل مورافيا وبرابانت وستراسبورج وآخرين[٨] .

ورغم الآمال المعقودة على فريدريك ونشاطه الملحوظ فى الدعوة للحملة

(١) Eracles, op. cit., p. 299.

(٢) Fiedrick. II, Promis to The Pope Innocent III. cf.
Thatcher, op. cit., pp. 230-2.

(٣) Eracles, op. cit., p 400.

(٤) Maimbourg, P., Histoire Universelle des Croisades, p. 275.

(٥) Iorga, op cit., p 152.

(٦) Cambpell, op cit., p. 381.

(٧) Rohricht, Leitage Zur Geschichte der Kreuzzuge, pp. 3-4.

(٨) Michaud, op. cit., II. P. 217.

فلم تظهر عليه بوادر الوفاء بوعده للقيام مع الحملة فى أول يونيه من عام ١٢١٧ [١]، ثم إعتذر عن الذهاب على رأس القوات الصليبية ووعد باللحاق بها وعلل ذلك بأن أوتو الرابع ظهر مرة أخرى ليطالب بعرش ألمانيا وأنه مضطر للبقاء فى أوربا لحماية ممتلكاته [٢]. وكان هذا الموقف من جانب الامبراطور الألمانى بمثابة صدمة كبيرة للبابا هونوريوس الثالث، ولكنه لم يفعل شيئا من شأنه أن يسيء إلى العلاقات بين الامبراطور والبابوية وأكتفى بعتاب فريدريك وأمرائه على أمل أن يلحقوا بالحملة [٣].

وهكذا ضاع الأمل أيضا فى قيادة الامبراطور الألمانى للحملة الصليبية الخامسة ولم يبق فى أوربا ممن وعدوا بحمل الصليب سوى أندرو الثانى Androw II ملك هنغاريا (١٢٠٥ - ١٢٣٥ م). فقد تعهد بحمل الصليب وفاء لعهد قطعه أبوه على نفسه لم يتمكن من الوفاء به [٤]. فاتصل البابا بالملك الهنغارى ولكن الملك إعتذر فى أول الأمر بسبب الحرب الأهلية الدائرة فى بلاده [٥]. وهكذا ضاع الأمل فى كافة الحكام الأوربيين فى تولى قيادة الحملة. ولا شك أن ذلك كان له أسوأ الأثر فى نفس البابا وعلى نتائج الحملة كلها. ولكن البابا لم ييأس وعاود الإتصال مرة أخرى بالملك أندرو الثانى فوافق آخر الأمر على قيادة الحملة [٦]. وهى المعروفة فى التاريخ باسم الحملة الهنغارية والتى تعتبر من وجهة التخطيط العام طليعة الحملة الصليبية الخامسة أو مقدمة لها. ويلاحظ أن الحملة التى قادها أندرو تختلف عن الحملة التى قادها جان دى برين للهجوم على مصر.

هكذا استقر الأمر أخيرا على قيام الملك أندرو الثانى على رأس الحملة التى

(١) Wiegler, The Infidel Emperor. p. 89.

(٢) Brehier, op. cit., 197.

(٣) Wiegler, Ibid

(٤) Vambery, Hungry. p. 126

(٥) Runciman, op. cit., II. p. 146.

(٦) Lamb, op. cit., p. 240.

تحدد لها أول يونيه من عام ١٢١٧ م موعدا لقيامها ، حسب ما تقرر فى مجلس اللاتيران الكنسى وهو نفس موعد انتهاء الهدنة مع المسلمين[١] . وكان على أندرو إعداد السفن اللازمة لنقل الجنود من مراكز تجمعها إلى الأراضى المقدسة ، فبدأ بارسال سفارة من جانبه على رأسها الكسندر سيبنبرجن Alexandre Sibenburgen وفوضه بسلطات واسعة فى عقد إتفاقية مع بطرس زيانى Peter Ziani دوج البندقية لنقل جنود الحملة إلى سواحل الشام . وتم الاتفاق، وبموجبه تنازل أندرو نهائيا عن مدينة زارا واطلاق حرية التجارة بين هنغاريا والبندقية . مقابل أن تمدهم البندقية بعشر سفن كبيرة الحجم نظير خمسمائة ماركا فضيا عن كل سفينة ، بالاضافة إلى بعض سفن أخرى أقل حجما من السفن العشرة على أن يدفع لكل سفينة مبلغا من المال يعادل نسبة حجمها . وقد تم الاتفاق على دفع مجموع المبالغ على ثلاث دفعات . تدفع الدفعة الأولى منها فى عيد العنصرة[٢] (٥ مايو ١٢١٧) ، ويتم دفع الثانية قبل نهاية مايو ، أما الأخيرة فيتم دفعها عند قيام الحملة . وقد تم إعداد السفن اللازمة لنقل الجنود وأصبحت مستعدة للابحار إلى عكا فى الخامس والعشرين من يوليو من العام نفسه وبذلك تأخر موعد قيام الحملة حوالى شهرين تقريبا . ولهذا السبب فان الملك الهنغارى بدأ السير من بلاده فى بداية شهر يوليو فى

(١) Eracles, op, cit., pp. 321-2.

(٢) عيد العنصره ، Whitsunday هو العيد الذى يحتفل به المسيحيون عامة بعد عيد القيامة بخمسين يوما بمناسبة حلول روح القدس فى تلاميذ السيد المسيح وليس له تاريخ محدد فهو متغير تبعا لتغير عيد القيامة . ويختلف تحديد عيد القيامة عند المسيحيين الشرقيين والغربيين ، فبالنسبة للغرب يحدد عيد القيامة بيوم الاحد الذى يلى اكتمال القمر – حتى يصبح بدراً – الذى يلى الاعتدال الربيعى (٢١ مارس) سواء أكان قبل أو بعد أو مع عيد فصح اليهود . عن ذلك أنظر :
Ency, Brit, Vol, 7 p 865, Vol 23, pp 293-4

وعلى ذلك حدد الباحث عيد العنصرة فى عام ١٢١٧ م بيوم (٥ مايو) . أما المسيحيون الشرقيون فيحتفلون بعيد القيامة فى يوم الأحد الذى يلى عيد فصح اليهود لمعرفة مواعيد عيد القيامة عند الشرقيين : أنظر : القديس أنبا ديمتريوس الكرام : شرح حساب الكنيسة القبطية ص ٤٣ وما بعدها والجدول رقم (١٩) .

طريقه إلى مدينة سبلاتو Spalato – التى أختيرت أخيرا كمنطقة لتجمع الحملة – يرافقه ليوبولد Leopold دوق أستريا وعديد من الأساقفة والكونتات بالاضافة إلى جموع الصليبيين ، واتخذ الجميع طريقهم إلى سبلاتو عن طريق موانى ساحل دلماشيا[١] .

وأخيرا وبعد هذه الأحداث وصل أندرو ورجاله إلى سبلاتو حيث إستقبله أهل المدينة إستقبالا رائعا وأكرموا ضيافته ومن معه من الجنود[٢] . وقد تأثر أندرو بهذه الحفاوة فأهدى إلى المدينة قلعة سليسا Clissa المجاورة لهم ، كما أهدى إليهم أيضا الجزيرة المقابلة لهذه القلعة . ولما كان عدد الفرسان الصليبيين يزيد على عشرة آلاف فارس بالإضافة إلى عدد كبير من المشاة فكان على الملك المنغارى الانتظار لعدة أسابيع حتى يتم توفير السفن الكافية لنقل كل هؤلاء الجنود ، لذلك فضل بعض الفرسان العودة إلى بلادهم على أن يلحقوا بالحملة فى الربيع القادم[٣] . أما عن الفرنسيين الذين انضموا إلى قوات أندرو فكانوا قليلى العدد ، ذلك لأن القوات الفرنسية جاءت إلى الشرق على فترات امتدت حوالى سنتين قبل وبعد ذلك التاريخ فضلا عن أنهم كانوا لا يفضلون العمل إلى جانب المنغاريين والألمان[٤] . وفيما يتعلق بالقوات الألمانية فلم تنضم إلى قوات الملك المنغارى ولم تعمل فى صفوف الحملة المنغارية فى الشام لأنها اتخذت الطريق البحرى فى الشمال حتى وصلت إلى اسبانيا وهناك انضمت إلى قوات الملك الفونسو الثانى Alfonso II (١٢١٢ – ١٢١٣ م) وحاربت المسلمين ، ثم اتجه بعضها بعد ذلك إلى إيطاليا ومنها إلى عكا فوصلتها فى ربيع عام ١٢١٨ م[٥] ، أى بعد انتهاء أعمال الحملة المنغارية وعودة أندرو إلى بلاده . والمهم أن الملك المنغارى وجنوده ظلوا ينتظرونهم على ساحل دلماشيا حتى

---

(١) Setton, op, cit, pp. 387-8.

(٢) Michaud, op. cit., II, p. 224.

(٣) Setton, op. cit., II, P 388.

(٤) Eracles, op. cit., p 322.

(٥) Oliver of Podenborn, op. cit., pp 20-21.

نفذت أموالهم[١] ، فاضطر أندرو إلى فرض بعض الضرائب والاستيلاء على بعض الأوعية المقدسة من الكنائس فضلا عما تم بيعه ورهنه من العقارات لمواجهة نفقات الحملة المتزايدة[٢] . وبعد أن مل أندرو ورجاله إنتظار إخوانهم الألمان تحركت دفعة منهم تحت قيادة ليوبولد دوق أستريا ووصلت إلى عكا فى بداية سبتمبر من عام ١٢١٧ م[٣] ، يدفعهم الأمل فى نجدة الأراضى المقدسة والسيطرة على بيت المقدس[٤] .

وما أن وصل ليوبولد إلى عكا حتى أرسل سفارة إلى بوهمند الرابع أمير طرابلس يدعوه للانضمام للحملة . وقد لبى بوهمند الدعوة وأحضر معه بعض الأمراء الصليبيين منهم جى الثانى صاحب جبيل Guy II of Jebail وشخص يدعى برتران Bertran وآخر يدعى وليم William وهما من جبيل أيضا بالاضافة إلى مارشال طرابلس . وبعد أن التقى هؤلاء الزعماء اتفقوا على إرسال سفارة إلى قبرص لدعوة الملك هيو للانضمام للحملة . وتكونت السفارة من فيرى دى بيتو Feri de Beto وهو من أعيان المانيا وجارنييه Gaurnier وهو من أعيان الصليبيين . كما إنضم إلى الحملة أيضا جوتييه الثالث Gautler III صاحب قيسارية (١٢١٧ - ١٢٢٩ م) ويوحنا أف إبلين صاحب بيروت (١٢٠٥ - ١٢٣٦ م) - الوصى السابق على عرش مملكة بيت المقدس الإسمية وإبنه فيليب[٥] ، فضلا عن رادلف بطريق بيت المقدس وعدد آخر من كبار رجال الدين على رأسهم جاك دى فترى وسيمون أسقف صور وغيرهم ، بالاضافة إلى رؤساء جماعات الفرسان الداورية الاسبتارية والتيوتون وآخرين غيرهم[٦] .

---

(١) Michaud, op. cit, II. p. 218.

(٢) Setton; op. cit., II, p. 387.

(٣) Rohricht, Geschichte per Kreuzzuge in Umriss. p. 196.

(٤) Fabri, op. cit., Vol. 2, part I, p. 352.

(٥) Eracles, op. cit., p. 322.

(٦) Oliver op Pedenborn, op. cit., pp, 12 ff.

وفى تلك الأثناء واجه الزعماء المجتمعون فى عكا إنتظارا لوصول الملك أندرو والملك هيو ، واجهوا مشكلة نقص المواد الغذائية لتموين الحملة . وتفاقمت الأزمة حتى بيع الرغيف الصغير بحوالى اثنى عشر دينارا مما دفع الجند إلى السلب والنهب ، فسلبوا ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم ولم يتورعوا عن سلب المنازل والأديرة[1] . وكانت هذه الأزمة سببا فى هلاك عدد كبير من الصليبين وضعف الروح المعنوية بينهم فأشار بعض الأساقفة والقادة على الصليبيين بالعودة إلى أوطانهم . وفعلا رحل عدد كبير منهم إلى ديارهم[2] .

ونتيجة لما حدث سادت الفوضى المعسكر الصليبى ، ورأى القادة الصليبيون ضرورة القيام ببعض الأعمال العسكرية ضد المسلمين لشغل الصليبيين عن الحالة التى وصلوا إليها[3]. وفى هذا الوقت وصل هيو ملك قبرص ومعه قائد الجيش القبرصى وعدد كبير من التركوبول[4] والفرسان ، هذا بالاضافة إلى يوستورج رئيس أساقفة نيقوسيا[5]. كما وصل أيضا فى الوقت نفسه الملك اندرو الذى بدأ رحلته من ميناء سبلاتو فى أوائل سبتمبر سنة ١٢١٧ م تاركا ورائه الجزء الأكبر من جيشه[6]. وربما يكون ذلك بسبب قلة امكانياته المالية .

على أية حال ، فانه عقب وصول الملك أندرو عقد القادة مجلسا للحرب حضره الملوك الثلاثة أندرو وجان دى برين وهيو ، كما حضره بوهمند الرابع

---

(١) Michaud, op, cit., II, p. 225.

(٢) Setton, op. cit., II, p. 389.

(٣) Eracles, op. cit., pp. 322-3

(٤) التركوبول ، Turcopoles من العناصر التركية التى كانت تعمل كجند مرتزقة فى خدمة أى حاكم أو أمير يدفع لهم المبلغ الاكبر ، ومن هذه العناصر أيضا البجناكية Pechenegs والكومان Kumans . أنظر عن ذلك : Setton, op. cit., I, pp. 215, 261, 354 ff.

(٥) Histoire de Archevques Latins de L'ils de Chypre, p. 216
ونيقوسيا Nicosia تعرف فى المصادر العربية باسم الافقوسية وكانت عاصمة لجزيرة قبرص

(٦) Runciman, op. cit., III. pp. 147-8.

أمير طرابلس وانضم اليهم جمع كبير من الاساقفة على رأسهم جاك دى فترى أسقف عكا وسيمون رئيس أساقفة صور وروبرت Robert رئيس أساقفة الناصرة ورادلف أف ميرنكورت بطريق بيت المقدس الإسمى،هذا بالإضافة إلى إيوستورج رئيس اساقفة نيقوسيا وعدد آخر من رجال الدين والفرسان ، وعرض على هذا المجلس الخطة التى سبق أن تدارسها - قبل وصول الحملة المتغارية - جان دى برين مع رؤساء الداوية والاسبتارية والتيوتون[١] .

وتتلخص هذه الخطة فى قيام بعض القوات الصليبية بمهاجمة مدينة نابلس للتمويه على هدف الحملة الرئيسى وهو غزو مصر . وفى الوقت نفسه تقوم القوات الرئيسية للحملة بمهاجمة مدينة دمياط تمهيداً للاستيلاء على مصر كلها باعتبارها الطريق الوحيد لهزيمة المسلمين فى الشام وإستعادة الأرض المقدسة ، ولكن بجلس الحرب المنعقد أرجأ تنفيذ هذه الخطة لوقت لاحق وذلك بسبب قلة القوات وعدم توافر السفن اللازمة لنقل جنود الحملة إلى مدينة دمياط استعداداً للقيام بهذا الغزو الكبير[٢] . وبعد أن طرحت هذه الخطة جانبا تدارس المجلس خطة أخرى تهدف إلى مهاجمة مدينة بيت المقدس . ولكن المجلس إرتأى عدم إمكان تنفيذها لعدم توفر الماء الكافى لقواتهم عند المدينة المقدسة[٣] . وبعد أن تعذر على القادة المجتمعون تنفيذ خطة مهاجمة دمياط أو بيت المقدس قرر المجلس مهاجمة مدينة دمشق[٤] وبدأ القادة الصليبيون فى إعداد الجيش تمهيداً للقيام بهذا الهجوم . ولما أصبحت القوات الصليبية على أهبة الإستعداد فى السادس من نوفمبر ١٢١٧ م الرابع من شعبان ٦١٤ هـ لمنازلة المسلمين قدم رادلف - بطريق بيت المقدس الأسمى - فى خشوع وإحترام شظية الصليب إلى الملك أندرو باعتباره قائد القوات المجتمعة علامة على بداية الحرب[٥] .

---

(١) Eracles, Ibid.

(٢) Setton, op, cit., II, pp. 389-90.

(٣) Rohricht., Geshichte des konigreichs Jerusalem, pp. 722-3.

(٤) Iorga. op. cit., p. 153.

(٥) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 14.

وفى هذه الأثناء كان الملك العادل مقيما بالقاهرة ، وقد بلغه نزول الصليبيين بالشام وإجتماعهم لمهاجمة المسلمين . فخرج من مصر متجها إلى الشام فوصل إلى الرملة ومنها إلى اللد . وعندما علم الصليبيون بقدومه غيروا خطتهم ، وبدلا من مهاجمة دمشق خرجوا من « عكا ليقصدوه » . وساروا فى طريقهم إلى مدينة بيسان فى الوقت نفسه الذى سار فيه العادل إلى بيسان أيضاً « لحماية أطراف البلاد مما يلى عكا » ، ونجح العادل فى الوصول إلى بيسان قبل أن يصل اليها الصليبيون[١] . وصعد العادل إلى تل المدينة وأخذ يراقب الصليبيين وهم فى طريقهم إليه عن طريق عين جالوت يتقدمهم الملك أندرو ، وقد بلغ عددهم ما يقرب من خمسة عشر ألفا[٢] . ورأى العادل أنه من الأفضل عدم الإشتباك مع الصليبيين لكثرتهم العددية وقلة عساكره ، لأن العساكر كانت متفرقة فى البلاد[٣] ، وقرر التراجع مدينة بيسان . ولما إستعد للانسحاب من المدينة قال له ابنه الملك المعظم « إلى أين ؟ فشتمه بالعجمية وقال بمن أقاتل أقطعت الشام مماليكك وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول »[٤] . ويرى أبو شامة أن العادل أضرم النار فى مدينة بيسان قبل أن ينسحب منها[٥] . بينما يذكر أوليفر أنه عندما وطأت أقدام الصليبيين مدينة بيسان وجدوها خالية من السكان فنهبوها وإستولوا على كل ما وقعت عليه أيديهم[٦] . وهذا يوضح أن العادل لم يشعل النار فى المدينة لأنه لو اشتعلت المدينة لما وجد الصليبيون فيها ما ينهبوه . أما ابن الأثير فيروى أن أهل مدينة بيسان إطمأنوا إلى وجود العادل بينهم فلم يفارقوا المدينة ففاجأهم الصليبيون ولم يستطع النجاه منهم إلا القليل[٧] . وتؤكد هذه الرواية أن العادل لم يحرق المدينة . وتتفق رواية كل من

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢٠٩ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٥٨٣ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق الموضع نفسه . وتدل هذه الجملة على أن العادل لم يكن مستعداً للحرب .

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٨٦ .

(٥) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٠١ .

(٦) Oliver of padenborn, Loc. cit.

(٧) ابن الأثير : المصدر السابق الموضع نفسه

ابن واصل[1] والمقريزى[2] مع ما ذكره كل من إبن الاثير وأوليفر . والأرجح أن العادل إنسحب فجأة من بيسان – دون أن يشعل النار فيها – فى الوقت الذى وطأت فيه أقدام الصليبيين المدينة . ويبدو أن إنسحاب العادل بهذه الصورة قد شجع الصليبيون على التمادى فى مهاجمة المنطقة الواقعة بين بيسان وبانياس . وليس ذلك فحسب ، بل إنهم توغلوا داخل الأراضى الإسلامية وإنتشرت جنودهم فى القرى حتى وصلت إلى خسفين[3] ونوى[4] وأطراف السواد[5] وقاموا بأعمال النهب والسلب ، بالاضافة إلى أنهم قتلوا خلقا عظيما[6] ، كما حاصروا مدينة بانياس لمدة ثلاثة أيام ثم عادوا إلى عكا محملين بالغنائم والأسرى[7] ، سوى « ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا » وذلك فى الوقت الذى أقام فيه العادل بمرج الصفر بعد إنسحابه من بيسان[8] .

وبعد أن إستراح الصليبيون بمرج عكا ثلاثة أيام إتجهوا شمالا إلى مدينة صور الصليبية ومنها إتجهوا إلى مدينة صيدا الإسلامية فأغاروا عليها ونهبوها ، ثم أغاروا على الشقيف[9] وأنزلوا بها ما أنزلوه بصيدا ثم عادوا إلى عكا مرة أخرى

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٥٠ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٨٦ – ١٨٧ .

(٣) خسفين ، قرية من أعمال حوران ، بعد نوى ، فى طريق مصر ، بين نوى والأردن وبينها وبين دمشق عشر فرسخا . انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٤٢ .

(٤) نوى ، ويرسمها ياقوت (نوا) وهى بلدة من أعمال حوران وقيل هى قصبتها بينها وبين دمشق منزلان . انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٨١٥ .

(٥) السواد ، وهو رستاق العراق وضياعها التى افتتحها المسلمون وسمى بذلك لسواده بالزرع والنخيل والاشجار . وحد السواد مدينة الموصل طولاً إلى عبادان ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان عرضا . أنظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٧٤ . والسواد المقصود هنا هو المنطقة الواقعة شرق بحيرة طبرية .

(٦) السلامى : مختصر التواريخ (مخطوط) ورقة ٣٢١ .

(٧) Oliver of Padenborn, loc. cit.

(٨) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .

(٩) الشقيف ، والمقصود به شقيف تيرون ، والشقيف كالكهف أضيف إلى تيرون ، اسم رجل ، وهو حصن وثيق بالقرب من صور . انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٩ .

في الرابع عشر من نوفمبر/ الثانى عشر من شعبان[١] .

ومن الواضح أن أعمال القتل والسلب والنهب التى مارسها الصليبيون فى هذه الغارات قد ازعجت المسلمين وتسببت فى غلاء الأسعار . وخاف الناس على أنفسهم « وعزموا على ترك البلاد » وامتلأت المساجد بالضجيج والدعاء ولم يطمئن أهل دمشق إلا بعد أن رأوا الملك المجاهد صاحب حمص وقد أتى إلى دمشق على رأس عساكره لنجدة عمه العادل ، لذلك خرج لاستقباله وكان يوما مشهودا[٢] .

كما أن العادل نفسه قد إنزعج أيضا لدرجة كبيرة حتى أنه بعث « بأثقاله ونسائه إلى بصرى »[٣] . ومهما يكن أمر هذا الإنزعاج ، فان الملك العادل بدأ يستعد لملاقاة الصليبيين بعد أن وافته الامدادات . فقام بتجهيز إبنه المعظم عيسى صاحب دمشق بطائفة من الجند وأرسله إلى نابلس لكى يمنع الصليبيين من الوصول إلى مدينة بيت المقدس[٤] .

ويبدو أن ما أحرزه الصليبيون من نصر فى الغارات السابقة قد أغراهم على مزيد من الهجمات ضد القلاع والحصون الإسلامية . وكان حصن الطور من القلاع المتقدمة التى تهدد كيان الصليبيين والذى من أجله طلب الملك جان دى برين من البابا إنوسنت الثالث إعداد الحملة الصليبية الخامسة . وكان الجان دى برين غير مقتنع بضياع الجهود الصليبية فى الغارات التى لا تعود إلا بالاسلاب والغنائم فحسب ، بل كان يرى القيام بعمل عسكرى ضد حصن

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٩ . انظر أيضا :
Oliver of Padenborn, pp. 14-5.

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ص ١٠٢ .

(٣) ابن الجوزى : المصدر السابق الموضع نفسه . ومدينة بصرى من أعمال دمشق وهى قصبة كوره حوران وهى مشهورة عند العرب منذ القدم . انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ١ ص ٤٦٥ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٠ .

الطور الذى يهدد أمن مملكته ، ويبدو أن هذا العمل لم يحظ بموافقة الجميع لذلك نجده يقوم من جانبه باعداد حملة لمهاجمة هذا الحصن وتدميره ، ومن الملاحظ أن الملك أندرو والملك هيو لم ينضما إلى هذه الحملة ، كما أن جان دى برين لم ينتظر مساعدة الهيئات الدينية[1]. ولم يلحق به سوى بوهمند الرابع[2] وإتجهت هذه الحملة الجزئية إلى حصن الطور فوصلته يوم الأربعاء ثامن عشر من شعبان عام ٦١٤ هـ (٢٠ نوفمبر ١٢١٧ م). ويبدو أن الظروف لم تساعدهم على شن هجوم سريع على الحصن ، وربما يرجع ذلك إلى مناعة حصن الطور . فانتظروا إلى يوم الأحد الثانى من رمضان (٣ ديسمبر) من العام نفسه حيث ساعدهم وجود ضباب كثيف على مهاجمة الحصن . ولم يشعر المسلمون الذين بالداخل إلا برماح الصليبيين وقد التصقت بجدار الحصن . ورغم ذلك لم يستسلم المسلمون بل فتحوا باب الحصن وإنقضوا على المهاجمين « بالفارس والراجل » مما جعل الصليبيين يرتدون إلى أسفل الحصن ، وبدأو فى إعادة تنظيم صفوفهم إستعداد لمهاجمة الحصن مرة أخرى . وفى الرابع من رمضان (٥ ديسمبر) هاجموا الحصن من الناحية الشمالية الشرقية وإستخدموا سلما كبيرا زحفوا به وألصقوه بجدار الحصن، ودار بين الفريقين قتال عنيف[3]، ورجحت كفة الصليبيين لدرجة أنهم كادوا يستولون عليه[4]. ولم يستسلم المسلمون اليأس ، وأبدوا شجاعة فائقة فى الدفاع . وتمكن أحد الزراقين[5] من ضرب السلم بالنقط[6] فأحرقه ، كما قتل أيضا عددا من أعيان

---

(١) King, op. cit., p. 188.

(٢) Rohricht, op. cit., p. 726.

(٣) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٢٨٤ ، أبو شامة : المصدر السابق ص ١٠٢ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٠ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٥٧ .
Oliver of padenborn, op. cit., p. 15.

(٥) الزراقين . جمع زراق وهو الذى يتولى صناعة قوارير وقود النفط ونحو ذلك : أنظر : العماد الأصفهانى . المصدر السابق ص ٣٧١ .

(٦) النفط ، ومنه تصنع قوارير وقدور النفط التى يرمى بها على الحصون والقلاع للاحراق على أن القوارير فى اللغة أسم للزجاج وانما استعيرت فى آلات النفط مجاز . كما كانت هذه القدور أو :

الصليبيين فصاحوا وكسروا رماحهم . وفى الوقت نفسه استشهد بعض المسلمين منهم الأمير بدر الدين محمد بن أبى القاسم[1] . ولما كان المسلمون يقدرون أهمية حصن الطور بالنسبة لهم والصليبيين فقد قرروا القتال حتى الموت[2] . ومن الواضح أن إنتصار المسلمين قد فت فى عضد الصليبيين فلم يتمكنوا من مهاجمة الحصن مرة أخرى فقرروا الانسحاب . وقاموا باشعال النار حول الحصن لتغطية إنسحابهم ، ورحلوا فى فجر يوم الخميس السادس من رمضان (٧ ديسمبر) ومعهم بعض الأسرى . وكان من بين الأسرى بعض الأطفال فعمدهم رادلف بطريق بيت المقدس وجاك دى فترى أسقف عكا[3] . وتكشف فكرة التعميد هذه عن التزمت الدينى عند الصليبيين ، وارتباط الناحية التبشيرية بالفكرة الصليبية نفسها بحيث لا يمكن فصلهما عن بعضهما وبخاصة منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى بعد فشل الحملات الصليبية العسكرية خلال القرن الثانى عشر فى تحقيق أهدافها فى رقعة الشرق الأدنى الإسلامى[4] .

والمهم أن الصليبيين فشلوا فى الاستيلاء على حصن الطور الذى يعتبر أحد الأسباب المباشرة لقيام الحملة الصليبية الخامسة – التى كانت الحملة المنغارية طليعة لها – وذلك بسبب عدم شجاعة الفرسان الصليبيين ، وقلة المياه عند الحصن[5] ، فضلا عن بسالة المسلمين فى الدفاع عنه . أما تاريخ هرقل فيروى

= القوارير يرمى بها بالمدافع التى كانت تسمى مكاحل البارود أنظر : القلقشندى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣٨ ، أنظر أيضا . عبد الفتاح عبادة : سفن الأسطول المصرى ص ٨ ، ٢٣ .

(١) هو محمد بن أبى القاسم بن محمد أبو عبد الله الهكارى الأمير بدر الدين وكان من المجاهدين وله مواقف مشهورة فى قتال الفرنج . وكان من أكابر أمراء الملك المعظم وكان يستشيره ويصدر عن رأيه ويثق به لصلاحه وتدينه . وكان سمحا جوادا ، وبعد استشهاده نقل جثمانه إلى القدس ودفن بها . انظر : ابن الجوزى . المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٩٥٢ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ص ١٠٢ – ١٠٣ .

(٣) Oliver of Padenborn, op. cit., p, 16.

(٤) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٦٩ – ٧٠ .

(٥) Michaud, op, cit., II, p. 228.

أن سبب فشل الصليبيين يرجع إلى عدم وجود آلات الحصار اللازمة ، لذلك إنسحبوا بعد عشرة أيام من الحصار[1] وعلى أية حال ، فانه بعد إنسحاب الصليبيين حضر الملك المعظم وصعد إلى الحصن « وأطلق المال وطيب قلوب الناس »[2] ، وشكر لهم ما صنعوه[3] .

وبعد عودة الصليبيين من غاراتهم الفاشلة على حصن الطور رأى بعضهم القيام بعمل عسكرى آخر علهم يحققون من ورائه نصرا يستردون به كرامتهم المهدورة[4] . فاتجهوا إلى مرج عيون[5] وشقيف أرنون[6] . وأثناء تواجد الصليبيين فى هذه المنطقة صمم ديونيس Dionise إبن أخت أندرو ملك هنغاريا على مهاجمة جبل صيدا[7] . وقد نهاه صاحب صيدا الصليبى وقال له هؤلاء رماه وبلد وعر ولكن ديونيس لم يقبل النصيحه وقام ومعه خمسمائة من أبطال الصليبيين واتجهوا إلى الميادنة[8] ، فأخلاها أهلها فنزل بها الصليبيون وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا . ولكن أهل الميادنة لم يتركوهم ينعموا بهذه الراحة فنزلوا عليهم من الجبال وفاجأوهم واستولوا على خيولهم ، واعملوا فيهم الأسر والقتل . وكان ديونيس من بين القتلى ، ولاذ الباقون بالفرار بعد أن تمكنوا من

---

(١) Eracles, op. cit., p. 324.

(٢) العينى : عقد الجمان (مخطوط) مجلد ٥١ جـ ١٧ لوحة ٣٦٨ - ٣٦٩ ، ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٥٨٤ - ٥٨٥ .

(٣) ابن ايبك : كنز الدرر (مخطوط) جـ ٧ ورقة ١٧٦ .

(٤) Michaud, op. cit., II, p. 228.

(٥) مرج عيون ، مرج واسع بين نهر اليرموك وشقيف أرنون . انظر : العماد الاصفهانى : المرجع السابق ص ٢٨٥ ، ابن شداد : المصدر السابق ص ٩٧ أنظر أيضا : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٤٨٨ .

(٦) شقيف أرنون ، قلعة حصينة جدا فى كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق . انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٠٩ .

(٧) Eracles, op. cit., p. 325.

(٨) الميادنة ، جزيرة بالقرب من قرية مشغرا ، وتقع مشغرا على سفح جبل لبنان . أنظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٥٤٠ .

وبعد ذلك عاد أندرو إلى عكا بعد أن حصل على بعض الآثار المسيحية ومنها أحد الأوانى السبع التى أحال فيها السيد المسيح الماء إلى خمر[1] ورأس كل من القديسة مارجريت والقديس ستيفن بالاضافة إلى اليد اليمنى للقديس توماس[2] ومن عكا اتجه إلى أرمينيه حيث رتب زواج إبنه من إبنه ملك أرمينيه[3] ومنها أبحر إلى أكويلا Aquila ثم إلى بلاده[4].

وهكذا انتهت الحملة المنغارية دون أن تحقق عملا ذا أهمية بالنسبة للموقف فى الشام[5]، كما أن الملك أندرو تسبب فى الحاق الضرر بالصليبيين عندما رحل إلى وطنه ومعه عدد كبير من جنوده[6]. فقد كان الموقف يحتم عليهم البقاء بالشام للانضمام إلى القوات الصليبية القادمة لتهاجم دمياط أو البقاء بالشام للدفاع عن الممتلكات الصليبية أثناء تواجد إخوانهم فى مصر. ويسجل أحد المؤرخين الغربيين المحدثين أن رحيل أندرو تسبب فى فشل الحملة الصليبية الخامسة بأكملها[7].

وبعد موت هيو ورحيل الملك المنغارى إلى بلاده تشاور جان دى برين وليوبولد دوق استريا وبعض الزعماء الآخرين فيما يجب أن يفعلوه حتى تصل باقى الحملة الصليبية . واستقر رأيهم على تحصين مدينة قيسارية وبناء قلعة ضخمة فى عثليت جنوبى يافا فوق جبل الكرمل[8]، وهى القلعة التى عرفت باسم

---

(1) Michaud, op. cit., II, p. 230.

(2) Runciman, op. cit., III, p. 149 & n. 3.

(3) Setton, op. cit., II, pp. 393-4.

(4) Eracles, Ibid.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٨ .

(6) Oliver of Padenborn, op, cit., p.17.

(7) Setton, op. cit., II, p. 394.

(8) الكرمل ، وهو الجبل المشرف على حيفا بسواحل الشام وكان عليه مسجدا فى الاسلام يعرف باسم مسجد سعد الدولة . أنظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٣١٧ . وعن جبل الكرمل أنظر أيضا :

قلعة الحجاج[١]. وقد قام بهذا العمل فرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون . ويروى أنه أثناء قيام الصليبيين بعملية الحفر عثروا على كمية كبيرة من العملة الذهبية التى لم يعرفوا زمانها ولا الدولة التى صكتها ، فقام الصليبيون بصهرها واستغلوها فى دفع مرتبات جنودهم[٢]. وبعد أن أتموا أعمال التحصين والبناء عادوا إلى عكا[٣]، وظلوا ينتظرون قدوم باقى القوات الصليبية الآتية من أوربا وهم يتدبرون الأمر للهجوم على مدينة دمياط تمهيدا لغزو مصر كلها

= Ludolph von Suchem, Description of The Holy Land, p. 63.
Burchard, op. cit., pp. 46-7.

(١) Annales de Terre Sainte, p. 437.

(٢) Oliver of padenborn, op. cit., p. 17.

(٣) Eracles, op. cit., p. 326.

الفصل الرابع

الجيش الصليبى فى جيزة دمياط

- دمياط : تخطيطها وأسباب توجه الحملة إليها .
- رسو الحملة فى جيزة دمياط .
- الإشتباكات بين المسلمين والصليبيين .
- سقوط برج دمياط .
- وفاة الملك العادل .
- وصول الإمدادات الصليبية .
- إشتباكات فى البر والبحر .
- مؤامرة ابن المشطوب وآثارها .
- عبور الصليبيين إلى الضفة الشرقية للنيل وحصار دمياط .

بينما كان القادة الصليبيون عاكفين فى عكا يخططون لغزو مصر بأمل إسترداد البيت المقدس بدأت القوات الصليبية القادمة من أوربا تتوافد على عكا، ففى السادس العشرين من أبريل عام ١٢١٨ م (٢٧ محرم ٦١٥ هـ) وصل النصف الأول من أسطول الفريزيين إلى عكا ، كما وصلت الأنباء مع هذه القوات بأن بقية الحملة فى سبيلها للحاق بهم فور تدبير السفن اللازمة لنقلها من أيطاليا[١] ، ولم تلبث هذه الأخبار أن تأكدت بوصول موجه كبيرة من الصليبيين عدتهم حوالى ثلاثين ألف من المحاربين فى أوائل مايو من العام نفسه (أوائل ربيع أول ٦١٥ هـ).وكانت هذه القوات فى مجموعها تتألف من المنغاريين[٢] والاسكندنافيين والنمساويين، وهم من الجنود المشاه المسلحين بالسهام ومدربين على استعمال المتجنيقات[٣] والصمود أمام هجمات المسلمين[٤] ، ثم تلتها دفعة أخرى تحت قيادة هنرى-كونت هولندا ، وهذه هى القوات الألمانية التى إتخذت طريقها البحرى إلى اسبانيا حيث ساعدوا اخوانهم فى القتال ضد مسلمى أسبانيا[٥]، وقد غادرت لشبونة فى آخر مارس من العام نفسه (محرم عام ٦١٥ هـ)[٦].

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٤٤ .

(٢) هى بقية القوات المنغارية التى لم تتمكن من الحضور مع الملك أندرو ملك المجر فى حملته التى عرفت باسم الحملة المنغارية .

(٣) المنجنيقات : جمع منجنيق وهى كلمة فارسية ، وهى عبارة عن آلة من الخشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه طويل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفه المنجنيق التى توضع فيها الحجر يجذب حتى ترتفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفه فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئا إلا أهلكه . ومما يلتحق بالمنجنيق اللوب والحبال التى يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمى به الحجر . ومنه الفارسى والتركى والعربى والأخير أفضلها من الصناعة والآتقان : أنظر : القلقشندى : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٦ . الحسن بن عبد الله : آثار الأول ص ١٩٤ ، ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع جـ ٢ ص ٥ حاشية (٢٠) .

(٤) Lamb, op, cit., p. 242.

(٥) Roger of Wendover, op. cit., II, p 404.

(٦) Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge in Umriss, pp. 197-8.

وهكذا تجمع بالشام عدد كبير من الصليبيين القادمين من أوربا فضلا عن القوات الصليبية بالامارات اللاتينية وعلى رأسها فرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون وهى جماعات الفرسان المتمرسة على فنون القتال مع المسلمين والتى كانت تشكل قوة عسكرية فعالة رغم قلة عددها(١). وليس ذلك فحسب فقد إنضم إلى هذه الجماعات أيضا بعض القوات القبرصية تحت قيادة إيوستورج رئيس أساقفة نيقوسيا(٢) . وبعد أن إجتمعت القوات الصليبية بهذه الصورة عقد الملك جان دى برين مجلسا إنضم اليه ليوبولد دوق أستريا ورؤساء الداوية والاسبتارية والتيوتون(٣) . ومن الواضح أن هذا المجلس لم ينعقد لتحديد وجهة الحملة وهى مصر ، فقد كانت قد تحددت فى مجلس اللاتيران الكنس عام ١٢١٥ م(٤) بل انعقد لعدة أمور أخرى تتعلق بوضع الخطة اللازمة لتنفيذ الهجوم على مصر كوضع خط سير الحملة وتدبير مسألة التموين وإعداد العدد الكافى من السفن لنقل الجنود وتوفير المعدات العسكرية كآلات الحصار وغيرها وتحديد مهام كل مجموعة من الجند وكافة ما يلزم من الترتيبات لمثل هذا الهجوم الكبير الذى كانت أوربا تخطط له منذ زمن بعيد . ومما لا شك فيه أن مثل هذا المجلس لم ينعقد إلا بعد أن تأكد للقادة الصليبيين أن لديهم من القوات ما يكفى للقيام بمثل هذا العمل(٥) .

أما من ناحية خط سير الحملة ، فقد تقرر أن تتجه الحملة عن طريق البحر إلى مدينة دمياط باعتبارها أنسب المواقع للهجوم على مصر كلها . فقد رأى الصليبيون أنهم لو استطاعوا الاستيلاء عليها لأمكنهم غزو الدلتا كلها والتقدم إلى القاهرة وتخريبها باعتبارها قلعة الإسلام القوية فى الشرق كلها(٦) . وليس

---

(١) Lamb, op. cit., pp. 242-3.

(٢) Histoire des Archeveques latine de L'ils de Chypre p. 216.

(٣) Eracles, op. cit., p. 323.

(٤) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 405.

(٥) Maimbourg, Histoire Universelle des Croisades, p. 282.

(٦) Brehier, op. cit., p. 192. cf Lamb op, cit., p. 243,

ذلك فحسب ، فقد روى الكاردينال جاك دى فترى أن ذلك سيمكن الغرب الاوربى من نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية فى الشرق الإسلامى عامة[١]. وهذا يدل على مدى أبعاد أفكار رجال الدين الأوربيين فى هذه الفترة .

وفيما يتعلق بمسألة تموين الحملة فقد زودت بالمؤن التى تكفيها لمدة ستة أشهر[٢]. هذا فى الوقت الذى تبعد فيه دمياط عن مراكزهم بالشام مسيرة يومين بليلتين أو أكثر قليلا[٣]. وهذا يكشف عن مدى الاستعداد الضخم لغزو مصر ، وهو الحلم الذى راود الصليبيين منذ أكثر من مائة عام قبل ذلك التاريخ . وتحملت مملكة قبرص العبء الأكبر من هذه المواد التموينية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى يوستورج رئيس أساقفة نيقوسيا لأن هنرى الأول ملك قبرص كان طفلا لم يتجاوز عمره تسعة أشهر[٤] .

كذلك تقرر إستغلال السفن الفريزية – الراسية بسواحل الشام – التى بلغ عددها حوالى ثلاثمائة سفينة[٥]. لنقل الجنود الصليبيين ودوابهم وآلاتهم وكل ما يحتاجون إليه إلى سواحل مصر . وحدد القادة الصليبيون قلعة الحجاج مركزا لتجمع القوات الصليبية ، وبما أختيرت هذه المنطقة لقربها من عكا الميناء الرئيسى الصليبى بالشام حيث تجمعت السفن الفريزية[٦] وربما للتمويه أيضا على المسلمين وإخفاء تحركات الحملة .

وبينما تدور هذه الاستعدادات قام البابا هونوريوس الثالث فى الثامن عشر من مايو عام ١٢١٨ م ، بالكتابة إلى جميع رجال الدين وإلى ملك بيت المقدس والأمراء الصليبيين يخبرهم بأنه عين الكاردينال البرتغالى الأصل بلاجيوس

(١) Vitry, Lettres des Jacques de Vitry, p. 103.

(٢) Eracles, op. cit., p. 3-6.

(٣) Vitry, Ibid.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٤٠ .

(٥) Roger of Wendover, op. cit., II. p. 404.

(٦) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 22.

Pelagus أسقف البانو مندوبا عنه فى الحملة الصليبية،وطلب من الجميع إطاعته[١] . وهكذا إستعدت القوات الصليبية من كافة الوجوه ولم يبق أمامها إلا أن تأخذ إشارة البد بالتحرك إلى هدفها وهو دمياط .

وعن دمياط فان الأمر يتطلب الوقوف وقفة فاحصة وعميقة لإلقاء الضوء على هذه المدينة التى ستدور رحى الحرب أمامها وحولها أكثر من ثلاث سنوات . فان دراسة الأسباب التى من أجلها إختار الصليبيون مدينة دمياط والبحث فى موقعها ومدى حصانتها : لهو أمر ضرورى قبل الدخول فى تفاصيل المعارك العسكرية وخطوط سير الحملة .

أما عن إختيار الصليبيين للمدينة فربما يرجع ذلك لأنهم إختبروها من قبل ، إذ سبق لهم مهاجمتها عدة مرات . وقد يكون اختيار الصليبيين لها أنهم فضلوا إجتياز الطريق البحرى مباشرة إلى دمياط بدلا من الطريق البرى الذى سلكه من قبل كل من بلدوين الأول وعمورى الأول . ذلك أن القوات الصليبية كانت تعتمد من قبل على مراكز إمداداتها فى جنوب الشام وهى التى سهلت لها دخول مصر .

أما فى هذا الوقت ، وهو وقت قيام الحملة ، فقد حرم الفرنج من هذه المراكز[٢] ، ولهذا أصبح الطريق أمامهم شاقا وطويلا ، وربما تعرضوا لهجمات المسلمين وهم فى طريقهم إلى مصر . ولذلك فان اختيارهم الطريق البحرى يعطيهم قدراً كبيراً من الأمان يجعلهم يصلون بقواتهم كاملة بدون التعرض لأخطار الطريق البرى . هذا فضلا عن أن القوات الصليبية تصل إلى دمياط وهى فى حالة من الراحة تمكنها من القيام بعملياتها العسكرية وهى محتفظة بحيوتها ونشاطها خاصة أن القوات الرئيسية للحملة أتت من أوربا بحراً فلا يضيرها تلك المسافة القصيرة من عكا إلى دمياط .

---

(١) Donovan, op. cit., p. 44.

(٢) King, op. cit., p. 190.

وقد فضل الصليبيون الهجوم على دمياط بالذات لأنها أحد الثلاث مدن الرئيسية فى مصر بالإضافة إلى الاسكندرية والقاهرة ، وإذا سقطت واحدة منها سقطت مصر كلها على حد تعبير جاك دى فترى[1] ، وقفل الديار المصرية كلها حسب مارواه أوليفر أف بادنبون[2] . وليس هناك من سبيل للوصول إلى القاهرة باعتبارها تقع فى قلب مصر ولا يمكن الوصول اليها بحرا إلا عن طريق دمياط أو الاسكندرية أو رشيد . واستبعد الصليبيون مدينة الاسكندرية فلم يسبق لهم الاغارة عليها بحراً ، فضلا عن بعدها عن مراكز إمدادهم فى عكا . كما أن الصليبيين لا يمكنهم الإتصال من الاسكندرية باماراتهم فى الشام إلا عن طريق البحر . أما من دمياط فيمكن الإتصال بها عن طريق البحر كما يمكن الاتصال بها عن طريق البر إذا تيسر لهم ذلك . وربما لنفس الأسباب أى صعوبة الاتصال من الاسكندرية باخوانهم فى الشام إستبعد الصليبيون مدينة رشيد أيضا[3] . كما أن هذه المدينة لم تكن فى تعداد المدن الهامة فى مصر وأن الاستيلاء عليها لا يؤثر كثيراً فى الخطة العسكرية بعكس الحال بالنسبة لدمياط باعتبارها قفل الديار المصرية[4] ، ثم أنه بامكان النجدات المصرية أن تصل إلى رشيد من دمياط أو الاسكندرية بحراً لقرب المسافة فتسبب للقوات الصليبية المهاجمة الكثير من المتاعب . وهذا غير متيسر إلى حد ما بالنسبة لمدينة دمياط . وهكذا

---

(١) Vitry, op. cit., p 102.

(٢) Oliver of Padenborn. op. cit., p. 47.

(٣) أرسل نيقولا Nicolas بطريق جماعة الملكانيين بالاسكندرية خطابا إلى البابا هونوريوس الثالث فى عام ١٢٢٣ م ، أى بعد جلاء القوات الصليبية ، يخبره فيه أن أسلم طريق لغزو مصر هو دخول السفن الصليبية عن طريق فرع رشيد باعتباره أوسع وأعمق من فرع دمياط . فضلا عن خلوه من أى عائق . أنظر :

Nicolas I, Lettre au Pape Honeré III, cf., Michaud. Histoire des Croisades, III, pp 697-9.

(٤) Patriarche de Jerusalem, Raport au Pape Innocent III, dated 1214, cf., Y, Kamal, op. cit., t. III, face. IV, p. 932., Roger of Wendover, op. cit., II, p. 422.

يمكن القول بأن إختيار الصليبيين لدمياط مرجعه إلى قربها من عكا ، كما سبق لهم سبر أغوارها فضلا على أنها من المدن الرئيسية الهامة وأن سقوطها فى أيديهم يسهل عليهم الاستيلاء على مصر كلها .

وإذا نظرنا إلى دمياط القديمة نجد أنها كانت تقع إلى الشمال من دمياط الحالية : وموضعها حول جامع أبى المعاطى القديم وقبة فاتح الأسمر وقرافه دمياط[1] . وكانت تبعد حوالى ميلين من البحر[2] ، على الضفة الشرقية لفرع دمياط .

ويلاحظ أن المدينة تعتبر كشبه جزيرة ، إذ يحدها البحر المتوسط شمالا ونهر النيل غربا وبحيرة تنيس[3] شرقا . وأن المنفذ البرى الوحيد اليها هو الطريق الجنوبى ، كما أكسب النيل منطقة دمياط المراعى الخضراء والحدائق والحقول . وقد أدخلت الحملة فى إعتبارها أن إنتاج هذه الأراضى سوف يكون مصدر تموين لها يوفر عليها الوقت والمال اللازم والجهد للحصول على كل هذه الضروريات من مصادر أخرى . وقد راعت الحملة أيضاً أن النيل نفسه ، فضلا على مساحات المياه الشاسعة المحيطة بالمدينة الغنية بأسماكها الوفيرة[4] ، سوف يكون مصدر لغذاء آخر لقواتها .

أما فيما يتعلق بحصانة المدينة فان موقعها[5] الطبيعى قد أكسبها مناعة طبيعية

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٤٥ ، حاشية (١) .

(٢) Setton, op. cit., II, p. 397.

(٣) بحيرة تنيس ، وهى بحيرة المنزلة حاليا ، ويلاحظ أنه إذا امتد النيل فى منتصف الصيف عذب ماؤها وإذا جزر فى الشتاء أو أوان الحر غلب عليها ماء البحر فملح ماؤها وغاص فيها ماء النيل ، وبها مدن كالجزائر ولا طريق اليها إلا فى السفن . انظر : ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٦ ، الاصطخرى : مسالك ص ٥٢ .

(٤) Vitry, op. cit., p. 104,

(٥) ومن البحوث الهامة القيمة عن مدينة دمياط القديمة وموقعها بحث ب . جوليان المعنون :
Jullien, p., Note sur L'emplacement de L'ancienne Damiette, Bulletin de L'Institut Egyptien, pp. 72-7.

إلى حد كبير[1]، فضلا عن التحصينات العسكرية التى إختصت بها دمياط باعتبارها ذات أهمية كبرى من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية . لذلك إهتم حكام مصر بتحصينها خاصة بعدما هاجمها الروم فى التاسع من ذى الحجة عام ٢٣٨ هـ (٢٩ أغسطس ٨٥٢ م) حيث أمر الخليفة العباسى المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) والى مصر عنبسه بن إسحق ببناء حصن دمياط . ورغم هذا لم تسلم المدينة من هجوم الروم عليها مرة أخرى فى العاشر من رجب عام ٣٥٧ هـ (١٠ يونيه ٩٦٧ م) . كما لم تسلم أيضا من الهجوم الصليبى عليها بعد ذلك عدة مرات . لذلك أهتم صلاح الدين الأيوبى عندما تولى أمر مصر بتحصين مدينة دمياط فرتب فى عام ٥٧٧ هـ (١١٨٢ م) المقاتلة على البرجين وأمر بترميم سورها الذى كان يبلغ محيطه أربعه آلاف وستمائه وستين ذراعا كما تم حفر خندق حول المدينة وعمل جسر عند سلسلة البرج[2] .

ومن ذلك يتضح أن وسائل تحصين المدينة كانت تتمثل فى البرجين والسور والخندق . والمقصود بالبرجين برج السلسلة الذى يقع فى وسط النيل وبرج آخر من أبراج المدينة مقابل له تمتد بينهما سلسلة من الحديد تزن حوالى مائة وثلاثين قنطارا[3] مصريا[4] . وكان رجال برج المدينة يرخون السلسلة إذا أرادوا أن تصعد السفن فى النيل ويشدونها إذا أرادوا منعها من ذلك . ومن الطبيعى أن يحرس البرجين الرجال الاشداء المزودون بالسلاح . ويعرف البرج الذى فى وسط النيل باسم برج السلسلة وهو أقرب إلى الضفة الغربية من

= وأشار أنها كانت تقع شمالى دمياط الحالية ولكنه لم يتمكن من تحديد مكانها تحديداً دقيقا .

(1) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 47.

(2) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤٧ .

(3) كان الحديد يوزن بالقنطار الجروى فى عهد الدولة الأيوبية : أنظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٦١ والقنطار الجروى يزن مائة رطل كل رطل يساوى ٣١٢ درهما ، أى ٩٦,٧ كيلو جرام . راجع : فالتر هنتس : المكاييل والأوزان الإسلامية ترجمة كامل العسلى ص ٤١ . وعلى ذلك يكون وزن السلسلة حوالى ١١٥٧١ كيلو جرام تقريبا .

(4) Hist. Part. Alex., pp. 241-2.

الضفة الشرقية وهو فى غاية المتانة والمنعة[1]. وكان من الحجارة ويتكون من عدة طوابق ويعتبر الطابق الذى فى الوسط الطابق الرئيسى لهذا البرج . ويعلوا البرج قبة ذات ثلاثة أقواس صغيرة . وفى أسفل البرج توجد السلسلة المتصلة ببرج المدينة[2] ومن الطبيعى إستخدام هذا البرج مرشداً للسفن الآتية إلى دمياط والغادية منها . ونظراً لأهمية هذا البرج فقد أطلق المؤرخون عليه قفل دمياط أو قفل الديار المصرية[3] . ويروى بعض المؤرخين أنه كان يوجد برج آخر على الضفة الغربية للنيل يتصل بسلسلة من البرج الرئيسى القائم وسط النيل . وعندما تغلق السلسلتان تمنع المراكب من الدخول أو الخروج من النيل[4] . والأرجح أنه كان يوجد برجان وسلسلة واحدة وليس ثلاثة أبراج وسلسلتين وذلك حسب وقائع وأحداث هذه الحملة وشهود العيان لأحداث ذلك الزمان .

والوسيلة الثانية من وسائل التحصين هى السور . ويلاحظ أن السور كان يحيط بالمدينة من كافة الجهات . فمن الناحية البحرية الغربية كان يحيط بالمدينة سوران[5] ، كما أنه كان يحيط بالمدينة فى بقية الجهات الأخرى ثلاثة أسوار[6] ويلاحظ أن هذه الأسوار لم تكن متساوية فى الإرتفاع فكان السور الخارجى

---

(1) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١١ ، راجع ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٦٠ ، ومن المصادر الأجنبية راجع أيضا Vitry, op. cit. p 105
Roger of Wendover, op. cit., II. p. 406, Esacles, op. cit, pp. 326-7.

(2) Vitry, Ibid, Oliver of Padenborn, op. cit., p.54.

(3) أبو شامة : المصدر السابق ص ١٠٩ : أنظر أيضا Vitry, op. cit., p. 108

(4) أبو شامة : نفس المصدر والصفحة ، راجع ايضا : العينى : المصدر السابق مجلد ٥١ جـ ١٧ لوحة ٣٧٤ ، ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٧٩ ، الحافظ الذهبى المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٨ .

(5) Vitry op. cit., pp. 125-6. Patriarche de Jerusalem, Rapport au Pape Innocent III, Ibid.

(6) Vitry, Historia Onientalis. cf, Y. Kamal, op. cit., t. III, face. IV, P. 944.

أقل إرتفاعا ومهمته حماية الخندق المائى الذى يسير متوازيا حول السور الخارجى . وكان السور الأوسط أكثر إرتفاعا عن الخارجى ومحصن بثمانية وعشرين برجا بكل برج منها برجان أو ثلاثة أبراج صغيرة ، أما السور الثالث وهو الداخلى فهو أكثرهم إرتفاعا[1] ، وكان بالمدينة أربعة أبواب وذلك طبقا للخريطة المعاصرة للحوادث[2] .

وكانت مدينة دمياط من المدن التجارية الهامة فضلا عن كونها ميناء كبير بحكم فى السفن المحملة بالبضائع الآتية من الهند وهى فى طريقها إلى سواحل الشام أو إلى أوربا وذلك بعد سداد ضريبة المرور[3] . وقد تراوحت هذه الضريبة بين عشرين وخمسة وثلاثين فى المائة من قيمة البضائع[4] . ولذلك فهى تدر دخلا عظيما لمصر . كما أنها كانت مدينة غنية مملوءة بالبضائع فضلا عن أنها كانت مأهولة بالسكان الذين بلغ عددهم وقتذاك حوالى سبعين ألف نسمة[5] ، ومن ذلك يتضح أهمية المدينة سواء بالنسبة للمسلمين أو الصليبيين :

نعود مرة أخرى إلى القوات الصليبية المتجمعة فى قلعة الحجاج بالقرب من عكا ، فقد صدرت اليها الأوامر للابحار جنوبا إلى عتليت حتى تتم الاستعدادات النهائية قبل الرحيل . وعندما حان الوقت المتفق عليه لرحيل الحملة بأكملها لم تكن بعض السفن قد جهزت تماما، ومع ذلك صدرت الأوامر فى الرابع والعشرين من مايو ١٢١٨ م (٢٦ صفر ٦١٥ هـ) ، للسفن المستعدة للابحار بالتحرك تجاه دمياط ، وبقى الملك جان دى برين ورؤساء

---

(١) Vitry, Lettres des Jacques de Vitry, p. 125.
Oliver of Padenborn, Ibid.

(٢) أنظر الخريطة رقم (٣) ويلاحظ أن المصادر العربية لا تشفى غليل الباحث فى الحصول على المعلومات الكافية عن مدينة دمياط القديمة .

(٣) Gesta Gruoigerorum Rhemanorum, cf. Y. Kamal, op. cit., t. III, face IV, p. 938.

(٤) وهى المعروفة بأخماس السفن : أنظر : ابن مماتى : المصدر السابق ص ٣٢٥ – ٣٢٦ ، راجع أيضا القلقشندى المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٦٣ – ٤٦٤ .

(٥) Jullien, Ibid, Campbell, op. cit., p. 283.

الهيئات الدينية ومعظم رجال الدين بسواحل الشام حتى تستعد باقى السفن الصليبية[1] . وربما تعجل الصليبيون دفع السفن التى تم تجهيزها بسبب قيام بعض الرياح الشمالية فى هذا الوقت ، وقد استغلها الصليبيون فى تسيير سفنهم عبر البحر إلى دمياط ، وكان على رأس طلائع الحملة يوستورج رئيس أساقفة نيقوسيا ، والكونت سيمون الثانى أف ساربروكن Simon II of Saarbruken ، فضلا عن جاك دى فترى[2] . وقد وصلت هذه الطلائع فى السابع والعشرين من مايو ١٢١٨ م (آخر صفر ٦١٥ هـ) قبالة مدينة دمياط . ولكن الصليبيين لم يخاطروا بالنزول إلى البر لعدم وجود قائد معين عليهم من قبل الملك جان دى برين ، وعلى ذلك ظلوا فى عرض البحر حتى التاسع والعشرين من مايو (٢ ربيع أول) ، ولعدم ظهور بشائر وصول بقية الأسطول الصليبى إقترح يوستورج على الصليبيين إختيار الكونت سيمون أوف ساربروكن قائدا عليهم[3] . ويبدو أن هذا الاقتراح لم يقبله الجميع على الفور ، فقد وجدت بعض المعارضات البسيطة ولكن لم يلبث أن اقتنع به الجميع قائدا عليهم ، وكان على هذا القائد العمل على إنزال القوات الصليبية على الضفة الغربية للنيل[4] .

وبدأ القائد المؤقت فى إعداد الترتيبات اللازمة لانزال قواته على المنطقة المقابلة لمدينة دمياط وهى المعروفة بجيزة[5] دمياط[6] . ويذكر تاريخ هرقل أن

(١) Donovan, p. cit., p. 38.

(٢) Vitry, op. cit., p. 103-4 Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 223.

(٣) Oliver of Padenborn, Ibid.

(٤) Oliver of Padenborn, Ibid.

(٥) الجيزة ، وهى الناحية أو جانب الوادى ولعل تلك التسمية راجعة إلى وقوع الجهات المسماه بهذا الاسم عند مجاز النهر . أنظر : المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٨٨ حاشية (١) . وكانت جيزة دمياط تقع على الشاطىء الغربى للنيل تجاه مدينة دمياط وعرفت بعد ذلك باسم منيه سنان الدولة وسميت باسم السنانية . عن ذلك أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٦ حاشية (٢) . راجع ايضا : ابن الجيعان : التحفة السنية ص ٦٣ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢١٦ ، جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٢٠ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى جـ ٢ ق ٢ ص ٧٧ م

(٦) Vitry, op. cit., p. 103, Oliver of Padenborn, op. cit., p, 23

الملك العادل كان يعلم بأمر رحيل الحملة ولكنه لم يعتقد أن تكون وجهتها مصر ، ولذلك لم يتخذ أى اجراء لمواجهة القوات الصليبية ومنعهم من تحقيق هدفهم[1] ، لذلك تمكن الصليبيون من النزول إلى البر دون عائق يذكر[2] وكان إختيار جيزه دمياط إختيارا موفقا للغاية باعتبارها شبه جزيرة مثلثه ضلعها الشمالى البحر المتوسط وضلعها الشرقى نهر النيل والضلع الثالث هو خليج قديم يعرف باسم الخليج الأزرق[3] ، وتعتبر من الوجهة العسكرية منطقة محصنة تحصينا طبيعيا .

على أية حال بدأ الصليبيون فى إقامة معسكرهم فى هذا المكان ، وقد انتهوا من نصب خيامهم بعد ظهر نفس يوم الرسو[4] . أما فيما يتعلق بالملك جان دى برين وبقية الحملة فقد أبحروا بعد إبحار الطلائع بثلاثة أيام ، أى فى السابع والعشرين من مايو (آخر صفة ٦١٥ هـ) ويلاحظ أنه نفس اليوم الذى وصلت فيه الطلائع أمام دمياط . كما وصلت إلى جيزة دمياط فى نفس اليوم الذى رست فيه الطلائع على أرض جيزة دمياط[5] ، وكان يرافق الملك الصليبى ليوبولد دوق النمسا ووليم أف بواسيه William of Poissé رئيس الفرسان الداوية وهرمان فون سالزا Hermann von Salza رئيس الفرسان التيوتون

---

(١) Eracles, op, cit., p, 336.

(٢) Vitry, op, cit, p, 104: Oliver of Padenbom Ibid.
Roger of Wendover, op, cit, II, P. 406.
ويلاحظ أن ما حدث فى هذه الحملة يختلف عما حدث فى حملة لويس التاسع على مصر فقد استعدت الجيوش الإسلامية لمنع لويس ورجاله من الرسو على جيزة دمياط . راجع : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٩٦ وما بعدها .

(٣) أنظر الخريطة رقم (٤) .

(٤) Vitry, Ibid.

(٥) Vitry, Ibid, Roger of Wendover, op. cit., II. p. 405.

وجارين أف مونتاجو Guerin of Montaigu رئيس الفرسان الاسبتارية[١]، وقد أناب الأخير إسمبارد Isembard عنه فى الشام[٢]. هذا بالاضافة إلى وليم كونت هولندا[٣].

أما عن القوات الصليبية التى أتت إلى دمياط فقد ذكر المقريزى أن عددها بلغ أربعين ألفا من المشاه ومائة وسبعين ألفا من الفرسان[٤]. كما ذهب البعض إلى القول بان عددها أكثر من ذلك ، فذكروا أن عدد القوات بلغ مائتى ألف جندى[٥]. ومما لا شك فيه أن مثل هذه الأعداد مبالغ فيها لدرجة كبيرة حيث يتعذر على مثل هذه القوات الاقامة فى جيزة دمياط[٦] كما أنه لم تكن هناك وسائل كافية لنقلها دفعة واحدة ، وقد رأينا من قبل متاعب الفرنج بالنسبة لمشكلة المواصلات واعداد السفن اللازمة لهم ، خاصة بعد أن زاد عددهم زيادة كبيرة . بينما ذكرت مراجع أخرى أن عدد القوات كان يتراوح بين عشرين وثلاثين ألفا[٧]. وربما لا يكون مثل هذا العدد متناسبا مع ما قامت به الحملة من أعمال . والأرجح أن هذه القوات بلغت فى جملتها ما يقرب من أربعين ألف جندى[٨] .

وعلى أية حال فقد وصل الفرنج إلى بر جيزة دمياط ، وبعد أن أطمأنوا برسوهم فى هذا المكان دون مقاومة تجمعوا وامتطى فرسانهم الجياد وسار الجميع مدججين بالسلاح وبجانبهم سفنهم تسير بحذائهم فى النيل ، وساعدهم

(١) Vitry, Ibid, Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 435-6

(٢) Delaville Leroulx, J. Les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre, p. 144.

(٣) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 20.

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤٨ .

(٥) Gibbon, op. cit., p. 71.

(٦) عبد الرحمن زكى : معارك حاسمة فى تاريخ مصر ص ١٤ حاشية (٢) .

(٧) King, op. cit., p. 191.

(٨) Campbell, op. cit., p. 283.

على ذلك إتساع النيل عند مدخل فرع دمياط[1] . ولكن وجود برج السلسلة حال دون تقدم صفوفهم لتصبح فى مواجهة المدينة لأن البرج يقع موازيا تقريبا للسور الشمالى لدمياط[2] ، لذلك فان العمل الأساسى الذى واجه الحملة فى أول أمرها هو ضرورة الاستيلاء على برج السلسلة ليتمكن رجالها من تمرير صفوفهم داخل النيل لتكون فى مواجهة المدينة فيسهل عليها مهاجمتها من ناحية النيل ، كما يكون فى وسعهم أيضا إذا ما تخطوا السلسلة ، إنزال جنودهم مباشرة على الضفة الشرقية للنيل جنوبى دمياط[3] ، وقد حال برّج السلسلة دون حصار دمياط برا أو بحرا واستحق أن يسمى قفل الديار المصرية .

وإذا كان هذا هو موقف الجيش الصليبى فى جيزة دمياط ، فان موقف أهل دمياط تجاه الحملة كان يتسم بالدفاع عن بلادهم دون إتباع سياسة الهجوم ، فقد فوجىء سكان المدينة بتواجد الصليبيين أمامهم مرابطين فى جيزة دمياط يتحفزون للهجوم عليهم . فاستعدوا للدفاع عن مدينتهم كما قاموا أيضاً بتخزين الدقيق والقمح والخبز وكافة المؤن الأخرى[4] . وفى الوقت نفسه أرسلوا إلى الملك الكامل (٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م) الموجود بالقاهرة نائباً عن والده الملك العادل - المقيم فى هذا الوقت بمرج الصفر بالشام - وأخبروه عن طريق الحمام الزاجل بتواجد الصليبيين فى جيزة دمياط . فخرج الكامل مسرعا فى اليوم التالى وإتخذ طريقه إلى دمياط ، كما طلب من والى الغربية[5] وهو فى الطريق أن يجمع سائر العربان وينضم إلى قواته وسار الجميع حيث استقروا فى المكان الذى سمى بالعادلية[6] جنوبى دمياط ، كما سار

---

(١) Eracles, op. cit., p. 326

(٢) Roger of Wendover, op. cit., II. p. 404.

راجع أيضا الخريطة رقم (٣) .

(٣) Vitry, op. cit., p. 105 : Oliver of Padenborn, op. cit., p. 23.

(٤) Hist. Pate. Alex., p, 240

(٥) الغربية ، أحد أقسام مصر الادارية فى ذلك الوقت ، أنظر ابن مماتى : المصدر السابق ص ١٣٤ .

(٦) العادلية ، تقع بين دمياط وفارسكور على الضفة الشرقية للنيل فى مقابل قرية بورة أنظر : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٦٠ حاشية (٢) .

الأسطول الإسلامى فى فرع دمياط واستقر فى شارمساح[١] . وبدأ الكامل فى إدارة العمليات العسكرية ضد الصليبيين من العادلية ، كما صار يتنقل بين دمياط والعادلية عدة مرات فى اليوم لتدبير أمور الحرب . وكان ما يشغل بال الكامل فى هذا الوقت هو عدم تمكين الصليبيين من العبور إلى الضفة الشرقية للنيل[٢]، والحيلولة بينهم وبين الإستيلاء على برج السلسلة .

أما الملك العادل فعندما علم بنزول الصليبيين قبالة دمياط إنتقل من مرج الصفر إلى عالقين[٣]، وبدا فى إرسال ما عنده من العساكر إلى مصر[٤] . وبدأت العساكر تتوافد على مصر أولا بأول حتى أنه لم يبق عنده من العساكر إلا القليل[٥] . ولم يكتف بذلك بل طلب من إبنه المعظم عيسى ملك دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧ م) بالتقدم إلى معاقل الصليبيين بالشام ليشغلهم عن دمياط[٦] . ومن الملاحظ أن سياسة الضغط على أملاك الصليبيين بالشام كانت سياسة قديمة إتبعها نور الدين زنكى عندما كان الصليبيون يقومون بالهجوم على مصر . كما طلب أيضاً من إبنه المعظم تخريب

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ص ١٨٩ ، ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ١٣٤ ، Hist. Part. Alex,.Ibid وكانت شارمساح قرية كبيرة كالمدينة من كور الدقهلية مساحتها : ١٢٩ فدانا . بينها وبين دمياط خمسة مراسخ (حوالى ٣٩ كيلو) انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٢ ، ابن مماتى : المصدر السابق ص ١٥٣ ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٥ ص ٧٣ ، راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف العدوان الصليبى على مصر ص ١٤٧ حاشية (٢) .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١١ ، راجع أيضا : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٦٠ ، ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر (مخطوط) ورقة ١٠١ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١١ . وعالقين قرية بظاهر دمشق . انظر : المقريزى : السلوك جـ ١ ص ١٩٠ حاشية (٢) ، لى سترانج ، فلسطين فى العهد الإسلامى ترجمة محمود عمايرى ص ٤١٥ .

(٤) أبو شامة . المصدر السابق ص ١٠٨ ، ابن الجوزى . المصدر السابق جـ ٢ ق ٢ ص ٥٩٢ .

(٥) ابن واصل . المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٦١

(٦) أبو المحاسن . المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٠ .

حصن الطور رغم أهميته البالغة وذلك لسببين ، أولهما ، إستغلال ما فيه من الرجال والعتاد فى إنجاد دمياط ، وثانيهما خشية إستيلاء الصليبيين عليه إذا ملكوا دمياط فيكون « سببا فى خراب الشام » . والواقع أن المعظم لم يرض عن تخريب الحصن لدرجة أنه « بقى أياما لا يدخل إلى أبيه العادل » . ولكن العادل بعث اليه وإسترضاه بالمال « ووعده فى مصر ببلاد » ويبدو أن هذا العرض من قبل العادل قد أراح الملك المعظم فبدأ فى هدم الحصن[1] ، وبعث من كان فيه إلى القدس وعجلون[2] والكرك[3] ، تمهيداً لإرسالها إلى مصر . وفى الوقت نفسه أمر العادل إبنه الأشرف موسى أن يدخل إلى بلاد الصليبيين أيضاً لمهاجمتها . ولبى الأشرف نداء والده ورحل فى عساكره إلى بلاد الفرنج ودخل صافيثا[4] « فخرب ربضها ونهب رساقتها وهدم ما حول الحصن » . ثم توجه إلى ربض حصن الأكراد ونهبه وحاصر القلعة حتى كاد يستولى عليها ، وعاد بعدها إلى بحيرة قدس (الحولة) ، مرابطا للصليبيين . ولكنه اضطر للعودة إلى حلب لعلمه أن إبن عمه الملك الأفضل إستغل فرصة إنشغاله بأمر الصليبيين وطمع فى إمتلاك المدينة ، فأرسل العادل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص بدلا منه[5] . وبعد عودة الأشرف إلى حلب أرسل من جانبه الأمير سيف الدين كهذان والمبارز بن خطلخ على رأس جماعة من العساكر إلى

---

(١) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٥٩٣ ، أبو شامة . المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٢) عجلون ، تقع فى قضاء جرش وتتبعها قلعة حصينة جدا تمتاز بالمياه الجارية والفواكه المتنوعة والحاجيات الرخيصة الكثيرة . أما قلعتها فتقع على مكان مرتفع جدا يمكن رؤيته على بعد رحلة أربعة أيام . لى سترانج . المرجع السابق ص ٤١٦ .

(٣) ابن ايبك : كنز الدرر (مخطوط) جـ ٧ ورقة ١٧٨ .

(٤) صافيثا ، من أشهر قلاع الفرسان الداوية ، وبها برج يسميه الفرنج القصر الابيض ، ويقع فوق جبل مرتفع إلى الجنوب الشرق من جزيرة ارواد ، وقد فتحه الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ (١٢٧١ م) . ابن الشحنة : الدرر المنتخب ص ٣٦٧ ، جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٢٣٥ حاشية (١) .

Dussaud, op. cit., Planche 148.

(٥) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٦٥ – ٢٦٦

دمياط لنجدة أخيه الكامل[1] . ويضيف إبن واصل اليهما مبارز الدين سنقر الحلبى ، ويذكر أن الأشرف أرسل هؤلاء الثلاثة إلى دمياط للتخلص منهم لأنهم كانوا « يضمرون الغدر به »وبسبب ميلهم إلى الملك الأفضل أيضاً[2] .

أما تاريخ هرقل فقد جاء فيه أن العادل لما علم بنزول الصليبيين على دمياط أحضر إبنه الملك المعظم وأبلغه خوفه على الديار المصرية من الصليبيين وأبلغه أن الحل الوحيد لإخراج القوات الصليبية من مصر هو التنازل لهم عما كانوا يملكونه قبل فتوحات صلاح الدين، وأضاف أنه يمكن التضحية بالجزء لانقاذ الكل وهى مصر[3] ويلاحظ أن المصادر العربية لم تتعرض بكلمة واحدة لمثل هذه النصيحة التى أسداها العادل لإبنه المعظم . ومن المستبعد إلى حد ما صدور مثل هذا الرأى عن العادل شريك صلاح الدين فى الجهاد ضد الصليبيين . فضلا عن أن المصادر الإسلامية المعاصرة والمتأخرة أسهبت فى ذكر استعداداته لمواجهة الأعداء ودفعهم عن البلاد . فلا يقبل والأمر هكذا أن يفكر بكل سهولة فى التنازل لهم عن البلاد التى إستردها منهم مؤسس الأسرة الأيوبية .

وعلى أية حال ، فان الكامل ظل يواصل إستعداداته للدفاع عن دمياط بعساكره والعساكر التى كانت تصل اليه تباعا من الشام، فى الوقت الذى كان يقوم فيه المعظم والأشرف والمجاهد بالضغط على أملاك الصليبيين بالشام لصرف نظرهم عن مصر . كما أن الصليبيين بعد أن تمكنوا من الإقامة فى جيزة دمياط شرعوا فى بناء سور حول معسكرهم « وجعلوا خندقا يمنعهم ممن يريدهم »[4] وفى الوقت نفسه أرسلوا إلى البابا هونوريوس الثالث فى الخامس عشر من يونية (١٩ ربيع أول) من العام نفسه يبلغوه برسوهم بأرض مصر

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق حـ ٦ ص ٢٢٢ ، ابن أيبك . كنز الدر، حـ ٧ ، ورقة ١٧٩ .
(٢) ابن واصل : المصدر السابق حـ ٤ ص ٢٣ ، ٣٢
(٣) Eracles, op, cit., pp, 349 330.
(٤) ابن الأثير : المصدر السابق حـ ١٢ ص ٢١٠ ، ٢١١

دون مقاومة . كما أرسلوا أيضا إلى الامبراطور فريديريك الثانى كتابا بنفس المعنى[1]. ولعل القادة الصليبيون قصدوا بذلك أن يستحثوا الامبراطور الألمانى على القدوم إلى مصر باعتباره قد وعد أن يلحق بالحملة ويهونوا عليه الأمر وحتى يستفيدوا من القوات التى تأتى معه من مواصلة الهجوم على مصر .

والواقع أن المناوشات العسكرية بين الطرفين لم تنقطع منذ أن وطأت أقدام الصليبيين جيزة دمياط ، ولكنها كانت غير فعالة[2]. وربما يرجع ذلك إلى أن كل طرف منهم يواصل إستعداداته لهجوم أفضل ، أو ربما بسبب سبر أغوار القوات الأخرى . ولما كان الهدف الأول للصليبيين هو الإستيلاء على برج السلسلة فقد جهزوا المنجنيقات لضرب البرج وضرب دمياط فى الوقت نفسه لشغلها عن إنجاد البرج . وظلت الأحجار تتساقط ليلا ونهارا فى وسط المدينة وقد تسبب ذلك فى جرح عدد كبير من سكانها[3]. ورغم هذا ظلت المدينة تقاوم الهجوم الصليبى بشدة . ويلاحظ أن أبواب مدينة دمياط كانت مفتوحة والمؤن والعساكر تخرج وتدخل منها وذلك لبعدها عن أيدى الصليبيين والكامل يتردد عليها من آن لآخر لترتيب أمور الدفاع عنها، ولتشجيع أهلها على الصمود[4].

وإزاء مناعه البرج والمدينة قام الصليبيون بهجوم مكثف على دمياط استعدوا له بما يقرب من سبعين أو ثمانين سفينة مزودة بستائر[5] من الخشب

---

(1) L.F Crusade, op. cit., dated 15th June 1218, p.40

(2) Hist. Patr. Alex., P. 241.

(3) Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 407-9

(4) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٢ .

(5) الستائر : وهى آلات الوقاية من الطوارىء ، وما فى معناها مما يستر به على الاسوار والسفن التى يقع فيها القتال ونحو ذلك . القلقشندى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣٨ . ويذكر عبد الفتاح عبادة : أن من المبالغة من الاختفاء وضع قلوعا زرقاء على السفن فلا تظهر من بعيد وهذه القلاع كانت تسمى الستائر . سفن الاسطول المصرى ص ٩ . وعن الستائر أنظر أيضا المقريزى السلوك جـ ١ ق ، ص ١٠٢ حاشية (٣) .

لحمايتها من رماح المسلمين وقذائفهم ، وشنوا هجوما على المدينة يوم الجمعة الثانى والعشرين من يونية ١٢١٨ م (٢٦ ربيع أول ٦١٥ هـ) من الناحية الشمالية، فى الوقت الذى كان يحمى فيه السفن المهاجمة غطاء من قذائف المنجنيقات المثبتة على الشاطىء الغربى حيث يعسكر الصليبيون . وتمكنت السفن من الاقتراب من أسوار المدينة،وقد تسبب هذا الهجوم الكبير فى إثارة الرعب فى نفوس المسلمين . ولكنهم صمدوا للدفاع عن مدينتهم(١) ، مما أعجز الصليبيين من تسلق أسوار المدينة أو التمكن منها .. وعند أدرك الصلبيون أنهم عاجزون عن الوصول إلى المدينة عادوا أدراجهم إلى معسكرهم فى جيزة دمياط ، بينما ظلت قذائف المنجنيقات تنهال على المدينة لالحاق الضرر بها(٢) .

ولما كانت السلسلة هى العقبة الأساسية التى تعوق تقدم السفن الصليبية(٣) ، لذلك أخذ فرسان الداوية إحدى سفنهم وزودوها بأربعين فارسا من فرسانهم بالاضافة إلى بعض الرجال الآخرين المسلحين وقد بلغوا فى جملتهم حوالى ثلاثمائة من الصليبيين . وكانت خطتهم تنحصر فى تسيير السفينة بمن عليها ويجعلوها تصطدم بالسلسلة وتحطمها . وبدأوا فى تنفيد خطتطهم ، وما لبثوا أن إقتربوا من السلسلة حتى استقبلهم المدافعين عن البرج بالحجارة والنبال فانتابهم الذعر(٤) . وحاولوا التراجع بسرعة إلى حيث كانوا ، ولكن شدة القذف أذهلتهم . وساقوا السفينة إلى الضفة الشرقية للنهر تجاه المدينة . ولكنهم تداركوا الأمر وإستطاعوا أخيرا الابتعاد عن أسوار المدينة . وقد شجعت الصورة التى ظهر بها الصليبيون على مهاجمة المسلمين لهم فاستقلوا سفنهم وإنقضوا على سفينة الداوية ، ولما أدرك الداوية أنهم هالكون لا محالة ، ثقبوا السفينة فغرقت بمن عليها من الصليبيين ويقدر عددهم بحوالى مائة وأربعين

---

(١) Roger of Wenbover, op. cit., II, p. 407.

(٢) Hist. part. Alex., P. 241.

(٣) Oliver of Padenborn, p. 24.

(٤) Roger of Wendover. Ibid

رجلا . وكذلك استشهد عدد من المسلمين وقدر عددهم بحوالى الف وخمسمائة من الرجال كما جاء فى تاريخ هرقل ، وساد الحزن المعسكرين الإسلامى والصليبى للخسارة الناجمة عن هذه المحاولة[1] ولا شك أن عدد الغرقى من المسلمين مبالغ فيه بصورة واضحة .

وبعد ما فشل الصليبيون فى تحطيم سلسلة البرج عاودوا الهجوم مرة أخرى على المدينة والبرج معا فى وقت واحد ، ففى الأسبوع الأخير من شهر يونية ١٢١٨ م (أواخر ربيع أول وأوائل ربيع ثانى ٦١٥ هـ) قام ليوبولد دوق أستريا ومعه بعض الفرسان الاسبتارية بمحاولة لتسلق أسوار المدينة وإستعمل فى هذه المحاولة السلالم المتحركة[2] المثبتة على السفن . ولكن هذه المحاولة فشلت عندما كسرت هذه السلالم تحت ثقل القوات الصليبية المهاجمة مما أدى إلى غرق كثير من الجند . أما فيما يتعلق بالهجوم على البرج فقد قام بهذه العملية أدولف Adolf كونت برج Berg ومعه بعض الفريزيين والألمان فى نفس الوقت الذى كان يقود فيه ليوبولد دوق استريا عمليته الفاشلة على المدينة . واستخدم أدولف فى هذه المحاولة احدى السفن الصليبية ، وقد منيت هذه المحاولة هى الأخرى بالفشل بفعل النار الأغريقية[3] التى قذف بها المسلمون السفينة

(١) Eracles. op. cit., p. 327.

(٢) نوع من السلالم ترتفع وتنخفض بواسطة عجلة دائرية متصلة بالسلالم عن طريق الحبال وتستخدم بالارتفاع المناسب للمكان المراد مهاجمته بعد أن يصعد عليها المهاجمون أنظر :

Hist. Patr Alex., p. 241.

(٣) النار الاغريقية ، سميت هكذا لأن مخترعها مهندس اغريقى يدعى كالينيكوس/Callinicus من مواطنى مدينة هليوبولس بسوريا ، اخترعها فى عهد الامبراطور قسطنطين الرابع . وكانت بعض عناصرها مكونة من مزيج من النفط والكبريت مجمد بنوع من الصمغ القابل للاشعال . وكان هذا المزيج يوضع فى أنابيب من النحاس لها فم توقد منه ، وفى مؤخرتها قوس يدفعها حين توتره إلى الامام . وكانت تلك الانابيب النحاسية توضع بكميات كبيرة فى اسطوانة هائلة مستديرة ، وتلقى فى مدافع المنجنيق ، ثم تقذف على العدو فتصليه نارا حامية وتحدث به اضرار جسيمه . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر :

Joinville, Memoirs of Saint Louis IX., pp. 405-7, n. I.

راجع أيضا جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ١٥٦ حاشية (٢) .

المهاجمة[1] . ورغم الخسائر التى لحقت بالقوات الصليبية فى هاتين المحاولتين فقد أعدوا عدتهم مرة أخرى للهجوم على المدينة والبرج فى آن واحد أيضا ، ولكن بتركيز أكثر على البرج منه على المدينة . ففى أول يوليو من نفس العام (٥ ربيع ثانى ٦١٥ هـ) زود الصليبيون أربع بطسات[2] ببعض الأبراج الصغيرة ، وثبتوا فوق هذه الأبراج بعض السلالم المتحركة لتضيف إلى الابراج مزيدا من الارتفاع يجعل فى استطاعتهم الوصول إلى المدافعين عن البرج وقد أخفيت هذه السلالم بقطع من القماش حتى لا تراها حامية البرج . وبعد هذه الاستعدادات إتجهت ثلاثة من البطسات لمهاجمة البرج فى حين قامت الرابعة بمهاجمة المدينة[3] وقد بذل الصليبيون المكلفون بمهاجمة البرج مجهوداً كبيراً حتى تمكنوا من الرسو أمامه وحاولوا إسناد أحد السلالم المغطاة بالقماش إلى جدار البرج[4] . وفى الوقت نفسه قام المكلفون بالهجوم على سور المدينة بتنفيذ نفس الخطة ، وكان الفشل حليف هاتين المحاولتين بسبب بسالة المدافعين عن البرج وعن المدينة . فقد انهالت القذائف من البرج ومن المدينة على المهاجمين مما إضطرهم إلى التراجع[5] ، كما كسرت السلالم المثبتة أعلا الأبراج بفعل ثقل الجنود المزودين بالدروع الحديدية[6] . وكانت خسارة الصليبيين كبيرة لأن

---

(١) Vitry, op, cit., p, 106, Oliver of Padenborn, cit., p, 24.

(٢) البطسه ، ومعناها بالاسبانية مركب للتجارة أو للحرب وهى نوع من المراكب البحرية عظيمة الحجم كثيرة القلوع يصل عددها إلى حوال اربعين شراعا فى البطسة الواحدة وهى أشهر أنواع السفن الصليبية وقد لعبت دورا كبيرا فى الصراع الإسلامى الصليبى وكانت تزود بالمنجنيقات والمقاتلة والأسلحة والذخيرة وسائر الات الحرب والحصار فضلا عن المؤن اللازمة . وكانت ذات أسطح عالية وطبقات متعددة كل منها خاصة بفئة من الجند الذين يصلون إلى ستمائة وخمسون رجلا أو أكثر . انظر السيد عبد العزيز وأحمد مختار العبادى : المرجع السابق ص ١٣٦ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٣٢١ - ٣٣٢ ، عبد الفتاح عبادة : سفن الاسطول المصرى ص ١١ ، ٢٢ .

(٣) Hist. Patr, Alex., P. 241.

(٤) Eracles, op. cit., pp. 328-9.

(٥) Vitry, op. cit., p. 106, Olive of Padenborn, op cit., pp. 24-5.

(٦) Hist. Patr. Alex. Ibid.

السلالم قد كسرت من وسطها فأدى ذلك إلى سقوط النصف الأعلى منها وما عليه من الجنود فى النهر[1] فغرق منهم عدد كبير[2] ، وإبتهج المسلمون بهذا النصر ودقت الطبول داخل مدينة دمياط والقاهرة كما زينت الشوارع بالأعلام[3] . أما الصليبيون فقد ملأهم الغيظ وتراجعوا بسفنهم إلى الخلف وعادوا إلى معسكرهم المقام فى الضفة الغربية للنيل فى الوقت الذى ظلت فيه القذائف الصليبية تنهال على البرج وعلى المدينة[4] ، لتغطية إنسحاب إخوانهم بعد محاولتهم الفاشلة وإنكسار آلاتهم[5] ، ولا شك أن ذلك قد فت فى عضدهم وثبط من روحهم المعنوية إلى حد كبير .

ونتيجة للتجارب السابقة لمحاولة الوصول إلى أسوار المدينة أو البرج والتى إنتهت جميعها بالفشل ، بدأ الصليبيون يعملون على هجوم مكثف وبتركيز أدق على البرج . فقد أشار أوليفر أف بادنبورن إلى فكرة تعتبر جديدة فى الفنون العسكرية فى ذلك الوقت المبكر[6] . وهذه الفكرة هى وضع بطستين جنبا إلى جنب وربطهما مع بعضهما بعروق من الخشب حول محيطهما وبذلك تصبح قطعة واحدة ، ثم يقام فوقهما أربع صوارى من الخشب يشيد أعلاها برجا من الخشب تضاف اليه الستائر الخشبية لحمايته ، ثم يوضع فوق البرج سلما متحركا ينخفض ويرتفع عن طريق عجلة من المعدن[7] . وهكذا أصبحت البطستان كالقلعة العائمة ، ثم غلفوها بالنحاس الأحمر وجلود الحيوانات حتى لا تتأثر بالنار الأغريقية وأضافوا اليها أحد المنجنيقات الذى ثبتوه فوق البرج[8] . وبهذا البرج العائم والذى استحق عليه أن يسمى أوليفر وهو من

(١) Eracles. op. cit., p. 328.

(٢) Vitry, Ibid, Roger of Wendover, op. cit., II, P 407

(٣) Hist. Patr, Alex. Ibid.

(٤) Eracles, op. cit., p. 329.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١١ .

(٦) Vitry, op. cit, p. 106, Roger of Wenpover, op, cit., II, p. 408.

(٧) Hist. Patr. Alex., pp. 242-3, Oliver of Padenborn op. cit., p. 25.

(٨) Roger of Wendover, Ibid.

سقطت مصر كلها على حد تعبير جاك دى فترى (١) ، وقفل الديار المصرية كلها حسب ماروَاه أوليفر أف بادنبورن (٢) . وليس هنـاك من سبيل للوصـول إلى القاهرة باعتبارها تقـع فى قلب مصر ولا يمكن الوصول اليها بحرا إلا عن طريق دميـاط أو الاسكندرية أو رشيد . واستبعد الصليبيون مدينـــة الاسكندرية فـلم يسبق لهم الاغارة عليها بحـراً ، فضلا عن بعدها عن مراكز إمدادهم فى عكا . كما أن الصليبيين لايمكنهم الإتصال من الاسكندرية بإماراتهم فى الشام إلا عن طريق البحر . أما من دمياط فيمكن الإتصال بها عن طريق البحر كما يمكن الاتصال بها عن طريق الـبر إذا تيسر لهم ذلك . وربما لنفس الأسباب أى صعوبة الاتصال من الاسكندرية باخوانهم فى الشام إستبعد الصليبيون مدينة رشيد أيضاً (٣) . كما أن هذه المدينة لم تكن فى تعداد المـدن الهامة فى مصر وأن الاستيلاء عليها لا يؤثر كثيراً فى الخطة العسكرية بعكس الحال بالنسبة لدمياط باعتبارها قفـل الديار المصرية (٤) ، ثم أنه بامكان

---

١ — Vitry, op. cit., p 102.

٢ — Oliver of Padenborn. op. cit., p. 47.

٣ — أرسل نيقولا Nicolas بطريق جماعة الملكانيين بالاسكندرية خطابا الى البابا هونوريوس الثالث فى عام ١٢٢٣م ، أى بعد جلاء القرات الصليبية ، يخـبره . فيه أن أسلم طريق لغزو مصر هو دخول السفن الصليبيه عن طريق فرع رشيد باعتباره أوسع وأعمق من فرع دمياط ، فضلا عن خلوه من أى عائق . أنظر :

Nicolas I, Lettre au Pape Honoré III, cf., Michaud: Histoire des Croisades, III, pp 697-9.

٤ — Patriarche de Jerusalem, Raport an Pape Innocent III, dated 1214, cf., Y, Kamal, op. cit.; t. III, face. IV, p. 932., Roger of Wendover, op. cit., II, p. 422.

الذى كان يبلغ خمسه وأربعين قدما وما عليه من ثقل الجند ، وفضلا عما انتابهم من الذعر من جراء النيران المشتعلة ، سقط حامل الراية لدوق استريا وبعض الجنود الآخرين فى النهر وابتهج المسلمون بهذا النصر فى الوقت الذى رقد فيه رادلف بطريق بيت المقدس على الأرض حاملا شظية الصليب يصلى بصوت عال طالبا المساعدة الأهلية لنجدة اخوانه الصليبيين ، ولم تفت هذه الهزيمة فى عضد الصليبيين ، فقد تمكنوا من أخماد النيران بعد جهد متواصل ، وتمكنوا من تجميع أنفسهم مرة أخرى واستعادوا مواقعهم على قلعتهم العائمة بعد أن أعدوها مرة أخرى للهجوم على البرج[1] .

وفى هذه المرة تقدم المهاجمين أحد فرسان التيوتون الألمان يدعى ليتوت Litot ، وصعد أعلا السلم ممسكا بيده مقلاعا مكونا من عصا مكسوة بالحديد يبلغ طولها حوالى ثلاثة أقدام مثبت فى نهايتها سلسلة من الحديد يصل طولها إلى ما يقرب من قدمين تنتهى بكرة من الحديد ذات ستة أسنان بارزة . وتقدمت القلعة العائمة إلى البرج وهو يلوح بالمقلاع بعنف شديد لدرجة أن أحداً من رجال حامية البرج لم يجرؤ على مهاجمته أو الإقتراب منه وفى الوقت نفسه تمكن اثنان من الجنود الصليبيين المزودين بالرماح من دفع عساكر البرج المواجهين لهم بعد ما طعنوهم برماحهما مما ساعد ليتوت أعلى الوصول إلى البرج ، خاصة وأن الصليبيين استعملوا ستاراً من الدخان فى هذه العملية لحجب الرؤية عن المدافعين عن البرج ، وتحت هذا الستار تتابع الصليبيون فى الوصول إلى الطابق الرئيسى للبرج وأعملوا القتل فيمن وجدوه به من العساكر الإسلامية ، ومن نجا من القتل وقع فى قبضتهم أسيراً ، وألقى الباقون بأنفسهم فى النهر وتمكن الصليبيون من انتشال بعضهم وضموهم إلى قائمة الأسرى ، ونجح الباقون فى الوصول سباحة إلى بر دمياط[2] ، كما استولى الصليبيون على علم

---

(١) Oliver of Padenborn, op. cit., pp- 26-7, Vitry, op. cit., p. 106.

(٢) Oliver of padenborn, op- cit., pp. 27-8 - Eraclee, op. cit., p. 528. Vitry, op. cit., p, 107, Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 409-410. Hist. patr. Alex.,p. 243.

الملك الأيوبى ، ورفعوا مكانه على البرج العلم الصليبى . وهكذا نجح الصليبيون فى الإستيلاء على البرج فى الرابع والعشرين من أغسطس ١٢١٨ م (٢٩ جمادى الأولى ٦١٥ هـ) بهذه الصورة التى صورها المؤرخون الأوروبيون على أنها عمل من أعمال البطولة غير العادية التى الصقوها بالجنود الصليبيين . ومما يجعلنا نأخذ بهذه الرواية مع شىء من التحفظ لا فى نتائجها ، بل فى تفاصيل حوادثها ، هو أن المصادر الإسلامية صمتت عن ذكر تفاصيل هذه الحادثة . ولكنها متفقة فى النتيجة التى أوردتها المصادر والمراجع الأجنبية وهي سقوط البرج فى أيدى الصليبيين بعد قتال دام حوالى أربعة أشهر(١) .

والمهم أن الصليبيين إستولوا على البرج كما استولوا أيضا على كل ما وجدوه بداخله من السلاح والمؤن والعتاد(٢)، وذلك بفضل إقتراح أوليفر بانشاء القلعة العائمة(٣)، وتحكموا فى مدخل فرع دمياط . وكان أول ما فعلوه هو تحطيم سلسلة البرج التى عاقت تقدمهم منذ أن وطأت أقدامهم جيزة دمياط وتمكنوا من تسيير مراكبهم فى النيل(٤) . كما قام الدخلاء باغلاق باب البرج المواجه للمدينة وفتحوا الباب المقابل لمعسكرهم فى الضفة الغربية للنيل ، كذلك شيدوا جسراً من السفن ليصل بين معسكرهم والبرج بعد ما حطموا الجسر العائم الذى كان يصل بين البرج والمدينة(٥) . وعلاوة على ذلك فقد زود الصليبيون البرج بكل ما يحتاجون اليه من أدوات القتال(٦) .

وفى الوقت نفسه كان لأخبار إستيلاء الصليبيين على البرج أسوأ الأثر فى

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق انظر : نفس الجزء والصفحة ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٥٩ – ٢٦١ ، جـ ٤ ص ١٥ ، أنظر أيضا : أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ١٧٠ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٩٠ .

(٢) Hist. Part. Alex., p. 242.

(٣) Rohrict, Gesehichte du Kreuzzuge im Umriss, P. 200

(٤) Vitry, op. cit., p. 109.

(٥) Hist. part. Alex., P, 242.

(٦) Eracles op. cit., p. 323

نفوس المسلمين وأرسل الملك الكامل إلى أبيه العادل الذى كان لا يزال مقيما بمرج الصفر رسولا من قبله هو شيخ الشيوخ صدر الدين[١] يخبره بسقوط البرج ويستصرخ به . ووقع الخبر على العادل وقوع الصاعقة ودق بيده على صدره أسفا وحزنا ومرض لساعته[٢] ، وكان مرض الموت[٣] . ورحل من مرج الصفّر إلى عالقين ولكنه لم يلبث أن توفى يوم الخميس السابع من جمادى الآخرة عام ٦١٥ هـ (٢١ أغسطس ١٢١٨ م)[٤] ، ورغم كثرة أولاده فلم يكن أحدا بجانبه ساعة وفاته فقد كانوا متفرقين فى البلاد[٥] . ولم يعلم بوفاته حينئذ سوى كريم الدين الخلاطى[٦] فأرسل بطاقة إلى نابلس حيث كان الملك المعظم يخبره فيها بوفاة والده ، وقد حضر المعظم على الفور « واحتاط على الخزائن وصبر العادل »[٧] .

ونظرا لما قد يحدثه خبر وفاة الملك العادل من تأثير على الروح المعنوية

---

(١) هو صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه شيخ الشيوخ بمصر والشام ، ويرجع أصله إلى أسرة فارسية متصوفة وكان أفرادها فقهاء شافعية ، هاجر فرع منها إلى الشام وتمتعوا بنفوذ كبير فى زمن بنى أيوب الاواخر خاصة الملك الكامل واولاده وكان صدر الدين فقيها فاضلا وصوفيا صالحا وقد توفى سنة ٦١٧ هـ . عن ذلك أنظر : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩١ . وقد استمع منه المؤرخ ابن الجوزى إلى ما دار من حوادث فى دمياط . أنظر : ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٧٠٥ – ٧٠٦ ، أبو المحاسن : المصدر السابق : جـ ٦ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ص ٥٩٣ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٩٠ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٩٢ ص ٢٣٩ . أنظر أيضا :
Oliver of Padenborn, of. cit., pp. 30-1 .

(٥) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٧٠ ، البغدادى : عيون الأخبار (مخطوط) جـ ٢ لوحة ٤١٠ .

(٦) كريم الدين الخلاطى : من أخص اصحاب الملك العادل وقد أخفى خبر وفاته . أنظر : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٧٥ . ثم صار من أخص أصحاب الملك المعظم أنظر : المصدر نفسه جـ ٤ ص ٢٣٨ .

(٧) السلامى : مختصر التواريخ (مخطوط) ورقة ٣٢١ .

لعساكره المسلمين المرابطين فى دمياط وخاصة بعد سقوط برج السلسلة . فقد أخفى خبر وفاة الملك ، وحمله فى محفة[1] وصور الناس عن طريق الخدم والأطباء أنه لازال حيا . وحمل جثمانه إلى دمشق حيث غسل وكفن ودفن سرا فى القلعة ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة العادلية بدمشق أيضا[2] وجدير بالذكر أنه بعد وفاة العادل ثبت أولاده كل منهم فى المملكة التى أعطاها له أبوه . ويلاحظ أن الأولاد « إتفقوا إتفاقا حسنا » فى هذا الوقت ولم يحدث بينهم من الاختلافات ما جرت عليه العادة بين أبناء الملوك بعد وفاة آبائهم ، بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق فى الآخر ثقة عمياء ، فكانوا نعم الملوك فى الجهاد والدفاع عن الإسلام[3] . وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على هزيمة الصليبيين .

ويهمنا فى هذا الموضع أن الملك الكامل خلف والده فى حكم مصر ووقع عليه العبء الأكبر فى الدفاع عنها وطرد المعتدين . وكان أول ما فعله هو إقامة جسر عظيم بعرض مجرى النيل بدلا من السلاسل يمنع الصليبيين من صعود النهر[4] . وقد أقيم هذا الجسر جنوب برج السلسلة وليس ببعيد عن المعسكر

---

(١) محفة : وهى محمل على اعلاه قبة وله أربعة سواعد ، ساعدان فى الامام وساعدان فى الخلف وتغطى بالجوخ أو الحرير ، وتحمل على بغلين أو حمارين يكون أحدهما فى المقدمة والآخر فى المؤخرة والراكب فيها يشعر كأنه فى سريره ، وكان من عادة الملوك والأمراء اصطحابها معهم فى أسفارهم . أنظر : صبح الاعشى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣٠ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٧٦ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢٣٠ . وعن حياة العادل وسيرته ووفاته راجع : أبو المحاسن : مورد اللطافة (مخطوط) ورقة ٥٣ ، ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٧٩ ، العينى : المصدر السابق ١٧ لوحة ٣٧٦ . انظر أيضا : ابن أبى السرور : النزهة الزهية (مخطوط) ورقة ١٣ ب ، ابن خلدون : المصدر السابق جـ ٥ ص ٣٤٥ ، ابن الشحنة : روضة المناظر ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٦٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٢٧ ، ابن مطروح : ديوان ابن مطروح ص ١٧٥ — ١٧٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٧٧ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤٩ ، السلوك : جـ ١ ق ١ ص ١٩٤ .

الصليبى فى الضفة الغربية[1] ولكن الصليبيين قاتلوا على هذا الجسر قتالا شديدا متواصلا حتى تمكنوا تحطيمه[2] ، وتمت لهم السيطرة على مجرى النيل مرة أخرى .

ولما وجد الكامل أن الطريق النهرى أصبح مفتوحا أمام السفن الصليبية قام بعمل ثقوب فى بعض السفن بعد أن ملأها وأغرقها بعرض النيل لتكون عوضا عن السلسلة الحديدية وعن الجسر[3] . وكانت فكرة عملية نفذت بتعقل وأحكام[4] ، وأعادة للمسلمين السيطرة مرة أخرى على مجرى النيل .

وهكذا عجز الصليبيون عن تمرير سفنهم فى النيل رغم إستلائهم على البرج ، وكل ما أصبح فى إمكانهم عمله هو مهاجمة أسوار المدينة من الناحية الغربية ، ولكنهم لم يقوموا بذلك فى الأيام القليلة التى تلت سقوط البرج . فقد إعتقد كثير من الصليبيين أنهم قد وفوا بوعدهم وعادوا إلى أوطانهم ، وكان من الضرورى على الصليبيين إنتظار الامدادات التى لا تأتى إلا فى الخريف أو الربيع وهى الفصول المناسبة لسير السفن فى البحار ، وجنح باقى الصليبيين إلى الكسل والخمول فى انتظار وصول اخوانهم[5] .

ومما لا شك فيه أن حالة الرقود هذه من قبل الصليبيين قد أعطت الفرصة للمسلمين لالتقاط أنفاسهم بعدما صدموا بسقوط البرج ووفاة العادل . ولو أن معظم الصليبيين لم يعودوا إلى بلادهم ووصلوا الهجوم على المدينة مباشرة بعد

---

(١) Settoñ, op. cit. III, 404.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١١ .

(٣) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤٩ .

(٤) Grousset, op. cit., III, p. 211.

(٥) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 28.

يذكر رانسيمان أن معظم العائدين من الصليبيين كانوا من الفريزيين وقد عوقبوا بالموت غرقا على مراكبهم الحملة وذلك عندما طغى البحر على بلادهم فى العام التالى لعودتهم : أنظر

Runciman op. cit., III. p. 164

سقوط البرج لربما تغيرت نتائج الحملة[1] . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان المسلمين لو أدركوا أن بعض قوات الجيش الصليبي قد رحلت إلى بلادها ، وتمكنوا من إعادة تنظيم أنفسهم بسرعة وهاجموا بقية الصليبيين لربما وفر ذلك على المسلمين جهدا وعناء ومالا فضلا عن الرجال طوال إقامة مدة الحملة .

نعود مرة أخرى إلى الحوادث التى تلت سقوط البرج فى أيدى الصليبيين ، ففى الوقت الذى عمت فيه الفرحة المعسكر الصليبى فى جيزة دمياط حمل الخبر إلى عكا فارس صليبى يدعى رولان دى لوك Roland de Luque فسر إفرنج الشام بذلك سرورا عظيما ، وبينما هم فى غمرة هذا السرور وصل اليهم خبر قدوم المسلمين لمهاجمتهم ، فخرج بعض الفرسان والتركوبول وحاولوا مطاردة المهاجمين وإندفعوا خلفهم حتى تل قيمون[2] متشجيعين بالحامية الصليبية الموجودة فى عكا . وكان على رأس هذه القوة جاك دى دورنى Jacque de Durnai الذى وصفه تاريخ هرقل بالتخاذل[3] . وفى هذا الموقف تمكنت القوات الإسلامية بقيادة الملك المعظم من هزيمتهم فى جمادى الآخرة عام ٦١٥ هـ (أغسطس – سبتمبر ١٢١٨ م) وقتل منهم عدداً كبيراً[4] . كما أسر المسلمون حوالى مائة وعشرين من فرسان الداوية وأدخلوهم القدس وأعلامهم منكسة[4] . وربما تكون هذه الغارة الإسلامية للانتقام مما حل ببرج السلسلة أو للضغط على الصليبيين بالشام كما جرت العادة لرفع أو تخفيف الخطر المحيط بدمياط . ومن الطبيعى ألا تؤثر مثل هذه الواقعة فى مجرى حوادث القوات الرئيسية المرابطة فى جيزة دمياط . فقد ظلت فى مكانها تنعم بالنصر الذى أحرزه رجالها على المسلمين ، يتمتع العامة منهم بقسط من الراحة بينما يشغل

---

(١) Runciman, Ibid.

(٢) تل قيمون ، ويسمى أيضا بالقيمون . وهو حصن يقع قرب الرملة فى فلسطين ويقال أنه على بعد ستة أميال من عكا . أنظر : ياقوت الحموى المصدر السابق جـ ٤ ص ٤١٨ . أنظر أيضا :

(٣) Eracles, op. cit., p. 330.

(٤) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٥٩٢ ، راجع : أبو شامة المصدر السابق ص ١٠٩ .

بال الملك جان دى برين والقادة الصليبيين الأعداد اللازمة من العساكر لمواصلة الهجوم على دمياط .

وعلى أية حال ، لم يستمر هذا الوضع طويلا فسرعان ما وصل فى التاسع من سبتمبر ١٢١٨ م (١٥ جمادى الآخرة ٦١٥ هـ) دفعه كبيرة من الصليبيين محمولة بحراً بعد ما دفع البابا مبلغ عشرين ألف مارك فضى نظير نقلهم من برنديزى حيث كانوا مجتمعين منذ عام تقريبا إلى جيزة دمياط . وقد وضع البابا على رأسها الكاردينال بلاجيوس المندوب البابوى للحملة[١] . الذى سبق أن عين فى هذا المنصب فى الثانى عشر من يولية الماضى[٢] . كما وصل معه أيضاً الكاردينال روبرت أف كورسون بعد ما شفع أوليفر أف بادنبورن لدى البابا عن الأخطاء التى ارتكبها فى فرنسا أثناء عملية الوعظ للحملة فضلا عن إختلاسه بعض أموالها[٣] . وعين روبرت فى منصب القائد الروحى للحملة على ألا تعلوا سلطته سلطة بلاجيوس[٤] ، هذا بالاضافة إلى لفيف من فرسان فرنسا البارزين منهم هيو دى لوزجنان Hugh de Lusignan وسيمون دى جنفى Simon de Gienvile ، وجان دارسيس Jean d'Arcis ، وأخيه جى دى بيجى Gui de Pigi وايرارد دى شاسينه Erard de Chacenai ، وميل دى مانتى Mile de Mantueil وأخيه أندريه Andre وكذلك أندريه دى إسبس Andre de Esbisses ، وجوتييه Gautier أحد رجال البلاط الفرنسى ، وابنه آدم Adem وغيرهم من الفرسان ، كما حضرت معهم مارجريت Margerite إبنه أخى الملك جان دى برين[٤] .

كذلك وصلت الامدادات الانجليزية ومعها بعض الايرلات والبارونات منهم وليم ايرل أروندل Arowndel ، والبارون روبرت فتز والتر Robert Fitz ...

(١) Oliver of Padenborn. op. cit., p., 29.

(٢) Runciman, op, cit., III, p. 145.

(٣) Donovan, op, cit., p. 41, Setton, op. cit., II, p, 402

(٤) Eracles, op. cit., pp. 331-2

Walter ، ورالف ايرل تشستر ، ووليم أف هاركورت William of Harcourt بالاضافة إلى أوليفر[1] Oliver إبن ملك إنجلترا[2] : وفى الواقع كانت الأعداد الصليبية الانجليزية قليلة بعكس ما كان متوقع لها ، وذلك بسبب السماح لبعض الانجليز بتأجيل رحيلهم حتى الخريف التالى[3] .

وتجمعت كل هذه الامدادات مع العساكر الصليبية فى جيزة دمياط واستعادت القوات نشاطها وحيوتها مرة أخرى استعداداً لاستكمال غزو مصر. وفى الواقع فقد واجهت الحملة مشكلتين اساسيتين بعد وصول هذه الامدادات ، أولهما وهى الأسهل حلا أن هذه الجموع الغفيرة تتطلب مزيداً من المؤن التى كانت تحتاج اليها القوات الصليبية . وقد تحمل جى صاحب جبيل نفقات هذه المؤن وإحضارها من قبرص باعتباره من أغنى كبار رجال الشرق اللاتينى[4] . أما الثانية وهى الأكثر تعقيدا هى مشكلة الصراع على السلطة الذى نشب بين المندوب البابوى وبين الملك جان دى برين . فقد كان بلاجيوس متغطرسا بطبعة متعصبا لرأيه ، وقد أعطى لنفسه سلطة تفوق بكثير السلطة التى خولها له البابا هونوريوس الثالث وتعالى على الملك جان دى برين وأعلن أن الصليبيين جنود الكنيسة ويجب إلا يخضعوا إلا لسلطة الكنيسة ، وبالتالى فهم خاضعون له باعتباره ممثل البابا . كما أن بلاجيوس لم يتقبل الملك جان دى برين قائداً للحملة . وليس ذلك فحسب بل كان يرى أن الملك الصليبى ليس ملكا حقيقيا بل وصيا على الملكة إيزابيلا إبنة زوجته الراحلة[5] . وعلى ضوء هذه التفسيرات أعتبر بلاجيوس نفسه قائداً للحملة كلها ، وأعلن

---

(١) هو ابن غير شرعى للملك الانجليزى حنا . أنظر :
Setton, op, cit., II, p, 402.

(٢) Oliver and padenborn, op cit., pp. 29-30, Matthew of Westmenistr, op. cit., II, p. 131.

(٣) Setton Loc, cit.,

(٤) Grousset, op. cit., III, p. 221 & n. 6

(٥) Duggan, op, cit., p. 215.

أنه عندما يأتى الأمبراطور فريدريك الثانى — الذى وعد باللحاق بالحملة — سيتولى قيادة الحملة[1].

ومما تجدر الاشارة اليه أن هذا الصراع ظل باقيا طوال مدة إقامة الصليبيين فى مصر وزاد من هذه المشكلة إنحياز رجال الدين إلى جانب بلاجيوس وإنضمام القادة العسكريين إلى الملك جان دى برين مما جعل الجبهة الصليبية تبدو وقد إنشقت إلى قسمين يخضع كل منهما لطرف من الأطراف المتصارعة[2]. وعلى أية حال فقد تمكن بلاجيوس من فرض رأيه وسلطته على الحملة كلها تقريبا[3]. ومما لا شك فيه أن هذا الصراع كان له أسوأ الأثر على الحملة بأكملها[4].

والمهم أن الامدادات الصليبية توالت على جيزة دمياط . ففى نهاية أكتوبر من نفس العام (٩ شعبان ٦١٥ هـ) وصلت مجموعة كبيرة من الفرنسيين بعد ما أبحرت من جنوه فى الشهر السابق . وكان على رأس هذه القوات أنجرس Angers أسقف باريس ووليم أسقف بوردو Bordeaux[5].

ولم يكن وصول هذه الامدادات بخافيا على القادة المسلمين المرابطين فى العادلية فى مواجهة الصليبيين . وكان المفروض على الملك الكامل ألا يترك القوات الصليبية تنعم بالراحة والهدوء فى الوقت الذى يتزايد عددها يوما بعد يوم . فأخذ يستعد لمهاجمتها قبل أن تهاجمه[6]، أى أنه بدأ يأخذ بسياسة الهجوم لا بسياسة الدفاع . لذلك أعد لهجوم شامل بالبر والبحر على المعتدين وجهز جيشا مكونا من أربعة آلاف من الفرسان ومثلهم من المشاة . وفى الوقت نفسه

(١) Runciman, op. cit., III. p. 155.
(٢) Rohricht, op. cit., p. 200
(٣) Setton. op. cit., II. p. 402.
(٤) Grousset, op, cit., III, p. 211
(٥) Oliver of Padenborn, op, cit., p, 29.
(٦) Eracles, op. cit., p. 332.

أعد لهم حوالى خمسين أو ستين سفينة من الشوانى[1] . والحراريق[2] فى نهر النيل إستعداد للهجوم المنتظر . وفى يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر رجب ٦١٥ هـ (٩ أكتوبر ١٢١٨ م) قام الملك الكامل بانزال قواته على الضفة الغربية للنيل جنوبى المعسكر الصليبى فى المكان المعروف ببوره وتقدمت الفرسان الإسلامية بحذاء النيل حتى وصلت إلى الجزء الجنوبى من خندق المعسكر الصليبى ، ويلاحظ أن وجود هذا الخندق قد حال دون تقدم الفرسان الإسلامية أبعد من ذلك . وفى الوقت نفسه تقدمت المشاة الإسلامية بحذاء النهر فى المواجهة الشرقية للقوات الصليبية . ورغم قلة عدد العساكر الإسلامية من المشاة إلا أنها تمكنت من التوغل داخل المعسكر الصليبى . وأيقن الصليبيون أنهم هالكون لا محالة نظر لما أبداه المسلمون من شجاعة فائقة فى هذا الهجوم[3] . لذلك قام الملك جان دى برين بتجهيز فرقة من الجنود الصليبيين بلغ عددها حوالى سبعة آلاف جندى وخرج على رأس هذه الفرقة تاركا الكونستابل أودو أف مونتبليار Odo of Montbeliart فى مكانه ، واصطحب

(١) الشوانى ، جمع شينى وتسمى بالفرنسية Galere وبالإيطالية Calera وهى من أقدم أنواع السفن التى كان يتكون منها الاسطول الرومانى وزادت أهميتها فى العصور الوسطى عند الغرب والشرق ، وكانت من أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلة للجهاد ، وعليها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم . وكان متوسط ما عليها من الرجال مائة وخمسون رجلا ، ولها حوالى مائة مجداف . انظر : ابن مماتى . المصدر السابق ص ٣٤٠ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٠٦ حاشية (٢) ، أحمد مختار العبادى : والسيد عبد العزيز سالم المرجع السابق ص ١٣٢ – ١٣٣ ، سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٥٢ – ٣٥٣ .

(٢) الحراريق ، جمع حراقة Brutot وبها مرامى النيران ويقال هى المرامى نفسها وتستعمل فى حمل الأسلحة والنار الأغريقية واستعملت فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب ، واستعملت أيضا فى العصر الفاطمى والمملوكى فى النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية . انظر مماتى : المصدر السابق نفس الصفحة ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ٢ نفس الصفحة حاشية (٣) ، السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادى : البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ص ٣٠٢ حاشية (٢) ، سعاد ماهر . المرجع السابق ص ٣٣٩ – ٣٤٠ .

(٣) Hist. Patr. Alex., p. 244., Oliver of Padenborn, op. cit., p. 31.

معه ايمار دي لايرون – صاحب قيسارية السابق – وأحد ماريشالات الفرسان الاسبتارية ، كما خرج معه أيضا جودفرى موست Godfrey Most وهو من الفرسان المشهود لهم بالشجاعة . وأعطى الملك أوامره إلى الجنود الصليبيين بالخروج من الخنادق والمراكب لمقاتلة المسلمين . كما توغل بنفسه داخل صفوف العساكر الإسلامية حتى رأى حامل رايه الملك الكامل وكان رجلا طويل القامة مرتديا درعا ويحمل رمحا طويلا غليظا بأعلاه الراية الملكية ذات اللون الأزرق والهلال والنجوم الذهبية ، فاسرع اليه جان دى برين بجواده وطعنه طعنه قوية برمحه فخر صريعا على الأرض ومعه الراية الملكية . وقد أثر هذا المشهد فى صفوف المسلمين وعادوا مسرعين إلى سفنهم هربا من الصليبيين . وعندما رأى الجنود الصليبيون هروب المسلمين اشتدوا فى الهجوم عليهم وقتلوا منهم عددا كبيرا[1] . وعندما شاهد الملك الكامل ذلك بدأ فى الانسحاب ، ومن الملاحظ أن الاسطول الإسلامى لم يقم بأى عمل ايجابى فى هذه الغارة للاسباب التى أسلفنا اليها . وانتهت هذه الجولة بغرق بعض عساكر المسلمين اثر انسحابهم من أمام الصليبيين ، وكان أكثرهم من أهل الشام لعدم قدرتهم على السباحة إلى الضفة الشرقية للنيل[2] . ورغم ذلك فان هذه النتيجة لم تؤهل الصليبيين إلى خوض معركة شاملة ضد المسلمين .

ولكن غرور المندوب البابوى جعله يقوم ببعض العمليات الاستكشافية للهجوم على المعسكر الإسلامى أملا فى العبور إلى الضفة الشرقية للنيل[3] . وقامت إحدى السفن التى أرسلها جاك دى فترى وعليها مائتان من الجنود بعملية الاستطلاع . ولكنها لاقت مقاومة عنيفة من قبل المسلمين وعادت ادراجها من حيث اتت بعد أن لازمها الفشل . وقام الصليبيون بمحاولة أخرى بعد أن غطيت السفينة بالقماش للتموية ، ولكن المسلمين تمكنوا من أسر ستة

(١) Oliver of Padenborn, Ibid, Eracles, op, cit., pp. 333-4.

(٢) Hist. Patr. Alex., p. 244, Roger of Wendover, op. cit., II, p. 412.

(٣) Setton, op. cit., II, p. 405.

من ملاحيها وهلك الباقون بعد أن تحطمت السفينة[1] .

وتشجع الملك الكامل بعد إحباط هذه المحاولات الاستكشافية من قبل الصليبيين واستعد للاغارة على المعسكر الصليبي مرة أخرى . ففي يوم الجمعة الرابع من رجب ٦١٥ هـ (٢٦ أكتوبر ١٢١٨ م) عبرت القوات الإسلامية إلى البر الغربي لنهر النيل يحميها حوالى ألف من الفرسان . والتحمت هذه القوات مع الصليبيين ودار اشتباك عنيف بين الطرفين انتهى بهزيمة القوات الإسلامية وقتل عدد كبير منهم ، ولم يستطع النجاة إلا الذين يجيدون السباحة الذين تمكنوا من الوصول إلى الضفة الشرقية للنيل ، وقد تركت هذه الهزيمة أثرا سيئا فى نفوس المسلمين[2] . واضطر الملك الكامل بعد هذه المحاولات الإسلامية الفاشلة للعودة مرة أخرى إلى سياسة الدفاع تاركا سياسة الهجوم . فبدأ فى تشييد مزيداً من الاستحكامات على الضفة الشرقية للنيل وأقام عليها المنجنيقات لضرب السفن الصليبية التى تحاول استكشاف طريقة للعبور إلى حيث يعسكر المسلمون[3] .

ورغم إلتجاء الكامل إلى سياسة الدفاع فان الصليبيين لم ينعموا بالراحة . فقد إجتمع العربان على إختلاف قبائلهم وهاجموا معسكرات الصليبيين « فى كل ليلة بحيث إمتنعوا عن الرقاد » وزاد طمع البدو فى الصليبيين بحيث كانوا يهاجمونهم نهارا ويخطفون منهم ما يقع تحت أيديهم . وقد لجأ الصليبيون إلى إقامة الكمائن لتصيد هؤلاء العربان ، وتمكنوا من قتل عدد كبير منهم[4] ، كما لم يسلم المسلمون أيضاً من هجمات هؤلاء البدو فانهم كثيرا ما هاجموا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق ، « وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد فكانوا أشد

(١) Roger of Wendover, Ibid, Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem, p. 733.

(٢) Hist. Patr Alex., P. 244, Oliver of Padenborn, op cit, p. 31

(٣) Eracles, op. cit., p. 335.

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤٩ ، السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٩٥ .

الصليبيين ودفعت بها إلى الشاطىء الشرقى للنيل حيث يعسكر المسلمون ، وكانت من عجائب الدنيا مصفحة بالحديد لا تعمل فيها النار ومساحتها حوالى خمسمائة ذراع وبها من المسامير مازنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا[1] ويلاحظ أن هذه المرمة كانت تخص فرسان الداوية وهى تشابه القلعة العائمة التى إستولى بها الصليبيون على برج السلسلة ومزودة بكافة المعدات اللازمة للقتال[2] . فاستولى عليها المسلمون بعد ما قتلوا حوالى أربعة عشر صليبيا وأسروا الباقين ، ولم يتمكن من الفرار سوى إثنين ، فقد ألقيا بنفسيهما فى النيل وسبحا إلى الضفة الغربية ، وقد حوكما بتهمة الجبن وعدم تنفيذ الأوامر المكلفين بها مما تسبب عنه فقدان هذه المرمة[3] ، وعوقبا بالموت شنقا بأمر الملك جان دى برين[4] .

والكارثة الثانية كانت أشد من الأولى ، فان هبوب هذه العاصفة دفع بمياه البحر حتى وصلت إلى المعسكر الصليبى فى جيزة دمياط فغرقت الخيام والمؤن كما أنها تسببت فى نفوق عدد كبير من الخيول وتحطيم عدد كبير من الزوارق الصليبية ، بالاضافة إلى الخسائر البشرية[5] . ويبدو أن الإعصار كان شديدا لدرجة أن الجرحى لم يتمكنوا من النجاه فهلكوا جميعا[6] . كما أن كمية المياه التى تدفقت على المعسكر الصليبى كانت هائلة بدليل أن الأسماك كانت ملقاه على الأرض داخل وخارج المعسكر بعد جفاف المياه[7] ولم يستطع الصليبيون

---

* كانت تغطى بالحديد وتصير مصفحة لا تتأثر بالنيران . أنظر : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٦٠ حاشية (١) ، سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٦٨ .

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٩٥ .

(٢) Oliver Scolastique, Letter to Angelbert, cf. Bongars, op. cit., p. 1168

(٣) Hist. Patr. Alex., p. 245.

(٤) Setton, op. cit., II, p. 406.

(٥) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 412, Matthew of Westmenister, op. cit., II, p. 134.

(٦) Hist. Patr. Alex., Ibid.

(٧) Oliver Scoastique, Ibid, Roger of Wendover, Ibid

مقاومة هذه الكارثة الطبيعية إلا بعد هدوء العاصفة وإنحسار المياه . فقد أمر بلاجيوس باقامة حاجز بين البحر والمعسكر على وجه السرعة ، وتم استخدام كافة مخلفات الكارثة بما فيها حطام السفن وجثث الخيول النافقة فى إقامة هذا الحاجز[١] .

وإذا إنتقلنا إلى الجانب الإسلامى نجد أن مياه بحير تنيس قد طغت على المنطقة الواقعة من جنوب دمياط حتى العادلية بما فيها المعسكر الإسلامى وتسبب ذلك فى تخريب هذه المنطقة وهلاك عدد من المسلمين والدواب[٢] . ويبدو أن خسارة المسلمين كانت أقل بكثير من الخسارة التى لحقت بالمعسكر الصليبى ، وربما يرجع ذلك إلى بعد المعسكر الإسلامى إلى حد كبير عن البحر وإلى حد ما عن بحيرة تنيس .

ورغم ما سببته هذه العاصفة من كوارث فانها أفادت الصليبيين فائدة كبرى فقد امتلأ الخليج الأزرق بالمياه وأصبح فى مقدور الصليبيين أن يسيروا سفنهم فى هذا المجرى الجديد من البحر إلى نهر النيل عند قرية بوره . وهو ما كان يسعى من أجله الصليبيون[٣] .

ومما هو جدير بالذكر أنه فى اعقاب هذه الكوارث داهمت الحمى والأمراض الجلدية القوات الصليبية . وتفشت هذه الأوبئة داخل المعسكر الصليبى . وقد قاس العديد من هذه الحمى ، كما تسببت فى موت حوالى ستين على الأقل من بينهم روبرت أف كورسون الواعظ الروحى للحملة[٤] .

وكان لهذا كله أسوأ الأثر فى نفوس الصليبيين ، وتبلور فى زيادة حده

---

(١) Archer & Kingsford, op, cit., p. 376, cf. also, Rohricht, Geshichte der Kreuzzuge im Umriss p. 211, Runciman op. cit., III, p. 156.

(٢) Hist. Patr. Alex., P, 245

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٦ .

(٤) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 32-3 Roger of Wendover, op. cit., II, p. 413.

الصراع بين المندوب البابوى والملك الصليبى . فمن الواضح أن الصراع بدأ بين الطرفين منذ أن وطأت أقدام بلاجيوس المعسكر الصليبى فى الخريف السابق لهذه الأحداث . وبدأ الصراع يتصاعد يوما بعد يوم . ومما زاد من حدته حالة الخمول النسبى التى مرت بها الحملة بعد سقوط برج السلسلة . بالاضافة إلى فشل كافة العمليات العسكرية للعبور إلى الضفة الغربية للنيل . وقد أدى هذا الفشل إلى المناداة بزعامة جديدة تتولى قيادة الحملة،واستغل المندوب البابوى هذه الحالة النفسية التى تسيطر على المعسكر الصليبى ، وتمكن من السيطرة على الموقف وتولى أمر قيادة الحملة يسانده فى ذلك كافة رجال الدين ،وأعلن بلاجيوس الصيام لمدة ثلاثة أيام داخل المعسكر الصليبى ، وأمر رجال الدين بالوقوف حفاة أمام الصليب مبتهلين لله طالبين العون للقوات الصليبية ، وفى أوائل فبراير عام ١٢١٩ م (أوائل ذى القعدة ٦١٥ هـ) لاحظ بلاجيوس إرتفاع الروح المعنوية للجيش الصليبى وأن هناك نشاطا ملحوظا بين قواته ، فبدأ يستعد للهجوم على المعسكر الإسلامى ، وأعد الصليبيون لهذا الغرض قلعة عائمة أطلق عليها الصليبيون الأم المقدسة **Holy Mother** وهى مكونة من ست سفن مثبتة مع بعضها فى شكل ثلاث صفوف متوازية . ثم ثبتوا عليها الصوارى وزودوها بالآلات والرجال . وبدأ الهجوم على المعسكر الإسلامى عن طريق الخليج الأزرق يوم السبت الموافق الثانى من فبراير عام ١٢١٩ م (١٥ ذو القعدة ٦١٥ هـ) وتصدت لهم القوات الإسلامية وأجبرتهم على العودة ثانية من حيث أتوا . وبعد أن إستعدوا مرة أخرى للهجوم هطلت الأمطار ، فضلا عن أن هذا اليوم كان قارص البرودة ، فاضطر الصليبيون إلى تأجيل عملية الهجوم لوقت لاحق . ورغم أن المسلمين والصليبيين كانوا مستعدين للقتال فى يومى الأحد والإثنين ، إلا أن رداءه الجو عاقت كلا الطرفين عن القيام بأية عملية عسكرية(١) .

وإذا كان الملك الكامل قد تمكن من دفع الأخطار الصليبية واحداً تلو الآخر

(١) Hist. Patr. Alex., pp. 245-6, Oliver of Padenborn, op. cit, pp. 33-4 Roger of Wendover, op. cit., II, p. 415.

فان الخطر الكبير الذى هدده عندئذ جاء من جانب أحد قواده[١] . ذلك أنه بعد وفاة الملك العادل طمع بعض الأمراء فى الملك الكامل[٢] ، وتآمر عليه عماد الدين بن المشطوب[٣] ، ولفيف من الأمراء الأكراد الذين ينقادون اليه ويطيعونه[٤] . وكان على رأس هؤلاء الأمراء الأمير عز الدين الحميدى والأمير أسد الدين الهكارى[٥] والأمير مجاهد الدين[٦] . واتفق هؤلاء على خلع الملك الكامل وتولية أخيه الملك الفائز ، وكانوا قد اتفقوا معه على أخيه الكامل واستحلفوا له العساكر[٧] . ذلك لأن عماد الدين كان يرى أن الفائز صبى خفيف لا يتأتى منه شر . وقد تسربت أخبار هذه المؤامرة إلى الملك الكامل وهو مرابط للصليبيين فى معسكره بالعادلية . فاتجه إلى المتآمرين ودخل عليهم فاذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف وهم يحلفون عليه لأخيه الفائز . فعندما

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٧٢ .

(٢) Hist. Patr. Alex, p. 46, cf, also. Eracles, op. cit., p. 335.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن الامير سيف أبى الحسن على بن أحمد بن أبى الهيجاء ابن عبد الله بن أبى الخليل بن مرزبان الهكارى المعروف بابن المشطوب والمقب عماد الدين ، والمشطوب لقب والده وانما قيل له ذلك لشطبه بوجهه ، وكان من أجل الأمراء الهكارية وله لفيف من الأمراء والأكابر وله حرمة وافرة عند الملوك . وكان صلاح الدين الأيوبى قد أقطعه ثلثى نابلس بعد وفاة والده بطل الدفاع عن عكا سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) . عن ذلك انظر : ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ٨١ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٩٥ ، راجع أيضا : العماد الاصفهانى المصدر السابق ص ٥٠٥ ، ٥١٣ .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٦ - ١٧ .

(٥) نسبة إلى الهكارية إحدى قبائل الأكراد الذين عاشوا فى أعالى الجزيرة حياة مستقلة فى تحصيناتهم الجبلية وسط غيرهم من قبائل الأكراد . ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٧٠ ، ٩٧٨ . أنظر أيضا : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٦ حاشية (٤) .

(٦) ابن الفرات : تاريخ الأمم والملوك (مخطوط) جـ ١٠ لوحة ٢٠١ ب ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٩٦ .

(٧) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ٦٠٢ ، أبو شامه : المصدر السابق ص ١١٦ . أنظر أيضا : ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١١ - ٢١٢ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٦ - ١٧ ، ابن خلكان : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٢ .

بذلك أدركوا أنهم « فقدوا سلطانهم » وساد الفزع أرجاء المعسكر الإسلامى . ولعل إبن الأثير قد عبر خير تعبير عن الصورة التى إجتاحت العادلية بقوله « فركب كل إنسان منهم هواه ولم يقف الأخ على أخيه » . وهو وصف يوضح لنا الهرج الذى ساد المعسكر الإسلامى ، مما ترتب عليه أن العساكر تركت خيامها وأسلحتها وأموالها ودوابها وكافة تجهيزات المعسكر ، ولم تتمكن إلا من حمل اليسير من هذه المعدات واتخذت طريقها إثر الملك الكامل تاركة العادلية على حالها تقريبا[1] .

هذا ما ورد فى المصادر العربية عن مؤامرة إبن المشطوب ، أما تاريخ هرقل المعاصر لهذه الأحداث فيروى أن سببها مرجعه أن الكامل استدعى إثنين من الأمراء الأكراد منهما عماد الدين بن المشطوب ، وطلب منهما الدخول إلى دمياط بعساكرهما – الذين يبلغ عددهم حوالى سبعمائة فارس من خيرة الفرسان – لحمايتها وذلك لثقته فيهما أكثر من غيرهما ، فاجابه الأميران بأنهما قد قدما لخدمته وأنهما لا يمانعان فى دخول المدينة ورجواه فى أن يدخل معهما أحد أولاده حتى يهتم بالمدينة ولا يهملها ، كما فعل عمه صلاح الدين الأيوبى عندما ترك سيف الدين بن المشطوب والد عماد الدين ومعه حاكم عكا[2] ، أثناء حصارها وتركها تسقط أمام عينيه . ويضيف المصدر نفسه أن الكامل غضب عندما سمع كلام الأميرين وقام على الفور واستدعى أمرائه . وعندما شعر عماد الدين بن المشطوب والأمير الذى معه وقد سماه تاريخ هرقل « أوتفين »[3]

= دكرنس بمديرية الدقهلية . عن ذلك أنظر : ابن دقماق . كتاب الانتصار جـ ٥ ص ٦٨ – ٦٩ ، ابن مماتى : المصدر السابق ص ٨٩ ، ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨٢ . راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٨١ حاشية (٤) .

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٢ . أنظر أيضا :
Hist. Patr. Alex., P. 246.

(٢) هو حسام الدين حسين بن باريك المهرانى . ولمزيد من التفاصيل عن سقوط عكا فى يد الصليبيين بعد ما استردها صلاح الدين الأيوبى : أنظر : العماد الأصفهانى : المصدر السابق ص ٥١٣ وما بعدها ، ابن شداد : المصدر السابق ص ١٧٣ وما بعدها .

(٣) لم أتمكن من تحديد الاسم العربى لهذا الاسم . وربما يكون الامير عز الدين الحميدى أو الأمير أسد =

Otevin إعتقدا أن الكامل سيلقى القبض عليهما ، فسلحا رجالهما وقالا أنه خير لهما أن يموتا وهما يدافعان عن أنفسهما من أن يقبض عليهما . وبلغ الخبر الملك الكامل ، وأيقن أنهما مستعدان للقتال ، فاستعد هو الآخر لقتالهما . وتسلحت كافة العساكر وبذلك أيقن إبن المشطوب أن الكامل يستعد للقبض عليه فهرب وخلفه رجاله . وعلى هذا النحو أخذ كل من فى المعسكر طريقه إلى الهرب . فخاف الملك الكامل على نفسه وأدرك أن الصليبيين سيعبرون اليه فغادر هو الآخر المعسكر دون أن يشعر به أحد سواء من بالمعسكر أو بالمدينة[1] .

ويبدو أن ما ورد فى المصادر العربية عن سبب هذه الحوادث وهو التآمر لخلع الملك الكامل محمد وتولية أخيه الفائز مكانه هو الصحيح ، بدليل أن خمسة من المؤرخين العرب المعاصرين[2] قد أوردوا هذا السبب ، فضلا عن المصادر العربية المتأخرة[3] التى كررت رواية المصادر المعاصرة . ولو كان هناك سببا غير ذلك ورد فى مصادر فقدت ولم تصلنا لظهر على الأقل فى عدد من المصادر المتأخرة . وهذا يؤكد صحة ما أورده الكتاب العرب المعاصرون خاصة وأن منهم من كان على إتصال بمجريات الأمور والأحوال فعلا وصديقا للملك المعظم[4] . كما أن تاريخ هرقل يفند نفسه بنفسه ، فان ما ذكره عن

= الدين الهكارى أو الأمير مجاهد الدين وهم من ورد اسمهم إلى جانب ابن المشطوب فى المصادر الإسلامية .

(1) Eracls, op. cit., p 335.

(2) أنظر ما سبق ص ٢١٩ حاشيه (٧) .

(3) من المخطوطات : ابن ايبك المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٨٢ ، ١٨٣ ، ابن بهادر المصدر السابق ورقة ١٠٤ ، العينى : المصدر السابق جـ ١٧ لوحة ٣٨٠ ، النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٢٤ ، ٢٥ ، ابن الفرات . المصدر السابق جـ ١٠ لوحة ٢١ ب ، ٢٢ أ . ومن المصادر المنشورة ابن كثير : المصدر السابق جـ ١٣ ص ٨٠ ، ٩٢ ، ابن الوردى . المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣٩ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣٠ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٩٦ .

(4) كان ابن الجوزى صديقا للمعظم وسمع عن وقائع الحملة كما حضر جانبا منها فى دمياط أنظر أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣٢ ، ٣٤٣ . وعن حياة ابن الجوزى أنظر أبو المحاسن : المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٥ ورقة ٥٨٩ - ٥٩١ .

إهمال صلاح الدين فى الدفاع عن عكا غير صحيح . ذلك أن صلاح الدين لم يتوان لحظة واحدة فى اتخاذ التدابير اللازمة للدفاع عن المدينة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانه قد صور إبن المشطوب ورجاله وقد استعدوا لقتال الكامل وفى الوقت نفسه صور الكامل وكافة العساكر وقد أعدوا عدتهم لمواجهة إبن المشطوب ورجاله . ثم يروى أن الكامل ترك المعسكر دون أن يشعر به أحد سواء من كان بدمياط أو المعسكر . ويصبح ألا يشعر به من فى المدينة ، أما لا يشعر به من فى المعسكر وهم مستعدون لقتال إبن المشطوب على حد قوله فهو أمر مستبعد ويصعب تقبله بسهولة .

على أية حال ، فقد غادر الكامل العادلية إلى أشموم طناح وفى إثره كافة العساكر الإسلامية[١] . وباتت العادلية – خط الدفاع الأول ضد الصليبيين – ليلة الثلاثاء الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٦١٥ هـ (٥ فبراير ١٢١٩ م) خالية من العساكر بعد أن قاومت المعتدين أكثر من ثمانية أشهر . وأصبح الطريق مفتوحا أمام الصليبيين[٢] .

وكانت تحركات العساكر الإسلامية فى هذه الليلة غير خافية على الصليبيين[٣] ، إلا أنهم كانوا يجهلون أسبابها فى ذلك الوقت . وفى صباح الثلاثاء (١٨ ذو القعدة / ٥ فبراير) لاحظ الصليبيون خلو العادلية من العساكر الإسلامية[٤] ، واعتقدوا أن عملية الانسحاب ربما تكون خدعة عسكرية لجأ اليها المسلمون[٥] ، لذلك أرسل جان دى برين أحد رجاله ويدعى أوبرت لاشاربنليه Aubert La Charpenlier إلى العادلية لاستطلاع الأمر ، وعاد هذا الكشاف وأخبر الملك الصليبى بخلو المعسكر الإسلامى من العساكر

(١) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 44.

(٢) Setvenson, op. cit., p 303.

(٣) يلاحظ أن ليلة الثامن عشر من الشهر العربى من الليالى القمرية وفى المستطاع رؤية المعسكر الإسلامى من الضفة الغربية حيث يعسكر الصليبيون .

(٤) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 415.

(٥) Hist. Patr. Alex., p. 246.

ولم يصدق الملك ما سمع فعاد وأرسل كشافا آخرا من الفرسان يدعى ميخائيل دى فتز Michel de Vitz فعاد وأيد صحة أقوال الكشاف الأول . وعند ذلك إطمأن جان دى برين إلى خلو العادلية من العساكر الإسلامية ، فأمر رجاله بالاستعداد لعبور النيل إلى الضفة الشرقية(١) . والواقع أن العساكر الصليبية كانت مستعدة للعمليات العسكرية طوال الثلاثة أيام الماضية(٢) ، وكانت خيولهم موجودة بداخل السفن منذ الليلة السابقة فصعدت العساكر الصليبية السفن بعد ما صلوا واستمعوا إلى القداس وهذا يدل على أنهم ذاهبون للقيام بعمل خطير(٣) . وبدأت الحملة فى العبور إلى الضفة الشرقية للنيل فى يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذى القعدة ٦١٥ هـ (٥ فبراير ١٢١٩ م) متفائلين بهذا اليوم لكونه عند المسيحيين الغربيين هو عيد القديسة أجاث Agathe(٤) . وما أن رست سفنهم أمام العادلية حتى إنتشرت جنودهم فيها ، وأعملوا القتل فى القلة القليلة من العساكر الإسلامية التى وجدوها بداخل المعسكر الإسلامى واستولوا على ما وجدوه من الأبراج والمنجنيقات(٥) ، هذا بالاضافة إلى الخيام والأوانى الذهبية والفضية ، وكذلك الدواب والعليق . كما أسروا من وجدوهم من النساء والأطفال . وفوق هذا كله فقد إستولوا على السفن الراسية عند شاطىء العادلية(٦) ، وكان ما غنموه « عظيما يعجز العادين »(٧) .

وهكذا وضع الصليبيون أقدامهم على الضفة الشرقية للنيل وسيطروا على العادلية

---

(١) Eracles, op. cit., p 336

(٢) راجع ما سبق ص ٢١٨ .

(٣) Eracles, Ibid.

(٤) Vitry, op. cit., p. 126 : Oliver of Padenborn, op cit., p. 34.

والقديسة أجاث من قديسات صقلية وقد توفيت فى مدينة بالرمو أو فى مدينة كاتانيا فى القرن الثالث الميلادى ويحتفل بعيدها فى الخامس من فبراير كل عام . أنظر :

Ency. Brit., Vol, I, p. 321.

(٥) Hist. Patr. Alex., p. 246.

(٦) Oliver of Padenborn, op. cit., p 35.

(٧) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢١٢ .

ومنها فى اليوم نفسه شرعوا فى حصار دمياط . وعندما خرجت بعض العساكر الإسلامية من مدينة دمياط لاستطلاع الأمر لعدم درايتها بما وقع فى الليلة السابقة أجبرتها قوة من العساكر الصليبية بقيادة أحد الفرسان يدعى جان دارسيس على العودة إلى المدينة مرة أخرى . وبدأت القوات الصليبية فى أعمال الحصار حول المدينة ، فحاصرتها السفن الصليبية من الجهة الغربية المقابلة للنيل كما حاصرتها القوات البرية من الجهات الأخرى[١] . وانحصر ما يقرب من ستين ألفا من الأهالى داخل المدينة نفسها[٢] . ويلاحظ أن الملك جان دى برين خشى دخول العادلية فى أول الأمر لإحتمال أن يكون إنسحاب المسلمين يمثل خدعة عسكرية . ولذلك ظل فى الحقول المجاورة للعادلية ومعه بعض رجاله ، وبعد أن إطمأن إلى حقيقة الموقف دخل العادلية وبدأ فى تنظيم القوات المحاصرة لدمياط ، فعسكر هو والجند الذين يتكلمون الفرنسية والبيازنة فى جنوب المدينة بالقرب من برج الفائز ، كما عسكر إلى الشرق منه الكونت هنرى أف نيفر وفرسان الداوية ، أما الجانب الشرقى للمدينة فقد حاصره فرسان الاسبتارية والاسبان والبروفنساليون . وسيطر المندوب البابوى والجنيوية وبقية الايطاليين على الجانب الشمالى لدمياط . أما الفرسان التيوتون فاختصوا بالدفاع عن الشاطىء الغربى المقابل للمدينة . ويلاحظ أن الصليبيين لم يتركوا معسكرهم القديم فى جيزة دمياط ، فقد تركت كل جالية بعض قواتها به . ولسهولة الاتصال بين المعسكرين اقام الصليبيون جسرا يصل بين العادلية وجيزة دمياط[٣] . وبهذا الحصار المحكم إنحبست القوات الإسلامية التى بداخل المدينة ولم تتمكن بعد ذلك من الخروج منها[٤] . كما أقيمت المنجنيقات حول المدينة[٥] ، خاصة أمام ابوابها الأربعة . ويلاحظ أنه كان لفرسان الداوية

---

(١) Roger of Wendover, op. cit, II. p. 416.

(٢) Vitry, Ibid, Oliver of Padenborn, Ibid.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., II, p 416, Eracles, op. cit., p. 337.

(٤) Vitry, op. cit., p. 126. Oliver of Padenborn, op. cit., p. 36.

(٥) Hist. Part. Alex., p, 347 of, Roger of Wendover, op. cit., II, p. 416.

منجنيقا كبيرا تسبب فى الحاق أضرار بليغة بالمدينة[1] .

وهكذا أصبح موقف الجبهة الإسلامية فى غاية السوء بعد إمتلاك الصليبيين للعادلية وأحكامهم الحصار حول دمياط ، هذا بالاضافة إلى الخلل الذى انتاب المعسكر الإسلامى بعد حوادث إبن المشطوب وأدى إلى إنتشار الرعب فى نفوس أهل مصر كلها[2] . وتحرج موقف الكامل بصورة بالغة لدرجة أنه عزم على مفارقة البلاد وتركها بيد الفرنج والتوجه إلى بلاد اليمن التى كان يحكمها ابنه الملك المسعود[3] . وبذلك تهددت الجبهة الإسلامية بالانهيار التام ، إلا أنه « إتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين » أن وصل الملك المعظم عيسى إلى أخيه بعد يومين من حركة إبن المشطوب ، أى فى اليوم التالى لعبور الصليبيين إلى العادلية التاسع عشر من ذى القعدة ٦١٥ هـ (٦ فبراير ١٢١٩ م) فتحسن موقف الكامل « وإشتد ظهره »[4] ، فخرج الكامل وتلقاه وأطلعه على ما جرى من إبن المشطوب وما انتهت اليه الحوادث[5] ، فحلف المعظم الا ينزل حتى ينفيه من الديار المصرية[6] . واتجه بعدها إلى خيمة إبن المشطوب وكان ذلك فى نهاية اليوم نفسه ، وطلب من حراسه إبلاغه بالركوب فخرج إبن المشطوب ولحق بالمعظم . ويبدو أن إبن المشطوب قد إعتقد أن المعظم يميل إلى جانب الفائز وبأنه أتاه لكى يتفق معه[7] . لذلك سار إلى جانب المعظم وهو

---

(١) Eracles, op, cit., p. 338.

(٢) Hist. Patr. Alex., p. 274.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٧ — ١٨ . وهو المسعود صلاح الدين يوسف المعروف بالاقسيس وقد ارسله والده سنة ٦١٢ هـ فاستولى على اليمن من سليمان شاه أنظر المصدر نفسه جـ ٣ ص ٢٢٧ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٢ . انظر أيضا : Oliver of Padenborn, op. cit., p. 36.

(٥) ابن خكان المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٣ .

(٦) أبو شامة : المصدر السابق ص ١١٦ .

(٧) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٨٣ .

مطمئن ، ولما بعدا عن المعسكر قال له المعظم أن الملك الأشرف قد طلبك وإنه محتاج اليك وعليك أن تسير إليه الساعة ، فأجابه إبن المشطوب بأنه ليس مستعد للرحيل فى الحال لعدم وجود حراسه وملابسه معه فى هذه اللحظة . والواقع أن المعظم قد اختلق معه هذا الحديث حتى يبعد به كثيرا عن المعسكر ، فلما إطمأن المعظم إلى ذلك إلتفت إليه وقال : « يا عماد الدين ! هذه البلاد لك ونشتهى أن تهبها لنا »[1] ، ثم أعطاه خمسمائة دينار ، وقال له : « كل مالك يلحقك والله ما يضيع لك خيط واحد »[2] . وعهد به إلى بعض رجاله - الذين يثق بهم والذين أعدهم لهذا الغرض وكانوا يسيرون خلفه - وطلب منهم أن يسيروا معه حتى يخرجوه من البلاد . ولم يكن فى وسع إبن المشطوب إلا الإمتثال للأمر لعدم وجود عساكره إلى جواره[3] . فسار مع الحراس حتى ادخلوه بلاد الشام[4] .

أما الملك المعظم فقد عاد إلى خيمة إبن المشطوب ووقف حتى جهزت خيوله وغلمانه وكل ما يملكه وأرسلها فى إثره ، وعاد إلى خيمته بعد أن اطمأن إلى مغادرة ابن المشطوب للمعسكر الإسلامى ، ثم حضر اليه أخوه الكامل وقبل الأرض بين يديه . أما الملك الفائز فقد إعتراه خوف عظيم بعد ما حدث لإبن المشطوب[5] . وكان لابد من إبعاده عن المعسكر الإسلامى خشية وقوع فتنة أخرى . وبناء على نصيحة صفى الدين بن شكر[6] ، طلب منه الكامل

---

(١) ابن خلكان : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٢ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٧٩ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠٢ ، أبو شامه : المصدر السابق ص ١١٦ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٢ .

(٤) انتهى الامر بابن المشطوب أن الملك الاشرف بن العادل اعتقله فى قلعة حران وتوفى بها عام ٦١٩ وعمره أربعة وأربعون سنة . عن ذلك وعن بقية حياة ابن المشطوب بعد خروجه من مصر إنظر : ابن خلكان : المصدر السابق جـ ٢ ص ٨١ - ٨٢ ، أبو الفدا . التبر المسبوك فى تواريخ الملوك (ميكروفيلم) لوحة ٢٧ أ .

(٥) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠٢ .

(٦) ابن الفرات : المصدر السابق جـ ١ لوحة ٢٢ أ

والمعظم التوجه إلى الموصل لإحضار النجدة منها ومن كافة بلاد الشرق[1] . وهكذا خرج الفائز وإبن المشطوب من المعسكر الإسلامى فتحللت عزائم من بقى من إتباعهما ودخلوا فى طاعة الملك الكامل كرها لا طوعا[2] .

والمهم ، فقد ترتب على مؤامرة إبن المشطوب إمتلاك الصليبيين للعادلية التى كانت خط الدفاع الأول ضد الصليبيين أثناء تواجدهم فى جيزة دمياط ، كما تمكنوا أيضا من حصار دمياط وذلك بعد قتال دام أكثر من ثمانية أشهر. تمكن فيها الصليبيون من الاستيلاء على برج دمياط بعد إنقضاء نصف. هذه المدة تقريبا . وأصبحت الآن مدينة دمياط مطوقة من البر والبحر بأمل إنهيار مقاومة القوات الإسلامية المدافعة عنها ، وذلك فى الوقت الذى يحاول فيه الكامل تجميع القوات الإسلامية مرة أخرى لفك هذا الحصار وإنقاذ دمياط من أيدى الطارق الدخيل .

(١) ابن كثير : المصدر السابق جـ ١٣ ص ٩٢ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٣١ . ويلاحظ أن الملك الكامل لم يتعرض لهؤلاء الأمراء أثناء تواجد الصليبيين فى مصر وبعد جلاء الحملة عن دمياط سنة ٦١٨ هـ (١١٢١ م) طلب منهم الخروج من مصر فتوجهوا إلى الشام . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢١٢ .

الفصل الخامس

سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين

- الدعوة للجهاد .
- عرض الملك الكامل الصلح على الصليبيين .
- إعداد مصر والشام للقتال .
- تخريب بيت المقدس وبعض الأماكن الأخرى .
- مناوشات غير حاسمة بين المسلمين والصليبيين .
- معركة أغسطس ١٢١٩ (جمادى الثانى ٦١٦ هـ) .
- عرض ثان بالصلح على الصليبيين .
- قدوم النجدات الصليبية .
- عرض ثالث بالصلح .
- إشتداد الحصار حول مدينة دمياط .
- سقوط دمياط :

كان من المحتم على الملك الكامل أن يعيد تنظيم قواته ويعد نفسه مرة أخرى لمقاومة الصليبيين الغزاة بعد فترة الاضطراب التى سادت مصر والمعسكر الإسلامى بسبب مؤامرة إبن المشطوب . ومما لا شك فيه أن الكامل قد إطمأن كثيرا إلى وجود أخيه الملك المعظم إلى جانبه بعد تنقيه المعسكر الإسلامى من المتآمرين وإبعاد الفائز وعماد الدين بن المشطوب من صفوف القوات الإسلامية . ويلاحظ أنه فى فترة الحزن والفوضى واليأس التى إجتاحت المعسكر الإسلامى تمكن الصليبيون من السيطرة تماما على منطقة العادلية ، وعلى المنطقة الواقعة بينها وبين دمياط ، فضلا عن تطويق المدينة من جميع الجهات . وليس ذلك فحسب فانه لمزيد من الاستحكامات حول أنفسهم قاموا بحفر الخنادق حول معسكرهم لتحول بينهم وبين المسلمين . هذا بالاضافة إلى الأسوار والستاير التى أقاموا عليها الرماة بالجروخ(١) . هذا علاوة على سيطرتهم السابقة على المنطقة المعروفة بجيزة دمياط . وبذلك أصبحت القوات الصليبية فى وضع أفضل بكثير من القوات الإسلامية التى تمزقت بعد مؤامرة إبن المشطوب . كما أن مدينة دمياط بدأت تحس بوطأة الحصار بعد أن أصبحت معزولة تماما عن مصر كلها .

على أية حال ، بدأ الكامل فى الانتقال من أشموم طناح إلى فارسكور حيث لحق به جيشه والعساكر التى قدمت مع أخيه المعظم عيسى من دمشق لمساندته على مقاومة الصليبيين . وقد اختار الكامل مدينة فارسكور الواقعة جنوب العادلية ليتمكن المسلمون من مهاجمة الصليبيين من الخلف عندما يهاجمون مدينة دمياط . وبذلك يقع الصليبيون بين حامية دمياط فى الشمال والجيش الإسلامى المعسكر فى فارسكور فى الجنوب(٢). ورغم ذلك لم يتمكن الكامل

(١) ابن أيبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٨٤ . والجروخ جمع جرخ وهو نوع من القوس الرامى التى ترمى عنه النشاب أو النفط . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٥٠ حاشية (٣) ، ص ٢٤٣ حاشية (٤) .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٧٣ .

من موقعه الجديد أن يقوم بالهجوم على المعسكرات الصليبية بهدف رفع الحصار عن دمياط وذلك لعدم توفر القوات الكافية للقيام بهذا العمل[1] .

لذلك بدأ يستحث العالم الإسلامى لنجدته وإنقاذ مصر من الخطر الصليبى الذى أصبح يهدد الممتلكات الإسلامية فى الشام أيضا . واستغل الكامل والمعظم هذه الفرصة لاستبعاد أخيهما الفائز عن المعسكر الإسلامى عندما طلبا منه التوجه إلى الملوك الأيوبيين بالشام والشرق لاستنهاض العالم الإسلامى لنجدة الملك الكامل . كما كتب الكامل إلى أخيه الملك الأشرف موسى صاحب خلاط[2] ، يستحثه على سرعة الحضور إلى مصر . واستغل الكامل موهبته الشعرية وصدر المكاتبة ببعض الأبيات الشعرية مطلعها :

يا مسعدى إن كنت حقا مسعفى   فانهض بغير تلبث وتوقف[3]

كما كتب أيضا إلى أخوته يستحثهم ويستنجد بهم ويقول « الوحا الوحا العجل العجل أدركوا المسلمين »[4] . وكان من جملة ما كتبه فى طلب النجدة من اخوته « وا إخوتاه واغوثاه وا إسلاماه أدركوا الإسلام أعينوا أمة محمد عليه السلام »[5] . ولعل فى صيغ الاستعجال التى أرسلها الكامل إلى اخوته دليل على مدى تحرج موقف الكامل وخوفه من إمتلاك الصليبيين لأرض مصر كلها[6] . وهكذا ظلت كتب الكامل متواصلة إلى أخوته فى طلب النجدة

---

(١) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ص ٤٨ — ٤٩ .

(٢) خلاط ، بلد عامرة مشهورة ذات خيرات وثمار يانعة ، وهى قصبة أرمينيه الوسطى وبها بحيرة تعرف باسمها (بحيرة وان إلى الآن) . أنظر : ياقوت الحموى ، المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٥٨ . كانت هذه الأمارة الأرمينية الصغيرة قد آلت إلى الايوبيين بعد زوال أسرة سيف الدين بسكتمر سنة ٦٠٤ هـ . أنظر : المقريزى ، السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٩٧ حاشية (٣) . وقد تولاها الأشرف بعد أخيه الأوحد . أنظر : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٧٤ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٤) العينى : المصدر السابق مجلد ٥١ جزء ١٧ لوحة ٣٧٤ .

(٥) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٩١ .

(٦) ابن كثير : المصدر السابق جـ ١٣ ص ٨٠ .

لمساندته على مقاومة القوات الصليبية المحاصرة لدمياط[1] .

وبدأت القوات الإسلامية تتوافد على الكامل من كل مكان . ويلاحظ أن أول من لبى النداء الملك الأشرف موسى[2] ، الذى كان مقيما بظاهر حلب فى هذا الوقت يدبر أمر جندها[3] . فاقبل إلى مصر ولكنه أضطر للعودة إلى بلاده فى نفر قليل من العساكر بعد أن ترك عساكره عند أخيه الكامل[4] . وفى الوقت نفسه أمر الكامل بخروج أهل مصر والاتجاه إلى دمياط لقتال الصليبيين[5] . وهكذا تجمع لدى الكامل بعض القوات التى أعادت الثقة إلى نفسه ، فبدأ فى إعادة تنظيم قواته خلف المعسكر الصليبى .وبفضل الاجراءات التى اتخذها الكامل والمعظم استطاعت مدينة دمياط الصمود ، وقاومت الحصار الصليبى ببسالة رغم المحاولات العنيفة التى بذلها الصليبيون للاستيلاء عليها[6] . وكان صمود المدينة طوال هذه الفترة أكثر مما توقعه الصليبيون لدرجة أنهم ملوا الحصار وكانوا على وشك الانسحاب والعودة إلى بلادهم[7] .

وعلى أية حال ، فبعد أن تجمعت لدى الملك الكامل بعض القوات وأحس بتحسن مركزه العسكرى ، إستعد لشن الهجوم على القوات الصليبية التى كانت تعسكر بالعادلية . ولكنه إضطر للتراجع إلى فارسكور بسبب هبوب عاصفة شديدة فى الرابع عشر من ذى الحجة ٦١٥ هـ (٣ مارس ١٢١٩ م) وكانت هذه العاصفة مصحوبة بأمطار غزيرة جعلت المعسكر الإسلامى غير صالح للاقامة ، فضلا عن أن ذاك العام كان شديد البرودة ، ومن الملاحظ أن

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٢٨ .
(٢) العينى : المصدر السابق مجلد ٥١ جـ ١٧ لوحة ٢٧٥ .
(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٦٦ .
(٤) ابن كثير : المصدر السابق جـ ١٣ ص ٩١ .
(٥) النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٢٥ .
(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق جـ ٣ ص ٩٧٣ .
(٧) **Lamb, op. cit., pp. 244.**

هذه العاصفة قد ألحقت الضرر أيضا بالمعسكر الصليبى خاصة وإنها إستمرت لعدة أيام متواصلة[1].

وبعد هدوء العاصفة أعاد الكامل تنظيم قواته مرة أخرى ، وفى العشرين من ذى الحجة (٩ مارس) ، قام الجيش الإسلامى بشن غارة على المعسكر الصليبى المقام فى العادلية ، ويروى أوليفر أف بادنبورن أن المسلمين فاجأوا الصليبيين ونجحوا فى الوصول إلى الخندق الذى يحيط بالمعسكر الصليبى ، ورغم ذلك لم تنجح القوات الإسلامية فى إقتحام المعسكر ، ولذلك كانت هذه الغارة غير فعالة عديمة الجدوى[2] وربما يرجع ذلك إلى قلة القوات الإسلامية التى هاجمت الصليبيين أو إلى شدة حصانة المعسكر الصليبى .

وعلى ما يبدو أن الكامل قام بهذه الغارة لسبر أغوار الصليبيين فى موقعهم الجديد ، والظاهر أنه تأكد من صلابة الجبهة الصليبية وأحس أنه من الصعب هزيمة القوات الصليبية وإجلائها عن مصر بالقوة العسكرية بالإمكانيات التى توفرت لديه فى ذاك الوقت . ولهذه الأسباب ولأسباب أخرى بدأ الكامل يتحول من سياسة الهجوم أو الدفاع إلى فكرة عرض الصلح على الصليبيين .

ومن الأسباب التى ربما دفعت الكامل إلى فكرة عرض الصلح أن مؤامرة عماد الدين بن المشطوب قد أثرت تأثيراً سيئا فى حالة الجيش المعنوية ، فضلا عما ساده من الإضطراب والفوضى . وهذا كله يحتاج إلى بعض الوقت لإعادة حالة القوات إلى ما كانت عليه معنويا وعسكريا وربما تمكن الصليبيون خلال ذاك الوقت من إحراز مزيد من الإنتصارات على القوات الإسلامية يترتب عليها سقوط مدينة دمياط فى أيديهم وتقدمهم نحو القاهرة ، وبذلك تكون الحملة قد حققت الهدف الذى قدمت من أجله إلى مصر . كما أن حالة الأهالى داخل مصر لم تكن بأحسن من حال القوات المرابطة فى فارسكور . فقد إصيبوا هم

(١) Hist. Patr. Alex. pp. 248-9.

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 2.

أيضا بالفزع خاصة بعد ما سمعوا أن الملك الكامل قد عزم على مغادرة مصر والتوجه إلى اليمن . وعلاوة على ذلك فان موقف الكامل قد زاد تحرجا عندما إجتمع العربان على إختلاف قبائلهم ، ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الصليبيين على حد تعبير إبن الأثير[1] . ثم أن الكامل كان يتشكك فى قرب وصول النجدات الإسلامية الكافية لدفع الخطرالصليبى[2] . يضاف إلى ذلك ظهور الخطر المغولى[3] . وما قام به المغول من أعمال القتل والسلب ، وسماع الكامل بهذه الأعمال الوحشية التى يتصف بها المغول وعزمهم على الإتجاه إلى المشرق الإسلامى[4] ، ومما لا شك فيه أن مثل هذه الأخبار قد تسببت فى إزعاج الكامل وإنتشار الفزع فى أرض مصر كلها[5] ، خاصة وأن الخطر الصليبى هو الآخر على أبوابها يهددها بشر مستطير .

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٢ .

(٢) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٤٩ . أنظر أيضا :

Lamb. op. cit., p. 248.

(٣) بدأ ظهور الخطر المغولى على العالم الإسلامى عام ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) وللمزيد من التفاصيل عن المغول وأخطارهم فى هذه الفترة أنظر : كتاب فى التاريخ (مخطوط) محفوظ فى دار الكتب تحت رقم (٤٠٣٠) ورقة ٣٣٠ أ - ٣٣٢ ب . ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢٣٣ - ٢٦١ . ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٤ - ٦٤ ، ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٦٥ ، ٧٨ - ٧٩ ، ابن كثير : المصدر السابق جـ ١٣ ص ٨٦ - ٨٧ ، ٩٤ - ٩٥ ، ابن الوردى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣٧ - ١٤٣ ، ابو شامة ، المصدر السابق ص ١٢١ - ١٢٨ ، ابو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣٣ - ٢٤٨ ، الحافظ الذهبى ، المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٨ - ٩١ ، المقريزى المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ١٨٥ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ . أنظر أيضا : البغدادى ، عيون التواريخ (مخطوط) جـ ٢ لوحة ٤١١ - ٤١٢ ، فؤاد عبد المعطى الصياد ، المغول فى التاريخ ص ١٠١ وما بعدها ، محمد صالح داود القزاز ، الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية ص ٣٥ وما بعدها .

(٤) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠٩ - ٦١٠ . انظر أيضا ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٣٩٨ وما بعدها .

(٥) Lamb, op. cit., p. 217.

وإذا كانت أخبار ظهور المغول قد أقلقت مضاجع المسلمين ، فان نفس الأخبار قد أنعشت آمال الصليبيين فى القضاء على العالم الإسلامى . فقد إعتقدوا أنهم سيجدون فى جنكيز خان (٦٠٣ – ٦٢٣ هـ / ١٣٠٦ – ١٢٢٦ م) حليفا قويا لهم ضد المسلمين باعتباره خليفة الكاهن يوحنا Pretre Jean[١]، كما أنعش آمال القوات الصليبية حضور جوتييه Gautier قائد جيش قبرص ومعه بعض الفرسان إلى المعسكر الصليبى المقام حول دمياط[٢]، وبذلك تحسن موقف الصليبيين معنويا وعسكريا فى الوقت الذى لازالت تتعثر فيه القوات الاسلامية فى فارسكور .

ولكل هذه الأسباب مجتمعة فكر الكامل والمعظم فى عرض الصلح على الصليبيين ، ومحور هذه الفكرة أن الصلح خير من الحرب وأن السلام الدائم

(١) ترجع أسطورة الكاهن يوحنا إلى عام ١١٥٠ م عندما أخذ الغربى الأوربى يتبادل رسالة جرى الزعم أن كاتبها هو الكاهن يوحنا ووجهها إلى الامبراطور البيزنطى مانويل الأول (١١٤٣ – ١١٨٠ م) بغرض التعاون المشترك بينهما للقضاء على العالم الإسلامى ورغم أنه يكاد يكون من المحقق أن هذا العمل من تزييف أحد القساوسة الالمان إلا أن الغرب الاوربى لم يتغافل هذه الرسالة . ففى عام ١١٧٧ م وجه البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ – ١١٨١ م) رسالة إلى الكاهن يوحنا حملها أحد رجال الدين يدعى فيليب لبحث التعاون بين الطرفين . ولما كانت شخصية الكاهن شخصية وهمية فقد طاف فيليب للبحث عنها وانتهت رحلته فى الحبشة حيث كان يظن أن ملكها هو الكاهن يوحنا ومن الطبيعى أن تنتهى هذه الرحلة بنتائج غير محسوسة . وظل الغرب الأوربى ينتظر ظهور شخصية الكاهن يوحنا حتى وقت ظهور المغول ، واعتقدوا أن جنكيز خان سيقوم بدور الكاهن يوحنا وهو التعاون مع أوربا للقضاء على الإسلام أنظر :

Runciman, op. cit., II, pp. 422-3, III, p. 169.

عن نص الخطاب المرسل من الكاهن يوحنا إلى الامبراطور مانويل أنظر :

Y. Kamal, op. cit., t. III, faec. IV, pp. 891-2.

وللمزيد من المعلومات عن ذلك أنظر ، أرنولد (توماس) : الدعوة إلى الإسلام – ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى ص ١٩٢ ، حسن ابراهيم حسن ، انتشار الاسلام بين المغول والتتار ص ٢٨ . وقد تعرض جاك دى فترى لهذه الاسطورة فى احدى خطاباته إلى البابا هونوريوس الثالث . أنظر :

vitry, op. cit., pp. 142. ff.

(٢) Eracles, op. cit., p, 340,

سيد العلاقات بين أى طرفين متحاربين خاصة إذا توافرت حسن النية لدى كل منهما[1] ، لذلك تقدم الملك الكامل بأسخى عرض تمكن التقدم به فى مثل هذه الظروف[2] ، ويبدو أن ذلك كان بتشجيع كبير من أخيه الملك المعظم . ويروى تاريخ هرقل أن الملك المعظم قال لأخيه الملك الكامل أن كل الأراضى التى كانت تابعة للصليبيين قبل أن يستردها صلاح الدين الأيوبى فى يدى وإننى أعطيها لك لكى تخلص مصر من القوات الصليبية . فكل شىء يهون فداء بلاد المسلمين . ويبدو أن الكامل إرتاح عندما سمع ذلك ، فوقف وقبل أخاه على كتفه وأثنى عليه ثناء كبيرا ، ورد الكامل على المعظم بأنه سيعوضه فى صعيد مصر مقابل ما يتنازل عنه فى الشام[3] .

وفيما يتعلق بعرض الصلح فان الملك الكامل تقدم بعرض الصلح على قادة الحملة الصليبية الخامسة عدة مرات كما هو واضح من النصوص التى تحت ايدينا وكما سيرد ذلك فيما بعد ، وهذا هو العرض الأول الذى تقدم به الكامل وحول موعده نقول أنه يقع على ما يبدو فى الفترة الواقعة بين (٢٠ ذو الحجة ٦١٥ - أول محرم ٦١٦ هـ / ٩ - ١٩ مارس ١٢١٩ م) والتاريخ الأول يتعلق بتاريخ الغارة التى أشرنا اليها من قبل ، والتاريخ الثانى هو تاريخ قيام المسلمين بهدم اسوار مدينة بيت المقدس وغيرها من القلاع الشامية[4] . ومما يجعلنا نميل إلى تحديد هذه الفترة هو أن العرض الأول لم يتضمن إصلاح أسوار مدينة بيت المقدس وغيرها لأنها لم تكن هدمت بعد ، على العكس من العرض الثانى الذى تقدم به الملك الكامل فى الثامن عشر من جمادى الثانى ٦١٦ هـ (٣١ أغسطس ١٢١٩ م)[5] ، وأضاف إلى شروط الصلح دفع تكاليف

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٤٩ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٧٤ .

(٣) Eracles, op, cit., p. 338.

(٤) ابن الجوزى - المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠١ . واشار أوليفر أن عملية الهدم استمرت من ١٩ - ٢٥ مارس أنظر : Oliver of Padenborn, op. cit. p. 52.

(٥) Eraeles, op, cit., p, 341.

إصلاح أسوار مدينة بيت المقدس والقلاع التى هدمت معها فى التاريخ نفسه أو بعده بقليل . ونقطة أخرى تجعلنا نرجح هذه الفترة هو أن الملك الكامل تقدم بعرضه الأول وهو فى حالة يأس من الإنتصار على الصليبيين وكان عليه أن يقدم كل ما يمكنه لإجلائهم عن مصر ، ولو كانت أسوار مدينة بيت المقدس قد هدمت لعرض عليهم إصلاحها كما هو الحال فى العرض الثانى . وعلى العكس نجد الملك الكامل تقدم بعرضه الثانى بعد انتصاره فى معركة كبرى على الصليبيين وكان عليه أن يكون متشددا إلى حد ما أو يكون عرضه الثانى مساويا لعرضه الأول والفرق بين الاثنين أنه يعرض عرضه الثانى من مركز المنتصر ولكنه كان سخيا رغم انتصاره وقدم إصلاح أسوار المدينة وغيرها من القلاع لأن حدوث الهدم كان قد وقع فعلا . وسوف نناقش هذا كله على الصفحات التالية فى هذا الفصل .

والمهم أن الملك الكامل اختار رسولا لعرض الصلح على الصليبيين ورد ذكره فى تاريخ هرقل باسم لجارس Legars وزوده بترجمان سماه المصدر نفسه باسم بيران[1] Beiran واتجها الرسول والترجمان إلى المعسكر الصليبى ، وطلبا من الملك جان دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس أن يرسلا مندوبا عنهما إلى الملك الكامل فى فارسكور ، فوافق الملك والمندوب وأرسلا إثنين من عقلائهم لهذه الغرض هما أملين دى ريوارت Amelin de Riorte وهو من مقاطعة أنجو Ango والآخر يدعى وليم ، وصطحبا معهما ترجمانا يدعى موستار Mostar . وتوجه ثلاثتهم بصحبة الرسول الكاملى وترجمانه إلى حيث يعسكر الكامل . وبعد أن مثلوا أمامة عرض عليهم أن يعيد للصليبيين كافة الأراضى التى كانت فى حوذتهم قبل فتوحات صلاح الدين الأيوبى عدا قلعتى الكرك[2] والشوبك ، وعقد هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثلاثين سنة

---

(١) فيما يتعلق باسمى لجارس وبيران لم أجد لهما مقابل باللغة العربية فى المصادر والمراجع التي بين يدى .

(٢) بالكرك ، تحتل الكرك مكان كرمواب Ker Moab ، والكرك اسم محرف عن السريانية كاركو Karko التى تعنى حصن . وقد بنيت هذه القلعة عام ١١٤٢ م (٥٣٦ – ٥٤٧ هـ) على يدى =

وذلك مقابل الجلاء عن دمياط ، وعاد الرسولان إلى المعسكر الصليبى وأبلغ قادتهما بعرض الملك الكامل فى حضور بعض رسل المسلمين للعودة بما يتم عليه الاتفاق . وقد عقد القادة الصليبيون مجلسا للتشاور ، وفى هذا المجلس أختلفت الآراء حول قبول أو رفض العرض الكاملى . فقد وافق الملك جان دى برين على قبول العرض وأيده فى ذلك الفرسان الفرنسيون وعساكر مملكه بيت المقدس . ولم يوافق عليه المندوب البابوى ورجال الدين وفرسان الداوية والاسبتارية والايطاليون ، وطالبوا بكافة مملكة بيت المقدس بما فيها الكرك والشوبك ، لأنهم كانوا يرون أن من المستحيل الاحتفاظ بيت المقدس دون هاتين القلعتين نظرا لأهميتها العسكرية . وانتهى الأمر برفض العرض الكاملى وعاد الرسل من حيث أتوا[1] .

وإذا قمنا بتحليل موقف كل فريق من الفريقين الصليبيين ، فنجد أن الملك جان دى برين لم يكن يرى فى نفسه إلا وصيا على مملكه بيت المقدس ، أو بمعنى أصح على مملكه عكا فقط . فلم يكن هناك مملكة لبيت المقدس بعد أن استعاد المسلمون معظم ممتلكاتهم على يد صلاح الدين . لذلك نرى الملك الصليبى يوافق على عرض الملك الكامل بالصلح حتى تصبح مملكة بيت المقدس حقيقة واقعة . ولا شك أن ذلك سيعود عليه بالكسب الأدبى باعتبار أنه أعاد

= باين Payen ساقى الملك الصليبى فولك الانجوى (١١٣١ - ١١٤٤ م) . انظر : لى ستراج : المرجع السابق ص ٤٥٠ - ٤٥١ . وهى قلعة حصينة جدا فى طرف الشام من نواحى البلقاء وتقع على سن جبل عال تحيط بها الأدوية من جميع الجهات عدا الربض . أنظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٣ . ويقال أنه كان ديرا للروم وبه فواكه كثيرة وعيون وابار ومن أعمال قلعة الشوبك عن ذلك أنظر : شمس الدين الأنصارى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ص ٢١٣ . وترجع أهمية هاتين القلعتين إلى وقوعهما فى جنوب الشام حيث ملتقى التجارة وحركة المرور بين الشام والعراق ومصر والجزيرة العربية وقد استعادهما صلاح الدين عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) راجع : العماد الأصفهانى : المصدر السابق ص ٥٩ - ٦٠ ، ٨٠ .

L, F. Crusade, Letter to The Pope Honorus III, dated 12 th. Nov 1219, cf. Rohricht., Funften. Kreuzzuges, p. 47, Eracles, op, cit., pp 338-9.

المملكة إلى ما كانت عليه سلميا وهو ما فشل فيه من قبل ريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس عسكريا[1] . ومما لا شك فيه أيضا أن رأى الملك جان دى برين كان رأيا راجحا سديدا وهو ما كان يجب الموافقة عليه[2] . والمهم أن رأى الملك اللاتينى أوضح الغرض السياسى للحملة الصليبية الخامسة بصفة خاصة والحملات الصليبية كلها بصفة عامة .

أما عن موقف الفريق الآخر ممثلا فى المندوب البابوى وهو الذى رفض عرض الملك الكامل بالجلاء عن مصر ، فذلك أن بلاجيوس كان يرى أن الاستيلاء على مصر يشطر العالم الإسلامى إلى قسمين ، القسم الشرقى ويشمل الشام والجزيرة العربية واليمن والعراق وما فى شرق هذه الدول ، والقسم الغربى وهو ما يشمل الممالك التى تقع غرب مصر حتى المحيط . وكان يرى أنه بعد الاستيلاء على مصر سيتمكن من نشر المسيحية على المذهب الرومانى الكاثوليكى داخل مصر كلها[3] ، ومن جانب آخر إعتقد بلاجيوس أن المسيحيين فى شبه الجزيرة الايبيرية سيواصلون إنتصاراتهم على المسلمين وأنهم سيعبرون مضيق جبل طارق ويسيطرون على المغرب والجهات الشرقية منه حتى مصر . أما عن الجبهة الشمالية فقد ظن بلاجيوس أن مملكة أرمينية أصبحت دولة قوية وفى مقدورها السيطرة على شمال الشام والعراق[4] . أما الجبهة الشرقية فقد تكفل بها المغول وهو الأمر الذى طمأن الجانب الصليبى . هذا فضلا عن آمالهم فى إتخاذ المغول حلفاء لهم وإحياء أسطورتهم القديمة الخاصة بالكاهن يوحنا . ومما لا شك فيه أن بلاجيوس كان يعتقد أيضا أنه بعد سقوط مصر فى أيدى الصليبيين ستقع كافة الممالك الإسلامية بالشام فى أيديهم أيضا[5] .

---

(١) Lamb, op. cit., p. 248.

(٢) Fabri, op. cit., Vol. 2, part I, p. 338.

(٣) Grousset, op. cit., II, p. 209.

(٤) Duggan. op. cit., pp. 217-8.

(٥) Fabri. op. cit., Vol 2 part I. p. 358.

وعلى هذا التصور رفض المندوب البابوى العرض الكاملى كما تهيأ له أنه سينجح فى الاستيلاء على مصر كلها وعلى الممالك الإسلامية فى الشام ، وسيتمكن من نشر الديانة المسيحية الكاثوليكية فى كل ربوع العالم الإسلامى وإحتواء القوات المغولية وإدخالها فى الديانة المسيحية أيضاً ، وبذلك يسيطر أهل الغرب اللاتينى على ممالك البسيطة كلها[1] . ومن الواضح أن أفكار المندوب البابوى الملىء بالغرور والصلف والكبرياء كان لها أكبر الأثر فى ضياع الفرصة الذهبية لإستعادة مملكة بيت المقدس[2] . ومن الغريب أن يأتى رفض مثل هذا العرض من المندوب البابوى ورجال الدين . ولو أتى هذا الرفض من الرجال الدنيويين لأصبح أمراً مقبولا إلى حد ما . إما وأن يأتى الرفض من أكبر شخصية دينية على رأس الحملة لهو أمر يدعو للدهشة . وربما تزول هذه الدهشة إذا عرفنا بعضا من سلوك بلاجيوس تجاه البيزنطيين ، فهو الذى كان يسجن الرهبان والقساوسة الارثوذكس ويغلق الكنائس الخاصة بهم[3] . فاذا كان هذا هو سلوكه تجاه إخوانه فى العقيدة ، أدركنا على الفور أن رفض عرض السلام لم يكن غريبا أن يأتى من مثل هذا المندوب الذى تسبب فى فشل الحملة بأكملها بسبب أطماع من ساندوه[4] .

ويروى جاك دى فترى أن بلاجيوس كان يشك فى نوايا المسلمين وأن الملك الكامل لم يتقدم بهذا العرض عن طيب خاطر وإنما لجأ إليه كوسيلة من وسائل الخداع وبث الشقاق بين الصليبيين فيسهل على المسلمين التغلب عليهم . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، إذا وافق الصليبيون على العرض الكاملى فيجب على الجيش الصليبى أن يعود من حيث أتى وتتفرق القوات الصليبية ، ويصبح فى إمكان المسلمين إستعادة الأراضى التى سلموها للفرنج

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٠٣ .

(٢) Grousset, op. cit., III, p. 223.

(٣) Luchaire, op. cit., p. 249.

(٤) Fabri, op. cit., Vol. 2. part 1. p, 358.

بموجب هذا الصلح مرة أخرى[1] . وعلى أية حال ، فقد كان لرأى المندوب البابوى أبلغ الأثر على بعض الفئات الأخرى فى رفض العرض الإسلامى بالصلح .

وكان الايطاليون من الطوائف التى ساندت المندوب البابوى ورفضع فكرة الجلاء عن مصر . وليس ذلك بغريب عليهم فأهم المدن الإيطالية وهى بيزا وجنوة والبندقية مدن تجارية ، ويهمها فى المقام الأول مصالحها الاقتصادية بغض النظر عن أية مصالح أخرى سواء أكانت سياسية أم دينية فهم الذين حولوا حملة صليبية وهى الحملة الرابعة إلى القسطنطينية ، وقضوا على امبراطورية بأكملها ولو إلى حين . والسبب الأساسى فى رفض الايطاليين الجلاء عن مصر هو الطمع فى أرضها باعتبارها البلد العامرة بالمدن والقرى وحركة التجارة المستمرة فيها براً ونهراً وبحراً لوقوعها فى منتصف الطريق بين الشرق والغرب . وهى أيضاً « المليئة بالخيرات » ، وليس فى العالم كله بقعة آهلة بالسكان غنية بثمارها مثلها[2] . كما أن الايطاليين لم يكن لهم هدف من الاشتراك فى الحملات الصليبية إلا التوسع فى تجارتهم والحصول على أكبر قدرة من المكاسب المادية . ومن الطبيعى ألا يقبلوا شروطا تقضى بعدم بقائهم فى دمياط وهى المدينة التجارية الهامة التى تخدم مصالحهم التجارية ويستطيعون من خلالها أن ينفذوا إلى جوف البلاد المصرية[3] ، كما نظريات الجاليات التجارية الإيطالية إلى أبعد من ذلك ، فمصر ملتقى التجارة الآتية من الهند عبر البحر الأحمر وأن وجودهم فيها يضمن لهم الإتصال عن قرب بمنابع المواد الأساسية للتجارة والحصول على أكبر فائدة من التجارة المباشرة مع الهند والشرق الأقصى[4] ، هذا بالإضافة إلى أن بقاء الإيطاليين فى دمياط سيعفيهم من دفع

---

(١) Vitry, op, cit., pp. 125-6.

(٢) بنيامين التطيلى : الرحلة ص ١٧٤ – ١٧٥ .

(٣) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٠ .

(٤) Mahmod, op, cit., p, 255.

الضرائب المقررة على بضائعهم والتى تتراوح بين عشرين وخمسة وثلاثين فى المائة من قيمة هذه البضائع[1] .

وهناك رأى آخر يتعلق برفض الصليبيين لعرض الصلح الذى تقدم به الملك الكامل ، وهو أن القوات الصليبية قد وجدت نفسها متقدمة فى عملياتها العسكرية ، إذ نجحت فى الإستيلاء على برج دمياط وفى العبور إلى الضفة الشرقية للنيل وأصبحت تحاصر مدينة دمياط فضلا على علمها باختلال أحوال المسلمين . يضاف إلى ذلك أمل الفرنج فى حضور الإمبراطور فريدريك الثانى وقواته ، وأملهم أيضاًفى مزيد من الانتصارات عند حضور هذا الإمبراطور ، وبالتالى تصور كل فريق أن امتلاك مصر أصبح شيئا مضمونا وأنه سيتم فى القريب العاجل . ولكنهم حين تصوروا كل هذا لم يكن يدور بخلدهم أن هناك إرادة إسلامية ستحقق بالحرب ما حاولت اقتراحه بالسلم بالنسبة للجلاء عن مصر .

ويجب الإشارة هنا إلى نقطة هامة تتعلق بفلسفة الحركة الصليبية كلها والتى تنحصر فيما زعمه القادة الصليبيون من حرصهم على الغاية التى قامت من أجلها الحملات الصليبية وهى استرداد بيت المقدس ، فلو كانوا متمسكين فعلا بهذا الهدف لقبلوا العرض الذى تقدم به ملك مصر إبان تواجد الحملة الصليبية الخامسة فى دمياط ، ولوجدوا فيه فرصة طيبة لاسترداد هدفهم المنشود - بيت المقدس - دون عناء . ولعل موقف الصليبيين من عرض الملك الكامل يوضح أن أهداف الحملات الصليبية كانت استعمارية وليست دينية حسب زعمهم[2] . ولهذه الأسباب الإستعمارية رفض الصليبيون العرض الكاملى مرة أخرى عندما كرر عليهم عرض الصلح عقب الرفض مباشرة[3] .

---

(١) حسنين محمد ربيع : النظم المالية ص ٥١ .

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٨٥ .

(٣) Eracles, op. cit., p. 336.

وبعد ما تحققت للملك الكامل نوايا الصليبيين وعزمهم على الإستمرار فى الحرب برفضهم الجلاء عن مصر ، بدأ الكامل فى اتخاذ الاجراءات اللازمة التى من شأنها مساعدته على مواجهة الخطر الصليبى المحدق بدمياط والذى يهدد مصر كلها على وجه الخصوص والعالم الإسلامى كله على وجه العموم.وبدأ الكامل بتكليف الصاحب صفى الدين بن شكر فى جمع المبالغ اللازمة لنفقات الحرب فاتجه إلى القاهرة وبدأ بجمع الأموال من التجار ، كما تقرر أيضا التبرع على الاملاك ، وظل بالقاهرة حتى العشرين من شهر رمضان ٦١٦ هـ (٣٠ نوفمبر ١٢١٩ م) . وقد تمكن خلال هذه الفترة من تحصيل مبلغ كبير من المال(١) . ويلاحظ أن أهالى مصر من مسلمين ومسيحيين ويهود(٢) قد ساهموا فى دفع هذه المبالغ ، فمصر وطن الجميع ويجب على جميع المواطنين مساندتها وقت الشدائد سواء بالنفس أو المال .

أما فيما يتعلق بالأموال التى تقررت على المسيحيين سواء الأقباط منهم أو الملكانيين وكذلك تلك التى دفعها اليهود ، فقد عقدت عدة مجالس لهذا الغرض حضرها رجال القانون وقساوسة وأحبار الطوائف المعنية . وقد طلب منهم فى هذه المجالس المساهمة بأموالهم فى دفع الخطر الصليبى عن مصر . وقد ساهمت كافة هذه الطوائف فى نفقات الحرب ضد الصليبيين وتحمل الملكانيون مبلغ ألف دينار من الأموال المتوفرة لديهم . وطلب من المسيحيين الأقباط أن يتبرعوا بما يوازى أربعة وعشرين مرة من المبلغ الذى قدمه الملكانيون وذلك بالنسبة لعددهم ومكانتهم بالمقارنة مع الملكانيين . وبعد عدة مفاوضات تقرر أن يقدم

---

(١) النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٢٥ – ٢٦ .

(٢) بلغ اليهود رقيا علميا وسياسياً أيام الدولة الفاطمية والأيوبية ، فكان منهم الوزراء والكبراء والأطباء والعلماء . عن ذلك أنظر : بنيامين التطلى : المصدر السابق ص ١٧١ حاشية (١) . فى حين عاش يهود أوروبا نفس الفترة يعانون من أشد أنواع التعذيب والاضطهاد وعلى سبيل المثال المذبحة التى قامت فى مدينة يورك بانجلترا فى ١٦ ، ١٧ مارس ١١٩٠ م للتخلص من اليهود وديونهم على الأمراء والأهالى ، حتى اضطر اليهود إلى قتل أنفسهم . عن ذلك أنظر : نعيم عزيز زكى : دور اليهود فى تجارة العصور الوسطى ص ١٥٤ – ١٦١ .

الأقباط ثلاث آلاف دينار وبذلك يكون جملة ما تحصل منهم هو أربعة آلاف دينار ، وتقرر على اليهود أن يدفعوا مبلغ خمسمائة دينار . أما المسلمون فقد تقرر أن يدفع كل فرد قادر منهم مبلغ خمسة دنانير وإعفاء الفقراء من دفع هذا المبلغ[1] . ومما تجدر الإشارة اليه أن بعض المؤرخين المحدثين ذكروا أن الأقباط والملكانيين قد تعرضو لقيود بالغة الشدة وتقررت عليهم الضرائب الباهظة[2] . وللرد على ذلك أن جملة ما دفعه الأقباط هو مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، وقياسا على ما دفعه المسلم وهو خمسة دنانير فان العدد اللازم من الأقباط لدفع مبلغ ثلاثة آلاف دينار هو ستمائة مواطن وحوالى مائتين على أقصى تقدير بالنسبة للملكانيين ، أما بالنسبة لليهود يتطلب الأمر مائة منهم لدفع المبلغ الذى تقرر عليهم . فاذا أخذنا فى اعتبارنا أنه كان يوجد بالقاهرة فقط نحو ألف يهودى[3] فبذلك يكون ما تحمله كل فرد من اليهود حوالى ربع دينار على الأكثر من يهود القاهرة فقط بغض النظر عن اليهود المنتشرين فى مصر كلها . فاذا كان ذلك هو الحال بالنسبة لليهود فان نفس الحال ينطبق على الطوائف الأخرى . إذ لا يعقل أن يكون بمصر ستمائة من الأقباط ومائتين من الملكانيين ، فقد ذكرت بعض المصادر المعاصرة أن عدد الأقباط فى مصر كان لا يقل عن عشرة آلاف نسمة[4] . وعلى أية حال فقد بدأ الأقباط فى جمع الأموال المقررة عليهم عن طريق التبرع فى الكنائس . كما حصلوا على بعض هذه الأموال من دير طموية[5]

---

(1) Hist. Patr. Alex., p, 249.

(2) Runciman, op. cit., III, p. 170

(3) بنيامين التطيلى : المصدر السابق ص ١٧١ .

(4) Nicolas I, Lettre au Pape Honoré III, p. 648.

(5) طموية ، تقع على الضفة الغربية للنيل على بعد خمسة أميال من النقطة الموازية لحلوان وكانت احدى متنزهات مصر ، والدير راكب البحر وحوله الكروم والبساتين والنخيل والشجر . عن ذلك أنظر : الشابشى : الديارات ص ١٩٤ وحاشيه (٢) ولمزيد من التفاصيل انظر : نفس المصدر ص ٢٥٩ ، ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٦٧٤ ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار جـ ١ ص ٣٧١ . راجع أيضا : القمص عبد المسيح البرموسى، تحفة السائلين ص ١٦١ ، مجلة جمعية الآثار القبطية المجلد الخامس ص ١٨ — ٢٠ .

ومن بعض الأديرة الأخرى[1].

يبدو أنه أثناء قيام الوزير صفى الدين بن شكر بجمع هذه الأموال حدث احتكاك بين بعض المسلمين والمسيحيين . ويذكر تاريخ بطارقة الاسكندرية أنه قتل بعض المسيحيين أثناء هذه الحوادث[2]. وإن صحت هذه الرواية التى لم يرد ذكرها فى بقية مصادر الحملة من عربية وأجنبية ، فان هذا العمل لا يعدو أن يكون مجرد عمل فردى يعد كل البعد عن سياسة الدولة الأيوبية ، لأن الأقباط لم يصبهم أيام الحكم الأيوبى ضرر بقدر ما لحقهم من الصليبيين أنفسهم[3]. فقد عاش الأقباط وكافة الطوائف المسيحية الأخرى وكذلك اليهود آمنين في مصر أحرارا فى عقيدتهم حسب شريعة كل طائفة منهم ، وذلك حسب ما روته بعض المصادر الأجنبية المعاصرة للحملة[4]. كما تميز عهد الملك الكامل وأبيه العادل بالتسامح والعدالة تجاه الأقباط ولعل ما ورد فى كتاب « قصة الكنيسة القبطية » من أن حسودا أراد أن يوغر صدر العادل ضد

---

(١) Hist. Patr. Alex., pp. 247-251

يلاحظ أن المبالغ التى تحملها كل فرد فى مصر سواء أكان مسلما أم مسيحيا أم يهوديا فى وقت تواجد الحملة الصليبية الخامسة بدمياط كانت بسيطة جدا اذا ما قورنت بنفس المبالغ التى تحملها أهل أوروبا لقيام نفس الحملة مع اختلاف الهدفين . أنظر ما سبق ص ١٤٩ – ١٥٠.

(٢) Hist, Patr, Alex., pp. 247-8.

(٣) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ١١٨ . ولم تكن حسن معاملة المسلمين للاقباط قاصرة على مصر فقط بل سادت بلاد الشام خاصة مدينة بيت المقدس فانه خلال الحرب الفاطمية السلجوقية التى استمرت حوالى عشرين سنة فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى قبل الحملة الصليبية الأولى بقليل ، نجد أن الصراع دار على مدينة بيت المقدس وتناولتها أيدى الطرفين عدة مرات . وفى هذه الحروب لم يصب المسيحيون بأكثر مما أصيب به غيرهم وبقى الحى المسيحى المسور لم يمسه أحد بأذى . أما عند قدوم الحملة الصليبية الأولى فقد خرج الأهالى المسيحيون من القدس . وكان ذلك من حسن حظهم لأنهم لو بقوا فى المدينة لكان نصيبهم كنصيب المسلمين واليهود من المذابح التى قام بها الصليبيون احتفالا بدخولهم المدينة المقدسة عن ذلك أنظر :

Runciman, The Cristian Arabs of Palestine, p. 10.

(٤) Patriarche de Jerusalem, Rapport au pape Innocent, III p. 932.

القبط فادعى أمامه أن دير الأنبا أبى مقار[1] يحتوى على كنوز ثمينة فقام الملك العادل بانتداب بعض كتبة الديوان للتوجه إلى الدير المذكور والبحث عما فيه من كنوز ، فلما قابل المندوبون رئيس الدير عرفوا منه أن الكنوز الموجودة فيه فعلا هى أوانى المذبح والملابس الكهنوتية . فأخذوها بعد أن أكدوا لرئيس الدير أن الملك العادل منصف للغاية ، وحينما رأى العادل هذه الأشياء أمر بتقييمها وعرف أنها لا تساوى غير ثلاثة آلاف دينار . فأمر العادل بتسليمها إلى الأنبا يؤنس السادس (١١٨٩ م – ١٢١٦ / ٥٨٤ – ٦١٣ هـ) مع الاعتذار له عما وقع . ثم بتوقيع العقاب على الحسود . وقد تجلت فى هذا الموقف عدالة الملك العادل . هذا بالإضافة إلى مواقف أخرى لا تقل نزاهة وعدالة عن ذلك ، منها أن بعض دعاة السوء حاولوا إقناع العادل بمضاعفة الضرائب على القبط كما فعل غيره فأجابهم « أكان غيرنا قد ظلم فلا داعى لأن نكون ظلمة »[2] . وما اتصف به العادل من تسامح مع الأقباط إنطبع فى ولده الكامل . فقد حدث أنه كان مرة فى الاسكندرية وأثناء عودته إلى القاهرة عن طريق الصحراء زار دير الأنبا أبى مقار ومعه حاشيته . وقد رحب به الرهبان واستضافوه ومن معه عدة أيام أحاطوه فيها بالمودة والإكرام ، ولقد سر الكامل مما رأى ورغب فى تكريم رهبان الدير فمنحهم ثلاثمائة أردب من القمح والشعير ومائة من الفول ومائة من الترمس . وفوق ذلك كله أصدر مرسوما يتضمن إعفاء الرهبان من الضرائب وأيلولة تركة الراهب بعد وفاته إلى الدير الذى ينتمى اليه[3] . وفى مقابل هذه العدالة النزيهة امتلأت قلوب القبط ببهجة

(١) دير أبى مقار ، يقع فى المكان الذى يسمى وادى النطرون حاليا وموقعه فى الجنوب الشرقى من دير السريان ودير الانبا بيشوى . ويرجع أصل أبى مقار إلى بلده جحوير من أعمال منوف وقد عاش فى أواسط القرن الرابع الميلادى ومات عن ٩٧ سنة . أنظر : القمص عبد المسيح البرموسى : المرجع السابق ص ٧٦ – ٨٤ ، عمر طوسون : وادى النطرون ورهبانه وأديرته ص ٧٦ وما بعدها .

(٢) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ٣ ص ١٩٣ – ١٩٤ .

(٣) منير شكرى : أديره وادى النطرون ص ٢٨٦ .

وطمأنينة[1]، وذلك على العكس من شعورهم تجاه الصليبيين الذين اعتبروا أقباط مصر من الهراقطة وكثيرا ما أساءوا اليهم . وليس أدل على الذين من حرمان الأقباط من الحج إلى بيت المقدس منذ إستيلائهم عليها فى الحملة الأولى فلم يدخلوها حتى إستردها صلاح الدين الأيوبى[2].

وإذا كنا قد تناولنا بالدراسة والتحليل ما ورد فى أحد النصوص من إضطهاد المسلمين للأقباط الذى ليس له فى الحقيقة أى أساس من الصحة فى ظل التسامح الإسلامى الذى كان يتمتع به قبط مصر ، فان ذلك لا يبعدنا عن الإجراءات التى إتخذها الكامل لدفع الخطر الصليبى عن دمياط ، كاعداد خطوط الدفاع الأمامية عند فارسكور وجمع الأموال اللازمة لنفقات الحرب وإستنهاض آل البيت الأيوبى لإمداده بالقوات الكافية لإجلاء القوات الصليبية عن مصر عسكريا بعدما فشلت المحاولات السلمية .

وفيما يتعلق باعداد خطوط الدفاع الأمامية فقد تولاها الملك الكامل بنفسه عند فارسكور . وأما الأموال فقد تولى أمرها صفى الدين بن شكر ، وأما استنهاض آل البيت الأيوبى فقد تولى أمره فعلا الملك المعظم عيسى . فانه عقب رفض الصليبيين عرض الملك الكامل للصلح اتجه المعظم إلى دمشق لإمداد مصر بما تحتاجه من الرجال لدفع الخطر عن دمياط . كما أنه كان يخشى وصول بعض القوات الصليبية من أوربا إلى الشام إذا علموا بسيطرة إخوانهم على دمياط والملك الكامل مشغول بمحاربتهم ، فيقصدون البيت المقدس فيملكونه « ويتعذر على المسلمين إستنقاذه من أيديهم »[3]. هذا فضلا عن أن الملك المعظم بلغه أن طائفة من الفرنج عازمة على الإستيلاء على البيت المقدس . لذلك

---

(١) ايريس حبيب المصرى : المرجع السابق جـ ٣ ص ١٩٤ . ويلاحظ أن منصب البابا القبطى كان شاغرا فى الفترة من ٧ يناير سنة ١٢١٦ م حتى ١٧ يونيه ١٢٣٥ م أنظر : المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٤٠١ .

(٢) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ١١٨ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٩ .

أتفق على خرابه خاصة وأن الشام كانت خالية من العساكر الإسلامية وأنه إذا إستولى الصليبيون على القدس استولوا على باقى الممتلكات الإسلامية وحكموا الشام كله[1]. لذلك طلب الكامل من أخيه العزيز عثمان والأمير عز الدين أيبك الحلبى المعظمى[2] اللذين كانا بالقدس فى ذاك الوقت تخريب المدينة ، ولكنهما لم يرغبا فى خرابها بأمل الدفاع عنها إذا هاجمها الصليبيون . ولكن المعظم كتب اليهما ثانيا قائلا « لو أخذوه (بيت المقدس) لقتلوا كل من فيه وحكموا على بلاد الشام وبلاد الإسلام ، فألجأت الضرورة إلى خرابه » ، فاقتنعا برأى المعظم وشرعا فى خراب سور المدينة فى أول المحرم عام ٦١٦ هـ (١٩ مارس ١٢١٩)[3]. ويصف المؤرخ إبن الجوزى الضجة التى سادت البلد فى هذا اليوم ، فكان كيوم القيامة ، إذ خرج جميع أهل مدينة القدس شيبا وشبانا رجالا ونساء ومعهم أولادهم وإتجهوا إلى مسجد الصخرة والمسجد الأقصى حيث قطع النساء شعورهن ومزقن ثيابهن حتى إمتلأ المسجدان

---

(١) ابن الجوزى – المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠١ .

(٢) كان الامير عز الدين يشغل وظيفة استاذ دار الملك المعظم والاستاذ دار هو الذى يتولى شئون مسكن السلطان أو الأمير وله الأشراف على كل أعمال المآكل والمشرب والخدم ، وكان له مطلق التصرف فى اعداد ما يحتاجه المسكن من النفقات والكساوى وأصبح لهذه الوظيفة شأن كبير فى العصر المملوكى . أنظر : القلقشندى : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٠ ، جـ ٥ ص ٤٥٧ ، وقد رفض هذا الأمير السلطنة عندما عرضتها عليه شجرة الدر فى عام ٦٤٨ هـ بعد مقتل المعز أيبك التركمانى . أنظر : أبو المحاسن جـ ٦ ص ٣٧٥ .

(٣) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠١ . ويلاحظ أن المصادر العربية اختلفت فى تحديد التاريخ الذى تم فيه هدم أسوار المدينة . فيرى البعض أن ذلك تم فى ذى القعدة عام ٦١٦ هـ (يناير ١٢٢٠ م) أى بعد سقوط مدينة دمياط . ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٦ . ويذكر آخر أن ذلك كان أول المحرم أو السابع منه (١٩ أو ٢٥ مارس ١٢١٩ م) . أبو شامة : المصدر السابق ص : ١١ . وقد روى ابن واصل حادثة هدم المدينة ولكنه لم يذكر تاريخا لذلك . ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٢ . وتتفق مع ابن الجوزى بعض المصادر المتأخرة منها ما هو مخطوط ومنها ما هو منشور . أنظر : باغرمة : المصدر السابق جـ ٥ ورقة ٣٢٢ ، العينى : المصدر السابق جـ ٧١٧ لوحة ٣٩٥ . أنظر أيضا : ابن العماد : المصدر السابق جـ ٥ ص ٦٦ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٤ . والأرجح ما أوردناه فى المتن اعتمادا على صلة ابن الجوزى بالملك المعظم كما أسلفنا – راجع أيضا ما سبق ص ٢٢٢ .

بالشعور ثم خرج الجميع هاربين من المدينة تاركين أموالهم وذويهم معتقدين أن الصليبيين فى أثرهم . فامتلأت بهم الطرق ومنهم من اتجه إلى مصر أو إلى حصن الكرك كما ذهب بعضهم إلى دمشق سائرين على الأقدام ، « والبنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفا » . وقد مات فى هذه المحنة خلق كثير من الجوع والعطش ، كما نهبت أموالهم التى تركوها بالمدينة . ورخصت المؤن لعدم القدرة على شرائها حتى بلغ قنطار الزيت عشرة دراهم[١] ، ورطل النحاس نصف درهم[٢] .

وبعد تخريب أسوار مدينة بيت المقدس خربت أيضا أبراجها وكانت حصينة منيعة وفى غاية المناعة لأن العمارة فى هذه الأبراج كانت قائمة منذ استعادة مدينة القدس على يد صلاح الدين الأيوبى ، لدرجة أن كل برج من أبراجها كان يعتبر قلعة قائمة بذاتها[٣] . وقد تم تخريب المدينة كلها عدا المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة وبرج داود[٤] . وفيما يتعلق بكنيسة القيامة فقد أشار أحد الرحالة الأجانب فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى (أواسط القرن التاسع الهجرى) أن المسلمين أرسلوا إلى الصليبيين المحاصرين لمدينة دمياط بأنهم ينوون هدم الكنيسة إذ لم يرفعوا الحصار فورا عن دمياط[٥] . والواقع أن هذه الرواية غير صحيحة بدليل أن الحصار لم يرفع عن دمياط ولم يتم هدم الكنيسة . ولعل هذه الرواية من قبيل الشائعات التى كانت تلقى رواجا فى مثل تلك الظروف . وربما يقول قائل أن هذه الرواية قد حدثت من قبل التهديد فقط . والرد على ذلك يأتى من الصليبيين أنفسهم . فقد روى أوليفر مؤرخ الحملة أن المسئولين المسلمين أعلنوا بأن كنيسة السيد المسيح لن

---

(١) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠١ — ٦٠٣ . أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٢) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٧٦ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٢ .

(٤) **Hist. Patr. Alex., P. 251. Oliver Scolastique, Lettre, a Angelbert, cf, Bongars. pp 1118 ff, Roger of Wendover, op. cit., II, p. 410.**

(٥) **Fabri, op. cit., Vol. 2, part I, p. 356.**

تهدم وستبقى كما هى لأن المسلمين يعتبرون السيد المسيح نبيا عظيما[1] .

وعلى هذه الصورة تم هدم مدينة بيت المقدس ، وأصبحت المدينة مفتوحة لا يمكنها الدفاع عن نفسها[2] . ولذلك قام المعظم بنقل ما كان فيها من الزردخاناه[3] وآلات القتال وغير ذلك[4] . ورغم أن هدم المدينة قد تم لأسباب إستراتيجية إلا أن المسلمين قد حزنوا عليها حزنا شديدا نظراً لمكانتها الدينية . وأنشد الشعراء الأبيات فى هذه المناسبة . فقال مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفى قاضى الطور :

مررت على القدس الشريف مسلما ... على ما تبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين منى صبابة ... على ما مضى من عصرنا المتقدم

وقال أيضا :

فلو كان يفدى بالنفوس فديته ... بنفسى وهذا الظن فى كل مسلم[5]

وأنشد شاعر آخر يهجو الملك المعظم على تخريب القدس فقال :

فى رجب حلل الحميـــا ... وأخرب القدس فى المحرم[6]

ولم يكتف المعظم بتخريب المدينة المقدسة فقام بتخريب بعض القلاع

(1) Oliver Scolastique, Ibid, Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 410-11.
أنظر أيضا : مكسيموس مونروند : الحروب المقدسة جـ ٢ ص ٢٥٦ .

(2) Lamb, op. cit., p. 247.

(3) الزردخانة ، وهى كلمة فارسية مركبة من « زرد» أى سلسلة « وخانة » أى مسكن أو مكان . أى سجن أنظر : ابن الفرات : المصدر السابق المجلد الرابع جـ ٢ ص ١٧ حاشية (٥٩) . ولكن هذه الكلمة أصلا تعنى خزانة الزرد أى خزانة السلاح ، أنظر : ابن واصل : جـ ٢ ص ٢٥٧ حاشية (٤٠) .

(4) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٢ .

(5) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٥ .

(6) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ص ٦٠٢ . ويلاحظ أن بيت المقدس كان تحت حكم المسلمين منذ خلافة عمر بن الخطاب حتى استولى عليه الصليبيين عام ١٠٩٩ م ثم استرده صلاح الدين عام ١١٨٧ ثم تناولته أيدى المسلمين والصليبيين حتى استعاده المسلمون نهائيا عام ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) . عن ذلك أنظر : ابن فضل الله العمرى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٩ . أما =

الأخرى مثل حصن تورون أوتبنين[1] وصفد[2] وبانياس . وقد خربت أيضا حتى لا يستولى الصليبيون عليها بحصانتها[3] ، بل يتسلموها خرابا لا تستطيع الدفاع عن نفسها فيسهل على المسلمين إستردادها إذا ضاعت من أيديهم شأنها شأن المدينة المقدسة . ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن النية كانت متجهة إلى معاودة عرض الصلح على الصليبيين مقابل التنازل لهم عن ممتلكاتهم السابقة فى الشام . فلذلك تم تخريب هذه الحصون حتى يتمكن المسلمون من إستعادتها مرة أخرى[4] .

والمهم أن الخطة العسكرية الإسلامية لم تتطلب هدم بيت المقدس وبعض قلاع الشام فقط ، بل تطلبت أيضا هدم كنيسة القديس مرقس[5] الإنجيلية[6].

= عن تخريب القدس فى هذه الفترة أنظر : ابن رسول : نزهة العيون (مخطوط) جـ ٢ ورقة ١٠٢ ، اليونينى : ذيل مراة الزمان (مخطوط) جـ ١٥ ورقة ٣١ أ ، النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٢٦ ، ابن خلدون : العبرة جـ ٥ ص ٣٤٥ ، أبو الفدا : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٢٨ راجع أيضا : Eracles. op. cit., p. 340.

L. F. Crusade, Letter to The Pope Honorus III, dated 10 th nov, 1219, cf. Rohricht, op. cit., p. 43.

(١) تبنين ، بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بلدة بانياس وتقع بين صور ودمشق ، ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ١ ص ٨٢ ، ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٨٢ ولى ستراتج : المرجع السابق ص ٣٤٨ .

(٢) صفد ، تقع هذه المدينة على جبال لبنان فى المنطقة المطلة على حمص . أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٤٢ حاشية (١) .

(٣) العينى : المصدر السابق جـ ١٧ لوحة ٣٧٩ - ٣٨٠ .

(٤) Crousset, op, cit., III, p 214.

(٥) القديس مرقس ، اسمه يوحنا ويلقب بمرقس وأصله من اليهود وهو أحد الانجيليين الأربعة . ولم يكن من تلاميذ السيد المسيح الاثنى عشر . وعلى يديه دخلت الديانة المسيحية إلى ديار مصر فى القرن الأول الميلادى . لجنة التاريخ القبطى : تاريخ الأمة القبطية : ص ٦١ وما بعدها . وقد ناله الأذى على أيدى حكام الرومان الوثنيين حتى قبضوا عليه فى يوم الفصح الموافق ٧ مايو سنة ٦٨ م ، ووضعوا فى عنقه حبلا وأخذوا يجرونه حتى المساء وعاودوا الكرة فى اليوم التالى ٨ مايو حتى أسلم الروح وقد بنى محل استشهاده الكنيسة المرقسية بالاسكندرية ودفن فيها . فرج جرجس : تاريخ الكنيسة القبطية ص ٦٧ .

(٦) كانت هذه الكنيسة قديمة حصينة البناء كثيرة الأعمدة ، وقد تحولت بعد ذلك إلى مسجد وكان =

فى مدينة الإسكندرية . وعندما قرر الكامل هدم هذه الكنيسة عرض عليه مبلغ ألفين من الدنانير للابقاء عليها ، ولكنه لم يوافق على ذلك لأنها تقع خارج أسوار المدينة وتطل على الميناء ويخشى من إستيلاء الصليبيين عليها فيزودونها بالآلات الحربية ويتخذون منها مركزا للاستيلاء على الاسكندرية فيتحرج مركزه بينها وبين دمياط . وتم تنفيذ الهدم خلال شهر ربيع ثانى ٦١٦ هـ (يوليو ١٢١٩)[1] .

وإذا كانت الخطط العسكرية الإسلامية قد تطلبت هدم الأماكن الهامة من الوجهة الحربية ، بصرف النظر عن مكانة بعضها من الناحية الدينية ، فان الأمر كان يتطلب أيضا إرسال النجدات إلى الملك الكامل لمقاومة الحصار الصليبى لمدينة دمياط . لذلك قام الملك المنصور صاحب حماه ٥٨٧ - ٦١٧ هـ (١١٩١ - ١٢٢٠ م) بتنصيب إبنه المظفر محمد وليا لعهده وأرسله على رأس العساكر ومعه الطواش مرشد المنصورى نجدة إلى مصر[2] . وكان المظفر يبلغ من العمر سبعة عشر سنة عندما أوفده فى هذه المهمة . وقد شجعه والده عند مغادرته حماه ، وأنشده من نظمه بعض أبيات الشعر لشد أزره وزيادة حماسته[3] . ولما قدم إلى مصر أكرمه الملك الكامل وأعظم قدره وأنزله على

= موقعها خارج أسوار مدينة الاسكندرية بقرب باب القبارى . سيد على الحريرى : الاخبار السنية فى الحروب الصليبية ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ، جرجس فيلوثاوس عوض : القبط ١٥٣ . ويرى البعض أن المسجد الذى تحولت اليه الكنيسة هو جامع الالف عامود . على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٧ ص ٤٣ . ويرى آخرون أن جامع الالف عامود شيد على أنقاض كنيسة القيصرون . أنظر : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٢١١ . وعلى أية حال ، فانه لا يوجد علاقة بين كنيسة القديس مرقس القديمة لوقوعها خارج اسوار مدينة الاسكندرية وبين جامع الالف عامود لوقوعه داخل أسوار المدينة . أنظر : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٤٩ .

(١) Hist. Patr. Alex., p. 252.

(٢) ابو الفدا : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٠ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٦٥ .

ميمنه وهى منزلة أبيه وجده عند صلاح الدين الأيوبى[1] . وهذا يدل على إهتمام الكامل بالنجدات التى كانت تفد إليه وهو فى محنته مع الصليبيين .

ويبدو أن الكامل قد تشجع بعد وصول هذه الإمدادات اليه فقرر مهاجمة المعسكر الصليبى فى يوم أحد الزعف[2] الموافق الثالث عشر من المحرم ٦١٦ هـ (٣١ مارس ١٢١٩ م) . فجمع الكامل عدداً كبيراً من خيرة القوات الإسلامية وهاجموا معسكر الصليبيين من كل جانب . وقد ترجل الفرسان المسلمون وإجتازوا الخندق المقام حول المعسكر الصليبى ، ولم يتمكن ليوبولد دوق استريا ومن معه من فرسان الداوية دفع المسلمين ، ودار بين الطرفين قتالا عنيفا إنتهى بسقوط عدد كبير من القتلى من كلا الجانبين ، وعاد المسلمون بعد أن أحرقوا بعض أجزاء الأبراج الخشبية الصليبية المقامة بمعسكرهم[3] ، وكانت هذه الغارة رغم عنفها من الهجمات غير الفعالة وعديمة الجدوى[4] . لذلك قرر الملك الكامل الهجوم مرة أخرى بعد قليل ، ففى يوم الأربعاء الموافق أخر أيام شهر المحرم (١٧ أبريل) قام المسلمون بهجمة أخرى وكانت نتائجها كنتائج سابقتها[5] . وربما يرجع فشل هاتين الغارتين إلى أن الصليبيين كانوا يحيطون معسكراتهم فى الضفة الشرقية والغربية للنيل بخنادق تمتد على ضفتى فرع دمياط ، وقد زودوا هذه الخنادق بالأبراج التى ملأوها بالمقاتلين . كما ربطوا بين المعسكرين بجسر من القوارب ، فأصبحت معسكراتهم فى غاية الحصانة فضلا عن سهولة الاتصال بالضفتين[6] .

لذلك رأى الكامل تخريب الجسر الذى يصل بين المعسكرين لشطرهما إلى

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٠١ .

(٢) أحد السعف أو أحد الزعف ، Palm - Sunday ، أول يوم فى الاسبوع المقدس وهو الأحد السابق لعيد القيامة Ency, Brit, Vol, 17, p, 191 .

(٣) Oliver Scolastiqus, Lbid.

(٤) Hist. Part. Alex.,p 251, Roger of Wendover, op. cit., 11, p, 417.

(٥) Setton op, cit 11, p, 411.

(٦) Hist. Part. Alex.,p. 251.

قسمين فيسهل عليه مهاجمة أحدهما دون مساعدة الجانب الآخر . وبدأ باستمالة تسعة من العساكر الصليبية بعد أن وعدهم بالمال ، ولكن المندوب البابوى أكتشف هذه الحيلة وتمكن ثمانية منهم من الفرار إلى معسكر المسلمين بينما استطاع الأخير من تخريب بعض أجزاء الجسر وتمكن الصليبيون أخيراً من القبض عليه[1] . كما قبضوا أيضاً على صليبى آخر – يعتقد أنه إنجليزى كان قد فر إلى المعسكر الإسلامى وأعتنق الديانة الإسلامية – لتعامله مع المسلمين[2] . وقد ربط الأثنان فى ذيول الخيول وسحلا داخل المعسكر الصليبى عقابا لهما . وعلى ضوء هذه الحادثة بدأ الصليبيون فى تشديد الحراسة على هذا الجسر[3] .

وعلى أية حال ، فقد انقضى ما يقرب من أحد عشر شهراً على تواجد الصليبيين عند دمياط دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها . ويبدو أن بعض الصليبيين قد ملوا من طول هذه المدة فعادوا إلى بلادهم[4] . كما عاد أيضا بعض الذين أعتقدوا أنهم قد وفوا بعهودهم بالاشتراك فى الحملة ، وكان على رأس العائدين ليوبولد دوق استريا ، ففى أول مايو من عام ١٢١٩ م (١٤ صفر ٦١٦ هـ) أبحر إلى بلاده[5] . ويرجع ذلك لعدة أسباب ، منها أنه أعتقد أن الجيش الصليبى أصبح فى حالة طيبة وأن لا داعى لوجوده خاصة وأنه متغيب عن بلاده منذ قدومه مع الحملة الهنغارية ، أى ما يقرب من عشرين شهراً . وسبب آخر هو أنه أنفق مبالغ كثيرة فى هذه الفترة مما أدى إلى نفاذ أمواله ، وأن بقاءه مع الجيش الصليبى سيحمله نفقات إضافية لا قبل له بها ولا داعى لها . ونظرا لاحتياجه لبعض المال عند عودته إلى بلاده اقترض ألف دينار[6] . ومما لا تجدر الاشارة اليه أن ليوبولد كان من أعظم النبلاء نشاطا وعلى جانب

---

(١) Setton, op. cit., II, p. 416

(٢) Archer & Kingsford, op. cit., p 377.

(٣) Setton, Ibid

(٤) Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge im Umriss, p. 202

(٥) Oliver Scolastiqus, Ibid.

(٦) Eracles, op, cit., p. 332.

كبير من الولاء والطاعة والكرم ولم يوجه اليه اللوم على عودته إلى بلاده بعد هذه الفترة . والمهم أن سلوك ليوبولد مع قيادة الحملة الصليبية الخامسة وأعمال المروءة والشجاعة التى أتصف بها فى هذه الفترة ، قد محت الآثار السيئة التى لحقت به بسبب صراعه مع الملك ريتشارد قلب الاسد فى الحملة الصليبية الثالثة[1] . هذا ، ومن الطبيعى أن يحاول المندوب البابوى منع رحيل هذه القوات ، فاستعمل كل سلطاته للحيلولة دون ذلك ، أو على الأقل لتأجيل رحيل العائدين ، ولكن جهوده لم تفلح فى تخويف أو إقناع الصليبيين . ويبدو أن الصليبيين الذين عادوا إلى بلادهم كانوا من الكثرة لدرجة أن القادة الصليبيين المرابطين عند دمياط قد خافوا على مصير الحملة ، واشتكوا إلى البابا هونوريوس الثالث من قلة عدد القوات الموجودة فى مصر ، وطلبوا منه تدبير العساكر اللازمة بالطريقة التى يراها،ولذلك وصلت بعد رحيل هذه القوات إمدادات صليبية جديدة ، بأعداد كبيرة فى السادس عشر من مايو ١٢١٩ م (٢٩ صفر ٦١٦ هـ)[2] . ومن الطبيعى أن تجدد هذه القوات النشاط فى صفوف القوات الصليبية .

ويبدو أن الملك الكامل قد أحس بقدوم هذه القوات ، فرأى سرعة الهجوم على المعسكر الصليبى قبل أن تنتظم هذه الإمدادات وتبادر بالهجوم على القوات الإسلامية ، لذلك قام المسلمون بالإغارة على الصليبيين فور وصول الإمدادات ودامت الإشتباكات فى البر والبحر ، ولكنها لم تأت بالنتائج التى أرادها الملك الكامل . لذلك عاود الهجوم مرة بعد أخرى على القوات الصليبية وكان مصيرها كمصير الهجمات السابقة[3] . وتوضح هذه الغارات الإسلامية المتكررة الفاشلة أن القوات الإسلامية لم تكن كافية لهزيمة ما أمامها من القوات

---

(١) Runciman, A History of the Crudades, III, p. 159.

ومن الحوادث التى وقعت بين ريتشارد وليوبولد أنظر :

Devizes & Vinsanf, op. cit., p. 24.

(٢) Oliver Scolastiqus, Ibid.

(٣) Oliver of Padendorn, op. cit., p. 39.

الصليبية .

وازاء الهجمات الإسلامية المتكررة فكر القادة الصليبيون فى مهاجمة القوات الإسلامية . واستعدوا بكافة معداتهم وآلات حصارهم ، وحاولوا إقامة سراديب أو أنفاق من تحت أسوار المدينة ، ولكنهم أيقنوا أن فكرة الانفاق غير عملية لأن الخندقين اللذين يحيطين بالمدينة كانا مليئان بالمياه . وإنه لكى يتمكن الصليبيون من دخول المدينة فعليهم أن يحتلوا أسوارها . ولما كانت المدينة محاطة بثمانية وعشرين برجا كبيرا غير الأبراج الصغيرة ، وكلها فى غاية المنعة والحصانة[1] ، فأصبح ذلك العمل صعب التنفيذ فى ذاك الوقت على الأقل ، خاصة وأن الصليبيين كانوا يخشون من هجوم خلفي من القوات الإسلامية إذا ما قاموا هم بالهجوم على المدينة . وفكر الصليبيون بعد ذلك فى مهاجمة المدينة والمعسكر الإسلامى فى وقت واحد . ولكن المندوب البابوى لم يوافق على هذا الرأى ، وانتهى أمر هذه الفكرة التى ظهرت فى السادس والعشرين من مايو ١٢١٩ م (١٠ ربيع أول) ، وهكذا لم يتم الهجوم لا على المدينة ولا على المعسكر الإسلامى[2] .

وبعد أن أدرك الفرنج عدم إمكان تنفيذ الهجوم على دمياط برا ، عكفوا لبعض الوقت وهم يستعدون لهجوم بحرى على المدينة . فشيدوا المرمات العظيمة وزودوها بالأبراج[3] ، واستعدوا بكافة الآلات الحربية الأخرى . وقاد بلاجيوس هذه السفن وقام بالهجوم على المدينة فى الثامن من يوليو ١٢١٩ م (٢٣ ربيع ثان ٦١٦ هـ) . وصاحب هذه الهجمة قارعوا الطبول ونافخوا المزامير لتشجيع الصليبيين ، ولكن الحامية الإسلامية المرابطة فى دمياط الهبت المهاجمين بالنار الإغريقية وحطمت السلالم المثبتة على المرمات والأبراج[4] ،

(١) Vitry, op, cit., pp. 128, 181.
(٢) Setten, op cit., II, p. 412.
(٣) Hist. Patr. Alex., p. 252.
(٤) Donovan, op. cit., p. 58.

وفى الوقت نفسه أعطت حامية دمياط الإشارة إلى القوات الإسلامية المرابطة جنوب المعسكر الصليبى ، فقامت بالهجوم على الصليبيين من الخلف فاضطر الصليبيون للتراجع وبذلك فشلت هذه الهجمة الصليبية على دمياط[1] . وبعد فشل هذه المحاولة عاود الصليبيون مهاجمة المدينة مرة أخرى لمدة يومين على التوالى . وفى تلك الأثناء تمكن ثمانية من المسلمين من التسلل إلى المعسكر الصليبى وقتل سبعة من الأعداء . وقد أثر ذلك على الروح المعنوية للقوات الصليبية ، كذلك قام الصليبيون بالإغارة مرة أخرى على دمياط فى الثالث عشر من يوليو (٢٨ ربيع ثان ٦١٦ هـ) ، ولكنهم إرتدوا على أعقابهم خاسرين بفعل النار الإغريقية . ويبدو أن المسلمين قد استغلوا إنشغال الصليبيين بالهجوم على المدينة ، فقامت قواتهم بالهجوم على الجسر الذى يصل بين المعسكرين وكانوا على وشك تدميره لولا وصول بعض القوات الصليبية التى تمكنت من إنقاذ الجسر فى اللحظات الأخيرة[2] ويبدو أنه طوال المدة من التاسع عشر من ربيع الثانى حتى التاسع والعشرين منه (٤ - ١٤ يوليو) لم تنقطع الهجمات الصليبية سواء فى البر أو البحر . كما أن المسلمين ظلوا هم أيضا يهاجمونهم ليلا ونهاراً بدون إنقطاع . ولما لم تأت هجمات الفرنج بأية نتيجة إنسحبوا بسفنهم وآلاتهم من أمام دمياط كما عاد المسلمون إلى معسكراتهم[3] .

ومن الواضح أن الملك الكامل كان ملتزما بسياسة الدفاع طوال الهجمات الأخيرة . تمشيا مع سياسته التى إختطتها لنفسه وسار عليها ، ولكنه أدرك أنه يجب عليه القيام بالهجوم على الصليبيين حفاظا على مكانته بين المسلمين بعامة والصليبيين بخاصة . لذلك قام فى السابع عشر من شهر جمادى الأولى ٦١٦ هـ (٣١ يوليو ١٢١٩ م) بالهجوم على معسكر الصليبيين وعلى معسكر الفرسان الداوية بالذات . وتمكن المسلمون من التوغل داخل صفوف الأعداء[4] ،

(١) Setton op. cit., II, p. 431.

(٢) Setton, Ibid.

(٣) Hist. Patr. Alex., P. 252.

(٤) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 417.

ولكن وليم أف شارتر William of Chartres (وليم بواسيه) Puiset رئيس الداوية تمكن بمساعدة فرسانه من جمع شمل جنوده والتصدى للمسلمين . ولقد كان الهجوم الإسلامى من العنف لدرجة كادت تهلك فيه القوات الصليبية التى تصدت للمسلمين ، ولم ينقذ معسكر الداوية من هذا الهلاك سوى حلول الظلام ومساعدة إخوانهم من الفرسان التيوتون وبعض الفرسان الآخرين[1] .

ورد الصليبيون على هذه الغارة بعد قليل بعدد من الغارات المتتالية على دمياط لبعض الوقت من أغسطس . ويروى أوليفر أن المعدات الصليبية المعدة لضرب المدينة قد أصابتها بعض الأعطال أو أحرق بعضها ، لذلك رأى البيازنة والجنيوية والبنادقة مهاجمة المدينة عن طريق النيل بواسطة أربع سفن مزودة بالسلالم ، وقد وافق المندوب البابوى بلاجيوس على هذه الفكرة وأمدهم بكافة الوسائل اللازمة للهجوم المرتقب ، كما أمدهم الملك جان دى برين أيضا بكميات وافرة من الحبال والأدوات التى يحتجونها فى عملياتهم القادمة . وبعد أن استعدت السفن بكافة السبل بدأ الهجوم على المدينة . ونجح الصليبيون فى اليوم الأول من قتل وجرح عدد من سكان المدينة ، لكن أهل دمياط دافعوا عنها ببسالة ونجحوا فى إشعال النار فى السلالم المثبتة على السفن ، وحاول الصليبيون إصلاحها عدة مرات ولكنهم فشلوا واضطروا للانسحاب[2] . وعلى ما يبدو أن القوات الإسلامية لم تقف مكتوفة الأيدى أثناء هذه العمليات فقد هاجمت المعسكر الصليبى المرة تلو الأخرى ونجحت فى أسر وقتل عدد من الصليبيين ، والمهم أنه بعد هذه المحاولات المتعددة من جانب القوات الصليبية والتى استمرت حتى الثامن عشر من أغسطس (٤ جمادى الثانى) فشل الصليبيون فى النيل من المدينة كما قتل منهم العديد وكان على رأس القتلى ميلو الثالث كونت بارسورسين Milo III Count of Bar-Sur- Seine وولديه والتر Walter ووليم والأخير هو وليم بواسيه رئيس فرسان الداوية[3] .

---

(١) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 40.

(٢) Oliver of Pabenborn, op. cit., pp. 40-1.

(٣) Oliver of Pabenborn, op. cit., p. 30 n 15-17

وعلى أية حال ، فان فشل القيادة الصليبية فى الاستيلاء على دمياط بعد خمسة عشر شهرا من المعارك قد أدى إلى تذمر القوات الصليبية . وأدى ذلك إلى إنهيار الروح المعنوية بين الفرنج وأصبحوا على وشك الانفجار[1] ، واتهموا الامراء والفرسان بالخيانة والجبن وطالبوا بالهجوم على المعسكر الإسلامى فى فارسكور ، وكان الأمر يتطلب تهدئة الجيش الصليبى بالقيام بأى عمل عسكرى . وهنا دب الخلاف بين المندوب البابوى والملك جان دى برين على الخطة العسكرية التى يهاجموا بها المسلمين . فكان الملك يرى تشديد الحصار على دمياط فى الوقت الذى يطالب فيه بلاجيوس بالهجوم على المعسكر الإسلامى فى فارسكور وساند رجال الدين وبعض الفرسان المندوب البابوى ، وفى الوقت نفسه عارض هذه الفكرة بعض الصليبيين ورأوا الانتظار فى مواقعهم فى الوقت الذى يقوم فيه البعض بالهجوم على المدينة ، فاذا ما أتت القوات الإسلامية كعادتها لمهاجمتهم تمكنوا من ضربها من مواقعهم . وقد إنتصرت إرادة الذين نادوا بالهجوم على المعسكر واتهموا من نادوا بغير ذلك بالجبن والخيانة . وازاء هذا الإتهام وافق المعارضون على الهجوم على القوات الإسلامية[2] . وعلى ذلك قرر بلاجيوس الهجوم على معسكر الملك الكامل فى فارسكور[3] ، وتحدد يوم الهجوم فى التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٢١٩ م (١٦ جمادى الثانى ٦١٦ هـ) . وفى هذا اليوم خرجت القوات الصليبية عدا المكلفين بالحراسة[4] . وتقدم الصليبيون تجاه المعسكر الإسلامى ، وعند رأى المسلمون ذلك تظاهروا بالإنسحاب تاركين معسكرهم على حاله يحميه قلة من العساكر ، وعندما وصل الصليبيون إلى معسكر الملك الكامل وجدوه خاليا تقريبا من العساكر[5] .

---

(١) Roger of Wendover, op cit., II, p 418.

(٢) Eracles, op. cit., p. 340.

(٣) Rohricht, Geschichte dea Kreuzzuge im Umriss p. 203.

(٤) Eracles, Ibid.

(٥) العينى : المصدر السابق جـ ١٧ لوحة ٢٧٩ . أنظر أيضا :
Olivei Scolastiqus, Lettre a Angelbert, p. 1189.

وعند ذلك تشاور الصليبيون فى خطة العمل المقبلة ، فأشار الملك جان دى برين بالمبيت فى المعسكر الإسلامى والعودة إلى معسكراتهم فى الصباح ، ووافقت الأغلبية على هذا الرأى وبدأو فى إعداد عدتهم للمبيت[(1)]. وعند هذه المرحلة استدار المسلمون وقاموا بهجوم مضاد على القوات الصليبية التى أصيبت بذعر شديد من جراء المفاجأة ، وأبدى الذين كانوا متحمسين للهجوم رغبتهم الشديدة فى الانسحاب السريع إلى مواقعهم ، وبدأ الصليبيون فى تراجع غير منتظم واختلت صفوفهم[(2)]، وحاول الملك جان دى برين حماية المنسحبين فثبت ومعه والترأف برثوت Walter of Beathout وكونتات ويد Wied وهولندا وساربوركون وفرسان من الداوية والاسبتارية والتيوتون بالاضافة إلى بعض الفرنسيين والبيازنة وبعض الفرسان الآخرين لمقاومة الهجوم الإسلامى ، ولكن القوات الإسلامية حملوا عليه وعلى القوات الصليبية التى قاومتهم حملة قاسية أجبرت الملك الصليبى ومن معه على الانسحاب بعد أن كادت النار الاغريقية تقضى على الملك نفسه[(3)] . وأسفرت هذه الموقعة عن قتل وأسر عدد كبير من الصليبيين .

ويذكر تاريخ هرقل أن عدد القتلى بلغ أربعة الاف من العساكر الصليبية وثلاثمائة من الفرسان[(4)]، بينما يذكر جاك دى فترى أن عدد القتلى والأسرى بلغ ألفا من العساكر الصليبية من بينهم مائة فارس ، وقد مات بعضهم بحد السيف كما مات آخرون بفعل شدة العطش وحرارة الجو . أما الفرسان الذين وقعوا فى الأسر فكان ذلك بسبب الجروح التى أصابة خيولهم وأعجزتها عن المسير[(5)] .

---

(١) Eracles, op. cit., p. 340.

(٢) Hist. Patr. Alex., p. 252.

(٣) Oliver of padenborn, op. cit., p. 42

(٤) Eracles, op. cit., p. 341.

(٥) Vitry, op. cit., p. 129

أما تاريخ بطاقة الاسكندرية فيروى أن عدد القتلى بلغ الفا من الجنود وأربعمائة من الفرسان[1] ، وهى معلومة تقترب إلى حد كبير مما ذكره تاريخ هرقل . هذا وقد سجل أوليفر أن خمسمائه رجل من قتلى الصليبيين أرسلوا إلى السلطان[2] .

والواضح أن خسارة الصليبيين فى هذه المعركة كانت فادحة خاصة وأنه كان من بين الأسرى عدد من كبار الشخصيات والفرسان الصليبية ، كما قتل وأسر فى هذه المعركة عدد كبير من فرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون منهم ثلاثة وثلاثون من فرسان الداوية هذا فضلا عن أيماردى لايرون Aymar de Layron أحد مارشالات الاسبتارية[3] ، ويبدو أنه قتل فى هذه المعركة لعدم ورود ذكره بعد ذلك فى المصادر التى بين أيدينا ، كما غنم المسلمون غنائم كثيرة بعد المعركة[4] .

وإنتهت هذه المعركة الرهيبة بعودة المسلمين إلى معسكرهم منتصرين حيث أقاموا فى مساء اليوم نفسه حفلا كبيراً على دقات الطبول وأنغام المزامير والآلات الأخرى[5] كما أرسلوا الحمام الزاجل يحمل بشائر هذا النصر إلى القاهرة التى زينت بالأعلام ، وتم نقل الأسرى إلى القاهرة حيث تم الطواف بهم بطول المدينة وعرضها[6] .

ومما تجدر الإشارة اليه أن هذه الهزيمة قد أفقدت بعض الصليبيين صوابهم وخرجوا من المعسكر وهم يفكرون فى العودة إلى أوطانهم وبالفعل إنسحب عدد من الصليبيين وعادوا إلى بلادهم وتركوا الجيش الصليبى فى حالة يرثى لها.

---

(١) Hist. Patr. Alex., Ibid

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 43.

(٣) Oliver of Padenborn, op. cit., pp, 42-3

(٤) Eracles op. cit., p. 341.

(٥) Roger of Wendover, op. cit., II. p.459 Eracles Ibid.

(٦) Hist. patr, Alex.,pp. 252-3

وقد سبب إنسحابهم مزيدا من الأسى للصليبيين ، كما أنه من جهة أخرى عمل على تحسن الموقف العسكرى بالنسبة للمسلمين[1] ، أما الذين بقوا فى المعسكر فقد تذرعوا برباط الجأش بقدر ما استطاعوا[2] . وعلى أية حال فان السبب الرئيسى فى هزيمة الصليبيين فى هذه المعركة بالذات كان إزدواج القيادة الصليبية والصراع بين الملك الصليبى والمندوب البابوى ، هذا بالاضافة إلى تخاذل الفرسان الصليبيين خاصة الفرسان القبارصة ، وشدة حرارة الجو التى زادها الصليبيون باحتساء الخمر دون خلطة بالماء فضلا عن قتال الصليبيين فى أرض يجهلونها[3] . ولكن جاك دى فترى يرجع أسباب الهزيمة إلى غضب الله على الصليبيين ، وأنه أى الله أراد أن يذل كبرياء وغرور الصليبيين بهذه المحنة التى أنزلها بهم[4] .

وفى اليوم الثالث بعد هذه المعركة التاسع عشر من جمادى الثانى (أول سبتمبر) جدد الملك الكامل عرضه بالصلح على الصليبيين وهو الخاص بالجلاء عن مصر . وإن كان الكامل قد تقدم بهذا العرض من قبل وهو مركز الضعيف بعد مؤامرة إبن المشطوب وعبور القوات الصليبية إلى الضفة الشرقية ، فانه يتقدم بعرضه الآن وهو فى مركز القوة بعد هذا الانتصار الأخير ، فأرسل الكامل الرسولين اللذين سبق أن أرسلهما من قبل لعرض صلح فبراير ١٢١٩ م ، كما أرسل معهما إثنين من كبار أسرى الصليبيين فى الموقعة السابقة وهما أندرو أف نانتيول Andrew of Nanteuil وجان دارسيس[5] . وكان الكامل يعتقد أن الهزيمة الأخيرة التى لحقت بالصليبيين سوف تجعلهم يغيرون من

---

(١) Roger op Wendover, op. cit., II, p. 420

(٢) Eracles, Ibid

(٣) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 42.

(٤) Vitry op. cit., p. 103.

(٥) Eracles. op. cit., p. 341

وقد أورد أوليفر عبارة موجزة عن عرض الكامل للصلح . أنظر :

Oliver of Padenborn, op. cit., p. 43.

موقفهم المتشدد ويصبحوا أكثر ليونة من موقفهم فى فبراير[١] . وقد أبلغ الرسولان الملك الصليبى والمندوب البابوى بأن الله قد أكرم الملك الكامل وعساكره بالنصر ، ورغم ذلك فانه لا يتفاخر ولا يتباهى لأن العظمة لا تؤدى إلى الخير . وأنه يعرض عليكما الصلح بالشروط التى سبق أن عرضها فى فبراير الماضى[٢] .

ويبدو أن الغرور قد ملأ عقول الصليبيين واعتبروا أن الهزيمة أو النصر من سنة الحروب . وكانوا يرون أنهم إذا رفضوا عرض الملك الكامل وهو عودة ما كان بايديهم سلما فان فى استطاعتهم الإستيلاء على هذه الأراضى عسكريا . وطلبوا من الرسولين العودة من حيث أتيا . ولكن الرسولين نصحا الملك والمندوب البابوى بقبول العرض الكاملى والا يغترا بأنفسهما وأشارا بأن الملك سيكرر عرضه مرة أخرى إذا رفض هذه المرة أيضا . وفعلا عاود الملك الكامل عرض الصلح للمرة الثالثة . وفى هذه المرة قدم للصليبيين كل الأراضى التى فتحها صلاح الدين عدا الكرك والشوبك . ووافق أن يقدم مقابل هاتين القلعتين خمسة عشر الف دينار وأبدى إستعداده لدفع تكاليف اعادة تحصين مدينة بيت المقدس وباق القلاع التى خربها أخوة المعظم بالشام ، وأن يترك إحتساب تكاليف إعادة التحصين إلى لجنة رباعية تتألف من إثنين من المسلمين وإثنين من الصليبيين، وإقترح أن تعقد هدنة مدتها ثلاثون سنة وذلك مقابل الجلاء عن دمياط . وضمانا لتنفيذ ذلك تعهد الملك الكامل بتقديم عشرين رهينة من أقاربه ليحتفظ بها الصليبيون مدة سنتين يتم خلالها تحصين القلاع التى خربت[٣] . وتضيف بعض الوثائق الصليبية المعاصرة أنه عرض عليهم أيضا صليب الصلبوت الذى استعاده صلاح الدين عقب استرداد مدينة بيت المقدس مع إعادة كل الأسرى الفرنج الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة فى

---

(١) Grousset. op. cit., III p. 226

(٢) Eracles, Ibid.

(٣) Hist. Patr. Alex., P. 253. cf. also, Eracles, op. cit., PP. 341-3.

مصر والشام[١] . وجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية لم تشر بكلمة واحدة إلى هذا العرض الذى تقدم به الكامل إلى الفرنج ، وأن معلوماتنا عنه مستقاه من الأصول الغربية ولا نجد تفسيرا معقولا لذلك .

ولا شك أن الملك الكامل كان متساهلا إلى أبعد حد عندما قدم هذا العرض إلى الصليبيين . وعلى أية حال ، فانه على ضوء ما تجدد فى العرض الكامل السخى عقد الزعماء الصليبيون مجلسا للتشاور دار فيه نقاش طويل حول هذا العرض . ولم يختلف موقف الفرنج منه عن موقف عرض فبراير . فقد وافق عليه الملك الصليبى وبارونات بيت المقدس وإنضم اليهم الفرنسيون والفرسان التيوتون وبعض كبار رجال الدين ، ولم يوافق عليه كعادته المندوب البابوى بلاجيوس[٢] ، وسانده فرسان الداوية والاسبتارية اللذين كانوا يملكون قلعتى الكرك والشوبك من قبل ، واعتبروا أن الانسحاب من أمام دمياط يعتبر عارا على كل فارس ، فضلا عن عدم ثقتهم فى المسلمين . وكانوا يرون أن الطريق الوحيد لإعادة ممتلكاتهم السابقة فى كل انحاء الشام هو طريق القوة وأنه بالصبر سوف تسقط دمياط وسوف تسقط مصر كلها بل وكل الأراضى المقدسة[٣] . كما انضم إلى جانب الرافضين معظم الإيطاليين ، وانتهى الأمر بتغلب الرأى المطالب بالرفض على الرأى المنادى بالقبول[٤] ، ويرجع رفض الصليبيين لهذا العرض إلى نفس الأسباب السابقة المتعلقة بعرض فبراير بالإضافة إلى إحساسهم بما تقاسيه مدينة دمياط من وطأة الحصار وتوقعهم وصول إمدادات صليبية من الغرب[٥] ، والامبراطور فريدريك الثانى فى القريب العاجل .

(١) Vitry, op. cit., p. 125, L.F. Grasade. Lettre to the Pope. Honorus III, dated 11 th nov. 1219, p. 47. cf also : Fabri, op. cit., Vol. 2. Part I, p. 357.

(٢) Campbell, op. cit., p. 386

(٣) Eraeles, Ibid.

(٤) Setton, op. cit., II, p. 415. cf, also: Duggan. op. cit., p. 216.

(٥)

وأننا لا نجد تبريراً معقولاً لرفض الصليبيين للعرض المغرى الذى تقدم به الملك ، كما لا نجد تفسيراً منطقيا لهذه التنازلات السخية التى تقدم بها الكامل إلى الفرنج ، اللهم إلا إذا كانت تلك خدعة سياسية يستهدف من ورائها إتاحة الفرصة للمعسكر الإسلامى لتجميع قواته واستعادة قواه توطئة لتوجيه الضربة القاصمة إلى العدو .

وعلى أية حال ، فقد شاهد معركة الثامن والعشرين من أغسطس (١٥ جمادى الثانى ٦١٦ هـ) ، فى أسى بالغ القديس فرانسيس الأسيسى[١] Francis of Assisi . وربما يكون قد لحق بالمعسكر الصليبى قبل هذه المعركة بقليل[٢] . ولابد أن يكون قد علم بعرض الكامل السابق والحالى ويحتمل أن يكون قد إشترك فى مناقشة العرض الأخير . وقد لاحظ انقسام الزعامة الصليبية حول عرض المسلمين للصلح . وكان هو شخصيا من أنصار قبول الصلح حقنا للدماء ، ولكن نصائحه لم تلق قبولا أمام تعنت المندوب البابوى ومؤيديه[٣] .

لذلك رأى القديس فرنسيس أن يقوم بعمل فردى من جانبه لتحقيق حلم الصليبيين بوسيلة أخرى وهى محاولة إدخال الكامل وهو الملك المسلم فى المذهب الكاثوليكى . فاستأذن من بلاجيوس للذهاب إلى الملك الكامل فى معسكره ولكن بلاجيوس رفض فى أول الأمر ثم عاد ووافق على طلبه وسمح له وأحد رفاقه يدعى اليوميناتو Ulluminato بالذهاب إلى الملك الكامل[٤] ،

---

(١) Runciman, op. cit., III, p. 159.

وفرانسيس الأسيسى هو جيوفانى فرانسسكو برناردو Giovanni Francesco Bernardo ولد فى أسيس بايطاليا عام ١١٨١ أو ١١٨٢ م ومات عام ١٢٢٦ م ، وهو مؤسس جماعة الاخوان الفرنشسكان . عن ذلك انظر :

Ency. Brit. Vol, 9, pp. 780-1

(٢) Setton, op. cit., II, p. 415.

(٣) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٠ – ٥١ .

(٤) Ency, Brit, Vol, 9, p. 781, cf. also: Setton, op. cit., II. p. 415, Chesteron, G. K., Saint Francois, pp. 174-5.

وأرسلهما إلى أطراف معسكر المسلمين فى فارسكور تحت علم الهدنة[١] . فقابله الحراس المسلمون ولم يفهموا من كلامه غير كلمة « صلدان » ، أى أنه يريد السلطان أى الملك الكامل ، فأصطحبوه ورفيقه إليه . وأخيرا وجد نفسه أمام الملك الكامل تحيط به حاشية من قادته وتراجمته ، وربما يكون أولئك التراجمة ممن اشتراهم الكامل من أفراد حملتى الصبيان . وعلى أية حال ، فقد استأذن القديس فرانسيس فى الحديث فسمح له بالكلام . وبدأ القديس بوعظ الملك الكامل واصفا له الديانة المسيحية ودعاه للدخول فيها . وقد استمع له الملك فى دماثة المتمكن من عقديته المحترم لعقيدة غيره[٢] .

ولم يجادل الكامل القديس فرانسيس ، ولم يسمح لأحد من علمائه بمناقشته بل استمع اليه فقط فى صبر وأناه ، وبالغ فى إكرامه . ولم يسع القديس إلا الأمعان فى إطراء الكامل وأوصاه بحسن معاملة الأسرى الصليبيين وأخيرا عاد إلى المعسكر الصليبى ليخبرهم بما حدث ويكرر عليهم مزايا عرض المسلمين بالجلاء عن دمياط ولكنه وجد النية معقودة على مواصلة الحرب وهو عكس ما أراد أن يسهم به فى خدمة المسيحية الغربية . وأخيرا إقتنع بأن لا فائدة ترجى من بقائه بمصر ، فاتجه إلى الشام بإذن من الملك الكامل[٣] . ويذكر تاريخ هرقل أن عودة القديس فرانسيس ترجع إلى عدم رضائه عن الخطايا وأعمال السوء التى إنتشرت فى صفوف الجيش الصليبى[٤] . والمهم أن القديس فرانسيس

---

(١) Runciman, op. cit., III. pp. 159-160.

(٢) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٠ – ٥١ . ويلاحظ أن فكرة ادخال المسلمين فى الديانة المسيحية كانت من أفكار أوليفر . ولكنه لم يجرؤ على القيام بما قام به فرانسيس واكتفى أوليفر بالكتابة إلى الملك الكامل عن هذه الفكرة . أنظر : Conder, op, cit., p 310. كما نفذها جاك دى فترى بدليل أنه قام بتعميد كل الاطفال الذين وقعوا أسرى فى أيدى الصليبين أيام حصار الحملة المتغارية لحصن الطور أنظر ماسبق ص ١٧٣ ، وبعد سقوط مدينة دمياط . أنظر فى ذلك Vitry, op. cit., p. 310 . وبدأت هذه الفكرة تنتشر منذ حوالى ذلك الوقت وارتبطت بالفكرة الصليبية ارتباطا وثيقا .

(٣) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥١ .

(٤) Eracles, op. cit., p. 348.

فشل فى إقناع الملك الكامل باعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكى الغربى . كما فشل أيضا فى إقناع القادة الصليبيين بقبول عرض الصلح الإسلامى .

وعلى أية حال فانه لم يكن من الحكمة أن يرفض الصليبيون مثل هذا العرض السخى مرة بعد أخرى ، لأن هذا العرض يعيد اليهم مملكة بيت المقدس سلما وبدون إراقة للدماء ، وهو الهدف الذى سيروا اليه الحملة الصليبية الثالثة ومات من أجله مئات الصليبيين . فضلا عن الأموال الطائلة التى أنفقت فى سبيل تحقيق هذه الغاية التى لم تتم . كما أنهم قضوا بمصر ما يزيد عن سبعة عشر شهرا من أجل الاستيلاء على دمياط ولم تسقط المدينة فى قبضتهم ، وصمدت طوال هذه المدة . وربما يطول الحصار أكثر من ذلك وهو ما حدث بالفعل فى الوقت الذى يتناقص فيه عدد الصليبيين يوما بعد يوم . وحتى لو استولوا على دمياط فان استبدالها ببيت المقدس أفضل بكثير من الاحتفاظ بها بالنسبة للصليبيين عامة وللحركة الصليبية خاصة ، فضلا عن حقن الدماء ، ولذلك فان الملك جان دى برين كان على حق فى المناداة بقبول العرض الإسلامى . والواقع أن رفض هذا العرض مرجعه أن هدف الحملة الصليبية الخامسة كان إخضاع مصر كلها وليس دمياط فقط ، فتخضع بالتالى الأراضى المقدسة كلها للصليبيين . أما سيطرتهم على الأراضى المقدسة دون مصر ، فانه سيجعل من الممكن استعادة الشام مرة أخرى مثلما حدث فى عهد صلاح الدين . ومن هنا نجد أن المندوب البابوى كان يرى استمرار أعمال الحملة العسكرية فى مصر لاخضاعها بأكملها وليس دمياط فقط ، فيكتسب من الشهرة ما فشل فى الحصول عليه الملك ريتشارد قلب الأسد والملك فيليب أوغسطس وغيرهما من ملوك الغرب وأباطرته[1] .

وكيفما كان الأمر ، فقد كانت فترة مناقشة عرض السلام فرصة لكلا الطرفين الإسلامى والصليبى ليقوم كل منها باعادة تنظيم قواته وتحصين مواقعة ، كما وجدها بعض الصليبيين فرصة للعودة إلى أوطانهم[2] ، فقد رحل البعض فى

(١) Michaud, op. cit., II, p. 247.

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 43-4

أوائل سبتمبر سنة ١٢١٩ م (منتصف جمادى الثانى سنة ٦١٦ هـ) كما رحل البعض فى الرابع عشر من نفس الشهر (٣ رجب ٦١٦ هـ) . وقد حملت الدفعة الأخيرة حوالى اثنتا عشرة سفينة من سفن البضائع محملة بأكثر من حمولتها[١] . وهذا يدل على ضخامة الأعداد التى غادرت المعسكر فى هذا الوقت ، والحالة المعنوية التى سيطرت على القوات الصليبية فى هذه الفترة كما يدل على فتور الروح الصليبية لدى الفرنج[٢] . كما زادت فى هذه الفترة أيضا حدة الخلاف بين الملك الصليبى والمندوب البابوى ، خاصة وأن الأخير كان يرى أن من حقه التصرف فى كافة الأمور التى تتعلق بالحملة متجاهلا بذلك سلطة الملك الذى يعتبر القائد العسكرى الاعلى للقوات الصليبية[٣] . وقد بلغت ذروة الخلاف بينهما فى موقفهما من عرض المسلمين بالصلح عندما وقف كل منهما موقفا مضادا من الآخر . وكان لهذا الشقاق أبلغ الأثر على فشل الحملة الصليبية بأكملها[٤] .

يضاف إلى كل ما تقدم أنه كان من أسباب رفض الصلح مع المسلمين هو توقع الصليبيين وصول بعض الامدادات العسكرية اليهم عند دمياط وقد صح ما توقعه بعض القادة الصليبيين ، إذ وصلت بعض القوات الفرنسية والانجليزية[٥] ، وكانت محملة على ما يقرب من عشرة سفن جنيوية[٦] . إتخذت خط سيرها إلى مصر عن طريق جبل طارق[٧] ، ومما لا شك فيه أن هذه القوات قد عوضت النقص الذى نتج عن عودة بعض الصليبيين إلى أوربا بعد معركة أغسطس . كما كانت من العوامل التى ساعدت على رفع الروح المعنوية

---

(١) Runciman, op. cit., III, p. 160.

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 44.

(٣) Eracles, op. cit., pp. 313-4.

(٤) King, op. cit., p. 192.

(٥) Eracles, op. cit., p. 343.

(٦) Runciman, op. cit., III, p. 161. cf. also. Duggan, op. cit., p. 216.

(٧) Eracles, Ibid

للقوات الصليبية وتشجيعها على مواصلة وتشديد الحصار حول دمياط[١].

وعلى عادة الملك الكامل فى الهجوم على الصليبيين عقب وصول أية إمدادات اليهم ، فقد قام بالإغارة على المعسكر الصليبى من البر والبحر[٢]. ولكن القادمين الجدد تمكنوا من الدفاع على المعسكر بنجاح[٣]. ويذكر أوليفر أن هذه الغارة استمرت فى الفترة الواقعة من السادس والعشرين إلى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٢١٩ م (١٥ - ١٧ رجب ٦١٦ هـ)[٤].

ويبدو أن الملك الكامل قد أحس بالنشاط الذى ساد القوات الصليبية بعد قدوم الإمدادات الأخيرة ، وبعد ما سبر أغوارها بالغارة السابقة . ويحتمل أن يكون قد أحس أيضاً بوطأة الحصار على المدينة . ولعله قد مل من طول الحرب فضلاً عن عدم وصول الامدادات الكافية اليه من الشرق وذلك لوفاة أخيه الفائز[٥] ، المكلف باحضار النجدات من الشرق ، هذا بالاضافة إلى إشتداد خطر المعول وقتذاك ، والصراع الذى نشب بين الأشرف والأفضل على إمتلاك حلب وإنشغالهما عنه بذلك[٦]. فلعل لهذه الأسباب كلها جدد الكامل عرض الصلح قبيل سقوط دمياط مباشرة[٧]. وكعادة الصليبيين فقد عقدوا المجالس للتشاور والتباحث فى أمر هذا الصلح ، ولم يختلف رأى الملك الصليبى عن المواقف السابقة ، ورفض العرض كعادته المندوب البابوى[٨]، وإدعى أن الملك الكامل إنما يعرض هذا الصلح كحيلة منه يقصد بها بذر بذور الشقاق بين

(١) Roger of Wendover. op. cit., II, p. 420.

(٢) Runciman op. cit., III, p. 161.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 420.

(٤) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 44.

(٥) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣١ .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٣ .

(٧) Hist. Patr. Alex., p. 352

(٨) Roger of Wendover, op. cit., II, pp. 422-3.

صفوف القوات الصليبية الأمر الذى سيجر على الصليبيين أكبر المخاطر[1] ، ووقف بجانب بلاجيوس رادلف بطريق بيت المقدس الاسمى ورجال الدين والفرسان الداوية والايطاليون[2] ، وإنتهى الأمر كما إنتهى من قبل ، برفض عرض الصلح للمرة الرابعة وبدأ الفرنج فى إحكام الحصار حول مدينة دمياط .

وإشتد حصار الصليبيين للمدينة التى أصبحت محاصرة من كل جانب سواء من البر أو البحر . وضيقوا على أهلها ومنعوا الاقوات أن تصل اليهم . وفى الوقت نفسه كان الصليبيون متحصنين داخل معسكراتهم المحاطة بالخنادق والأسوار والستائر الخشبية المزودة بالرماة والجروخ . وقاست المدينة من الجوع والوباء بسبب طول هذا الحصار وبدأت حاميتها فى الانهيار[3] . وكان من جراء شدة الحصار وعدم إمكان وصول المؤن إلى المدينة أن غلت الأسعار بها حتى بلغ قيمة البيضة عدة دنانير ، كما بيعت البقرة بعد ذبحها بثمانمائة دينار[4] ، ويروى آخر أن البقرة بيعت بضعف هذا المبلغ واشترط البائع أن يكون له إحشائها ورأسها التى تباع بمائة وأربعة عشر دينار[5] . كما بلغ رطل السكر مائة وأربعين دينارا والدجاجة بثلاثين دينارا أو أكثر ، ولم يبق بداخل دمياط سوى القليل من القمح والشعير[6] . ويضيف روجر أف وندوفر أن ثمن التينة الواحدة بلغ اثنى عشر بيزنط[7] .

---

(١) Vitry, op. cit., p. 152.

(٢) Oliver of Padenborn, op, cit., p. 45-6

(٣) Oliver of Padenborn, op, cit., p. 44.

(٤) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٢١٠ .

(٥) النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٢٦ .

(٦) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ نفس الصفحة .

(٧) Roger of Wendover, op, cit., II, p. 421

والبيزنط Bezant هو فى الأصل عملة ذهبية بيزنطية ، وقد سمى هكذا نسبة إلى بيزنطة (أى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية) . وكانت هذه العملة متداولة بكثرة فى أوربا خلال العصور الوسطى حتى القرن الثالث عشر الميلادى تقريبا . ومتوسط قيمتها حوالى تسعة شلنات انجليزية . انظر : جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ص ٢١٦ وحاشية (٣) .

وعلى الرغم من شدة الحصار على دمياط ، فان الكامل كان يراسل أهلها سراً عن طريق العوامين الذين كانوا يحملون رسائل الملك ويغطسون فى الماء ويطلعون من تحت أسوار دمياط ، وذلك لتشجيع أهل المدينة على الصمود ولمعرفة أحوال المدينة الداخلية ومدى مقاومتها . ولكن الصليبيين فطنوا إلى هذه الحيلة فقاموا بوضع الشباك والخطاطيف بعرض النيل من دمياط إلى البر الغربى وبذلك تمكنوا من سد هذه الثغرة وأصبح فى وسعهم إصطياد هؤلاء العوامين وقتلهم . وتعذر بعد ذلك الإتصال بالمدينة(1) . ورغم ذلك فقد صبر أهل دمياط صبر الكرام ، وكان من أشهر من قام بعملية الغطس تحت الماء فى المحنة هو شمايل(2) ، وهو أحد الجاندارية(3) ، ويرجع أصله إلى إحدى قرى مدينة حماه ، وكان يخدم فى ركاب الملك الكامل . وكان شمايل هذا يخاطر بنفسه ويسبح فى النيل رغم امتلاء النهر بمراكب الصليبيين ، فيدخل إلى مدينة دمياط ويأتى إلى الملك الكامل بأخبارها . وكان وصوله إلى أهل دمياط من قبل الملك عاملا مشجعا لهم على الصمود أمام الصليبيين وكان يعدهم بوصول النجدات والمؤن اليهم ويهدىء خاطرهم ، فنال بذلك حظوة عند الكامل الذى قربه اليه وعينه بعد ذلك واليا على القاهرة ، واليه تنسب خزانة شمايل(4) ، والمهم أن

---

(1) النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٣٦ .

(2) شمايل : هو الأمير علم الدين شمايل واليه تنسب خزانة شمايل أشهر سجون مصر فى العصر المملوكى . وكانت مأوى لمن وجب عليه القتل من اللصوص وقطاع الطرق وأصحاب الجرائم الكبيرة ومن أراد السلطان اهلاكه . انظر : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٩ ، راجع ايضا : المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٥٠ .

(3) الجاندارية ، فئة من مماليك السلطان أو الامير وهى كلمة مركبة من كلمتين فارسيتين أحدهما « جان » ومعناها سلاح والثانى « دار » ومعناها ممسك وهى وظيفة يتولى شاغلها باستئذان السلطان قبل دخول الامراء عليه ويدخل أمامهم إلى الديوان . أنظر : القلقشندى : المصدر السابق جـ ٥ ص ٤٥٩ .

(4) خزانة شمايل ، وقد سجن فيها الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمورى (٨١٦ – ٨٢٣ هـ) فى عهد الناصر فرج بن برقوق (٨٠١ – ٨١٥ هـ) وقاس فيه شدائد عظيمة ونذر فى نفسه ان خلص من هذه الشدة وعين سلطانا أن يهدم هذا السجن ويبنى مكانه جامعا ، فكان له ما تمنى . عن ذلك أنظر : ابن اياس : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٠٦ .

شمايل كان يقوم بهذه الأعمال فى أشد حالات حصار المدينة . ولعل أبلغ وصف يصور شدة هذا الحصار ما قاله ابن أبيك بأن الطير « لا يطيق العبور بها لاحتياط الصليبيين »[١]. كما تتضح شدة الحصار أيضا من الأبيات الشعرية التى رماها الأمير جمال الدين الكنانى من دمياط فى رأس سهم إلى الملك الكامل كان مطلعها :

يا مالكى ! دمياط ثغر هدمت   شرفاتـه كادت تجث أصولـه

ثم أضاف :

أشكو اليك عدو سوء أحدقت   بجميعه فرسانـه وخيولـه
فالبر قد منعت اليه طريقـه   والبحر عز لنصره أسطولـه[٢]

لم يستسلم المسلمون لليأس ، بل لجأوا إلى كل الحيل لوصول المؤن إلى مدينة دمياط[٣]. ورغم كافة الاحتياطات التى اتخذها الصليبيون ، فكان الملك الكامل يدفع برجاله ليلا فى فرع دمياط وهم يحملون المؤن المحفوظة داخل الجلود والمشمعات ، وفطن الصليبيون أيضا لهذه الحليلة فقاموا بوضع الحبال المزودة بالاجراس بعرض النهر ، وعندما كانت تدق الأجراس يتجهوا اليها ويقتلوا من بجانبها أو يأسروه[٤].

ورغم كل ذلك لم ييأس المسلمون من توصيل المؤن إلى المدينة ، فقد أحضروا الجمال والخيول الميتة وأفرغوا بطونها ووضعوا بداخلها الأغذية والفاكهة والبقول وغير ذلك ، ولفوها بعناية ورموها فى النهر مع بعض الجيف

(١) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٨٤ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ١٩٨ - ٢٠٠ . انظر أيضا : باقى القصيدة فى نفس المصدر ونفس الموضع .
(٣) Vitry, op. cit., p. 125.
(٤) Eracles, pp. cit., p. 344.

الأخرى للتمويه على الصليبيين،وكان أهل دمياط يعرفون ذلك فيجذبون هذه الاشياء بالخطاطيف والسنانير بعد ما يدفعها التيار فتصل إلى ما تحت الاسوار الغربية للمدينة . وفطن الصليبيون أيضا إلى هذه الحيلة فعملوا على منعها[١] .

وهكذا تعذر الوصول إلى دمياط أو توصيل الأقوات اليها ، وأصبحت معزولة عزلا تاما لدرجة أن المسلمين والصليبيين كانوا لا يعرفون مايدور بداخلها[٢] . ولم يجد الكامل بداً من المخاطرة بفرقة من رجاله قوامها خمسمائة من العساكر على رأسها إبن الجرحى ، وقامت هذه الفرقة بالهجوم على الخنادق الصليبية . ولكن الصليبيين تمكنوا من صد هذه الغارة التى قتل فيها إبن الجرحى ومن كان معه . وقام الصليبيون بصف رؤوس القتلى على خنادقهم[٣] ، ابتهاجا بهذا النصر .

وعاودت القوات الإسلامية فى الثالث والعشرين من شعبان ٦١٥ هـ (٣ نوفمبر ١٢١٩ م) التسلل مرة أخرى عبر الخطوط الصليبية بعد ما أعد الكامل فرقة لهذا الغرض بلغ عددها حوالى ثلاثمائة من العساكر . وأعدت هذه الفرقة نفسها للتسلل إلى المدينة على ثلاث دفعات ، ولكن القوات الصليبية إكتشفت أمر هذه القوات المتسللة وهى تتخذ طريقها داخل المعسكر الصليبى تجاه أحد أبواب المدينة – ويبدو أنه أحد الأبواب الشرقية – فأعطى من إكتشف أمرهم إنذاراً بالخطر . وتمكن الاسبتارية والداوية من القضاء على هذه المحاولة[٤] ، وقد قتل وأسر فيها حوالى مائة وخمسون من المسلمين[٥] . وتمكن

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٥١ .

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 45.

(٣) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص . ٦٣ ، أبو شامة : المصدر السابق ص ١١٦ .
وعن محاولات التسلسل هذه أنظر أيضاً :

Hist. Patr. Alex., p. 256; cf. also: Vitry, op. cit., pp. 131-2.

(٤) Eracles, op. cit., 345.

(٥) L.F. Crusade, Letter to The pope Honorus, III. dated 11 th. nov. = 1219, p 44.

ثلاثة وخمسون منهم من الوصول إلى المدينة حاملين معهم الخبز وأنواعا أخرى من المؤن[1] . وقد عوقبت كونت نفر Never على هذا الاهمال وعدم قيامه بواجبه فى تشديد الحراسة على القطاع الخاص به . وقد خلقت هذه الحادثة نوعا من الترابط بين الصليبيين وبدأوا فى توحيد صفوفهم وتناسوا خلافاتهم الشخصية وأخذوا يعدون العدة لهجة نهائية على المدينة[2] .

وبعد هذه المحاولات المتعددة من قبل المسلمين للوصول إلى المدينة سواء عن طريق البر أو البحر ، وبعد ما أسر للمسلمين فيها ما يقرب من أربعمائة[3] هذا بالاضافة إلى القتلى ، وجد المسلمون أنه من الصعوبة بمكان الاتصال بالمدينة ، هذا فى الوقت الذى صدرت فيه الأوامر المشددة داخل المعسكر الصليبى بأحكام الحراسة . وفرضت الجزاءات الرادعة على كل شخص يهمل فى الواجب المكلف به فى الدفاع عن المعسكر . وتقرر أن يعاقب بالاعدام حراس الخنادق الذين يتركون مواقعهم ، كما تقرر أيضا العقاب بالسحل للفرسان الذين لا يقومون بالواجبات المكلفين بها . أما الطوائف الأخرى فكانت عقوبة رجالها قطع الأيدى ومصادرة أموالهم . كذلك تقرر توقيع الجزاء على المهملين الذى لا يقومون بحراسة خيامهم على الوجه الأكمل لا فرق فى ذلك بين كافة الرتب . هذا فضلا عن التهديد بتطبيق قرار الحرمان الذى سيلحق بكل مذنب . وقد وزعت هذه الأوامر على الجنود الصليبيين تمهيدا لهجمة كبرى على المدينة[4]، بعد أن أحكم الحصار حولها تماما من جميع الجهات[5] ،

= ويروى خطاب آخر مؤرخ فى ١٠ نوفمبر ١٢١٩ م أن الكامل أرسل مائتين وستين مقاتلا لمحاولة دخول المدينة قتل الصليبيون منهم مائتين أنظر :

Rohricht, Fuuften Kreuzzuges, p. 42.

ويروى اوليفر أن القوة الإسلامية التى قامت بهذا الهجوم كانت مكونة من مائتين واربعين قتل وأسر منهم حوالى مائتين انظر :
Oliver of Padenborn op. cit., 46.

(١) Eracles, Ibid.

(٢) Setton, op. cit., II, pp. 417-8.

(٣) Vitry, op. cit., pp. 131-2.

(٤) Setton, op. cit., II. pp. 417-8.

(٥) Matthew of Westminster. op. cit., II. p. 136.

وحيل بينها وبين القوات الاسلامية المرابطة فى فارسكور .

واستعدت القوات الصليبية للاستيلاء على مدينة دمياط . واختلفت الروايات الأجنبية والعربية حول تفاصيل الحوادث المتعلقة بسقوط المدينة . فيروى جاك دى فترى أن المندوب البابوى لم يحتمل بقاء القوات الصليبية على هذا الحال من الحصار ، فجمع بعض رجال حاشيته الذين يثق فيهم تماما حتى لا تتسرب خطة الهجوم على دمياط إلى المسلمين ، وكان بعضهم من رجال الدين والبعض الآخر من الفرسان . واستعد المندوب البابوى بهذه القله واتجه إلى خندق المدينة فى منتصف ليلة الخامس من نوفمبر ١٢١٩ م (٢٥ شعبان ٦١٦ هـ) ، وكانت ليلة حالكة الظلام . وكان عند النقطة التى وصل اليها بلاجيوس ورجاله قنطرة تصل إلى أحد أبواب دمياط عبر الخندق ، وكان المسلمون قد دمروها من قبل حتى لا يستخدمها الصليبيون للوصول إلى المدينة، فأمر بلاجيوس باصلاح هذه القنطرة،وبسرعة قام رجاله بوضع السلالم والكتل الخشبية لتقوم مقام القنطرة ، وعلى هذا النحو اجتاز الصليبيون الخندق ووصلوا إلى باب السور الأول فأشعلوا فيه النيران وأحرقوه ثم ساروا وسط هذه النيران حتى وصلوا إلى باب السور الثانى فاحرقوه أيضا ووصلوا إلى السور الثالث حيث وضعوا عليه السلالم واعتلوه ، وعند ذلك أصيب المسلمون الذين بداخل المدينة بالذهول والخوف ولم يستطيعوا المقاومة[١] .

ويرى أوليفر أن دمياط سقطت فى الخامس من نوفمبر عام ١٢١٩ م وذلك بفضل مهارة ويقظة المندوب البابوى بلاجيوس ، وأضاف أن المدينة سقطت دون خيانة أو مقاومة أو ضوضاء ، وأن قليل من السلالم قد استخدم فى هذه العملية وأن سقوط المدينة كان على مرأى من الملك الكامل الذى لم يتمكن من إجتياز صفوف الصليبيين لحصانتها[٢] .

---

(١) Vitry, op. cit., pp. 152-6.

(٢) Oliver of Padenborn. op. cit., pp. 47-8

ويذكر تاريخ هرقل أن المدينة أصابها الوهن والمرض ولم يبق من أهلها إلا القليل من الرجال للقيام بعملية المراقبة والحراسة على الأسوار ، وقد أصبح ذلك واضحا للصليبيين ، فاستطاعت إحدى سفن فرسان الاسبتارية المزودة بالقذائف أن تحدث ثغرة فى برج المدينة الكبير يستطيع أن يمر منها رجل واحد . وفى ليلة الخامس من نوفمبر (٢٥ شعبان) وكانت ليلة حالكة الظلام ، أخذ أربعة من الصليبيين سلما طويلا كانوا قد صنعوه فى الخفاء وساروا به نحو البرج وأسندوه بالقرب من الفتحة التى أحدثتها قذائف فرسان الاسبتارية وصعدوا عليه ودخلوا البرج فلم يجدوا به أحدا ، فعادوا وأخبروا الملك جان دى برين بذلك وقام الملك بدوره بابلاغ المندوب البابوى وكبار القادة الصليبيين بما حدث وبأنه فى الإمكان الاستيلاء على المدينة فى أى وقت يريدون . ولذلك أعد الجميع أسلحتهم فى الفجر وأرسل الملك عددا من رجاله فاحتلوا البرج . ولما أصبح الصباح رفع الرجال الذين إحتلوا البرج راية الملك جان دى برين وصاحوا قائلين « العون من الله للقبر المقدس Dex aye Saint Sepucre » فتعالت الصيحات داخل المعسكر الصليبى ، واندفع عدد كبير من القوات الصليبية نحو السلم ومنه إلى البرج ثم إلى شوارع المدينة وفتحوا الأبواب فدخل المدينة كل من أراد الدخول من الصليبيين . وقد التجأ من إستطاع من أهل المدينة إلى قلعتها وظلوا بها ، ولكنهم استسلموا فى ظهر نفس اليوم . وهكذا تم الاستيلاء على دمياط يوم خميس من يناير سنة ١٢١٩ م (شوال – ذو القعدة ٦١٥ هـ.)(١) .

وقد ورد فى أحد الخطابات التى أرسلت من مندوب القاصد الرسولى بلاجيوس إلى البابا هونوريوس الثالث فى العاشر من نوفمبر (١ رمضان ٦١٦ هـ) أن المندوب البابوى قد دبر أمر الاستيلاء على دمياط بعناية وحذر وساعده فى ذلك بعض المقربين اليه وبعض أعوانه ، وأشار بأن سقوط المدينة تم

---

(١) Eracles, op. cit., pp. 345-6. Cf. also, Fabri, op. cit., vol 2, part 1, pp. 358-9.

فى الخامس من نوفمبر ١٢١٩ م (٢٥ شعبان ٦١٦ هـ)[١] . كما ورد فى خطاب آخر مؤرخ فى الحادى عشر من نوفمبر سنة ١٢١٩ م مرسل من الملك جان دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس وجاك دى فترى وبعض القادة ورجال الدين الآخرين إلى البابا هونوريوس الثالث أن المندوب البابوى أمر بوضع السلالم أسفل الأسوار نحو الغرب والشرق . وعن طريق هذه السلالم دخل الصليبيون المدينة . ولجأ الأمراء وكبار رجال المسلمين إلى برج حصين وظلوا حتى الظهر رافضين الاستسلام على أمل أن يهاجم المسلمون المعسكر الصليبى ويستعيدوا المدينة[٢] . وتتفق هذه الرواية مع روايتى أوليفر وجاك دى فترى فيما يتعلق بأن بلاجيوس كان له أكبر الأثر فى الاستيلاء على المدينة ، وفى تاريخ سقوط المدينة . كما تتفق مع رواية هرقل فيما يختص بالتجاء بعض المسلمين إلى برج المدينة .

كذلك ورد ذكر سقوط المدينة فى خطاب آخر مؤرخ فى الثانى عشر من نوفمبر (٣ رمضان) ولكن ما ورد فيه كان مقتضيا للغاية ، إذا اكتفى بالاشارة إلى أنه بفضل العناية الإلهية هوجمت المدينة وتم الاستيلاء عليها[٣] . ويستفاد من هذه الرواية بأن سقوط دمياط كان قبل كتابة هذا الخطاب .

ويذكر روجرأف وندوفر أن القوات الصليبية قامت بهجوم عنيف على مدينة دمياط فى الوقت الذى كانت فيه الأسوار خالية تماما من المدافعين ، وعند ذلك أسرع الصليبيون باعتلائها ودخلوا المدينة فى الخامس من نوفمبر (٢٥ شعبان) وإستولوا عليها دون مقاومة وذلك بفضل العناية الإلهية ، وقد تم ذلك

---

(١) L.F. Cruesade, Letter to The Pope Honorus III, dated 10 th, nov. 1219, p. 41.

(٢) L.F. Crusade, Lettre to The Pope Honorus III, dated 10 th nov 1219, p. 45.

(٣) L. F. Crusade, Letter to The Pope Honorus III, dated 12 th. nov. 1219. p. 74.

على مرأى من الملك الكامل[1].

هذا ما رددته المصادر الغربية حول سقوط المدينة ، أما المصادر العربية فيروى بعضها أن الأقوات تعذرت على أهل دمياط وسئموا مواصلة القتال ، لأن الصليبيين كانوا يتناوبون القتال على المدينة لكثرهم العددية وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلهم يتناوبون القتال كالصليبيين . ومع هذا صبروا صبرا لم يسمع بمثله ، وكثر فيهم القتل والجراح وداهمهم الموت وأصابتهم الأمراض . ودام الحصار حتى السابع والعشرين من شعبان عام ٦١٦ هـ (٧ نوفمبر ١٢١٩ م) فعجز من بقى من أهلها عن حفظ المدينة لقلتهم وتعذر الأقوات عندهم فسلموا دمياط فى هذا التاريخ بالأمان[2] . ويضيف إبن أيبك أن الملك الكامل عجز عن نصره أهل دمياط فراسلوه « فتمادى عليهم بالجواب فراسلوا الفرنجة » لتسليم المدينة[3] .

بينما ذكر فريق آخر من المؤرخين العرب أن الصليبيين ظلوا يضايقون ويقاتلون أهلها بجميع آلات القتال حتى نفذ ما عند أهلها من الأقوات ، وإشتد الغلاء بها ، وفتك الجوع بأهلها حتى مات أكثرهم فضلا عن إنتشار الوباء فى المدينة مما أدى إلى عجز من بها عن حفظها ، فحينئذ هجم الصليبيون على المدينة فى غفلة من أهلها واستولوا عليها واسترقوا أهلها[4] ويروى تاريخ بطارقة

---

(١) Roger of Wendover, op. cit., II, p. 423.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٣ ، ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٣ ق ٢ ص ٦٠٣ ، أبو شامة المصدر السابق ص ١١٦ - ١١٧ ، العينى : المصدر السابق جـ ١٧ لوحة ٣٩٣ - ٣٩٤ ، ابن العماد : المصدر السابق جـ ٥ ص ٦٦ ، المصدر السابق جـ ٥ ص ٦٦ ، ابن كثير : المصدر السابق جـ ١٣ ص ٨٣ - ٨٤ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣٨ الحافظ الذهبى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٨١ .

(٣) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٨٧ .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٢ - ٣٣ ، أنظر أيضا : ابن الشحنة : المصدر السابق ص ٢١٠ ، ابن الوردى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣٧ ، أبو الفدا : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٢٨ ، القزوينى : آثار البلاد . ص ١٣٠ ، المقريزى . السلوك جـ ١ ق ١ ص ٣٠١ ، الخطط جـ ١ ص ٣٥٢ سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٧٦ .

الاسكندرية أن المدينة سقطت فى الخامس والعشرين من شعبان عام ٦١٦ هـ (٥ نوفمبر ١٢١٩ م) ويذكر أن هناك من يقول أن ذلك يرجع إلى خيانة الحامية الإسلامية[١] .

ونستخلص من ذلك أن سقوط مدينة دمياط كان يوم الثلاثاء الموافق الخامس والعشرين من شعبان ٦١٦ هـ (٥ نوفمبر ١٢١٩ م) اعتمادا على تاريخ بطارقة الاسكندرية . فقد سجل اليوم والتاريخ العربى والقبطى ، وهو من المصادر العربية المصرية وكاتبة كان مقيما بالقاهرة أثناء هذه الوقائع ، واعتمادا أيضا على ما ذكره أوليفر وجاك دى فترى باعتبارهما من شهود العيان الصليبيين وأيضا على ما ورد فى تاريخ رؤساء أساقفة جزيرة قبرص اللاتين[٢] . وعلى أية حال ، فان ما ذكره إبن الأثير لم يعبد سوى يومين عن هذا التاريخ . أما ما ذكره تاريخ هرقل بأن سقوط المدينة كان فى شهر يناير عام ١٢١٩ م (ذو القعدة – ذو الحجة ٦١٥ هـ) ، فهو أمر مستبعد لأنه من الثابت تاريخيا أن هذا التاريخ يسبق عبور الصليبيين للضفة الشرقية للنيل : وحتى إذا افترضنا أنه شهر يناير سنة ١٢٢٠ م وهو الأقرب نسبيا إلى تاريخ السقوط فهو أمر مستبعد أيضا أعتمادا على ما سبق ، وعلى الخطابات الثلاثة المؤرخة فى العاشر والحادى عشر والثانى عشر من نوفمبر ١٢١٩ م ، وكلها تتحدث عن سقوط المدينة ، وعلى ما كتبه أيضا والتردى همنبرج فقد روى أن سقوط دمياط كان فى شهر نوفمبر ١٢١٩ م ولكنه لم يحدد يوم السقوط[٣] .

أما بخصوص من كان له أكبر الأثر فى سقوط المدينة وهل كان الملك جان دى برين أم المندوب البابوى ، فهو أمر يصعب البت فيه على ضوء المصادر الأجنبية المتاحة للباحث . لأن من أرجعوا ذلك إلى بلاجيوس هم رجال الدين وكان من الطبيعى أن يقفوا وراء المندوب البابوى ، وقد رأينا من قبل كيف

(١) Hist. Patr. Alex., p, 254.
(٢) Hestoire des Archeveques Latins de L'ils de Chypre, p. 216.
(٣) Walteherus de Hemingburhh, op. cit., p. 940.

وقفوا إلى جانبه فى معارضته لعروض الصلح المتتالية التى تقدم بها الملك الكامل . ومن الملاحظ أن الملك جان برين كان من بين الذين أرسلوا الخطاب المؤرخ فى الحادى عشر من نوفمبر (٢ رمضان) إلى البابا هونوريوس الثالث الذى ورد فيه أن المندوب البابوى كان له أكبر الأثر فى سقوط دمياط ، ومعنى ذلك أن الملك الصليبى يعترف بما ورد فيه ، ولكن الباحث يرى أن الملك جان دى برين كان مغلوبا على أمره ولم يكن بوسعه المعارضة على ما دون فى الخطاب ، أو ربما أضيف أسمه إلى الخطاب إستكمالا للشكل الرسمى لهذه الوثيقة . ثم أن تاريخ هرقل قد تحامل على المندوب البابوى فى كثير من الأحيان على عكس موقف التعاطف الذى وقفه من الملك الصليبى . وربما يكون ما أورده سليما إلا أن عدم وجود مزيد من النصوص الأجنبية يجعل الباحث لا يستطيع الترجيح بينهما خاصة وأن المصادر العربية لا تلقى ضوءا على هذه الناحية . وكل ما يمكن قوله فى هذا الصدد أنه سواء أكان سقوط المدينة يرجع إلى الدور الذى قام به المندوب البابوى أو يعزى إلى الملك الصليبى ، فالأمر الثابت الذى لا خلاف فيه أن المدينة سقطت فى قبضة العدو بعد حصار دام أكثر من سبعة عشر شهراً .

أما عن الطريقة التى سقطت بها المدينة ، فهناك ثلاثة آراء حول هذا الموضوع . أولها رأى يقول أن هناك خيانة من جانب الحامية الإسلامية للمدينة ، والثانى أن المدينة إستلمت للصليبيين بعد ما أخذ أهلها الأمان ، والثالث أن الصليبيين إستولوا على المدينة بحد السيف بعد أن وهنت حاميتها .

أما عن الرأى الأول فالباحث لا يميل إلى الأخذ به ، خاصة وأن كاتبه لم يقطع بحدوثه بل رواه مع كثير من التحفظ . هذا ، بالإضافة إلى أنه لم يرد ذكره فى أى من المصادر العربية أو الاجنبية سواء المعاصرة منها أو المتأخرة .

وفيما يتعلق بالرأى الثانى الخاص بالاستسلام فهو رأى لم يرد ذكره إطلاقا فى المصادر الأجنبية المعاصرة أو المراجع الحديثة المتاحة للباحث . ورغم أن هذا الرأى قد أورده كل من إبن الأثير وابن الجوزى ، إلا أنه من الصعب الأخذ به ،

ويعزز ذلك صمود المدينة وأهلها طوال أشهر الحصار . ولذلك فان الرأى الثالث هو الأقرب إلى الصواب . ومن هنا يمكن القول أن حامية دمياط ظلت تقاوم ببسالة طوال سبعة عشر شهراً . ولكن إنتشار الوباء الذى فتك بالكثير من أهلها ، وعدم إمكان الملك الكامل نصرتها أو توصيل المؤن اليها بسبب شدة الحصار – كل هذا قد تسبب فى عدم إمكان من تبقى من الحامية على القتال بعدما انهارت معنويا وجسديا الأمر الذى سهل على الصليبيين إقتحام المدينة . والدليل على ذلك ما رواه شهود العيان الصليبيين بأنهم لما دخلوا مدينة وجدوا جثث الموتى تغطى شوارع المدينة وقد أصابها التعفن وكانت تتصاعد منها الرائحة الكريهة[1] .

وتشير الوثائق المعاصرة أن من كان بالمدينة عند بداية حصارها – بعد مؤامرة إبن المشطوب – بلغ عددهم ستين ألف نسمة لم يتبق منهم بعد سقوطها ، سوى ثلاثة آلاف نسمة[2] . ويذكر جاك دى فترى أن مائة منهم فقط كانوا بصحة طيبة[3] . وهكذا قضى الجوع والطاعون على آلاف المسلمين داخل المدينة ، ولم تستطع القلة الباقية وقتها الوقوف فى وجه الغزاه[4] . كما أن صورة الأطفال الجياع وهم يطلبون الطعام من آبائهم أو أمهاتهم الأموات لتجعلنا نزرف دمعة حزينة على المدينة وحالها عندما سقطت فى أيدى الصليبيين[5] . ولم تكن جثث الموتى تملأ الشوارع فقط ، بل كانت على أرضيات المنازل وفوق الأسرة أيضاً[6] .

(١) Vitry, op. cit., p. 127. cf. also, Oliver of Padenborn, op, cit., p. 53.

(٢) L.F. Crusade, Letter to The Pope Honorus III, dated 11 th. nov. 1294, p. 44, Vitry, op. cit., p. 125.

(٣) Vitry, op. citi, p. 126.

(٤) Vitry, op. cit., p. 127, cf. also: Fabri. op. cit., Vol. 2. part I. p.359.

(٥) Roger of Wendover, op. cit., II. pp. 423-4. cf. also. Michaud, op. cit., II. p. 251.

(٦) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 531.

انظر أيضا : مكسيموس مونروند : تاريخ الحرب المقدسة جـ ٢ ص ٢٦١

وعلى هذه الصورة وطأت أقدام الصليبيين الملاعين ورفعوا أعلامهم على أسوارها وأبراجها[١] . وأنزلوا فيمن تبقى من أهلها القتل والأسر والنهب ، وباتوا تلك الليلة فى جامع المدينة يفجرون بالنساء ويفتضون البنات[٢] . وفيما يتعلق بالأسرى فقد إحتفظ الصليبيون بأربعمائة من عليه القوم وأغنياء المدينة من الجنسين كرهائن لمبادلتهم بالأسرى الصليبيين[٣] . كما سيق بعض الأسرى إلى عكا[٤] ، وبيع بعضهم كعبيد فى الأسواق[٥] . وكان من الذين نجوا من الأسر أبو الحسن على بن أبى القاسم الدمياطى المعروف بابن قفل باعتباره من مشايخ المسلمين الصالحين المحسنين[٦] .

أما عن أطفال المدينة الأحياء فقد استطاع جاك دى فترى الاحتفاظ بأكثر من أربعمائة طفل ثم قام بتعميدهم . كما عهد جاك دى فترى إلى بعض أصدقائه ببعض الأطفال الآخرين ليتكفلوا بهم ، ويعلموهم الكتاب المقدس والشعائر الدينية . وقد تحمل فترى فى سبيل ذلك كثيراً من العناء والمال[٧] . وهذا يؤكد ما سبق أن أوضحناه من إرتباط الناحية التبشيرية عند الصليبيين الغربيين بالفكرة الصليبية نفسها .

وكان بداخل مدينة دمياط عندما سقطت فى أيدى الصليبيين كميات كبيرة من الذهب والفضة والنفط ، وكميات لا تحصى من الذخيرة والآلات الحربية

---

(١) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٨٧ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠٣ ، أبو شامة : المصدر السابق ص ١١٧ . أنظر أيضا : العينى : المصدر السابق جـ ١٧ لوحة ٣٧٤ .

(٣) Vitry, op, cit., p. 128, cf, also. Fabri, op. cit., Vol. 2. Part 1, p. 359.

(٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٠٢ .

(٥) Fabri, Ibid.

(٦) ابن الجوزى : المصدر السابق نفس الموضع .

(٧) Vitry, Ibid Cf. also : Hist. patr. Alex. p, 25. Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 48, 54.

التى تخص الملوك والأمراء والعساكر[1] . هذا بالاضافة إلى الأقمشة الحريرية والأحجار الثمينة التى حوتها المدينة التجارية الواسعة الثراء[2] ، مطمع الصليبيين بعامة والإيطاليين بخاصة . والمهم أن القادة الصليبيين بدأوا فى جمع هذه الكنوز لاستغلالها فى الانفاق على الحملة ، ولكى لا تتسرب إلى ايدى العساكر الصليبية فقد صدرت الأوامر المشددة المصحوبة بالتهديد بقرار الحرمان لكل من يحاول أن يخفى ما يقع تحت يده من هذه الأسلاب . ولكن هذه القرارات والتهديدات لم تجد نفعا أمام جشع الصليبيين[3] ، فقد كان فى صفوف القوات الصليبية عدد كبير من اللصوص والمجرمين الذين أعماهم الطمع ، وخرجوا على طاعة تعليمات المندوب البابوى . ولذلك فقد الكثير من هذه الكنوز ، ولم يتمكن الصليبيون إلا من جمع ما يساوى أربعمائة آلاف بيزنط[4] ، وبخاصة وأن المسلمين قد أخفوا بعض هذه الكنوز فى باطن الأرض[5] . وعلى أية حال فقد أودعت هذه الغنائم طرف جاك دى فرى[6] ، تمهيدا لتوزيعها بمعرفة رجال الدين ذوى السمعة الطيبة على كافة الصليبيين بما فيهم النساء والأطفال[7] .

ولم يستول الصليبيون على هذه الغنائم فقط ، بل إستولوا على المدينة كلها ، ووزعت أحيائها وأبراجها على الفرق الصليبية الموجودة مع الحملة[8] . وكان

---

(١) Hist. Patr. Alex, pp. 254-5, Oliver Scolastique, Lettre, a Engelbert, p. 1191 Waltherus de Hamingbusgh, p. 940.

(٢) Vitry, op. cit., p. 127 Oliver of padenborn, op. cit., p. 56.

(٣) Roger of Wendover, op. cit., II. p, 424. Cf. also. Michaud, op, cit., II, p. 251.

(٤) وهى تعادل نصف الفدية التى دفعها الصليبيون لفك أسر لويس التاسع بعد اسره فى المنصورة . عن ذلك انظر : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٣١٦ .

(٥) Vitry, op. cit., p. 127.

(٦) Setton, op. cit., II. p. 419.

(٧) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 56.

(٨) Vitry, op. cit., p. 128.

أهمها ما استولى عليه الصليبيون جامع دمياط الكبير وهو جامع ابى المعاطى وحولوه إلى كنيسة لاتينية باسم السيدة مريم العذراء لاقامة الشعائر الكاثوليكية وعينوا عليها مطرانا من رجال الكنيسة الرومانية الغربية[٢] ، التى تختلف عن مصر جنسا وعقيدة وجعلوا فى هذه الكنيسة أيضا كرسى المطرانية الذى خضعت له كافة الكنائس الصغرى التى اقاموها داخل دمياط ، ولتكون نواه لما يقام من كنائس لاتينة أخرى فيما بعد فى مصر[٣] .

ولم يكن هذا التصرف الصليبى قبل دور العباده الاسلامية غريبا على اللاتين . فقد سبق لهم عندما دخلوا بيت المقدس عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) أن قاموا بتحويل مسجد الصخرة إلى كنيسة رومانية سموها « معبد السيد » Templum Domini ، كما إستخدموا المسجد الأقصى لمصالحهم وأطلقوا عليه « معبد سليمان » Templum Solomonis وقسموه إلى ثلاثة أقسام ، فجعلوا القسم الأول كنيسة والثانى سكنا لفرسان الداوية والقسم الأخير مستودعا لذخائرهم ، ثم اتخذوا من السراديب التى تحت المسجد إصطبلا لحيواناتهم . وأن دل ذلك على شىء فانه ليدل على تعصبهم وحقدهم

---

(١) يعتبر هذا الجامع من أقدم مساجد دمياط وأكبرها . إذ كانت مساحته ما يقرب من فدان ، هذا بالاضافة إلى المحلات التى ادخلت عليه بعد انشائه . وقد بنيت جدران المسجد الأربعة بحيث تواجه الجهات الأربع الأصلية مواجهة تامة دون انحراف . ولذلك جاءت قبلته فى الزاوية الجنوبية الشرقية وهو أمر نادر الحدوث . وكان المسجد يتكون من مستطيل يتوسطه صحن مكشوف تحيط به الاروقة من ثلاث جهات ، وتحتوى الجهة القبلية منه وهى ايوان القبلة على اربعة أروقه . أما الايوانان الشرقى والغربى فتحتوى كل منهما على رواقين . ولا توجد اروقه فى الايوان الشمالى . ومما يجدر ملاحظته أن أعمدة هذه البوائك كانت مختلفة الألوان ومتعددة التيجان والأشكال وغير منتظمة العقود . وهذا يدل على كثرة الاصلاحات والتجديدات التى اجريت لهذا المسجد . ويوجد به بعض الكتابات التذكارية التى تثبت هذه التجديدات ، بعضها يرجع إلى العصر الفاطمى فى القرن الخامس الهجرى ، وبعضها إلى القرن الحادى عشر الهجرى ايضا . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل أنظر : سعاد ماهر مساجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ ١ ص ٢٤٧ .

(٢) Roger of Wendover, op, cit., II, p. 414.

(٣) Vitry, Ibid, cf. also. Oliver of Pedenborn, cit., p. 55

على العروبة والعرب ، ويكشف فى الوقت نفسه عن أحد دوافع الحركة الصليبية وهى العمل على جعل العالم العربى أرضا لاتينية تدين بالكاثوليكية على مذهب روما ، والقضاء على الإسلام وثقافته من المنطقة وعلى المسيحية الشرقية وديانتها الأرثوذكسية وهو هدف كانوا يسعون اليه قبل قيام الحركة الصليبية بوقت غير قصير[1] . وعلى أية حال ، فقد إستولى الصليبيون على منبر الجامع وكان من الأبنوس وقطعوه إلى قطع صغيرة احتفظ بعضهم بأجزاء منه وأرسلوا بقية الأجزاء الأخرى مع المصاحف ورؤوس القتلى إلى البابا وملوك أوربا كدليل على سقوط المدينة فى قبضتهم[2] ، وشاهدا على تزمتهم الدينى وحقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين .

هكذا سقطت دمياط فى أيدى الصليبيين بعد حصار دام تسعة أشهر كاملة دارت فيها معارك طاحنة بين الطرفين ، كما تخللها عرض الملك الكامل بالصلح عدة مرات . ومما لا شك فيها أن سقوط المدينة كان له أسوأ الأثر فى نفوس المسلمين مما جعلهم يتكاتفون لصد الخطر الداهم وإجلاء المعتدين عن الأرض والديار ، فى الوقت الذى إستعد فيه الصليبيون للزحف صوب القاهرة للاستيلاء عليها لتحقيق الهدف الذى قامت من أجله الحملة .

---

(١) : جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٢) : ابو شامة : المصدر السابق ص ١١٧ . انظر أيضا : ابن واصل : المصدر جـ ٤ ص ٩٩ - ١٠٠

الفصل السادس

فشل الحملة الصليبية الخامسة

- الدعوة للجهاد ، وبناء مدينة المنصورة .
- إنقسام الصليبيين على أنفسهم فى دمياط وأثره .
- سقوط قلعة تنيس .
- مهاجمة ممتلكات الصليبيين فى الشام .
- رحيل الملك جان دى برين إلى عكا .
- رحيل وقدوم بعض القوات الصليبية .
- مهاجمة البرلس .
- عودة الملك جان دى برين إلى دمياط .
- الزحف صوب القاهرة .
- هزيمة القوات الصليبية .
- أسباب فشل الحملة .

لقد كان المسلمون يعتقدون فى حصانه ومناعه مدينة دمياط[1] ، ولكن هذا الاعتقاد تبدد عندما علمت القوات الاسلامية المرابطة فى فارسكور بأن أعلام الصليبيين مرفوعة على أسوار المدينة ، فأيقنت أن القوات الصليبية إستولت عليها[2] ، فوقع ذلك على المسلمين وقوع الصاعقة ، وبكيا الملك الكامل والمعظم بكاء شديداً[3] . وخاب أمل بعض المسلمين وهربوا إلى القاهرة معتقدين أن الصليبيين يقتفون أثرهم[4] . هذا ، ويذكر عن سقوط دمياط أن الملك المعظم قال « لو كان الدعاء الآن يسمع لسمع دعاء أهل دمياط ، فان الله تعالى أخبرنا أنه يستجيب دعائنا فى عدة مواضع من كتابه وإنما أهل دمياط لما كثر فسقهم وفجورهم سلط الله عليهم من إنتقم منهم[5] . ومما لا شك فيه أن خسارة المسلمين بضياع مدينة دمياط – قفل الديار المصرية – كانت فادحة ، وزاد من وقعها أنها جاءت فى الوقت الذى أخذ فيه المغول يقوضون أركان الجانب الشرقى من العالم الإسلامى[6] . وكان من أثر الصدمة التى أصيب بها العالم الإسلامى أن تدفق المسلمون على المساجد للتضرع لله أعداء الإسلام . وبادر الملك الكامل والمعظم بارسال السفراء إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ – ٦٢٢ هـ / ١١٧٩ – ١٢٢٥ م) فى بغداد يحثونه على دفع المسلمين لحمل السلاح للدفاع عن العروبة والإسلام[7] . وقام الخليفة بدوره

(١) Hist. Patr, Alex., p. 255.

(٢) ابو شامة : المصدر السابق ص ١١٧ .

(٣) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٨٧ . انظر أيضا : العينى : المصدر السابق جـ ١٨ لوحة ٣٩٤ .

(٤) Lamb, op. cit., p. 215.

(٥) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠٣ .

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٧٧ .

(٧) كان من بين الذين ارسلوا لطلب النجدة صدر الدين أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ محمد بن حمويه . ولكن هذا الرسول لم يتمكن من الوصول إلى الخليفة الناصر ، فقد مرض بين حران والموصل وتوفى فى منتصف شهر جمادى الآخرة عام ٦١٧ هـ (١٨ أكتوبر ١٢٢٠ م) عن ذلك أنظر : ابن الفوطى : الحوادث الجامعة فى المائة السابعة ص ١٠٨ . ويلاحظ أن هذا الرسول هو الذى أخبر الملك العادل بسقوط برج دمياط . أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٢٢ .

فكتب إلى سائر الممالك الإسلامية لإنجاد الملك الكامل[1] . وهكذا ساند الخليفة العباسى الملك الكامل ، ولكن هذه المساندة كانت أقرب إلى التعاطف ، كما أنه كان تعاطفا ضعيفا عاجزا سلبيا ، وربما يستباح له العذر لأنه كان مشغولا فى هذا الوقت بأخبار تقدم المغول إلى بلاده ، الأمر الذى لم يمكنه من إرسال العساكر إلى مصر تاركا الجبهة المواجهة للمغول مفتوحة يسهل إجتيازها ، فكانت أياما عصيبة على الإسلام وعلى المسلمين . ولعل المؤرخ إبن الأثير قد صدق عندما وصف حال المسلمين والاسلام فى هذه الفترة بقوله « لقد بلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصاعب لم يبتلى بها أحد من الأمم »[2] . فلا عجب إذا أن يقوم الملك الكامل بايفاد الرسل إلى كافة الممالك الإسلامية وهم « يستصرخون الناس لاستنقاذ أرض مصر من أيدى الفرنج » ، لأن الملك الكامل بخاصة والمسلمون بعامة كانوا « يعرفون أنه إذا ملك الصليبيون مصر ملكوا إلى حضرموت وعفوا آثار مكة والمدينة والشام »[3] ، وهو ما كان يدركه الصليبيون أيضا . فقد سجل شاهدو العيان منهم أنه بعد الاستيلاء على مدينة دمياط أصبح هينا عليهم الإستيلاء على ما تبقى من أرض مصر وبالتالى على مملكة بيت المقدس ، وأوضحوا أن المسلمين يحتفظون بالشام بفضل مساعدات مصر . ولذلك أخذ هؤلاء المشاهدون للحوادث ، وهم القادة الصليبيون فى دمياط ، يطالبون البابا هونوريوس أن يحث الامبراطور فريدريك الثانى على سرعة القدوم إلى مصر ، كما يطالبون بمزيد من الأموال حتى تتمكن الحملة من إنجاز الهدف الذى قامت من أجله[4] .

وعلى أية حال ، فانه على ضوء هذا المفهوم صار عامة الناس فى مصر يتوقعون البلاء صباحا ومساء ، وأراد بعضهم فى نوبة اليأس هذه ، الرحيل من

---

(١) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢٣٥ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٣ . انظر أيضا : المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠١ .

(٤) L.F. Crusade, Letter to The Pope Honorus III, dated 11 th nov. 1219. p. 45.

مصر خوفا من الصليبيين تاركين مصر خاوية على عروشها ، ولكن الكامل منعهم من ذلك[1] . وأيقن ملك مصر أن المهمة الملقاة على عاتقه ثقيلة وأن مسئوليته أصبحت أخطر من ذى قبل . وبدأ يخطط من جديد لدفع الخطر الصليبى عن مصر قبل أن يستفحل ويمتد كالأخطبوط ليشمل مصر كلها ، فرأى أن بقاء الملك المعظم إلى جانبه بمصر أصبح غير ذات موضوع فى هذا الوقت على الأقل ، لأن مصر حاولت مقاومة الصليبيين مستعينة بالقدر البسيط من الإمدادات وردت اليها من الشام ، ورغم ذلك سقطت المدينة فى أيدى القوات الصليبية التى أصبحت تعد العدة للتقدم إلى القاهرة عاصمة البلاد . لذلك قرر إستحضار أكبر قدر ممكن من العساكر الشرقية والضغط بفاعلية أكبر على ممتلكات الصليبيين فى الشام ، فقال لأخيه المعظم « جرى المقدور لما هو كائن وما فى مقامك هنا فائدة والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج وتستجلب العساكر من الشرق »[2] . وليس معنى ذلك أن الملك الكامل وقف مكتوف اليدين بعد سقوط المدينة فقد نادى بأن « النفير عام » وتمكن من جمع حوالى عشرين ألف مقاتل[3] ، كما أنه رأى أن الاستراتيجية العسكرية تتطلب وضع هذه العساكر التى كانت معه من قبل فى موضع أكثر ملائمة لقتال الصليبيين عند زحفهم إلى القاهرة ، كما سبق أن إختار فارسكور من قبل بعد سقوط العادلية .

وإختار الكامل المنطقة التى سميت فيما بعد بالمنصورة . ولم يكن لذلك الموضع إسم معروف وقتذالك ، كما لم تكن له أية صفة طبوغرافية تميزه عن سائر ما حوله من أراضى الدلتا الرخوة عدا موضع فضاء فسيح ، معتدل الهواء مثلث الشكل تقريبا[4] ، يقع جنوب بحر أشموم طناح والشاطىء الشرقى للنيل

(١) ابن الاثير : المصدر السابق نفس الموضع .
(٢) ابو شامة : المصدر السابق ص ١٧٧ . انظر : النويرى : المصدر السابق حـ ٣٧ لوحة ٢٦ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٧٩ .
(٤) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٣ .

قباله قرية جوجر[1] . وفى هذا المكان بنى الكامل معسكره الجديد[2] ، وزاده فيما بعد بالمنازل والحمامات[3] والفنادق[4] . ومن الطبيعى ألا يكون إختيار الكامل لهذا المكان اعتباطا أو خبط عشواء ، بل على أساس اعتبارات إستراتيجية واضحة الأهمية لأغراض القتال ضد الصليبيين الذين أصبحوا مسيطرين على دمياط . وهم الذين سيزحفون على القاهرة إن عاجلا أو آجلا لتحقيق أهدافهم التى عجزت عنها كافة المحاولات الصليبية السابقة[5] .

فمن الواضح أن الكامل اختار هذا الموضع المثلث الشكل لأنه محصن بضلعين مائيين هما بحر أشموم المعروف بشدة إنحدار جانبية وسرعة تياره هذا بالاضافة إلى بعد هذه المنطقة من دمياط ولا يتيسر للصليبيين الوصول اليها عن طريق النيل إلا باسطول نهرى طويل يحتاج إلى حراسة نهرية وبرية قوية وعديدة لبعده عن قواعده المتمركزة فى دمياط . كما أنه مهما بلغت قوة هذه الحراسة فان الأسطول سيتعرض لهجمات إسلامية تؤدى إلى استنزاف جهد كبير من الصليبيين . ومن مزايا هذه المنطقة أيضا أنها أقرب الأماكن المحصنة تحصينا طبيعيا لاستقبال النجدات الأيوبية المنتظر قدومها من الشام عبر شبه جزيرة سيناء . أضف إلى ذلك أنها أقرب طريق للمواصلات الرئيسية إلى القاهرة ، فضلا عن قربها من ميناء سمنود التجارى ذى المحاصيل الوفيرة والمركز الجغرافى المتصل بمختلف بلاد الدلتا[6] .

ومن ذلك كله يتضح حسن إختيار الكامل لهذا الموضع الحصين . وليس أدل على ذلك من إكتساب هذا المكان الشهرة العالمية فى هزيمة الصليبيين سواء

---

(١) جوجر ، بليدة بمصر من جهة دمياط فى كورة السمنودية . انظر : ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤٢ ، ابن إيماق : المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٢) Eracles, op. cit., p. 350.

(٣) القزوينى : آثار البلاد ص ١٣٠ .

(٤) ابن اياس : المصدر السابق نفس الموقع .

(٥) ابن بهادر : المصدر السابق ص ١٠٩ انظر ايضا : العينى : المصدر السابق جـ ١٧ لوحة ٤١٨

(٦) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٣ – ٥٤ .

فى الحملة الصليبية الخامسة أو السابعة . ومن البديهى أن بناء هذه المدينة العسكرية فى البقعة الأرضية الطينية الخالية من أحجار البناء والصخور الطبيعية جعلها فى أول الأمر خالية من الطراز المعمارية ، وغلب عليها طابع السرعة والبساطة والمنفعة العسكرية بما يجعلها تتلائم مع الموقف فى مواجهة الصليبيين[١] والمهم أن الملك الكامل إنتقل اليها بعد يومين من سقوط دمياط وإستقر فى هذا المكان على بعد مسيره يوم واحد من دمياط مرابطا للجهاد[٢] ، محتميا بالأسوار التى بناها غرب المنصورة على الضفة الشرقية للنيل[٣] .

أما الصليبيون فانهم بعد أن إستولوا على دمياط « شرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى أنها بقيت لا ترام »[٤] . وكتبوا إلى البابا هونوريوس الثالث يتوسلون اليه لإرسال المزيد من القوات إلى مصر ، خاصة وأن بعض الصليبيين كانوا يفكرون فى العودة إلى أوطانهم فى الربيع التالى . كما طالبوه أيضا بارسال الامبراطور فريدريك الثانى إلى الحملة ، وعدم الترخيص للصليبيين الذين حملوا الصليب بتأجيل حضورهم إلى مصر . هذا بالاضافة إلى مطالبتهم بالأموال التى جمعت لصالح الحملة وعدم إنفاقها فى أغراض أخرى[٥] .

وكان إمتلاك المدينة فى حد ذاته مشكلة للصليبيين ، فكان الملك جان دى برين يسانده بارونات بيت المقدس ورؤساء الهيئات الدينية الثلاث يعتبرون أن مدينة دمياط أصبحت جزء من مملكة بيت المقدس ، أما المندوب البابوى

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٤ .

(٢) Vitry. op. cit., p. 137. Oliver of Padonborn, op. cit., p. 61.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٣٣ . انظر أيضا : السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ٤٥٦ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٣ . أنظر أيضا :

Petre de Montacute, Letter to Bishop of Elmenum, cf. Roger of Wendover, op. cit., II. p. 433.

(٥) L.F. Crusade Letter to The Pope Honorus III dated 11 th nov. 1219, p. 46.

بلاجيوس فكان يرى أن تخضع المدينة لسلطة الكنيسة . وباعتباره ممثلا للبابا فان إمتلاك المدينة يجب أن يكون له[(١)] . وأعلن أن المدينة أصبحت من ممتلكات الكنيسة الغربية التى كان لها أكبر الأثر فى سقوط دمياط ، ورفض كل الحجج التى تقدم بها الملك الصليبى لادارة المدينة سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة[(٢)] ونادى بأن أكبر الأثر فى سقوط المدينة يرجع اليه شخصيا ، وسانده رجال الدين فى هذا الادعاء وروجوا له . ولكن الرأى العام للحملة عارض بلاجيوس فى إدعائه ملكية المدينة[(٣)] . وهكذا بدأ الشقاق مرة أخرى بين الملك والمندوب البابوى وظهرت بوضوح عوامل الحقد والكراهية التى كانت بينهما وتناسى بلاجيوس تعليمات البابا الخاصة بوضعه فى الحملة[(٤)] . ولعل مثل هذا الصراع ما كان لينشب لو تواجد الامبراطور الألمانى مع الحملة ، ولكن مثل هذا لم يحدث ، ولذلك تأزمت الأمور بين الملك الصليبى والمندوب البابوى وهدد الملك بترك الحملة والعودة إلى بلاده[(٥)] . وفعلا بدأ فى إعداد السفن لتنفيذ ذلك . وتعقدت الأمور أكثر من ذى قبل وبدأت الاشتباكات وأعمال الشغب بين أنصار كل من طرفى الصراع . فكان يؤيد الملك كالمعتاد فرسان الداوية والاسبتارية والفرنسيون وصليبيو بيت المقدس ، فى نفس الوقت الذى كان الايطاليون يساندون فيه المندوب البابوى . وانتهى الأمر بعرض المشكلة على البابا هونويوس الثالث الذى أيد الملك فى موقفه من حكم المدينة[(٦)] . ومما هو جدير بالذكر أن إنقسام القيادة الصليبية على نفسها بسبب الصراع على السلطة كان له أسوأ النتائج على الحملة بأكملها . كما أن هذا النزاع قد خدم الجبهة الإسلامية بصورة غير مباشرة فى هزيمة القوات الصليبية[(٧)] .

---

(١) Archer & Kingsford, op. cit., p. 377.

(٢) Setton, op, cit., 11, p. 419.

(٣) Runciman, op. cit., III, p. 162.

(٤) Eracles, op. cit., pp. 348-9.

(٥) Runciman, op. cit., III, p. 162.

(٦) Oliver of Pedenborn, op. cit., p. 55.

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق حـ ٧ ص ٩٧٩ .

وفى خضم هذا الصراع حول السيادة والزعامة نشبت مشكلة أخرى وهى مشكلة توزيع الغنائم على الصليبيين ، لأن الايطاليين لم يقتنعوا بالنصيب الذى حصلوا عليه منها وأعلنوا العصيان وشهروا سلاحهم ضد جنود الحملة بصفة عامة وضد الجنود الفرنسيين بصفة خاصة[١] ، مستندين فى ذلك إلى كونهم من أتباع المندوب البابوى ومعتقدين أنه سيساندهم فى موقفهم . ولكن بلاجيوس تخلى عنهم مما جعلهم ينفجرون فى ثورة حادة ضد القيادة والقوات الصليبية[٢] . وحاول بلاجيوس البحث عن حل يرضى به الايطاليين لحفظ الأمن والنظام داخل صفوف الحملة . ولكن غضبة الايطاليين كانت عارمة لدرجة أن حياة بلاجيوس أصبحت مهددة بالخطر . وإنقاذا للموقف أخرجت القوات الفرنسية من المدينة حتى لا تشتبك مع القوات الايطالية ، وحتى تدبر القيادة الصليبية حل هذه المشكلة ، قرر الزعماء الصليبيون أمرين ، أولهما ، طرد القوات الايطالية من المدينة ، وتولى هذه المهمة فى السادس من يناير عام ١٢٢٠ م (٢٨ شوال ٦١٦ هـ) الملك الصليبى وفرسان الداوية والقوات الفرنسية[٣] ، بالاضافة إلى الفرسان الاسبتارية[٤] وثانيهما ، إعادة النظر فى توزيع الغنائم ، وفى هذه المرة كان نصيب الايطاليين أكثر مما جعلها تترابط مرة أخرى[٥] . وإنتهى أمر هذه الفضائح على حد تعبير المؤرخ جاك دى فترى كما إنتهى أمر هذه المنازعات والمشاجرات التى تسبب فيها الجهلة والمشاغبون من أفراد الحملة[٦] ، فى الثانى من فبراير من نفس العام (١٦ ذو الحجة)[٧] .

---

(١) Hist. Patr, Alex. pp. 254-5 cf. Waltherus qe Heming- burgh, op. cit., p. 940.

(٢) Vitry, Historia Orientalis, p. 944.

يتضح من ذلك مدى عدم سيطرة القيادة الصليبية على قوات الحملة ومن جهة أخرى عدم اعتداد رجال الحملة بالمندوب البابوى أو بغيره من القيادة الصليبية .

(٣) Rohricht, Geschichte der Kruzzuge im Umriss, p. 204.

(٤) Delaville Leroulx, op. cit., d, 145.

(٥) Setton, op. cit., II, p. 420

(٦) Vitry. Lettres de Jacques de Vitry. p. 127.

(٧) Rohricht. op, cit., p. 205

والمشكلة الثالثة التى أعترضت الصليبيين مع مشكلة إمتلاك المدينة ومشكلة توزيع الغنائم هى مشكلة الزحف صوب القاهرة . وهى ليست من المشاكل الشكلية السابقة ، بل من الأمور التى تتعلق بالاستراتيجية العسكرية الصليبية التى يتوقف عليها تحقيق الهدف الأكبر للحملة . واختلف الملك والمندوب البابوى حول هذا الموضوع أيضا . فكان الملك يرى أن يقوم الصليبيين أولا بزيادة تحصينات المدينة والمعسكر الصليبى المقام حولها وإعطاء القوات الصليبية قسطا من الراحة حتى يصل الامبراطور فريدريك[١] ، خاصة وأن الصليبيين قد قاسوا الكثير منذ وصولهم إلى جيزة دمياط فى أوائل يونيه عام ١٢١٨ م حتى سقطت المدينة فى قبضتهم فى الخامس من نوفمبر عام ١٢١٩ م أى ما يزيد عن سبعة عشر شهراً . أضف إلى ذلك طول المسافة بين دمياط والقاهرة التى تبلغ حوالى مائة ميل من الأراضى المليئة بالترع والقنوات المتفرعة عن الفرع الشرقى للنيل (فرع دمياط) التى لا يعرفها الصليبيون . فى حين كان بلاجيوس يرى التقدم إلى القاهرة مباشرة بدون إبطاء فى أعقاب القوات المنهزمة . وتغلب رأى الملك على رأى المندوب البابوى هذه المرة أيضا ، ولم يغفر له بلاجيوس ذلك[٢] ، وسيكون لهذا القرار أثراً كبيراً على مجريات الحوادث التالية . وفعلا لو قام الصليبيون بالزحف تجاه القاهرة عقب سقوط مدينة دمياط مباشرة لربما إختلفت نتائج الحملة عن النهاية التى تقررت لها بعد أن قررت الزحف على المعسكر الإسلامى بعد ما يزيد عن سنة ونصف من سقوط المدينة قضتها فى حالة تكاد تصل إلى الخمول العسكرى التام[٣] .

ورغم هذه الخلافات فان الصليبيين لم ينسوا وجودهم كقوات صليبية موجودة فى دمياط وفى المناطق المحيطة بها ، وكان عليهم تأمين هذا الوجود ضد القوات الإسلامية . لذلك رأوا الاستيلاء على مدينة تنيس[٤] . ففى عيد

(١) Hist. patr. Alex, p 259.

(٢) Lamb, op. cit., pp. 345-6

(٣) Chronique de Tours. p. 938.

(٤) تنيس ، اسم مدينة صغيرة كانت قائمة فى جزيرة صغيرة واقعة إلى الجهة الشمالية الشرقية من جزيرة =

القديس كليمنت[1] Clement ، الموافق الثالث والعشرين من نوفمبر لعام ١٢١٩ م (١٤ رمضان ٦١٦ هـ) ، أغار الصليبيون على المدينة . ولعدم معرفة القوات الصليبية بأحوال المدينة وخلوها من السكان فقد تصوروا أن أهلها قد غادروا المدينة على ظهور القوارب عبر بحر تنيس وهو بحر أشموم طناح ، ولم يبق بها سوى الحامية التى تحرس المدينة داخل القلعة المحصنة بسبعة أبراج[2] – فى غاية المنعة – وسورين وخندقين أحدهما يقع أمام السور الأول والثانى بين السورين . وكانت هذه الخنادق مملوءة بالمياه مما كان يزيد مناعة هذه القلعة على الصليبيين . وإستحال على القوات الصليبية الإقتراب منها بعد ما أغلقت حاميتها أبوابها . وكانت مفاجأة للصليبيين عندما وصلوا إلى القلعة فوجدوها خالية من العساكر ، ولم يكن ما إعتلى ظهور القوارب سوى رجال الحامية نفسها ، فاستولى الصليبيون عليها ، وعلى ما وجدوه بداخلها من المؤن والذخائر[3] .

المنزلة التى كانت تعرف وقتها باسم بحيرة تنيس على بعد ٩ كيلومترات من الجنوب الغربى لمدينة بورسعيد الحالية .وفى سنة ٥٧٧ هـ انتدب السلطان صلاح الدين لعمارة قلعتها وتجديد آلاتها واصلاح سورها القديم . وفى سنة ٥٨٨ هـ أخليت المدينة من سكانها بسبب خوف أهلها من الاعتداءات الصليبية عليها ، وانضم أهلها إلى دمياط ولم يبق بها سوى المقاتلة فى قلعتها . ثم امر الملك الكامل فى سنة ٦٣٤ هـ بهدم المدينة رغم شهرتها فى أعمال الثياب التى تصنع منها كسوة الكعبة بعد ما جرى عليها فى هذه الحملة . أنظر : المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٩٣ ويذكر عن بحيرة تنيس أن بها مائة وخمسة وثلاثون نوعا من الطيور وتسعة وسبعين نوعا من السمك . ولمزيد من التفاصيل : انظر : القزوينى : المصدر السابق ص ١١٨ – ١١٩ .

(١) القديس كليمنت ، تولى كرسي البابوية فى روما من عام ٩١ – ١٠٠ تقريبا ، وهو الخليفة الثالث للقديس بطرس ويحتفل بعيده فى الثالث والعشرين من نوفمبر كل عام . أنظر :
Ency, Brit, Vol.5 pp. 897- 8

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 57. cf. Roger of Wendover, op. cit., II, p. 452.

ويلاحظ أن جاك دى فترى ذكر أن عدد أبراجها كان ثمانية أبراج . أنظر :
Vitry, op. cit., 128.

(٣) Oliver of Padenborn, Ibid. Roger of Wendover, Ibid, Frbli, op. cit., Vol 2 part I, p. 359. Chronique de Nicolaus Trivete, p. 940.

وقد شيد الصليبيون فى تنيس كنيسة لاتينية خضعت لمطرانية مدينة دمياط[١]. وهذا يؤيد ما سبق قوله بأن من دوافع الحركة الصليبية كثلكة العالم العربى[٢].

وعلى أية حال ، فان كان سلوك الصليبيين فى مصر هو مهاجمة المدن المصرية ، فان سلوك المسلمين بالشام كان مقاربا لذلك مع إختلاف الأهداف، فان الملك المعظم قد عاد إلى الشام بعد سقوط دمياط لغرضين ، أولهما حشد العساكر الإسلامية وإرسالها إلى أخيه الكامل فى مصر، وثانيها الضغط على أملاك الصليبيين بالشام لتخفيف الضغط على مصر وإمتصاص بعض القوات الصليبية منها . لذلك قام فى المحرم من سنة ٦١٧ هـ (مارس عام ١٢٢٠ م) بحصار قلعة قيسارية ، وأقام أمامها المنجنيقات التى ظلت تضرب حصنها ليلا ونهارا ، وتسبب فى إصابتها باصابات بالغة[٣]. وقاومت المدينة فى أول الأمر الحصار مقاومة شديدة ، وحاول جارنيه الألمانى Garnier the German نائب الملك جان دى برين عكا فى ذلك الوقت إنقاذ الحصن ، فتفاوض مع الجنيوية للدفاع عن الحصن وإستنقاذه على أن يسلم اليهم بعد ذلك . هذا ، ويلاحظ أن الجنيوية كانوا قد طلبوا امتلاك هذا الحصن من الملك الصليبى ولكنه رفض . وإزاء هذا الخطر الذى أخذ يهدد بضياع الحصن ، وافق جارنيه على ما طلبوه . كما قام والتر الثالث صاحب قيسارية ١٢١٧ - ١٢٢٩ م من جانبه بارسال المقاتلين والأسلحة والمؤن وما يلزم للقيام بهذه المهمة ، ثم قام الصليبيون باخلاء المدينة . وظلت طوال أربعة أيام وهى تقاوم ضربات المسلمين . وفى النهاية أدرك الصليبيون عدم إمكانهم الصمود أمام الهجمات الإسلامية ، فطلب المدافعون عن المدينة من جارنيه مساعدتهم على الهروب من القلعة ، فأرسل اليهم السفن اللازمة وإنسلوا من المدينة تحت جنح الظلام . وإستطاع المسلمون اختراق

---

(١) Vitry, Ibid.

(٢) انظر ما سبق ص٢٦٧.

(٣) Eracles, op. cit., p. 433. cf. also, Oliver of Padenborn op. cit., p. 58.

الأسوار فى اليوم التالى[1] . وهكذا ظل المعظم نازلا عليها حتى فتحها عنوة[2] ، ودخل اليها فلم يجد بها أحدا بعد أن فرت حاميتها فأمر بتدمير القلعة ، فخربت تخريبا تاما[3] .

وبعد أن خرب المعظم قلعة قيسارية ذهب وحاصر قلعة الحجاج التى كانت تعرف أيضا باسم قلعة عتليت ، وكان هدف المسلمين أن ينزلوا بها ما أنزلوا بقيسارية من خراب ، ولكن القلعة كانت من الحصانة بحيث لم يتمكن المسلمون من النيل منها . هذا ، علاوة على الإمدادات الصليبية التى أتت لمساعدتها ، وقد فشل المسلمون فى النهاية فى الاستيلاء عليها أو هدمها رغم المحاولات المتكررة التى قام بها المعظم . وأخيرا إنسحب المسلمون من أمام القلعة[4] . والمهم أن الهجمات الإسلامية على ممتلكات الصليبيين بالشام بالإضافة إلى مرابطة الملك الأشرف بالقرب من أنطاكية وطرابلس ، قد حرم القوات الصليبية الموجودة فى دمياط من الإمدادات التى يمكن أن تأتى اليها من الإمارات الصليبية فى الشام . وليس ذلك فحسب بل أدت إلى سحب بعض القوات اللاتينية من دمياط لمساندة أخوانها فى الشام[5] . ويروى بعض المؤرخين أن هذه الحوادث هى السبب فى مغادرة الملك جان دى برين دمياط إلى عكا[6] . وعن حقيقة الأسباب التى من أجلها غادر الملك المدينة ، فان بدايتها ترجع إلى أن العلاقات كانت تسير من سيء إلى أسوأ بينه وبين المندوب

(١) Vitry op. cit., p. 138, cf. Petre de Mantacute op, cit., p. 434, Eracles, op. cit., p. 334.

(٢) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٠٤ .

(٣) Eracles. Ibid.

(٤) Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 58-9

(٥) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦١٩ – ٦٢٠ .

(٦) Setton, op. cit., II. p. 422. cf. also : Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jercsalem, pp. 744-5. Stevenson, op. cit., p. 306. Duggan, op, cit., p. 218.

البابوى بلاجيوس لتجاهل الأخير للملك ، وعدم إعتباره قائدا للحملة ، ومحاولته فرض سلطته لتعلوا سلطة الملك[1] ، وليس ذلك فحسب بل أن بلاجيوس حاول الجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية،ومن الطبيعى أن يستاء الملك من هذا التصرف الذى أعتبره مهينا له . ولذلك رأى عدم الدخول فى صراعات مع مندوب البابا مفضلا العودة إلى بلاده تاركا القيادة لبلاجيوس .

لذلك السبب أصبح الملك يتحين الفرص عله يجد فيها عذرا قويا يتذرع به لمغادرة الأراضى المصرية . وبينما يرى بعض المؤرخين المحدثين أن الملك اعتذر عن البقاء فى دمياط وطلب الرحيل إلى بلاده بحجة قيام الملك المعظم بمهاجمة قيسارية وعتليت ، فان أوليفر وتاريخ هرقل يرون أن السبب الذى تذرع به الملك لترك الحملة فى دمياط هو مشكلة الوراثة فى أرمينية[2] . ولو أن المشكلة الأرمينية فى حد ذاتها لا تتعلق بموضوع الحملة بصفة أساسية ، إلا أن الباحث يرى القاء بعض الضوء عليها لا بصفتها مشكلة تتعلق بأرمينية ولكن كمشلكة تتعلق بوضع الملك الصليبى نفسه إذ حاول أن يكتسب لقبا يصبح به ملكا فعليا فى أرمينية لا وصيا على مملكة عكا ، وهو الأمر الذى يزعزع مكانته أمام بلاجيوس بصفة خاصة وأمام الصليبيين بصفة عامة . هذا من جانب ، ومن جانب آخر باعتبار أن إنسحاب الملك من أمام دمياط سيؤثر على وضع القوات الصليبية وهى فى منتصف الطريق بين عكا والقاهرة .

وترجع مشكلة الوراثة الأرمينية ، أن الأمير بوهمند الرابع إستطاع حكم طرابلس بالاضافة إلى انطاكية متجاهلا حقوق إبن أخيه ريموند روبان . وتمكن ليو ملك أرمينية من مساعدة ريموند إبن أخته من إستعادة مركزه فى أنطاكية مرة أخرى[3] . وحدث بعد ذلك أن مات الملك ليوفى الثانى من مايو عام ١٢١٩ م وترك بنتين هما إستيفانى التى تزوجها الملك جان دى برين[4] ،

(١) Archer & Kingsford, op. cit., p. 377

(٢) Oliver of Pabenborn, op. cit., p. 63, Bracles, op. cit., p. 347.

(٣) انظر ما سبق ص ١١٢ .

(٤) Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge im Umriss p. 205.

والثانية إيزابيلا التى تزوجت من فيليب بن بوهمند ، وطرد بوهمند ريموند روبان بعد وفاة ليو وحكم طرابلس وأنطاكية مرة أخرى . وكان ليو قد عين ريموند هذا وريثا له ، ثم عدل عن ذلك وعين آدم أف جاستون Adem of Gaston ، ورغم ذلك نجد ريموند يطالب بعرش أرمينية . وارتاح ريموند من منافسه آدم عندما إغتاله الحشيشية . ولكن ظهر له منافس آخر هو كونستانس Constans ابن عم ليو[1] . وكان قانون الوراثة فى أرمينية يعطى الأسبقية فى الوراثة لبنات الملك وأزواجهن على إبن العم[2] . لذلك صار الصراع على الوراثة فى أرمينية يسير فى ثلاثة اتجاهات مختلفة ، الأول منها إتجاه جان دى برين وفيليب عن طريق زوجتيهما ، والثانى إتجاه ريموند روبان باعتباره عين للوراثة من قبل ، والثالث إتجاه كونستانس .

أما ريموند فقد حضر إلى دمياط وقابل المندوب البابوى وطلب منه مساعدته فى إستعاده مركزه فى انطاكية بالاضافة إلى مركزه كوصيا على أرمينية وبالفعل ساعده بلاجيوس بالمال والرجال . وبالطبع كانت هذه المساعدة على حساب الحملة المرابطة فى دمياط . وربما كان بلاجيوس يسعى من وراء ذلك إلى بسط نفوذه فى الشام كما عمل على بسط نفوذه فى دمياط . وعلى اية حال ، فقد عاد ريموند إلى أرمينية وتمكن من الاستيلاء على مدينة أنطرطوس . ولكن كونستانس حاصره داخل المدينة فاستنجد بالمندوب البابوى الذى أرسل اليه ايمار بن أخ ايمار صاحب قيسارية السابق (١١٩٣ - ١٢١٣ م) . وأبحر أيمار من دمياط ومعه بعض الفرسان فى طريقة إلى أرمينية عن طريق قبرص . ولكن هذه النجدة وصلب متأخرة ، فقد إستسلم أهل المدينة إلى كونستانس . وتم أسر ريموند وزج به فى السجن حتى مات . وبذلك إنتهت مطالبة ريموند بالوصاية على العرش . أما فيما يتعلق بفيليب زوج إيزابيلا إبنه الملك ليو فقد تمكن أيضا كونستانس من تدبير مؤامرة إنتهت بالقبض عليه ، وزج به فى

---

(١) Eracles, op. cit., p. 347.

(٢) Duggan, op. cit., p. 218.

السجن . وقام كونستانس بتزويج ايزابيلا من من إبنه هيثوم Hethoum . وبذلك إنتهت أيضا مطالبة فيليب بنصيبه فى العرش الأرمينى[1] .

ولم يبق من المنافسين بعد ذلك إلا الملك جان دى برين ، لذلك استغل هذه المسألة فى الرحيل من دمياط ، ورغم الاحتمال الكبير فى عدم نجاحه فى مهمته بعد سيطرة كونستانس على أرمينية . فقد صمم على مغادرة مدينة دمياط بعد ما تفاقم الخلاف بينه وبين مندوب البابا . وحتى لا يتصرف الملك من تلقاء نفسه ، فقد رأى الاستئذان من البابا هونوريوس الثالث . وفعلا تسلم الملك تصريحا من البابا فى فبراير عام ١٢٢٠ م بترك الحملة وزيارة أرمينية[2] . ويلاحظ أن الملك تسلم الأذن فى فبراير سنة ١٢٢٠ م ، أى أنه طلب الرحيل قبل ذلك ، ومن الواضح أنه فى ذاك الوقت أو قبله لم تكن قد بدأت حوادث مهاجمة المعظم لقيسارية وعتليت . وعلى ذلك فان الرأى الذى نادى بأن الملك طلب مغادرة دمياط لزيارة أرمينية هو الأرجح من الناحية العملية . ويلاحظ أيضا أن مغادرة الملك كانت فى أواخر مارس بعد حوادث الهجوم على الممتلكات الصليبية بالشام . وهناك فارق بين نية السفر وتنفيذ عملية الرحيل . وهذا يدل على أن الملك جان دى برين كان يعمل منذ فترة على مغادرة دمياط إذا أخذنا فى الاعتبار عامل المواصلات فى هذا الوقت بين دمياط وروما وبالعكس لاستحضار تصريح المغادرة . وأن دل ذلك على شىء فانما يدل على سوء العلاقات بين الملك والمندوب . وعلى أية حال ، فقد إستعد الملك للرحيل بعد أن سوى بعض الأمور وعين بعض الممثلين له فى دمياط[3] . وأخذ معه كل فرسان جيشه تقريبا وترك بقية عساكره فى دمياط[4] التى غادرها فى التاسع والعشرين من مارس سنة ١٢٢٠ م (٢٢ محرم عام ٦١٧ هـ) فى طريقة إلى عكا[5] ، ومنها أخذ يستعد للذهاب إلى أرمينية . وفى هذه الأثناء مرضت

(١) Eracles op, cit., p. 347.
(٢) Runçiman op, cit., III, p. 164.
(٣) Eracles, op, cit., p. 349.
(٤) Vitry, op. cit., p. 136, Cf. also: Fabri, op, cit., Vol. 2, part I, p. 360.
(٥) Rohricht, op. cit., p. 205.

زوجته إستيفانى وماتت وأشيع أن ذلك بسبب سوء معاملة الملك لها[١] . ثم مات إبنهما بعد موت أمه بقليل وكان يبلغ من العمر أربع سنوات[٢] . وبذلك لم يصبح للملك جان دى برين أى حق فى المطالبة بنصيبه فى عرش أرمينية[٣] .

ولو كانت مشكلة الوراثة الأرمينية هى السبب فى مغادرة الملك مدينة دمياط لعاد إلى مصر بعد أن ضاع حقه وأمله فى العرش . ولكنه لم يعد إلى دمياط واستمر غيابه فى عكا أكثر من سنة . وهذا يؤكد أن مشكلة الوراثة فى أرمينية لم تكن المشكلة الحقيقة التى غادر الملك من أجلها دمياط ، أو على الأقل لم تكن السبب الرئيسى فى رحيله من المدينة .

ومهما يكن من أمر فقد كان رحيل الملك جان دى برين إلى الشام فرصة للمندوب البابوى بلاجيوس فى بسط نفوذه على الحملة كلها ، وهو ما سعى اليه وما كان يتمناه . ولما كان بلاجيوس حريصا على بقاء الحملة والعمل بشتى السبل لانجاح مهمتها ، فقد كان يخشى عودة الصليبيين إلى أوطانهم ، ويتبدد ما قامت به الحملة من جهود . لذلك بدأ فى إصدار التعليمات اللازمة لتقييد حركة السفن التى تنقل الجنود العائدة إلى أوطانها ليضمن عدم رحيل القوات الصليبية إلا بالقدر الذى يراه ، أو العمل على عدم رحيلها على الاطلاق . ولم تأت هذه القرارات بالنتائج التى تمناها المندوب البابوى فقد عاد عدد كبير من الصليبيين إلى بلادهم فى ربيع عام ١٢٢١ م لاعتقادهم أنهم وفوا بعهودهم . ولم يعبأوا بهذه القرارات ولا بتهديدهم بقرار الحرمان . وكان عذرهم إلى جانب وفائهم بعهودهم أن حالتهم الصحية لا تمكنهم من الاقامة مع الحملة . وكان من بين العائدين عدد كبير من الفرسان الايطاليين وبعض رجال الدين ، كما غادر دمياط ايضا رالف إيرل شيستر وهو الوحيد الذى صرح له القاصد الرسولى بالعودة[٤] . ويبدو أن الحملة قد أصيبت فى هذه الفترة بالانحلال التام

(١) King, op. cit., p. 195,
(٢) Eracles, Ibid.
(٣) Runciman. op. cit., III, p. 165.
(٤) Roger of Wendover, op cit., II, p 426.

حتى يغادرها عدد من رجال الدين غير عابئين بقرار الحرمان . والمفروض فيهم أن يكونوا حريصين كل الحرص على تنفيذ تعليمات المندوب البابوى ، وقدوة للآخرين .

وفى فترة الحظر التى فرضها بلاجيوس على حركة السفن الصليبية ، قام الملك الكامل باستغلال فرع رشيد . وأرسل منه بعض قطع الأسطول الأيوبى فى البحر المتوسط وهو آمنا من تعرض البحرية الصليبية له . واتخذ طريقه إلى قبرص حيث عثر على بعض السفن الصليبية الراسية فى الميناء ليماسول Limasol فشن عليها هجوما مفاجئا أدى إلى أغراق بعضها وأسر البعض الآخر . ووقع فى أيدى المسلمين آلاف عديدة من الأسرى الفرنج[1] . ويلاحظ أن هذه الحوادث قد جرت رغم تحذير بلاجيوس من نشاط البحرية الإسلامية . ولكن الصليبيين تجاهلوا هذا التحذير ثم عادوا وأدركوا الأمر بعد فوات الأوان . وحاول بلاجيوس القيام بعمل مماثل لما قامت به البحرية المصرية ومهاجمة ميناء رشيد أو الاسكندرية بأسطول البنادقة . ولكن هذه الفكرة لم تنفذ لحاجة القيادة الصليبية إلى الأموال اللازمة لاصلاح وإعداد السفن اللازمة للقيام بهذه العملية[2] .

ونخرج من ذلك أن تعليمات المندوب البابوى بشأن القيود التى وضعها على حركة السفن اللاتينية قد أضرت بالبحرية الصليبية أكثر مما أفادتها ، وحرمت القوات الصليبية فى دمياط من الإمدادات الصليبية التى كانت ترد اليها من قبرص[3] . هذا بالاضافة إلى أنها لم تأت بالنتيجة التى أرادها بلاجيوس فى

---

(١) Petre de Montacute, op. cit., II, 426.

روى جاك دى فترى ان جملة عدد الأسرى فى المعارك البرية والبحرية وفى الكمائن قد يبلغ ثلاثة آلاف ، وذلك فى الخطاب الذى وجهه إلى البابا هونوريوس الثالث فى ١٨ ابريل ١٢٢١ م (٢٣ صفر ٦١٨ هـ) Vitry, op. cit., p. 138. وبذلك يكون من غير المعقول أن يتم أسر الاف عديدة فى هذه المعركة وحدها .

(٢) Oliver op Padenbern op. cit., pp. 67, 82, cf also : Chronique de Tours, p. 988.

(٣) Vitry, op. cit., p. 139.

منع عودة القوات الصليبية إلى أوطانها .

وفى الواقع أنه فى الوقت الذى كانت تغادر فيه هذه القوات ميناء دمياط كانت بعض القوات الصليبية الأخرى فى طريقها من أوربا إلى مصر[1] . ويتضح من ذلك أن الخطابات المتلاحقة التى أرسلها رجال الدين والقادة الصليبيون عقب سقوط مدينة دمياط قد آتت أكلها ، وإستجاب البابا لنداء زعماء الحملة وبدأ فى ارسال بعض القوات التى وصلت إلى دمياط فى مارس سنة ١٢٢٠ م (محرم ٦١٧ هـ) ومعهم بعض رجال الدين وعلى رأسهم هنرى رئيس أساقفة ميلان يرافقهم رسل من قبل الامبراطور الألمانى فريدريك الثانى ، الذى كان يرى أن الظروف لم تعد مناسبة له لترك أوربا فى هذا الوقت واللحاق بالحملة فى دمياط[2] . كما قدمت أيضا بعض الإمدادات من المانيا وفرنسا . هذا بالاضافة إلى مبلغ كبير من المال الذى جمع فى أوربا لصالح الحملة ، وعززه البابا ببعض الأموال الأخرى من الخزانة البابوية[3] .

والمهم أن هذه القوات الغربية التى وصلت أخيراً أقترحت على المندوب البابوى الهجوم على القوات الإسلامية . غير أن الفرسان الموالين للملك جان دى برين عارضوا هذه الفكرة وأعلنوا أن الملك هو القائد الوحيد للحملة وتدين له كافة القوات الصليبية بالولاء ، وأنهم لا يستطيعون القيام بأى عملية عسكرية اثناء غيابه فى عكا[4] . وهكذا فشل مشروع الهجوم على المسلمين لاختلاف آراء الصليبيين حول تنفيذه .

وفى أعقاب ذلك وصلت بعض الإمدادات الأخرى . فقد حضر فى يوليو ١٢٢٠ م (جمادى الأولى ٦١٧ هـ) متى Mathew كونت أبوليا ومعه ثمان سفن أرسلها الامبراطور فريدريك . وحاول بلاجيوس مرة أخرى استغلال

---

(١) Petre de Montacute, op. cit., p. 453.

(٢) Oliver of Podenborn, op. cit., p 61.

(٣) Petre de Montacute Ibid.

(٤) Oliver of Padenborn, Ibid.

هذه القوات فى الزحف تجاه القاهرة ، ولم توافقه هذه المرة القوات الفرنسية والإنجليزية والألمانية . وتمردت عليه فى ذاك الوقت خاصة عندما اقترح تجميع حملة فرعية من القوات الصليبية تضم كافة الموالين له يتولى هو قيادتها ويتجه بها صوب القاهرة[1] ، وهكذا فشل هذا المشروع أيضا فى مهاجمة القوات الإسلامية .

ويبدو أن المندوب البابوى قد اكتفى بعد فشل المشروعين باعداد مشروع للاغارة على البرلس . ففى يوليو من عام ١٢٢٠ م (جمادى الأولى ٦١٧ هـ) قام فرسان الطوائف الدينية العسكرية بالإغارة عليها ونهبها . ولكن هؤلاء الفرسان وقعوا فى كمين أعدته القوات الإسلامية أثناء عودتهم . ووقع فى الأسر عدد كبير من الفرسان منهم أحد مارشالات طائفة التيوتون[2] . ومن الملاحظ أن هذه الحادثة لم يرد ذكرها فى المصادر العربية المعاصرة للحوادث — التى بين أيدينا — ولكنها وردت فى بعض المصادر المتأخرة نسبيا ، واختلفت روايتها عما ذكرته المصادر الأجنبية . فقد ذكرت هذه المصادر أن الصليبيين أغاروا على البرلس فى شهر رجب سنة ٦١٧ هـ (سبتمبر ١٢٢٠ م) وتمكن المسلمون من قتل عشرة آلاف من القوات المهاجمة كما إستولوا على خيول العدو وسلاحه وفر باقى المهزومين إلى دمياط[3] . ومما لا شك فيه أن ما أورده المؤرخون العرب عن قتل مثل هذا العدد أمر مبالغ فيه بصورة كبيرة جدا ، لا سيما أن البرلس لم تكن مكانا لتجميع القوات الإسلامية حتى تعد له القيادة الصليبية قوة قد تصل إلى أضعاف مثل ما قتل فيها ، لأنه من الناحية العملية لو تم الهجوم بعشرة آلاف صليبى وهو العدد الذى قتل بصرف النظر عن العائدين منهم لقضى مثل هذا العدد على البرلس وما فيها قضاء تاما .

---

(١) Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 62-3

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 65.

(٣) النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٢٨ ، أبا مخرمة : المصدر السابق جـ ٥ ورقة ٨٣ ، ابن العماد : المصدر السابق جـ ٥ ص ٧٢ ، الحافظ الذهبى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٩٠ ، المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٨ .

ومن الواضح أن القوات الصليبية لم تقم بأى عمل عسكرى بعد سقوط دمياط سوى الإستيلاء على قلعة تنيس فى نوفمبر ١٢١٩ م (رمضان ٦١٦ هـ) والإغارة على البرلس فى يوليو عام ١٢٢٠ م (جمادى أولى ٦١٧ هـ).ويبدو أن شبه الفراغ العسكرى الذى عاش فيه الصليبيون منذ سقوط المدينة قد دفع بهم إلى حياة الفساد والفجور بعكس الحالة السابقة لسقوط المدينة[١] . وقد صور جاك دى فترى هذه الحالة فى خطاب أرسله إلى البابا هونوريوس الثالث فى الثامن عشر من أبريل عام ١٢٢١ م (٢٣ صفر ٦١٦ هـ) سجل فيه الآثام وأعمال الغش والسرقة وقتل الصليبيين بعضهم البعض . كما صور أيضا إنتشار لعب الميسر فى صفوف الصليبيين وصرف الأموال على الغانيات والحياة المزرية الفاسقة التى يعيشها رجال الحملة حتى أنهم أصبحوا يترددون من خطيئة إلى أخرى غير عابئين بقرارات الحرمان وغير محترمين لرجال الدين . وأضاف أن الصليبيين قد تفرغوا للسكر والعربدة وصورهم بأنهم أصبحوا مارقين ومجرمين وخونه وأنهم بهذه الأعمال يحطمون رسالة السيد المسيح[٢]

كما ذكر أيضا أن القوات الإسلامية لم تكف عن الحاق الأذى بالقوات الصليبية فى كل الظروف التى أتيحت لها . وقال أن الملك الكامل شجع قواته بمنح المكافآت نظير كل أسير أو قتيل من الصليبيين . وعلى ذلك قامت القوات الإسلامية بنصب الكمائن للقوات الصليبية التى تخرج من المعسكر الصليبى لجمع الأخشاب أو الحبوب أو العليق أو صيد الأسماك . كما إستطاع المسلمون أسر بعض القوات الصليبية بعد إصابة خيولهم بالسهام . ومن الحيل التى لجأ اليها المسلمون هو تظاهرهم بالإنسحاب عند مشاهدتهم بعض القوات الصليبية ، ثم يعودون ويطبقون على من يتبعهم من الفرسان الصليبية ويقبضون

---

(١) Eracles op. cit., p. 348.

(٢) Yitry, op, cit., p. 139. Cit.,also: Oliver of Padenborn op. cit., pp. 54. 65.

عليهم . وأضاف أن المسلمين كانوا فى غاية الحذر أثناء قيامهم بهذه العمليات ، فهم لا يهاجمون الصليبين إلا إذا توفر لديهم العدد الكافى بحيث يضمنون نجاح المهمة التى يقومون بها[١] .

ويبدو أيضا أنه خلال هذه الفترة التى أصيب فيها المعسكر الصليبى بالانحلال والتى تميزت بالهجمات الإسلامية الخاطفة على القوات الصليبية التى تبتعد عن المعسكر الصليبى أن بعض القوات الصليبية هربت من المعسكر الصليبى وإتجهت إلى المسلمين ودخلت فى الديانة الإسلامية ، وقد تجامل عليهم جاك دى فترى إلى حد كبير[٢] . وليس ذلك بالغريب عن رجل دين مثله متعصب للحركة الصليبية ولديانته ومن الداعين إلى كثلكة العالم الإسلامى تحقيقا للفكرة الصليبية عن طريق الحركة التبشيرية .

وعلى أية حال فان الملك الكامل ظل مرابطا للجهاد فى المنصورة فى تلك المرحلة الحرجة مستغلا حياة الخمول والكسل والتراخى التي كان يحياها الصليبيون أثناء وجودهم فى دمياط ، وفاعلا كل ما فى وسعه لوقف الزحف الصليبى على القاهرة[٣] . وفى الوقت نفسه قام بجميع العساكر من كافة النواحى ما بين أسوان والقاهرة[٤] . ولكى يشغل الصليبيين عن الخروج من دمياط حتى تكتمل قواته قام بوضع بعض السفن الإسلامية فى بحيرة تنيس ، كما وضع الكثير من العربان والتركبول والفرسان حول دمياط لكى يقوموا بمناوشة القوات الصليبية ويشغلوها باستمرار . ومن الواضح أن الأعمال العسكرية ، سواء أكانت بحرية أم برية ، قد نجحت نجاحا كبيرا فى تحقيق أهدافها وتمكن المسلمون خلالها من أسر عدد كبير من الصليبيين بلغ ثلاثة آلاف أسير من بينهم من أسروا فى المعارك السابقة وذلك حسب تقدير المؤرخ جاك دى

---

(١) Vitry, op cit., pp. 136-8

(٢) Vitry, op. cit., p. 198-9.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٣ ص ٩٨١ .

(٤) Hist. Patr. Alex..265.

كبير فى دمياط لعدم إمكانها مواجهة القوات الإسلامية . لذلك بقيت خلف الأسوار وداخل الخنادق مكتفية بالدفاع عن نفسها وحراسة المدينة[1] .

وقد أطمأن الصليبيون بعض الشيء عندما بلغت مسامعهم الأنباء التى أرسلها البابا هونوريوس الثالث ومفادها أن الأمبراطور فريديك أتى إلى روما فى نوفمبر عام ١٢٢٠ م حيث قام البابا بتتويجه مع زوجته كونستانس Constance امبراطورا على المانيا . وفى مقابل ذلك أكد فريدريك وعده السابق فى التوجه إلى الشرق ، وحدد ربيع عام ١٢٢١ م موعدا لرحيله . ورغم ذلك فان البابا هونوريوس أصبح لا يثق فى وعود الامبراطور . لذلك نصح بلاجيوس بعدم رفض أى عرض يتقدم به الملك الكامل للصلح إلا بعد عرض الأمر عليه . ورغم شكوك البابا فى وعود الامبراطور ، إلا أن الصورة التى ظهر بها فريدريك فى الفترة اللاحقة كانت تبشر بخير وتوحى بأنه جاد فى وعده خاصة بعد قيامه بتشجيع وحث رعاياه على اللحاق بالحملة وإرساله لويس دوق بافاريا فى أوائل مايو على رأس قوة حربية كبيرة . وبالإضافة إلى هؤلاء فقد أتت إلى دمياط فى عام ١٢٢٠ م (٦١٨ هـ) إمدادات كثيرة . وكان من بين القادمين الاسقف الإلمانى أولريخ Ulrich أسقف باسو Passau[2] كذلك عاد لدمياط هرمان فون سالزا رئيس هيئة الفرسان التيوتون ومعه خمسمائة من الفرسان . ويبدو أن هرمان قد رحل مع الملك جان دى برين إلى عكا ، وقد بشرت هذه القوات بقرب وصول الامبراطور فريدريك[3] . ومما تجدر الاشارة اليه أن الامبراطور قد أمر لويس دوق بافاريا بعدم القيام بهجوم كبير على القوات الإسلامية حتى يلحق بنفسه بالجيش فى دمياط[4] . وهكذا أخذت القوات الصليبية تتدفق على دمياط من كل فج عميق حتى أصبحت « دار هجرتهم »[5] ، متشجعين بامتلاك إخوانهم الصليبيين للمدينة « وتمكنهم من

(١) Vitry. op. cit., pp. 136-7 Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 67-8.

(٢) Oliver of Padenborn op. cit., p. 70, Chronique de Tours p. 938.

(٣) Petre de Montacute, op. cit., p. 434.

(٤) Duggan, op, cit., p. 219.

(٥) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٣١٣ .

الديار المصررية »[1] ، وتزايد عددهم يوما بعد يوم[2] ، حتى أصبحت أعدادهم لا تحصى[3] .

وبعد وصول الإمدادات إلى دمياط على هذا النحو ، تشجع المندوب البابوى وقرر فى أواخر يونيه عام ١٢٢١ م (أوائل جمادى الأول ٦١٨ هـ) الزحف صوب القاهرة ، وقد أيده فى ذلك الصليبيون الجدد وعلى رأسهم لويس دوق بافاريا الذى كان يرى الإسراع فى مهاجمة القوات الإسلامية قبل حلول موعد الفيضان متجاهلا بذلك تعليمات الامبراطور فريدريك ، كما أيده أيضا بطرس أف مونتاجو الذى عاد إلى دمياط ، بالاضافة إلى رئيس أساقفة ميلان والاساقفة الآخرين[4] . ويلاحظ أن هذا القرار أتخذ أثناء غياب الملك جان دى برين فى عكا . وربما قصد المندوب البابوى من وراء ذلك أن يستحوز على النصر – الذى افترضه مقدما للحملة – ليعلى به من شأنه وشأن الكنيسة اللاتينية باعتباره ممثلا لها[5] . ولكن القادة العسكرين عارضوا هذا الرأى وأصروا على إرجاء الزحف تجاه القوات الإسلامية حتى حضور الملك الصليبى من عكا . وإزاء إصرار القادة على رأيهم إنصاع بلاجيوس لطلبهم وأرسل سفارة رسمية إلى الملك فى عكا ليثبت حسن نيته للحملة وللكنيسة معا[6] . بينما يروى تاريخ هرقل أن نواب الملك الذين تركهم نيابة عنه فى دمياط أثناء غيابه هم الذين أرسلوا إلى الملك يطلبون منه الحضور إلى دمياط[7] . والمهم ان الملك الصليبى لم يوافق على الحضور إلا بعد أن وعده بلاجيوس بمزيد

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٢ .

(٢) Fabri, op, cit., Vol, 2, Part, I, p. 360

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق نفس الموضع .

(٤) Petre de Montacute, Letter to Martel, cf Roger of Wendover, op. cit., II, p. 437.

(٥) Eraeles, op. cit., p. 349.

(٦) Fabri, op. cit., Vol 2, Part I. p. 390 Donovan, op. cit., p. 85.
أنظر أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٨٠ .

(٧) Eraclss Ibid.

من السلطة على الجيش الصليبى فى دمياط[١] . وهذا يؤكد أن المندوب البابوى كان طرفا فى إستدعاء الملك جان من عكا . وعلى أية حال ، فان الملك الصليبى قد حزن حزنا شديداً عندما أبلغه الرسل باستعداد الجيش الصليبى للزحف تجاه القاهرة ، وأشار أن هذا التصرف سيعرض القوات الصلبية لمجازفة خطرة تهدد بضياع كل المكاسب التى حققتها الحملة حتى ذاك الوقت[٢] . وكان على الملك ضرورة الحضور إلى دمياط حتى لا يتعرض للوم القيادة الصليبية والكنيسة[٣] ، لأنه كان سيتعرض فعلا لهذا اللوم سواء إنتصرت الحملة أم إنهزمت . ففى حالة الانتصار سيكون الفضل كله للمندوب البابوى ، وفى حالة الهزيمة ستلقى عليه المسئولية باعتباره السبب فى ذلك لعدم حضوره إلى دمياط . وعلى ذلك أعد الملك ثلاث سفن وأبحر بها من عكا إلى قبرص ومنها إلى دمياط[٤] .

ولم ينتظر المندوب البابوى حتى يصل الملك الصليبى ، فأخذ يعد الجيش للقيام بعملية الهجوم على القوات الإسلامية المرابطة فى المنصورة وأصبح الجيش الفرنجى على أهبة الاستعداد فى التاسع والعشرين من يونية عام ١٢٢١ م (٧ جمادى الأولى ٦١٨ هـ)[٥] . وتحركت القوات الصليبية من دمياط إلى معسكرها الكائن خارج المدينة (العادلية) إستعدادا للتقدم جنوب دمياط بحذاء النيل . واستعمل بلاجيوس سلطته والتهديد بقرار الحرمان فى تنفيذ هذه التحركات[٦] . وظل الجيش الصليبى خارج دمياط أربعة أيام فى إنتظار وصول الملك جان دى برين[٧] . ولكى يعد المندوب البابوى الجيش روحيا للمعركة

---

(١) Archec, & Kingsford, op. cit., p. 578

(٢) Grousset, op. cit., III. p. 236.

(٣) Fabri, Ibid.

انظر أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق نفس الموضع

(٤) Petre de Montacute, op. cit., p. 487, cf, also: Eracles, op. cit., p 349

(٥) Rohrichr, Geohichte des Konigreicls Jerusalem, p. 747.

(٦) Eracles, Ibid.

(٧) Eracles, op. cit., p. 350.

القادمة أمر فى السادس من يوليو ١٢٢١ م (١٤ جمادى الأولى ٦١٨ هـ) بالصيام لمدة ثلاثة أيام ، ولم يلبث أن وصل الملك الصليبى فى السابع من نفس الشهر[١] . وبوصول الملك بدأ الصراع مرة أخرى بينه وبين القاصد الرسولى وهو ما كان متوقعا من قبل لاختلاف وجهات النظر حول فكرة التقدم جنوبا إلى القاهرة وللحقد الدفين بين الطرفين بسبب الصراع على السلطة .

ومهما يكن الأمر ، فان القيادة الصليبية عقدت مجلس الحرب للتشاور فى الأمر ، وأصر المندوب البابوى على الزحف صوب القاهرة[٢] . فقد كان يرى أن تحطيم القوة الإسلامية لا يتم إلا بالاستيلاء على القاهرة والقضاء على قوات مصر العسكرية . فمصر هى التى تمد العالم الإسلامى، خاصة الشام بالمال والسلاح وأن سقوط مصر سيقضى على كافة القوى الإسلامية الأخرى . هذا بالاضافة إلى أنه كان يرى أن القوات الصليبية متحمسة جداً لهذه العملية أكثر من أى وقت مضى وأن ضياع هذه الفرصة يعتبر خيانة للحركة الصليبية ، كما كان يرى أن الهزائم التى لحقت بالمسلمين ستساعد الجيش الصليبى على النجاح فى مهمته ، وساند الأساقفة والوعاظ وكافة رجال الدين اقتراح المندوب البابوى[٣] .

وفى الوقت نفسه عارض الملك الصليبى فكرة الهجوم على المسلمين ، وكان يرى إنتظار وصول الأمبراطور فريدريك[٤] ، وكان يرى أيضا أن الوقت لم يعد مناسبا للقيام بهذه العملية بعد أن لاحت البشائر بفيضان النيل ، وأن ذلك سيجعل من المتعذر على الصليبيين الاتصال بقواتهم فى دمياط سواء عن طريق البر أو البحر بعد مغادرة المدينة جنوبا صوب العاصمة[٥] . وفى هذا المجلس

(١) Philijp de Albeney, \Lettre to Lalph Earl of Chester cf, Roger to Wendover, op. cit., II. p. 435.

(٢) Oliver of Padendorn, op. cit., pp. 70-1.

(٣) Michaud, op. cit., II, p. 254.

(٤) Rohricht, Ceschichte der Kreuzzuge im Umriss. p. 207.

(٥) Sabri, op. cit., Vol, 2, part I p. 306.

حمل الملك الصليبى الذين ينادون بالزحف مسئولية النتائج المترتبة على ذلك . كما أشار أنه بعد الانتصار على المسلمين سيصبح من الصعب عليهم الاحتفاظ بالأراضى التى سيستولون عليها لأن الصليبيين تواقين للعودة إلى أوطانهم وليس إلى البقاء بمصر . وأضاف أنه ليس من المهم أن تنتصر القوات الصليبية فى معركة ، فالصليبيون يحاربون الأمة الإسلامية بأسرها وهى مستعدة للتضحية بدمائها فى سبيل النصر ، وأنه بوسعها القضاء على الصليبيين إذا تركتهم فريسة للأمراض والأرهاق والخلافات التى كانت تمزقهم والقلق النفسى الذى كانوا يعيشون فيه فضلا عن جو مصر الحار الذى لم يتعودوا عليه ، وبذلك تضيع كل الجهود الصليبية هباء . كما أنه أشار إلى نقطة هامة تحوى فلسفة الحركة الصليبية لا من الوجهة العملية بل من الوجهة النظرية ، عندما أعلن جان دى برين أن القوات الصليبية لم تتجمع تحت راية الصليب لغزو مصر بل من أجل إستعادة بيت المقدس ، وأن الاستيلاء على دمياط وتنيس قد حقق لها هذه الغاية وكان عليها قبول عرض الملك الكامل بالصلح واستعادة الأرض المقدسة قبل التفكير فى غزو أراضى ليس من المؤكد أن تصبح فى ايديهم[1] . والواضح انه بالرغم من السمة الدينية التى اتسمت بها الحملة الصليبية ، فقد كانت الاتجاهات الاستعمارية واضحة فيها شأنها فى ذلك شأن زميلاتها من الحملات الصليبية الأخرى وهو أمر لا يمكن إغفاله عند التعرض للحركة الصليبية ودوافعها .

والمهم أن المندوب البابوى أصر على الزحف جنوبا إلى القاهرة ورفض كل الحجج التى نادى بها الملك الصليبى[2] ، مستغلا حماس القوات الصليبية التى أتت أخيراً من أوربا[3] . وغضب من معارضة الملك رغم سلامة الآراء التى نادى بها والتى أظهرت بجلاء حكمته فى ذلك الموقف العصيب الذى تعثرت فيه الآراء الصليبية[4] . وفى الواقع كان الأولى أن تصدر مثل هذه الآراء عن

(١) Michaud, op. cit., II. pp. 254-5.

(٢) Chronique de Tours, p. 938

(٣) Stevenson, op. cit., p. 305.

(٤) Fabri, op, cit., Vol, 2. part. I. p. 36.

قدرتها بحوالى ستة وأربعين ألفا[١] . وعلى أية حال ، قامت القيادة الصليبية بتزويد السفن من الجهة المقابلة للضفة الغربية لدمياط بالستائر ، حتى تكون فى مأمن من الهجمات الإسلامية فى هذا الجانب[٢] . وبهذا التكوين تقدمت القوات الصليبية فى حدها وحديدها من دمياط جنوبا فى النيل وبمحاذاة الشاطىء للتوغل فى ديار مصر[٣] . ووافق ذلك اليوم السابع عشر من شهر يوليو عام ١٢٢١ م (٢٥ جمادى الأولى هـ) ووصلت إلى فارسكور فى اليوم التالى[٤] .

ولما علم الملك الكامل بتحرك هذه القوات زحف بدوره شمالا فعبر بحر أشموم وتقدم نحو شار مساح ، غير أنه رجع ثانية إلى معسكره الحصين فى المنصورة واختار أن يجعل منه محور الارتكاز لجميع خططه المقبلة[٥] . وعلى هذا النحو وجد الصليبيون الطريق مفتوحا أمامهم ولم يعترض طريقهم سوى بعض المناوشات الخفيفة ، فوصلوا إلى شار مساح واستولوا عليها فى الرابع والعشرين من نفس الشهر (٢ جمادى الآخرة ٦١٨ هـ) وكانت خرابا[٦] .

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد ما ذكره تاريخ بطارقة الاسكندرية أنه عندما وصلت القوات الصليبية إلى شار مساح عرض الملك جان دى برين على المندوب البابوى البقاء فى هذه المنطقة بقية عام ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) يقوم الصليبيون خلالها بتحصين المكان وزراعة المنطقة الشمالية حتى دمياط فى الوقت الذى يقوم فيه الأسطول بحراسة المنطقة من شارمساح حتى دمياط حراسة قوية ، خاصة وأن القوات الإسلامية كانت ضعيفة فى تلك الفترة ، كما أنه سيكون بوسع الصليبيين إستقبال النجدات التى تفد اليهم من الغرب . ثم أن

---

(١) Philip de Albeney, op. cit., p. 436.

(٢) Setton, op. cit., II. p. 424.

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٤ . أنظر أيضا :

(٤) Petre de Montacute, op. cit., p. 407 Oliver of Padenborn, Ibid

(٥) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥١ .

(٦) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 74.

مصر فى الوقت نفسه ليست بعيدة عن الصليبيين إلا بمسافة يومين فقط . ولكن المندوب البابوى كعادته لم يوافق على هذا الاقتراح أيضا واتهم الملك الصليبى بالخيانة . كما أنه كان يرى إذ لم يتم الاستيلاء على مصر فى ذلك الوقت فسوف لا يمكن الاستيلاء عليها بعد ذلك إطلاقا وأضاف تاريخ البطارقة أن الملك عندما رأى مصب بحر المحلة[1] ، أبلغ المندوب البابوى[2] أن هذا البحر خطير جدا ويجب حراسته باحدى السفن الكبيرة . وأشار عليه أيضا أنه يجب وضع عشرة سفن فى هذه المنطقة لصد سفن المسلمين إذا قدمت من هذا الفرع ، وبذلك يمكن إتقاء أى هجوم إسلامى على مؤخرة السفن والجيش الصليبى . ولكن القاصد الرسولى لم يلق اعتبارا لكلمات الملك جان دى برين ، ورغم ذلك فان الملك الصليبى لم يمانع فى إستمرار مسيرة الحملة على مسئولية بلاجيوس وتحميله كافة النتائج التى تترتب على هذه المغامرة[3] . وربما يرجع تجاهل ممثل البابا والقيادات الصليبية فى الحملة لأهم نصيحة وجهت اليهم وهى حراسة مصب بحر المحلة ، إلى اعتقادهم بأن بحر المحلة لا يصلح للملاحة[4] . وأن دل ذلك على شىء فانما يدل على جهل ممثل البابا ومن ساندوه بطبوغرافية البلاد المصرية وطبيعة أرضها ، وكان ذلك من الأسباب الرئيسية فى هزيمة

---

(1) «بحر المحلة» يخرج بحر المحلة من فرع مليج عند قرية ضيا الكوم بالقرب من طنطى الواقعة فى منصف الطريق بين مليج والجعفرية . ويمر بقرية الهيثم التى يسميها الادريسى محلة ابى الهيثم ثم ببلقينية حيث تتفرع الترعة المعروفة بهذا الاسم فالمحلة الكبرى إلى أن تتصل بالنيل عند قرية شار مساح . أنظر : ابن مماتى : المصدر السابق ص ٢١٨ ، ٢٢١ . وراجع أيضا :

Omar, Tousson, Memoire sur L'Histoire du Nil, I, pp. 170- 1, 176-7, 203-4.

جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ١٩١ حاشية (١) . انظر أيضا الخريطة رقم (٦) .

(٢) يتضح من هذه العبارة أن القيادة العسكرية للحملة كانت فى يد المندوب البابوى وليست فى يد الملك الصليبى ولو كانت القيادة فى يد الملك لتصرف على ضوء ما رآه بطبيعة الحال .

(٣) Hist Patr. Alex,pp 259-266.

(٤) Oliver of Padendorn, op. cit., p. 81.

الحملة[١] .

وازاء صلف المندوب البابوى تقدم الفرنج حسب الخطة التى رسمها حتى وصلوا إلى طرف جزيرة دمياط[٢] . فى الرابع والعشرين من يوليو (٢ جمادى الآخرة) وأقاموا معسكرهم فى هذا المكان[٣] ، دون مقاومة تذكر[٤] .

ولما علم الملك الكامل الذى كان لا يزال مرابطا فى المنصورة بخروج القوات الصليبية من دمياط على هذا النحو ، بعد أن زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر ويستولوا منها « على ممالك البسيطة كلها »[٥] ، قام بجمع الناس من القاهرة إلى أسوان ، وتولى هذه المهمة الأمير حسام الدين يونس والى الاسكندرية والفقية تقى الدين طاهر الحلى ، كما قام الأمير علاء الدين جلدك والأمير جمال الدين بن صيرم بجمع الناس من المنطقة الواقعة بين القاهرة والحوف الشرقى[٦] ، فتجمع من الجنود أعداد كبيرة ولم يبق غير الشيوخ

---

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٧ . أنظر أيضا :

Setton, op. cit., II. p. 4-4.

(٢) Petre de Montacute op. cit., p. 747.

وجزيرة دمياط : هى المنطقة التى تقع بين فرع دمياط وبحر اشموم وهذان الفرعان كانا يتقابلان عند مدينة المنصورة على شكل مثلث رأسه المدينة المذكورة وقاعدته بحيرة تنيس . انظر : أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣١ حاشية (٣) . أنظر أيضا : الخريطة رقم (٧) .

(٣) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 74.

(٤) Rohricht, op. cit., p. 747.

(٥) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٣ .

(٦) الحوف الشرقى ، قسم العرب بعد فتحهم مصر ، أرض دلتاه اداريا إلى قسمين ، وهما الحوف الشرقى والريف وكان الحوف الشرقى يمثل جميع الأراضى الواقعة شرق فرع دمياط ، من عين شمس إلى دمياط والفرما . وكان الريف عبارة عن بقية أرض الدلتا إلى الاسكندرية . ثم عدل ذلك التقسيم فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وصارت أراضى دلتا النيل ثلاثة أقسام ، وهى الحوف الشرقى ، والحوف الغربى ، وبطن الريف . وكان الحوف الشرقى عبارة عن الحوف القديم ، ما خلا الاراضى الواقعة شمالى بحر أبى صير ، والحوف الغربى هو الأراضى الواقعة غرب فرع رشيد ويشمل أيضا أراضى رشيد وشباس وصا ، الواقعة شرق هذا الفرع . أما بقية الأراضى الواقعة بين فرعى النيل وكذلك الواقعة شمال بحر أبى صير ، فسميت ببطن الريف ، وظل هذا =

والأطفال والنساء[1] .

هكذا استعدت الجبهة المصرية بكافة إمكاناتها لمواجهة الزحف الصليبي .

أما الجبهة الشامية وما فى شرقها فكانت لا تقل هى الأخرى نشاطا من قبل ذلك فى جمع العساكر لنجدة الملك الكامل واستخلاص مصر من أيدى الغزاة ، ففى الواقع كانت كتب الملك الكامل تكاد لا تنقطع إلى أهل بيته يستحثهم فيها على انجاده . وقد قام الملك المعظم بنشاط ملحوظ فى هذا الوقت ، فقد كان « مصيافا لأخيه الكامل » ، كما أنه كان من أحرص الناس « على خلاص دمياط »[2] . فبعد أن اجتمعت العساكر فى حران قادها المعظم تجاه حمص والملك الأشرف فى إثره . وفى الوقت نفسه قام المؤرخ إبن الجوزى بجهد كبير فى سبيل جمع العساكر الإسلامية والتقى مع الملك المعظم فى حمص ومعه الملك الأشرف . ومن الملاحظ أن الملك الأشرف كان مقصرا فى حق أخيه الكامل . لذلك سار مع إبن الجوزى « وهو كاره » ، وابن الجوزى يعاتبه على تقصيره فى حق أخيه وتمكن من إزالة مخاوفه واستراح وفرح المعظم بلقاء أخيه الأشرف وتشاوروا فيما يجب عمله ، فاتفقا على القدوم إلى مصر[3] . وعلى ذلك بدأت الاستعدادات بهمه فى المسير إلى القاهرة فى أول جمادى الآخرة ٦١٨ هـ (٢٣ يوليو ١٢٢١)[4] .

= التقسيم حتى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ثم تغير ذلك كله إلى ما يشبه الأقسام الادارية الحالية . انظر : المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٢ حاشية (٢) ، القلقشندى : المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(١) Hist. Patr. Alex., P.236

أنظر أيضا : المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٠ .

(٢) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٠ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٤ ، هذا وقد أشار بعض خواص الملك الأشرف عليه بارسال العساكر إلى مصر والعودة إلى بلاده خوفا من اختلاف يحدث بعده ، فلم يقبل قولهم وقال : « قد خرجت بنية الجهاد ولابد من اتمام هذا العزم » انظر : ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٣ .

(٤) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦١٩ - ٦٢٠ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٣٨ - ٢٤١ :

وفى الوقت المناسب وصلت هذه الإمدادات إلى المنصورة يتقدمها الملك الأشرف موسى وفى مؤخرتها الملك المعظم عيسى وبينهما بقية الملوك وهم الملك الناصر قلج إرسلان إبن الملك المنصور صاحب حماه[(١)] والمجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك[(٢)] ولما علم الملك الكامل بوصولهم خرج لاستقبالهم « وسر سرورا عظيما » ، وأيقن بحصول النصر والظفر بالعدو[(٣)] ، وبادر بأكرام أخوته وآل البيت الأيوبى ومن معهم ، وقويت نفوس المسلمين وضعفت نفوس الفرنج بما شاهدوه من كثرة العساكر وتجمعهم[(٤)] . ونزل الجميع فى خدمة الملك الكامل بالمنصورة . ويقدر المقريزى عدد الفرسان المسلمين الذين قدموا للنجدة بحوالى أربعين ألفا[(٥)] ومما تجدر الاشارة اليه أن تحركات هذه القوات فى الشام لم تكن خافية على الصليبيين فان الملكة أليس[(٦)] Alic الوصية على عرض قبرص قد أبلغت المندوب البابوى أن الملك المعظم والأشرف يقومان بجمع جيش كبير من القوات الإسلامية فى الشام[(٧)] ، وكانت هذه الأخبار من العوامل التى تذرع بها بلاجيوس للاسراع بالزحف تجاه القاهرة[(٨)] .

---

(١) يلاحظ أن الملك المنصور توفى فى ذى القعدة عام ٦١٧ هـ وكان ابنه الاكبر الملك المظفر تقى الدين محمود فى معسكر خاله الملك الكامل بالمنصورة فى مقاتلة الفرنج ، فقام بمملكة حلب الملك الناصر وكان عمره سبع عشرة سنة انظر : المقريزى المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٥ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٨ .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٤ — ٩٥ . أنظر أيضا :
Hist. patr. Alex., p. 256.

(٤) العينى : المصدر السابق جـ ١٧ لوحة ٤١٨ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٣ .

(٦) هى زوجة الملك هيو ملك قبرص الذى توفى عام ١٢١٨ م وابنه هنرى كونت شامبانى واخت ماريا زوجة الملك جان دى برين السابقة وتولت الوصاية على ابنها هنرى الأول ملك قبرص .
انظر عن ذلك : Runciman, op. cit., III, p. 157.

(٧) Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 82-3

(٨) Setton. op. cit., II. p. 42.

والمهم أن القوات الإسلامية اجتمعت فى مواجهة القوات الصليبية لا يفصل بينهما سوى بحر أشموم ، وكل من الفريقين أصبح فى غاية الاستعداد للدخول فى معركة فاصلة مع الفريق الآخر بأمل الانتصار فى هذه المعركة[1] . فالقوات الصليبية قد إجتمعت للزحف تجاه القاهرة للاستيلاء على مصر ومن بعدها السيطرة على الأراضى المقدسة فالشرق الأدنى الإسلامى كله ، بينما اختلف الهدف الذى اجتمعت من أجله العساكر الإسلامية . فهى لم تجتمع بغرض الغزو أو الاستيلاء أو السيطرة على أراضى الصليبيين ، وانما اجتمعت بغرض طرد الصليبيين من مصر وتحرير أراضيها من عبث الطارق الدخيل ومن ذلك يتضح الاختلاف البين بين الهدفين .

ورغم إجتماع القوات الإسلامية لتحقيق هذا الهدف واستبشار القادة المسلمين بالنصر بعد ما إكتملت عساكرهم ، فان الملك الكامل كان يكره المخاطرة والدخول فى معركة ربما لا تحمد عقباها . فقد كان يخشى نجاح القوات الصليبية فى كسر قواته المرابطة فى المنصورة ، وبذلك يصبح الطريق مفتوحا أمام الفرنج إلى القاهرة ، لذلك تقدم الملك الكامل بعرض آخر للصلح ، وكان العرض الأخير على الصليبيين . وذكرت المصادر العربية أن الكامل تقدم بالصلح أثناء اشتباكات القوات الاسلامية مع القوات الصليبية دون تحديد لتاريخ هذا العرض[2] وأخذت بهذه الرواية بعض المراجع الأجنبية[3] فى حين حددته بعض المراجع الأجنبية أيضا بشهر يونية ١٢٢١ م (ربيع ثانى ٦١٨ هـ)[4] ، فى حين حددته مصادر أجنبية أخرى بالوقت الذى وصل فيه الملك جان دى برين إلى دمياط عائداً من عكا فى أوائل يوليو (منتصف جمادى الأولى)[5] . أما أوليفر أف بادنبورن فقد تحدث عن هذا الصلح بايجاز شديد

(١) Philip de Albeney, op. cit., p. 436.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٣ ق ٣١٤ ص ٣١٥ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٥ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٧ .

(٣) King, op. cit., p. 169/Michaud op. cit., II p. 207

(٤) Runciman op cit., II. p. 166.

(٥) Grousset. op. cit., III p. 235. Lamb p. cit., p. 348

وأورد ذكره قبل أحداث الثامن عشر من أغسطس ۱۲۲۱ م[١] (۲۷ جمادى الثانى ٦١٨ هـ) . ويمكن القول أن الكامل عرض الصلح على الصليبيين فى الفترة التى تقع بعد تحركهم من دمياط السابع عشر من يوليو وقبل الثامن عشر من أغسطس . والأرجح أن الكامل عرض الصلح على الصليبيين بعد استيلائهم على شار مساح (الرابع والعشرين من يوليو) .

وعلى أية حال لم يختلف عرض الصلح فى جوهرة هذه المرة عن المرات السابقة فقد عرض عليهم صليب الصلبوت[٢] ؛ ومدينة بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبله واللاذقية وجميع الأراضى التى فتحها صلاح الدين عدا الكرك والشوبك فى مقابل جلاء الصليبيين عن دمياط ، ولكنهم رفضوا ذلك وطلبوا ثلاثمائة الف دينار عوضا عن تخريب المدينة المقدسة لإعادة تعميرها بالإضافة إلى الكرك[٣] والشوبك[٤] ؛ ويروى المقريزى إنهم طلبوا خمسمائة الف دينار لا ثلاثمائة الف[٥] . ولذلك لم يتم الاتفاق بين الطرفين لتعنت الصليبيين العظيم[٦] ؛ وعلى رأسهم المندوب البابوى بلاجيوس وموقفه المضاد من موقف الملك جان دى برين الذى كان يرى الموافقة على قبول العرض الإسلامى .

وربما كان هذا الموقف المتشدد من قبل المندوب البابوى من هذا العرض بالذات بالاضافة إلى حججه السابقة ، أن هذا العرض قد عرض على الصليبيين فى وقت كان فى غاية الحرج بالنسبة لهم وهو الوقت الذى تلا معركة أغسطس ۱۲۱۹ م بصرف النظر عن العرض الذى تلا مؤامرة ابن المشطوب والعرض

---

(١) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 84.

(٢) Campbell, op. cit., p. 388.

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٤) العينى : المصدر السابق جـ ١٧ لوحة ٤١٨ — ٤١٩ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٧ .

(٦) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٩ ورقة ١٩٤ .

الذى سبق سقوط دمياط . وإذا كان الصليبيون قد رفضوا كل هذه العروض السابقة وهم فى موقف أضعف نسبيا من موقفهم فى هذا الوقت من ناحية القوة العسكرية ، فلم يكن بالغريب عليهم أن يرفضوا هذا العرض أيضاً ، خاصة وأن الأخبار التى حملتها الإمدادات الصليبية التى قدمت فى مايو السابق قد أفادت بقرب وصول الامبراطور فريد ريك[1] . أضف إلى هذا أن القوات الصليبية وهي مرابطة فى هذا الموضع قبالة الجيش الإسلامى ، أصبحت محمية بالخلفية الصليبية المتمركزة فى دمياط . وهكذا تصور الصليبيون أنهم أصبحوا فى أوج قوتهم وأن دفعهم عن دمياط والأراضى التى إستولوا عليها يحتاج إلى جهد عظيم ليس فى مقدور القوات الإسلامية القيام به فى هذا الوقت[2] . ومما لا شك فيه أن رفض العرض يرجع إلى بلاجيوس شخصيا الذى إزداد زهوا وعنادا وغرورا[3] ، وتناسى تعليمات البابا هونوريوس الخاصة بعدم رفض أى عرض للصلح إلا بعد الرجوع اليه شخصياً فى هذا الأمر[4] والمهم أن رفض هذا العرض قد أضاع على الصليبيين آخر فرصة لإستعادة مملكة بيت المقدس ومحو آثار معركة حطين[5] .

ولا يعنى تقدم الكامل بالصلح أنه لم يكن مستعدا للحرب ، فانه بفضل الإمدادات التى وصلت اليه وبقية الإمدادات التى كانت لا تزال تصل تباعا إلى المنصورة ، تكاملت هيئة القوات الإسلامية[6] ، وأصبحت مستعدة لنزال القوات الصليبية برا وبحرا وخوض معركة تحرير الأراضى المصرية من الأجانب الدخلاء .

ويتضح من دراسة الأوضاع العسكرية للقوات الإسلامية والصليبية ومن

(1) Oliver of Padenborn, op cit., p. 70

(2) Setten op. cit, II. p. 423.

(3) Rohricht, Geschichte der Kretzzuge im Umriss p. 20

(4) Oliver of Padenborn op. cit., p. 83.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٨١ .

(6) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٣ .

الأحوال الداخلية فى المعسكرين أن المعسكر الإسلامى كان وقتها أحسن حالا كمًّا وجمعا وروحا معنوية . فالمعسكر الكاملى مسيطر على ضفتى النيل من القاهرة حتى المنصورة بما فى ذلك جوجر وطلخا متحصنين وراء بحر أشموم ، كما أن الأراضى التى ستدور عليها رحى الحرب ذات قنوات وبرك كثيرة تعرفها القوات الأيوبية ولا يعرفها الصليبيون خاصة بعد أن لاحت بشائر الفيضان . أضف إلى هذا أن الجيش المصرى أصبح خاليا من المؤامرات والدسائس التى أقلقت الملك الكامل من قبل ، كما أن أبناء البيت الأيوبى جاءوا إلى مصر على رأس قواتهم فى حماسة ظاهرة[1] ، لا هدف لهم جميعا إلا الجهاد وطرد الصليبيين .

أما الصليبيون فقد اكتفوا باحاطة معسكرهم بالخنادق والأسوار وظلوا ما يقرب من شهر فى هذه البقعة[2] ، وهم يرمون العساكر الإسلامية بالمنجنيق والجروخ معتقدين أنهم منتصرون على المسلمين لا محالة[3] . وأن هذا الغرور الذى إنتاب القيادة الصليبية دفعها إلى عدم اصطحاب المؤن التى تحتاجها القوات الصليبية إلا لعدة أيام فقط ، وقد اعتقد الفرنج أنهم سوف لا يلاقون أية مقاومة من العساكر الإسلامية ، وأن الطريق إلى القاهرة سيكون مفتوحا أمامهم ، وأنهم سيسيطرون على كافة المدن والقرى التى فى طريقهم دون صعوبة ويتمكنون من تزويد الجيش الصليبى باحتياجاته من المؤن[4] .

وعلى أية حال ، فقد ظل بلاجيوس يعد جنوده بالنصر على المسلمين طوال هذه الفترة فى الوقت الذى كان يلازم فيه خيمته فى حالة من الخمول ، مما دفع بعض القوات الصليبية التى ملت هذا الوضع – الذى خلا من الالتحام المباشر بين الطرفين – العودة إلى دمياط[5] . ويذكر تاريخ بطارقة الاسكندرية وبطرس

(١) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٦ – ٥٧ .
(٢) Lamb, op. cit., p. 246.
(٣) Ecacles, op. cit., p. 650.
(٤) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٥ .
(٥) Michaud, op. cit., II, pp. 257-8.

أف مونتاجو رئيس الفرسان الداوية فى أحد خطاباته أن القوات العائدة بلغت أكثر من عشرة آلاف صليبى . ولم يبق إلى جانب بلاجيوس إلا من اعتقدوا أن حالة الركود سوف لا تستمر طويلا[1] ، ولو علموا بما تخطط له القيادة الإسلامية لعادوا مثلما عاد أخوانهم إلى دمياط .

وان كان ذلك هو ما انتهى اليه حال المعسكر الصليبى فان الاخوة الثلاثة الكامل والمعظم والأشرف ظلوا طوال هذه الفترة وهم يتدارسون مواقع القوات الصليبية وتحركاتها سواء أكانت برية أم بحرية ، فضلا عن معرفتهم التامة بطبوغرافية البلاد المصرية . وفى نهاية الأمر إستقر رأيهم على إرسال بعض قطع الأسطول المصرى فى بحر المحلة لضرب مؤخرة السفن الصليبية[2] ، بقصد قطع خطوط المواصلات البحرية - التى تعتمد عليها القوات الصليبية المتمركزة فى دمياط . وهكذا سارت السفن الإسلامية ومعها حراقة كبيرة عليها الأمير بدر الدين حسون إلى رأس بحر المحلة المواجه لشارمساح[3] .

وتقابلت مع السفن الصليبية ، « وقاتلوا الفرنج »[4] . وفى الوقت نفسه تقدمت شوانى المسلمين فى فرع دمياط واشتبكت مع السفن الصليبية المتقدمة الراسية بحذاء المعسكر الصليبى شمالى المنصورة ، وتمكنت البحرية الإسلامية من أسر ثلاث قطع من سفن الصليبيين بمن فيها من الرجال والمؤن والسلاح والأموال ففرح المسلمون بهذا النصر « واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم »[5] .

وتشجع المسلمون بهذا النصر وصدرت الأوامر بضرب باقى السفن الصليبية

---

(1) Hist., Patr Alex., p. 257. Petre de Montacute, op, cit., p. 437.

(2) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٥ .

(3) النويرى : المصدر السابق ٢٧ لوحة ٢٨ .

(4) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٦ .

(5) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ق ١ ص ٢١٤ ، وابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص نفس الصفحة .

الراسية بين المقدمة والمؤخرة ، ونجح المسلمون فى تشتيتها بعد أن أتت النار الأغريقية على بعضها ، فسيطر الرعب على الصليبيين[١]. ويروى كل من إبن الاثير وإبن واصل أنه حتى ذلك الوقت كانت الرسل مترددة فى تقرير قواعد الصلح بين المسلمين والصليبيين الذى لم يتم ، فاضطر المسلمون إلى « قتالهم ومصابرتهم »[٢] .

والمهم أن الملك الكامل نجح فى وضع قواته خلف مؤخرة الأسطول الصليبى ، وحال بينهم وبين دمياط . كما أصبح من المتعذر على السفن الصليبية الباقية التى تصاحب الجيش البرى أن تتعامل مع البحرية الإسلامية لا من المقدمة ولا من المؤخرة بعد ما أصابتها سفن المسلمين بالشلل[٣]. ويسجل تاريخ هرقل ما كانت عليه البحرية الصليبية فى هذا الوقت قائلا أن السفن الصليبية لم يكن باستطاعتها الابحار من دمياط إلى المعسكر الصليبى لأن المسلمين أتوا بسفنهم عن طريق فرع رشيد ودخلوا بها فى نهر النيل عن طريق فرع دمياط[٤] . هذا ، وإن كان مارواه تاريخ هرقل يصور عجز السفن الصليبية الراسية أمام دمياط من إمدّاد الفرنج المعسكرين شمالى بحر أشموم ، فانه فى الوقت نفسه يشير إلى عدم المعرفة بجغرافية البلاد المصرية ، لأن إحضار السفن من فرع رشيد إلى فرع دمياط يتطلب الدخول فى معركة بحرية مع بقية السفن الصليبية — التى أشار اليها — الراسية أمام مدينة دمياط وهو الذى لم يحدث ولم يشر اليه تاريخ هرقل أو المصادر الأخرى سواء أكانت عربية أم أجنبية .

وقامت البحرية المصرية بدور حاسم فى هذه المرحلة ، ونجحت أيضا فى

---

(١) Michaud, op. cit., II. p. 258

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٣١٤ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٥ .

(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤١ أنظر أيضا .
Hist. patr. Alex., pp. 235- 7, Setton op. cit., II. p. 426. Lamb. op. cit. 249.

(٤) Eracles op. cit., p. 320.

أسر ست شوانى بالاضافة إلى جلاسة[1] وبطسة . كما دخلت السفن الإسلامية فى معركة بحرية مع مرمة عظيمة من مرمات الصليبيين المحاطة بعدة حراقات لحمايتها ، وكانت جميعها مملوءة بالمؤن والسلاح وكل ما يحتاجون اليه ، وتمكنت شوانى المسلمين من قتال رجالها واستولت على المرمة الصليبية وعلى ما حولها من الحرقات . وعند ذلك أدرك الصليبيون أنهم يسيرون فى أرض يجهلونها ويجهلون جغرافيتها وطبيعتها[2] وفى السابع والعشرين من جمادى الآخر ٦١٨ هـ (١٨ أغسطس ١٢٢١ م) أيقن الصليبيون أن خط الزجعة قد قطع على سفنهم بعد ما تمكنت البحرية الإسلامية من إغراق أو الاستيلاء على من حاول - مما تبقى من السفن - العودة إلى دمياط[3] .

أما عن الاشتباكات البرية ، فان الصليبيين حاولوا عبور بحر أشموم لملاقاة المسلمين ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل بفعل المنجنيقات الإسلامية المقامة فى معسكر المسلمين بالمنصورة[4] . ومن جانب آخر فان الملك الكامل تمكن من إرسال بعض القوات الإسلامية عبر بحر أشموم . وقد استطاعت هذه القوات من تنظيم نفسها قرب بحيرة تنيس وسيطرت على شمالى المنطقة التى تعسكر فيها القوات الصليبية وقامت بمهاجمتها من الخلف[5] . وهكذا تشتت جهود الصليبيين بين القوتين ، فى الوقت الذى كرس فيه العامة أنفسهم لإزعاج القوات الصليبية فى مواقعها ، فكانوا « يكرون على الفرنج أكثر مما يكر عليهم العسكر »[6] . وإن دل ذلك على شىء فانما يدل على تكاتف المصريين

---

(١) الجلاسة ، أصلها كلمة Galleasse وهى عبارة عن سفينة حربية كبيرة تسير بالشراع والمجداف معا ، وهى أثقل وأقوى أنواع سفن الشينى . سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٢٨ ، محمد يس الحموى : تاريخ الأسطول العربى ص ٣٨ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٥ . ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٦ ، ابن ايبك المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٥٥ .

(٣) Oliver of Padenborn, op. cit., pp. 83-4.

(٤) Lamb, op. cit., p. 249.

(٥) Hist., Patr. Alex. p. 249.

(٦) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٦ .

جيشاً وشعباً لدفع الخطر الذى يهدد بلادهم والعمل يداً واحدة وصفا واحدا على تحرير أراضيهم .

وبعد أن نفذ الملك الكامل خطته فى التصدى للقوات الصليبية من معسكره فى المنصورة وقطع خط الرجعة على الفرنج بتحطيم قوتهم البحرية ، بالاضافة إلى محاصرتهم بقواته البرية فى المنطقة الشمالية لمعسكرهم إختار الوقت المناسب لتوجيه ضربته القاصمة مستغلا فيضان النيل الذى « كان عاليا »[(1)] إذ كان وقت فيضان النيل ، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر[(2)] فقد أمر الملك الكامل طائفة من العساكر الإسلامية بالعبور إلى الأراضى التى يعسكر عليها الصليبيون « ففجروا النيل فركب الماء أكثر تلك الأرض » . وهكذا سدت جميع الطرق أمام الصليبيين من أمامهم وخلفهم ولم يبق لهم جهة يسلكونها إلا جهة واحدة وهى الشريط الضيق الملاصق للنيل ويمتد من معسكرهم شمالا حتى دمياط . وأدرك الملك الكامل ذلك فأمر بنصب الجسور فوراً على النيل عند أشموم طناح ، وعبرت القوات الإسلامية هذه الجسور وسيطرت على هذا الطريق الذى يسلكه الصليبيون إن أرادوا العودة إلى دمياط[(3)] . وكان هذا الطريق هو الأمل الوحيد فى عودة القوات الصليبية إلى دمياط برا بعد إحكام الحصار عليهم برا وبحرا ، وبعد ماغرقت الأراضى التى

---

(1) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٧ ورقة ١٩٤ .

(2) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٧ ، وقد ذكر عبد اللطيف البغدادى أن قمة زيادة النيل فى الاعتدال الخريفى . انظر كتاب وصف مصر ص ١٦ . وجاء فى تقرير بطريق بيت المقدس المرسل إلى البابا انوسنت الثالث فى عام ١٢١٤ م (٦١٠ : ٦١١ هـ) ان فيضان النيل يبدأ من شهر يونيه (بؤونة) وينتهى فى شهر سبتمبر (توت) وتبلغ قمة زيادته فى عيد الصليب ١٤ سبتمبر (١٧ توت) أنظر :

Patriache de Jerusalem. op. cit. d. 932.

انظر أيضا : ابن مماتى : المصدر السابق ص ٢٣٥ .

(3) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٣ ص ٢١٦ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٦ ، ابن الوردى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٣ أنظر أيضا :

Erdcles. op. cit., p. 951. Alberus Stadensis, p. 488. Waltherus de Hemingburgh. 940.

يعسكرون عليها[١] .

وهكذا سيطر المسلمون على الموقف سيطرة تامة ، وأدرك الصليبيون أن العودة إلى دمياط أو التقدم إلى الأمام أصبح مستحيلا[٢] ، وأيقنوا أنهم « ضلوا الصواب بمغادرة دمياط »[٣] ، فى الوقت الذى لم يكن فى حوذة الصليبيين إلا بعض المؤن التى تكفى عدة أيام فقط[٤] . وتشاورت القيادة الصليبية فيما يجب عمله فى هذا السبيل المظلم . وكان أمامها أمران لا ثالث لهما ، أولهما التسليم للمسلمين بعد ما أيقنوا بما فيه من هلاك للقوات الصليبية[٥] ، وثانيهما القيام بمحاولة إنتحارية يائسة للتراجع إلى دمياط[٦] . واستقر رأيهم على الانسحاب وهو أهون الشرين بالنسبة لهم[٧] . وكان يجب تنفيذ هذا القرار فورا وبدون إبطاء لأن الموقف أصبح لا يحتمل التأخير بعد ما فاجأت الخطط الاسلامية القيادة الصليبية التى لم تكن تتوقع مثل هذه النتائج . وسيطرت القوات الإسلامية على ميدان المعركة وأصبح فى مقدور الملك الكامل أن يحرك قواته كيفما شاء ، فى الوقت الذى أصيبت فيه القوات الصليبية بالشلل التام بينما أحاط المسلمون بالصليبيين يرمونهم بالنشاب[٨] « ويحملون على أطرافهم »[٩] :

---

(١) Setton, op. cit., II. p. 420.

(٢) Petre de Montacute, op. cit., p. 438, Philip de Albeney op, cit., p. 436

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ نفس الصفحة .

(٤) Oliver of Padenborn, op. cit., op. 84.

(٥) Waltherus de Hemingburgh, Ibid.

(٦) Lane-Pool, A History of Egypt, p. 224.

(٧) Eracles op. cit., p. 330.

(٨) النشاب ، جمع نشابه وهى ما يرمى بها عن القسى الفارسية ، ويجب أن تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والفتل والثقل والخفة ، ويحدد طولها وقصرها على حسب مقادير الرامى وكتها المربعى المربع أو المثلث . عن ذلك ولمزيد من التفاصيل : انظر : القلقشندى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٣٥ ، الحسن بن عبد الله : المصدر السابق ص ١٦٠ .

(٩) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٣ ص ٢١٥ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٦ . أنظر

وفى الصباح المبكر ليوم الخميس الموافق السادس من رجب ٦١٨ هـ (٢٦ أغسطس سنة ١٢٢١ م) بدأ الصليبيون فى تنفيذ قرار الانسحاب وكان أول ما فعلوه أنهم أشعلوا النيران فى معسكرهم وفى كل ما لا يستطيعون حمله[١] ، بما فى ذلك الأمتعة والخيام ، وأن كانت القيادة الصليبية قد أمرت باحراق ما فى المعسكر الصليبى حتى لا يقع غنيمة باردة فى يد المسلمين[٢] ، فان هذا الاجراء قد عاد على الصليبيين بالضرر أكثر مما عاد عليهم بالنفع ، لأن إشعال النيران فى المعسكر الصليبى قد أعلن للمسلمين بصورة غير مباشرة عن إنسحاب القوات الصليبية وتراجعها إلى دمياط[٣] . وكان ذلك من الأخطاء التى ارتكبها الصليبيون فى سلسلة متلاحقة من الاخطاء التى ارتكبوها . أضف إلى الحالة التى انتهت اليها القوات الصليبية أن كثيرا من الصليبيين الذين لم يرق لهم أن يضحوا بما لديهم من النبيذ وعز عليهم أن يروه ينسكب على الأرض قد شربوه فثملوا[٤] ، مما أفقدهم ما تبقى لديهم من وعى وفاعلية لمقاومة القوات الإسلامية .

وعلى هذه الصورة بدأت القوات الصليبية فى التراجع إلى دمياط ، فى الوقت الذى كان يعلم فيه المسلمون بهذه التحركات . ويروى تاريخ هرقل أن القوات الإسلامية قامت طوال نفس الليلة بتدمير السدود التى كانت أمام وخلف القوات الصليبية . وعندما حل صباح يوم الجمعة الموافق السابع والعشرين من أغسطس (٧ رجب) لم يكن الصليبيون قد تراجعوا سوى ثلاثمائة أميال فقط[٥] ووصلوا إلى ما يقرب من البرامون[٦] ، والمياه تحيط بهم

= أيضا : ابن الفرات : المصدر السابق جـ ١٠ لوحة ٣١ ب و ٣٢ أ ابن أيبك . المصدر السابق جـ ٧ ص ١٩٥ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(١) Hist. Prtr. Alex., P. 257.

(٢) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 84.

(٣) Hist. Patr. Alex., Ibid, cf. also. Oliver of Padenborn, Ibid.

(٤) Oliver op. Padenborn, op. cit., p. 85.

(٥) Eracles, op. cit., p. 351.

(٦) Hist. Part. Alex., p. 257.

من كل جانب والعساكر الإسلامية تسيطر على الطريق الوحيد المؤدى إلى دمياط ، « فلم يبق لهم خلاص »[1] . وبذلك حالت قوات المسلمين دون عودة الصليبيين إلى قواعدهم فى دمياط . وأحدق الخطر بالقوات الصليبية من كل ناحية ، فتشتتت فى المستنقعات التى خلفتها مياه الفيضان فى الوقت الذى قام فيه الفرسان المسلمون باقتناء أثرها[2] .

وحاول الملك جان دى برين إنقاذ القوات الصليبية مما يحيط بها من هلاك فقام بحث الجنود على مقاومة القوات الإسلامية ، وأنبهم على انشغالهم بحالة الفيضان عن الصمود أمام قوات المسلمين . وقام بجمع بعض فرسان جماعات الرهبان العسكرية لدفع المسلمين ، ولكن هذه المحاولة لم تنقذ القوات الصليبية من الهلاك المحقق . فقد قتل فى هذه المعركة – التى استمرت حتى فجر يوم السبت الثامن والعشرين من أغسطس (٨ رجب) – الألوف من الصليبيين[3] . وعندما أصبح الصباح كانت سهام المسلمين تنهال عليهم من كل جانب فى الوقت التى عجزت فيه خيولهم عن الحركة من فعل الطمى والمياه التى تغطى المنطقة بأكملها[4] ، حتى أصبح الصليبيون كالضفادع فى المياه[5] ، أو كالسمك فى الشباك على حد تعبير بطرس دى مونتاجو[6] وفقدوا ما تبقى من المؤن والمعدات ، وطافت أمتعتهم على سطح الماء . فاذا أضفنا إلى هذا كله ما يشعر به الصليبيون من الجوع والارهاق أدركنا مدى الهزيمة التى لحقت بهم ، بينما أدركوا هم من جانبهم أن لا رجاء إطلاقا فى العودة سالمين إلى دمياط[7] . فالقوا ما بأيديهم من سلاح ، ووقعوا بكل سهولة أسرى فى أيدى القوات

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٥ .

(٢) Donovan, op, cit., p. 92.

(٣) Hist. Patr. Alex., Ibid, cf also: Runciman, op. cit., III, p. 168.

(٤) Oliver of Padenborn, Ibid.

(٥) Eraeles, op. cit., p. 351.

(٦) Petre de Moutacute, op. cit., p. 448.

(٧) Philip de Albeney, op. 436.

الاسلامية[1] ، وأصبحوا تحت رحمة المسلمين ، ولم يعد يسمع من الصليبيين غير البكاء والنحيب والأنين[2] .

وكان على القيادة الصليبية تدارك الأمر بأسرع ما يمكن لأنهم لو تركوا قواتهم على هذا الحال لهلكت جميعها دون شك[3] . وأيقن بلاجيوس الذى كان يتولى قيادة الجيش من الناحية الفعلية خطورة الوضع الذى انتهت اليه الحملة وتأكد له أن عدم معرفته بطبيعة الأراضى التى سارت عليها القوات الصليبية كانت السبب فيما حدث لقواته . لذلك استدعى لويس دوق بافاريا وأرسله إلى الملك جان دى برين يدعوه[4] للتشاور وإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد ما لحقت الهزيمة بالصليبيين . وعندما حضر الملك طلب منه المندوب البابوى بلاجيوس متوسلا أن يشير عليه بما يراه لاخراج الصليبيين من هذه المحنة ، وكانت فرصة للملك الصليبى لتأنيب بلاجيوس على ما إقترفت يداه فى حقه وحق الحملة بأكملها . وإنتهت المناقشة بين الطرفين بأن عرض الملك على المندوب البابوى إستطلاع رأى القادة الصليبيين لعرض الصلح على المسلمين[5] . وفى الواقع لم يكن هناك حل آخر غير هذا الحل السلمى الذى يتقدم به الصليبيون بعدما عجزوا عجزا تاما عن دفع القوات الإسلامية[6] . وكان هذا الحل ينطوى بطبيعة الحال على الاستسلام للقوات الإسلامية .

وبعد أن أستمع المندوب البابوى إلى رأى الملك جان دى برين ، وعلم به القادة الصليبيون ، إتفقوا على إرسال سفارة إلى الملك الكامل لطلب الصلح

---

(1) Albertus Stadensis. op. cit., p. 938.

(2) Philip de Alpeney, Ibid. cf also Michaud, op. cit., II, p. 258

(3) Hist. Patr. Alex., p. 257, cf. also. Albertus Stadensis, Ibid.

(4) هذه الكلمه تدل على أن المندوب البابوى بلاجيوس كان يتولى القيادة العليا للقوات الصليبية وأن سلطته كانت تعلو سلطة الملك جان دى برين بدليل أنه هو الذى استدعى الملك وليس العكس .

(5) Eralces, Ibid.

(6) ابن الفرات : المصدر السابق جـ ١٠ لوحة ١٥٢ أ .

وتكونت هذه السفارة من جى الأول صاحب جبيل وجودفرى موست[١] . وتضيف أحد المراجع الأجنبية أن جاك دى فترى كان من هؤلاء المبعوثين[٢] . وتوجهوا جميعا إلى الكامل فأحسن استقبالهم[٣] . وتذكر المصادر الأجنبية أن السفارة الموفدة من قبل القيادة الصليبية عرضت على المسلمين أن يسمح للقوات الصليبية سواء كانت داخل مدينة دمياط أو خارجها بالرحيل فى أمان ومعها كل ممتلكاتها ، وأن يقوم المسلمين والصليبيون باطلاق سراح ما لديهم من الأسرى فى مصر والشام واعادة صليب الصلبوت ، وأن يتكفل الملك الكامل بامداد القوات الصليبية — حتى يتم جلاؤها بالمؤن اللازمة ، وذلك فى مقابل تسليم مدينة دمياط وكل توابعها وأن تكون مدة الهدنة ثمان سنوات ويكون لأى ملك أوربى الحق فى أن يخرقها ، ولتنفيذ ذلك يتم تبادل الرهان بين الطرفين[٤] . أما المصادر العربية فيروى بعضها أن الصليبيين طلبوا « الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض[٥] ، ويذكر البعض الآخر أنهم أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح والرهائن ويسلمون دمياط[٦] ، ويضيف النويرى « ويؤمنهم على أنفسهم وأموالهم »[٧] . أما تاريخ بطارقة الاسكندرية فيتفق مع المصادر الأجنبية فى مدة الهدنة وتبادل الأسرى ، ويضيف أن الشروط شملت قدامى الأسرى أيضا مقابل الجلاء عن دمياط[٨] . ومن الطبيعى أن يشمل عرض

---

(١) Eracles, op. cit., p. 351.

(٢) Michaud, op. cit., II. p. 260.

(٣) Rohrichr, Geshicht des konigceiche Jerusalme, p. 751.

(٤) Philip de Albeney, op. cit., p. 436 Oliver of Padenbord, op. cit., p. 90. Eracles op. cit., p. 351, Matthaw of Westminster II, p. 169. Fabri, op. cit., Vol, 2 Part. I p. 361.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٦ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٧ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٣٠٧ .

(٦) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٢٠ ، ابو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٢ .

(٧) النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٣٢ .

(٨) Hist Patr, Alex., p. 258.

الصلح تسليم مدينة تنيس أيضا إلى المسلمين[١] .

واننا نميل إلى الأخذ بما جاء فى المصادر الاسلامية ، لسبب بسيط هو أن مصر كانت فى مركز القوة وقتها تمسك بيدها زمام المبادأة ، بينما كان الجانب الصليبى فى موقف لا يحسد عليه .. ولا يعقل فى مثل تلك الظروف أن يتقدم الفرنج بمثل هذه الشروط وهم فى الموقف الذى يملى فيه عليهم وليسوا فى الموقف الذى يملون فيه شروطهم على المصريين .

وعلى أية حال ، ففى ضوء العرض الذى تقدم به الصليبيون إستشار الملك الكامل ملوك أهل بيته وأخوته ، فأشار بعضهم على الكامل بعدم اعطاء الأمان للصليبيين وعليه أن يأسرهم جميعا خاصة وأن القوات الإسلامية مسيطرة عليهم سيطرة تامة . وأضافوا أنه لو فعل ذلك فانه بامكانه استرداد مدينة دمياط وليس ذلك فحسب بل سيستطيع أن يأخذ منهم جميع ما تبقى فى أيديهم من الامارات الصليبية بالشام مثل عكا وغيرها[٢] .

وكان كل من الملك المعظم والملك الاشرف من أنصار هذا الرأى[٣] ، فان المعظم كان يرى عدم عقد الهدنة مع الصليبيين وهم الذين يفتقرون إلى الانسانية علاوة على ما إتصفوا به من البربرية فى حروبهم وعدم الوفاء بعهودهم فى السلام . كما أنه كان يرى أن الصليبيين أتوا إلى مصر للاستيلاء عليها ، وبذلك يتمكنوا من السيطرة على الشرق الإسلامى كله[٤] . وربما يرجع مناداة المعظم بهذا الرأى أنه كان يرى فى عودة الصليبيين إلى الشام بكامل معداتهم

---

(١) أشار ابن ايبك أن مدينة تنيس سلمت للمسلمين مع دمياط . أنظر : درر التيجان ورقة ٢٥٨ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٧ ، البغدادى : المصدر السابق لوحة ٤١٤ ، العينى : المصدر السابق جـ ١٧ لوحة ٤١٩ ، ابن الوردى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٤٦ ، ابو الفدا : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٦ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ٩ ص ٢٠٨ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ نفس الصفحة . أنظر أيضا :
Oliver of Padenborn, op. cit., p. 87.

(٤) Michaud, op. cit., II, p. 2-0,

مصدر خطر على ممتلكاته هناك ، ولذلك رأى القضاء عليهم وهم فى هذه المحنة حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة.

ولكن الملك الكامل برهن على أنه منطقى مع نفسه ، وهى صفة من الصفات التى لم تذكرها له كتب التراجم ، فقد مال كل الميل إلى الموافقة على عرض السلام الذى تقدم به الصليبيون وهو رأيه الأصلى من قبل[(1)] . وعلى أية حال فثمة أمور أخرى دفعت الكامل إلى هذه الموافقة ، منها أنه كان يخشى حضور الامبراطور فريدريك الثانى على رأس قواته فينتقم لما حل بالصليبيين[(2)] كما أنه كان يعلم أنه يوجد بدمياط عشرات الألوف من القوات الصليبية وقد حددها تاريخ بطارقة الاسكندرية بتسعين الفا — وأنهم متحصنين بداخلها وإن إستعادتها عن طريق القوة العسكرية يحتاج لمجزرة بشرية لا داعى لها[(3)] . وربما لا يقدر عليها خاصة وأن القوات الإسلامية قد ضجرت من طول مدة الحرب التى بلغت ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تقريبا[(4)] . ثم أن الامدادات الصليبية تصل تباعا إلى دمياط مما سيجعل مهمة القوات الإسلامية صعبة ومعقدة ، وربما لا تحقق النتائج التى يعرضها الصليبيون، أضف إلى هذا كله أخطار التتار التى ملأت أسماع العالم عامة والشرق خاصة[(5)] . وربما كان الملك الكامل يرى إنهاء الخطر الصليبى بالطريقة السليمة ليدخر قواته ويتفرغ للخطر المغولى إذا ما تقدم فى قلب العالم الإسلامى .

وتغلب رأى الملك الكامل فى الموافقة على إقتراح الصليبيين بالجلاء عن مصر. ويروى ابن الجوزى أن الصليبيين لو أقاموا يومين لأخذ المسلمون برقابهم[(6)] .

---

(1) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٨ .

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٨٥ .

(3) Hist. Patr. Alex., p. 257.

(4) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٧ — ٩٨ .

(5) Michaud, op. cit., II. p. 20.

(6) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٢٠ ، السلامى : المصدر السابق ورقة ٢٣٢ .

ولكن المهم أن الكامل وضع شروطا عملية لتنفيذ ذلك[١] ؛ ومما تجدر الاشارة اليه أن قبول المسلمين للعرض الذى تقدم به الصليبيون يدل على سخاء وكرم الملك الكامل[٢] . واتفق الملوك المسلمين على أن يكون مقرر الصلح بينهم وبين الصليبيين المجاهد شيركوه[٣] .

وضمانا لتنفيذ ما تم الاتفاق بين الطرفين طلب الملك الكامل من الصليبيين تقديم الرهائن وكان عددها أربع وعشرين حتى يتم تسليم دمياط . واشتملت الرهائن الصليبية على الملك جان دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس ولويس دوق بافاريا ورؤساء جماعة الرهبان العسكرية وهم جارنيه مونتاجو مقدم الاسبتارية بالأراضى المقدسة وأخيه بطرس مونتاجو مقدم الفرسان الداوية وهرمان فون سالزا مقدم الفرسان التيوتون وثمانية عشر آخرين[٤] . وتذكر بعض المراجع الأجنبية أن جاك دى فترى كان من بين هؤلاء الرهائن[٥] ، وتشير بعض المصادر العربية أن الملكة صاحبة عكا كانت ضمن الرهائن الصليبية[٦] .

كما أشار إبن أيبك أن مجموع الرهائن كان أربعة عشر ، من بينهم

---

(١) Stevenson op. cit., p. 307.

(٢) Lamb, op. cit., q. 250

(٣) ابن الفرات : المصدر السابق جـ ١٠ لوحة ٣٢ أ .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٨ وحاشيه ١ ، ٢ ، ٣ أنظر أيضا :
Olive of Padenborn, op. cit., p. 90. Phillp de Albeney. op. cit., p. 439. Eraclss. op. cit., p. 531.

(٥) Michaud, op. cit., II. p. 260 & n. 1, Archer and Kingsford op, cit., p. 378.

(٦) : ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ١٩٦ Hist.Patr.Alex., p. 2-8.
وقد أخطات هذه المصادر فى ذكر ملكة عكا ضمن الرهائن لأن الملكة استيفانى زوجة الملك جان دى برين الاخيرة قد مات فى عام ١٢٢٠ م أثناء تواجد الملك فى عكا غائبا عن الحملة أنظر ما سبق ص ٣٠٣ ، وربما يقصد بها مارجريت ابنة أخى الملك جان دى برين التى وصلت إلى دمياط مع بعض الأمدادات فى سبتمبر ١٢١٩ م . انظر ما سبق ص ٢٠٢ .

« كرموك » صاحب صقلية[1] ، « وكندنور » صاحب جزيرة النمسون[2] ، « وكندريس » الكبير[3] أما بقية الأسماء التى أوردها فغير مستوفاه ومحرفة تحريفاً كبيراً[4] . .

أما الرهائن الإسلامية ، فقد أرسل الملك الكامل إبنه الصالح نجم الدين أيوب ، وكان عمره آنذاك خمس عشرة سنة وجماعة من خواصه[5] . وكان من بين هؤلاء الخواص شمس الدين ابن أخت الملك الكامل[6] . ويضيف تاريخ بطارقة الاسكندرية اليهم غياث الدين أخ الملك الكامل[7] . ويذكر النويرى أن المفضل قطب الدين كان من بين الرهائن الإسلامية أيضاً[8] وبعد أن تبادل الطرفان الرهائن تقررت الهدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثمان سنوات طبقا للشروط المتفق عليها . واقسم الملك الكامل وأخوته كما أقسم القادة الصليبيون على ذلك[9] . وأرسلت سفارة صليبية على رأسها بطرس مونتاجو مقدم الفرسان الداوية وهرمان فون سالزا مقدم الفرسان التيوتون بعد أن أطلق الكامل سراحهما ومعهما لويس دوق بافاريا إلى دمياط لابلاغ الحامية الصليبية التى تعسكر بالمدينة بما تم عليه الاتفاق[10] . وفى الوقت الذى وصلت فيه هذه

---

(١) لعل المقصود به متى كونت أبوليا الذى وصل دمياط فى يوليو ١٢٢٠ م . أنظر ماسبق ص ٣٠٥ .

(٢) هى جزيرة قبرص وصاحبها آنذاك هنرى الأول ، وكان طفلا لم يتجاوز عمره تسعة أشهر ، ولعل المقصود به أيوسترج رئيس اساقفه نيقوسيا أو جوتيه قائد جيش قبرص الذى حضر إلى دمياط وانضم إلى القوات الصليبيين بعد مؤامرة ابن المشطوب .

(٣) لم أتمكن من تحديد هذا الاسم ولعله أحد الكونتات .

(٤) ابن ايبك : المصدر السابق جـ ٣ ورقة ٩٧ .

(٥) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٧ ص ٩٨ .

(٦) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٢١ ، السلامى : المصدر السابق ورقة ٣٢٣ .

(٧) Hist. Patr, Alex., p. 258.

(٨) النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٣٣ .

(٩) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٩ أنظر أيضا :

Hist.Part. Alex. Ibid, Albertus Stadensis, op. cit., p. 938.

(١٠) Oliver of Padenborn op. cit., p. 91.

السفارة وصل هنرى كونت مالطة والمارشال أنسلم Anselm[1] ، وولتر أف باليز Walter of Palear[2] . من قبل الأمبراطور فريدريك على رأس نجدة عظيمة محمولة على أربعين سفينة[3] .

وعندما أبلغت الحامية بأخبار الاتفاق ثارت وتمردت وهاجمت منازل الملك الصليبى وجماعة الرهبان العسكرية[4] ، وفى الوقت نفسه سرت ضجة عظيمة فى المدينة وقرر البعض العودة إلى أوربا بعد ما ملأهم يأس الهزيمة ، كما أسرع البعض الآخر باقامة الحواجز داخل المدينة ، واستولوا على الابراج واقسموا بالدفاع عنها ، وقرروا عدم تسليمها للمسلمين[5] وقد شجعهم على ذلك الامدادات التى بعث بها الامبراطور فريدريك الثانى . فقد أستعد هنرى كونت مالطة ومن معه للدفاع عن المدينة[6] . كما أن هذه الإمدادات قد شعرت بالمرارة لهذه النتيجة التى انتهت اليها الحملة ، ولأن الإمدادات التى وصلت من قبل بقيادة لويس دوق بافاريا قد تصرفت من تلقاء نفسها على عكس الأوامر التى تلقتها من الامبراطور فريدريك . والمهم أن الألمان والايطاليين وأهل صقلية قد تكتلوا مع بعضهم وعارضوا تنفيذ المعاهدة ، على العكس من فرسان الداوية الاسبتارية والفرنسيين وصليبى الشام الذين وقفوا إلى جانب تنفيذ المعاهدة . وانتهت وجهات النظر بين الطرفين بالصدام المسلح[7] وعندما علم الملك جان دى برين بما حدث أرسل اليهم يخبرهم بأنه سيضطر ومن معه من القادة الصليبيين إلى تسليم عكا للمسلمين اذا رفضوا تنفيذ المعاهدة[8] ، وكان هذا

---

(١) Wiegler, op. cit., p. 107.

(٢) Setton op, cit., II, p. 427.

(٣) Oliver of Padenborn, op. cit., p. 91.

(٤) Setton, op. cit., II. p. 47. also: Runciman, op. cit., III, P. 129.

(٥) Michaud, op. cit., II, 261.

(٦) Petre de Montacute, op, cit., p. 437.

(٧) Setton, Ibid, cf also : Runciman, Ibid.

(٨) Michaud, Ibid.

التهديد كفيلا بانهاء هذا التمرد . وفى النهاية وافق الجميع على شروط المعاهدة[١] . ومما تجدر الاشارة اليه أن الملك الكامل لم يتأثر بالصراع الذى دار فى دمياط ولم يلق له وزنا ، لأنه كان يعلم أن القوات الرئيسية للحملة واقعة تحت رحمته[٢] . ومن الملاحظ أن من شروط الصلح أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين المحددة بثمان سنوات قد استثنى منها ملوك أوربا فلهم أن ينقضوها إذا أرادوا ، ولقد كانت الامدادات التى وصلت إلى دمياط بقيادة هنرى كونت مالطة من قبل الامبراطور فريدريك الثانى من حقها خرق هذه الهدنة دون أن تخل بشرط الصلح[٣] ، غير أن وجود الرهائن لدى الملك الكامل ، وتهديد الملك جان دى برين بتسليم عكا للمسلمين ، ووقوع معظم القوات الصليبية تحت السيطرة التامة للقوات الإسلامية ، قد أخافهم من عواقب ذلك[٤] .

وعانت القوات الصليبية طوال هذه الفترة آلام الجوع والمرض والفيضان فى الوقت الذى عامل فيه المسلمون الملك جان دى برين ومن معه من الرهائن بكل إحترام وكرم . فقد قدمت لهم الاطعمة والفاكهة بما فيها الرمان والبطيخ[٥] . ولم ينس الملك الصليبى الهلاك الذى يحيط بقواته فذهب إلى خيمة الملك الكامل والقى بنفسه على الأرض ورأسه بين يديه الأمر الذى دفع الملك الاسلامى إلى سؤاله – بلغة الملوك – عن سبب هذا الحزن ، فأجابه الملك الصليبى أن ذلك من أجل القوات التى تموت جوعا[٦] ، وتأثر الكامل من منظر الملك الصليبى وبكى هو الآخر[٧] ، وتجلت الرحمة فى نفسه وأمر بامداد القوات الصليبية بما يلزمها من المؤن[٨] . فارسل اليهم خمسة آلاف رغيف من

(١) Setton, Ibid.

(٢) Runciman, Ibid.

(٣) Lane- Poole, op. cit., p. 224.

(٤) Stevenson, op, cit., p. 297.

(٥) Hist. Patr. Alex.,p. 258.

(٦) Lamb, Ibid.

(٧) Michaud, op. cit., II. p. 261.

(٨) Ludlow, The Age of The Crusades, pp. 311-2.

الخبز ومائتا أردب من القمح والشعير يوميا[١] . بينما تذكر المراجع الأجنبية أن الكامل أرسل ثلاثين ألف رغيفا إلى الصليبيين يوميا ولمدة أربعة أيام متوالية حتى إنحسرت مياه الفيضان[٢] . ثم قام بعد ذلك بارسال الخبز واللحم ليشتريها من يستطيع ذلك ، أما الفقراء منهم فقد إستمر الملك الإسلامى فى إرسال ما يحتاجون اليه من الخبز لمدة خمسة عشر يوما وهى المدة التى سبقت إجلاء القوات الصليبية عن المنطقة الغارقة[٣] . ولم تشمل الرحمة القوات الصليبية فحسب بل شملت دوابهم أيضا . فقد أرسل اليها الملك الكامل العليق دون مقابل ، كما أمر أيضا بنقل المرضى والضعفاء من الصليبيين من معسكرهم الغارق بالمياه إلى دمياط . وقد أثرت هذه المعاملة الانسانية وتلك الرأفة التى تجلت فى أسمى معانيها من قبل الملك الاسلامى فى اولفر أف بادنبورن ، فأرسل خطابا إلى الملك الكامل يشكره على ذلك ويصفه فيه بالأب الخير الرؤوف الحازم الكريم[٤] .

وبعد أن أستقرت الأوضاع بين الطرفين جلس الملك الكامل فى المنصورة مجلسا عظيما فى خيمة كبيرة عالية ومد سماطا عظيما ، وأحضر ما عنده من الرهائن الصليبية ووقفَ الملك الكامل والمعظم والأشرف وبقية الملوك فى خدمته[٥] ، بينما يروى النويرى أن الملك الكامل أجلس إلى جانبه الملك المعظم لأنه كان يعظمه تعظيما كبيرا لما أبداه فى الجهاد إلى جانبه منذ وصول الصليبيين إلى أرض مصر . ويضيف النويرى أنه زيادة فى تعظيمه فوضه الكامل نيابة عنه حتى إذا حضر رسول من الفرنج يقول لهم « أنه الآن لا حكم لى وحديثكم مع

---

(١) ابن ايبك : درر التيجان (مخطوط) ورقة ٢٥٨ .

(٢) Michaud, op. cit., II, p. 252.

(٣) Petre de Montacute, op, cit., p. 439.

(٤) Oliver Scolastiqus, Letter to The King of Fgypt, El- Kamel Mohamed, cf, Rohricht, Goschrichte des Konigreichs Jerusalem, p. 753.

(٥) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٢١ .

ملك الشرق والأمر له »[1] . وفى هذا المجلس رأى الفرنج من عظمة الملك الكامل « وناموسة ما هالهم »[2] . وأكرم الملوك الأيوبين الملك جان دى برين ومن معه وتبادل الملك الإسلامى والملك الصليبى الهدايا بعد ما قام الملك الكامل بكل واجبات الضيافة[3] . وتبادل الشعراء[4] المديح فى تخليد هذه الذكرى[5] . ثم أرسل الفرنج قساوسهم ورهبانهم إلى دمياط لتسليم المدينة إلى المسلمين[6] .

وعهد الملك الكامل إلى الأمير شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى[7] باستلام المدينة من الصليبيين بعدما ولاه إياها[8] . ويروى ابن واصل أن المدينة كانت فى غاية الحصانة « ولا يوصل اليها » كما كان للفرنج بالمدينة صوارى عظام جداً ، وقد أراد الصليبيون حملها معهم عند رحيلهم إلى بلادهم ، ولكن شجاع الدين منعهم من ذلك ، فاشتكوا إلى الملك الكامل يقولون « أن هذه الصوارى لنا ، وأن مقتضى الصلح أن ترد الينا » ، فكتب الكامل إلى شجاع

---

(١) النويرى : المصدر السابق جـ ٢٧ لوحة ٣٢ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٨ — ٩٩ .

(٣) Hist. Part. Alex., p. 259.

(٤) من هؤلاء الشعراء شرف الدين بن عين وست الفخر مغنية الأشرف . ابن واصل جـ ٤ ص ١٠٠ وما بعدها . وجارية الملك الكامل ، وهبة الله ابن عاسن قاضى غزه . المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢١٠ وراجع بن أبى القاسم الاسد الحلى وهو من مداحى الملوك بمصر والشام والجزيرة . أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٢ . كما مدح كمال الدين على بن محمد بن النبيه الملك الأشرف موسى بهذه المناسبة . انظر : ديوان ابن النبيه ص ٦٦ — ٦٨ . وعن شعر بهاء الدين زهير فى هذه المناسبة أنظر : ديوان البهاء زهير ص ١٢١ — ١٢٤ .

(٥) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٢١ .

(٦) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٩ .

(٧) كان شاعرا وسمع كثيرا من الحديث النبوى على الحافظ السلفى وولى نيابة الاسكندرية أيضا ويقال أنه نسخ بيده أربعا وعشرين مصحفا وكان سمحا جوادا ، محبا للعلم والعلماء مكرما لهم يساعدهم بماله وجاهه وقد توفى فى شعبان عام ٦٢٨ هـ (يونيه ١٢٣٠ م) . أنظر : الكتبى : فوات الوفيات جـ ١ ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٨) أبو الفداء : المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٦ .

يأمره برد الصوارى اليهم ، ولكن شجاع أصر على الامتناع وقال « أن الفرنج أخذوا منبر جامع المدينة وكسروه وأهدوا كل قطعة منه إلى ملك من ملوكهم وطلب من الملك الكامل أن يأمرهم برد المنبر ليرد اليهم الصوارى ، فأبلغ الكامل الصليبيين بما طلبه شجاع الدين فعجزوا عن رد المنبر ، وأعرضوا عن ذكر الصوارى[1] . وأن دلت هذه الرواية على شيء فانها لتدل على ديمقراطية القيادة وشجاعة الأمير جلدك .

أما عن القوات الصليبية الغارقة فان الملك الكامل أمر فى اليوم الرابع لاستسلام الصليبيين الموافق الثانى عشر من رجب عام ٦١٨ هـ (أول سبتمبر ١٢٢١ م) باقامة السدود فانحسرت المياه عن الأراضى التى عليها القوات الصليبية[2] . ويروى تاريخ هرقل أنه أمكن بعد ذلك للصليبيين أن يعودوا إلى المدينة ولكنهم لم يدخلوها[3] . ويذكر تاريخ بطارقة الاسكندرية أن الملك الكامل أمر أخيه الملك الحافظ نور الدين أرسلان صاحب قلعة جعبر ببناء جسر من السفن بين الضفة الشرقية والضفة الغربية للنيل ليعبر عليه الصليبيون[4] . والواقع أن الكامل أمر باقامة السدود حتى يوقف تدفق الفيضان إلى المنطقة التى يعسكر عليها الصليبيون وهى المثلث المحصور بين النيل وبحر أشموم . وبذلك أمكن للصليبيين السير شمالا حتى وصلوا إلى العادلية تقريبا ، ثم أقام الملك الكامل جسرا لتعبر عليه القوات الصليبية إلى جيزة دمياط وبذلك يتجنب الكامل دخول الصليبيين المدينة . لأنه لو أقام الملك الجسر شمالى بحر أشموم للعبور إلى الضفة الغربية لاحتاج الأمر إلى جسر آخر عبر بحر المحلة وجسرا ثالثا لعبور الخليج الأزرق حتى يصل الصليبيون إلى جيزة دمياط .

وبعد خروج القوات الصليبية من المنطقة الغارقة سلمت مدينة دمياط نهائيا

(١) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) Crousset, op. cit., III, p. 242.

(٣) Eracles op. cit., p. 342.

(٤) Hist. Patr. Alex., p. 253.

للمسلمين يوم الخميس التاسع عشر من رجب ٦١٨ هـ (٨ سبتمبر ١٢٢١ م) بعد آذان العصر[١] ، وكان تسليمها يوما مشهودا « عاد به الدين الإسلامى جديداً بعد أن ساءت به الظنون وخيف على الديار المصرية والشامية من الفرنج خوفا شديداً »[٢] . وبعد أن تمت كافة الترتيبات واطمأن كل من الفريقين إلى تنفيذ الطرف الآخر للشروط المتفق عليها وإستلم المسلمون مدينة دمياط ، أطلق كل فريق ما لديه من الرهائن[٣] . ويذكر تاريخ بطارقة الاسكندرية أن الرهائن الإسلامية كانت محجوزة فى احدى السفن الصليبية الراسية فى البحر المتوسط[٤] ، بينما يروى تاريخ هرقل أنها أستضيفت فى أحد المنازل البعيدة عن نهر النيل . وظل الصليبيون يحتفظون بهم حتى دخل المندوب البابوى بلاجيوس ورجاله سفنهم ، وبدأت فى الابحار مع النيل[٥] ، شمالا إلى البحر المتوسط . وعلى أية حال ، فانه فى نفس اليوم الذى عادت فيه مدينة دمياط للمسلمين جلت أيضا القوات الصليبية عن مصر ، وقد سار بعضها عن طريق البحر وفريق منها فى طريقه إلى أوربا والفريق الآخر فى طريقة عكا . كما سار البعض الآخر عن طريق البر[٦] . ومن الطبيعى أنها إتخذت طريقها شمال صحراء سيناء فى طريقها إلى الامارات الصليبية بالشام . وذكرت المراجع الأجنبية أن الكامل قد وعد الصليبيين بحمل صليب الصلبوت معهم عند رحيلهم من دمياط[٧] ، ولكنهم لم يأخذوه ، وإدعى الكامل أن كهنة كنيسة

---

(١) ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ١٩٧ – ١٩٨ أنظر أيضا :
Philip de Albeney, op. cit., p. 436. Annales de Terre Sainte, P. 437, Matthew of Westminster, op. cit., II p. 139.

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٩٩ .

(٣) Setton, op. cit., p. 428,

(٤) Hist. Patr. Alex., p. 258

(٥) Eracles, op. cit., p. 352.

(٦) ابن الجوزى : المصدر السابق جـ ٨ ق ٢ ص ٦٢٠ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٤٣ أنظر أيضا :
Rohricht, Geschichte du Kreuzzuge im Umriss, P. 209.

(٧) Runciman, op. cit., III, p. 169.

القيامة قد خبأوه[١] . بينما ذكرت بعض المصادر الاجنبية المتأخرة أن الصليبيين حملوه معهم عند الرحيل[٢] . ولكن من الثابت تاريخيا أن الصليبيين إستولوا على صليب الصلبوت عندما دخلوا بيت المقدس لأول مرة واسترده صلاح الدين فى موقعة حطين ولم يعد للصليبيين بعد ذلك[٣] . ويروى تاريخ البطارقة أن الملك الكامل زود الصليبيين بالمؤن والحاجيات الضرورية اللازمة لهم أثناء عودتهم إلى بلادهم[٤] . وإن دل ذلك على شيء فانه يدل على كرم الملك الكامل وسماحته .

ولم يتبق بعد ذلك سوى إطلاق سراح الأسرى من الجانبين[٥] ، وفيما يتعلق بالاسرى الصليبيين الذين كانوا بمصر فقد تولى أمرهم الوزير الصاحب صفى الدين بن شكر فأطلقهم فى الثانى عشر من رمضان عام ٦١٨ هـ (٣٠ أكتوبر ١٢٢١ م) . وكان من بينهم أسرى منذ عهد صلاح الدين الأيوبى[٦] . ويتضح من هذا التاريخ أن عملية اطلاق الأسرى تمت بعد رحيل القوات الصليبية من دمياط ، وربما أعدت هذه الترتيبات حتى يعود القادة الصليبيون إلى عكا ويستعدون لإطلاق سراح أسرى المسلمين من جانبهم أيضاً . وذكرت بعض المصادر الأجنبية المعاصرة أن عدد الأسرى الذين أطلق سراحهم بلغ ثلاثة آلاف من الصليبيين[٧] . وهو العدد نفسه الذى ذكره جاك دى فترى فى خطابه المؤرخ فى الثامن عشر من إبريل عام ١٢٢١ م (١٠ صفر ٦١٧ هـ) المرسل للبابا هونوريوس الثالث[٨] .

---

(١) Duggan, op. cit., p. 220.

(٢) Albertus Stadensis, op. cit., P. 938.

(٣) Waltherus de Hemingburgh, op. cit., p. 940. cf, also : Runciman, op, cit., I, p.294. II. p. 459.

(٤) Hist. Patr. Alex., p. 259.

(٥) Waltherus de Heminhburgh, Ibid.

(٦) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٩ .

(٧) Albertus Stadensis, Ibid.

(٨) Vitry. Lettres de Jacques de Vitry. p. 138.

وكانت عملية إطلاق الأسرى هى الجولة الأخيرة للحملة الصليبية الخامسة وهكذا « أعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه ورده إلى أربابه وأعطى المسلمين ظفراً لم يكن فى حسابهم فانهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التى أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط فرزقهم الله إعادة دمياط ، وبقيت البلاد على حالها فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين »(1) .

أما الملك الكامل فقد دخل مدينة دمياط ومن حوله أخوته وأهل بيته ، وكان يوم دخوله لها يوما عظيما مشهودا(2) . ثم عاد إلى القاهرة ودخلها فى الثامن من رمضان ٦١٨ هـ (٢٦ أكتوبر ١٢٢١ م) ، وكان دخوله يوم عيد وزينت البلاد بالأعلام(3) ، وكافأ الملك الكامل أخوته وأنعم عليهم بالذهب والخيل والقماش(4) ، وأذن لهم فى العودة إلى بلادهم . فرجع كل منهم إلى بلاده وعمت بشائر النصر آفاق البلاد الإسلامية كلها(5) ، إبتهاجا بالإنتصار على الصليبيين وجلاء القوات المعتدية عن الأراضى المصرية .

ولقد تسامع الشرق والغرب بأخبار الحملة الصليبية التى هدفت الإستيلاء على مصر ، وهال المعاصرون أن هذه الحملة استولت فعلا على ثغر دمياط لمدة غير قصيرة(6) ، وهالهم أيضا أنها انتهت بفشل ذريع بعد ما قاربت النجاح(7) ، ورحلت وهى تحمل عار الهزيمة والخذلان(8) .

أما عن أسباب فشل الحملة الصليبية الخامسة فيرجع إلى عدة عوامل بعضها

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٢١٦ .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٠٥ .

(٣) Hist. Patr. Alex., p. 257.

(٤) ابن دقماق : الجوهر الثمين (مخطوط) ورقة ٩٨ .

(٥) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ١٠٥ .

(٦) محمد مصطفى زيادة : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٧) Runciman, op. cit., III, p. 169.

(٨) Lane-Poole, The Story of Cairo, p. 190.

يتعلق بالجانب الصليبى ، والبعض يتعلق بالجانب الأوربى ، والبعض الآخر يتعلق بالجانب الإسلامى . كما أن بعض هذه الأسباب جوهرى والبعض الآخر ثانوى وقد تكاتفت كلها معا فى إلحاق شر أنواع الهزيمة بالصليبيين .

والسبب الرئيسى لفشل الحملة يرجع إلى الجانب الصليبى ويشمل عدة نواح . ومن أهمها إن لم يكن أهمها على الاطلاق أخطاء رجال الدين وغرورهم وإعتدادهم بأنفسهم(١)، وعلى رأسهم المندوب البابوى بلاجيوس الذى وصفته المراجع الأجنبية بالغباء والعجرفة وعدم الحيلة ، فضلا عن أنه كان متشبثا برأيه وغير محبوب(٢) . كما أنه تناسى وضعه فى الحملة كمندوب للبابا وليس قائدا عسكريا ، وتدخل فى إتخاذ القرارات العسكرية وكان عليه أن يترك هذه الأمور للخبراء العسكريين ، وكانت حجته أن الصليبيين ليسوا أداه فى يد مملكة بيت المقدس ، ولكنهم أداة الكنيسة وبصفته مندوب البابا والكنيسة فيكون له الحق فى إدارة الحملة بالكيفية التى يراها(٣) . وعلى هذا تصرف كقائد عسكرى وليس كرجل دين(٤) . وقد أدى تصرف المندوب البابوى على هذا النحو إلى إختلاف وجهات النظر بينه وبين الملك جان دى برين . وأخذت الخلافات بين الطرفين تزداد يوما بعد يوم مما أدى إلى إزدواج القيادة على الحملة . وقد أدى هذا الازدواج مع اختلاف الآراء إلى ضياع الفرص الذهبية التى أتيحت للقيادة الصليبية لتحقيق أهداف الحملة . ذلك أن الملك الكامل عرض على الصليبيين الجلاء عن دمياط نظير إستعادة جميع الأراضى التى فتحها صلاح الدين عدا الكرك والشوبك بعد مؤامرة إبن المشطوب وعبور القوات الصليبية إلى الضفة الشرقية للنيل . ووافق الملك ومؤيدوه على هذا العرض الذى يحقق أهداف الحملة سلميا ، بينما وقف المندوب البابوى ومن يساندوه فى جانب المعارضة . ثم تقدم الكامل بهذا العرض مع بعض الأموال بعد ذلك مرتين قبل

---

(١) Eracles, op. cit., p. 352.

(٢) Runciman, op. cit., III, p. 170.

(٣) Setton, op. cit., II., p. 403.

(٤) Gibbon, The Crusades, p. 71.

سقوط دمياط ومرة أخرى أثناء زحف الصليبيين على القاهرة . وتمسك الملك والمندوب كل منهما بموقفه السابق من العرض . وكان على المندوب البابوى تدارك الأمر فى المرات الأخرى . وقد تسببت تمسكه بقرار الرفض فى ضياع مملكة بيت المقدس والقضاء على الهدف الأصلى للحملة وضياع دمياط وفقدان الأرواح وأخيرا الحاق الهزيمة بالقوات الصليبية ، ويرى فلكس فابرى أنه كان يجب عقاب الممثل البابوى بتقطيعه ألف قطعة على ما أقترفت يداه فى حق الحملة وعلى تسببه فى الحاق العار والخزى بالصليبيين جميعا لرفضه عروض الصلح التى تقدم بها المسلمون متجاهلا تعليمات البابا اليه[1] . ويرى رانسيمان أن بلاجيوس كان له العذر عندما رفض عروض الصلح لأنه كان يرى أنه من المتعذر على الصليبيين الاحتفاظ بمملكة بيت المقدس بدون وجود قلعتى الكرك والشوبك فى حوزتهم[2] . وأيا كان موقف كل من المندوب البابوى والملك جان دى برين من عروض الصلح السخية التى تقدم بها الملك الكامل محمد ، فقد كشفا النقاب عن أطماعهما وتطلعاتهما إلى الزعامة والقيادة الأمر الذى أضر بالحملة ضررا بالغا .

وإذا كان ذلك هو الجانب الأساسى الذى تسبب فى ضياع أهداف الحملة ، فان من أهم الأسباب العسكرية التى تسببت فى هزيمة الحملة عسكريا هو جهل الصليبيين بجغرافية البلاد المصرية وطبوغرافية الطريق الذى اختاروه للزحف صوب القاهرة ، وهو الطريق المحاذ لفرع النيل الشرقى (فرع دمياط) مارا بفارسكور وشارمساح والمنصورة ، رغم علمهم بمواعيد ارتفاع وانخفاض مياه النيل[3] . وكان يعترض هذا الطريق العديد من الترع والقنوات التى تتفرع من

---

(١) Fabri, op. cit., Vol. 2, Part I, p. 361.

أنظر أيضا سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٨٠ :

Archer & Kingsford, op. cit., p. 378, Grousset, op. cit., III. p. 255.

King op. cit., p. 192, Michaud, op. cit., II. p. 263.

(٢) Runciman, op. cit., III, p. 170.

(٣) ورد فى التقرير الذى أرسله بطريق بيت المقدس إلى البابا أنوسنت الثالث عام ١٢١٤ م أن فيضان النيل يبدأ من شهر يوليه كل عام وتبلغ قمة الزيادة لماء النيل فى عيد الصليب ١٧ سبتمبر . أنظر : =

النيل وهى أشبه بشبكة الصائد وتصلح لأن تكون أفخاخا وكائن للايقاع بالجيش الصليبى . أضف إلى ذلك أنه محصن بمراكز الدفاع القوية التى تستطيع القوات المصرية استغلالها ضد القوات الصليبية . وفى الحقيقة أن غزو مصر من هذا الطريق كان مصيره الفشل[1] . وقد فطن أحد المعاصرين لهذا الخطأ ، إذ كتب نيقولا الأول بطريق طائفة الملكانيين بالاسكندرية فى عام ١٢٢٢ م (٦١٩ هـ) ، بعد رحيل الحملة ، إلى البابا هونوريوس الثالث يدعوه فيه إلى حث الأمبراطور فريدريك الثانى على سرعة المجىء إلى الشرق لمحو العار الذى لحق بالحملة الصليبية الخامسة ، ويسجل فيه أن طريق السلامة هو أن تدخل السفن الصليبية من فرع النيل عند رشيد وترسى فى مدينة فوة وبذلك تكون بعيدة عن الأخطار . ويستطيع الأمبراطور حينئذ أن يستولى على مصر كلها ، خاصة أن فرع النيل الغربى (فرع رشيد) واسع وعميق ، كما أن المنطقة التى سترسى فيها قوات الأمبراطور محصنة ومليئة بالخيرات[2] . ورغم هذه المعلومات القيمة والخطيرة عن طبوغرافية البلاد المصرية ، إلا أن حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر عام (١٢٤٨ - ١٢٥٠ م / ٦٤٦ - ٦٤٨ هـ) إتخذت نفس الطريق الذى اتخذته حملة جان دى برين ، ولذلك كان نصيبها الفشل[3] . وفى الحقيقة أن مسئولية الفشل فى هذا الجانب ترجع إلى الملك جان دى برين . فهو الذى إختار مدينة دمياط لبداية العمليات العسكرية ضد مصر فلم تكن دمياط بالمدينة التى تصلح لتكون قاعدة يتقدم منها الصليبيون لغزو مصر[4] .

= Patriarche de Jerusalem, op. cit., p. 932.

(١) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٢٤١ .

(٢) Nicolaus I, op. cit., pp. 647-9.

(٣) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٤١ وما بعدها ، أنظر أيضا :

Oman, 6, A History of The Art of the war in The Middle Ages, I. p.267.

(٤) Lane-Poele, The History of Egypt, p. 222.

وكما أخطأت القيادة الصليبية فى اختيار الطريق السليم للزحف صوب القاهرة فقد أهملت أيضا العامل الزمنى الذى يعتبر من أهم العوامل فى انتصار أو هزيمة الجيوش . فقد أهملت هذا العامل بعد ما تمكنت القوات الصليبية من العبور إلى الضفة الشرقية بعد مؤامرة إبن المشطوب . ولو بادر الصليبيون بالزحف مباشرة تجاه مصر لتمكنوا من الإستيلاء عليها[1] ، وخاصة وأن الصدمة العنيفة التى لحقت بمصر جيشا وشعباً وحالة الإرتباك التى سيطرت على القوات الإسلامية كانا سيجعلان مهمة القوات الصليبية سهلة ويسيرة ، وربما تغيرت نتائج الحملة بأكملها .

ومرة أخرى تغافلت القيادة الصليبية عن عامل الزمن . ذلك أنه رغم علم الصليبيين بموعد فيضان النيل ، ورغم تحذير الملك جان دى برين للمندوب البابوى ، إلا أن بلاجيوس قرر الزحف صوب القاهرة فى أواخر شهر يوليو ١٢٢١ م (أوائل جمادى الثانية ٦١٨ هـ) أى فى الوقت الذى أخذت بوادر الفيضان تبدو واضحة أمام أعين الصليبيين . وكان على القيادة الصليبية بزعامة بلاجيوس أن تختار الوقت المناسب لبداية عملية التقدم من دمياط جنوبا إلى مصر متجنبين الفيضان وأخطاره .

والمرة الثالثة التى تجاهل فيها الصليبيون عامل الوقت هو أن الحملة بدأت تعمل على الزحف إلى قلب مصر بعد حوالى ثلاث من قدومها إلى الشواطىء المصرية . مما أعطى القيادة الإسلامية الفرصة الكافية لاعادة تنظيم صفوفها مرة بعد أخرى أضف إلى ذلك أنه طوال هذا الوقت والملوك الايوبيين يعملون على دعم الجبهة المصرية سواء بالمال أو الرجال أو العتاد مما أعاد للجيش الإسلامى قوته ورفع من روحه المعنوية ، وأخذ فى إقامة التحصينات الكافية فى الأماكن المناسبة ، وتم تجهيز البحرية تجهيزاً قوياً حتى تمكنت من تطويق البحرية الصليبية من بحر المحلة[2] . وفى الواقع أن فشل الحملة من هذا الجانب مرجعه

---

(١) أحمد شلبى : الحروب الصليبية ص ٧٣ .

(٢) أنظر ما سبق ص ٣٢٦ .

إلى المندوب البابوى بلاجيوس لإتخاذ قرار الزحف فى هذا الوقت غير المناسب ضاربا بنصائح الملك جان دى برين عرض الحائط سواء فيما يتعلق بموعد الزحف أو بحراسة بحر المحلة الذى بدأت منه أولى الهزائم التى لحقت بالصليبيين بعد ما سيطرت البحرية الإسلامية على سفن الصليبيين .

وإلى جانب العامل السياسى وإختيار الطريق الخطأ للزحف صوب القاهرة وإهمال عامل الوقت ، فمن الأسباب الرئيسية التى أدت إلى فشل الحملة ما يرجع إلى الملك جان دى برين شخصيا . فلم يحظ الملك الصليبى بطاعة كافة رجال الجيش[1] . ويرجع ذلك إلى الدعاية التى روجها ضده المندوب البابوى بأنه ليس ملكا وإنما وصيا . ولم يكن لبلاجيوس من وراء ذلك إلا هدف محدد هو هدم شخصية الملك فتعلوا شخصيته على كل أفراد الحملة وبذلك تتحقق له الزعامة المطلقة . وقد أدت هذه السياسة إلى إنقسام الجيش الصليبى إلى فرق وشيع أحداها يسانده الملك والأخرى تؤيد المندوب البابوى الذى تسانده السلطة الروحية ممثلة فى رجال الدين . ونجحت سياسة بلاجيوس وطغى بشخصيته على شخصية الملك الذى سلم بالأمر الواقع وانتحل الاعذار وعاد إلى عكا وبقى بها أكثر من عام مما أعطى بلاجيوس فرصة ثمينة لاعلاء كلمته وإتخاذ قرار الزحف على مصر متغافلا سلطة الملك . وفى الواقع فان الملك الصليبى أصبح لا حول له ولا قوة بعد ما ركب بلاجيوس قمة القيادة على الحملة التى منحه إياها البابا هونوريوس الثالث بعد رحيل الملك . ورغم ما اتصف به الملك جان دى برين من شهامة وشجاعة وخبرة عسكرية ، فلم تكن له الهيبة أو الشخصية القوية لقيادة جيش صليبى دولى[2] .

اذا كانت هذه الأسباب الرئيسية تتعلق بالقيادة الصليبية فهناك بعض الأسباب الأخرى التى تتعلق بالقوات الصليبية نفسها . فقد كان الصليبيون

---

(١) Duggan, op. cit., p. 220.

(٢) Runciman, op. cit., III, p. 170.

كثيرا ما يتصرفون من تلقاء أنفسهم والأمثلة على ذلك كثيرة . منها أن بعض القوات قررت الهجوم على القوات الإسلامية عندما كانت ترابط فارسكور ، وكان لها ما أرادت مما تسبب فى قتل المئات من الصليبيين . كما كانت هذه القوات ترحل إلى بلادها عندما يحلو لها الرحيل غير عابئة بالاوامر التى تصدر من قادتها أو بالتهديد بقرار الحرمان . أضف إلى ذلك الخلافات التى نشبت بينهم بسبب تقسيم الغنائم التى أدت إلى الصدام المسلح . وعلاوة على ما تقدم فان القوات الصليبية قد إنغمست فى الفساد واللهو طوال بقائها فى دمياط . وان دل ذلك على شيء فانما يدل على الانهيار الخلقى عند الصليبيين أنفسهم وضعف القيادة أيضا . هذا فضلا عن عدم إكتراث بعض القادة الصليبيين بالاوامر التى تصدر اليهم مثل ما حدث من لويس دوق بافاريا عندما تناسى التعليمات التى تلقاها من الامبراطور فريدريك بعدم القيام بأية عملية عسكرية كبيرة إلا بعد حضوره[1] . ورغم ذلك فقد كان من المؤيدين لفكرة الزحف إلى القاهرة مع بلاجيوس .

وإذا تركنا أسباب الفشل التى ترجع إلى الجانب الصليبى وانتقلنا إلى الجانب الأوربى ، فنجد أن البابوية ضالعة فى المسئولية . ويرجع ذلك إلى أن الحملة الصليبية الخامسة قد وضعت تحت القيادة البابوية للسيطرة عليها وحتى لا تتعرض لما تعرضت له الحملة الرابعة . وكان إختيار البابا هونوريوس الثالث للكاردينال بلاجيوس مندوبا عنه فى الحملة ، ثم إعطائه من السلطات ما جعله يتعالى على الملك جان دى برين ، وعدم حسم الخلاف الذى نشأ بين الملك والمندوب الذى تصاعد إلى صراع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية على مستوى الحملة بأكملها – كل هذا قد أسهم فى هزيمة الحملة – إلى جانب العوامل السابقة[2] . أضف إلى ذلك أن شخصية البابا هونوريوس الثالث لم تكن من القوة التى يخشاها بلاجيوس ويعمل لها حسابا ، وإلا لما تصرف من

---

(١) Duggan, op. cit., p. 219.

(٢) La- Mont, op. cit., p. 500.

تلقاء نفسه برفض العرض الإسلامى بالصلح دون الرجوع إلى البابا حسب التعليمات التى صدرت منه اليه .

ومن الأخطاء التى إرتكبتها البابوية وأدت إلى فشل الحملة وهو عدم اختيار الوقت المناسب لارسال الحملة ، ففى ذلك الوقت كانت الروح الصليبية قد تقلصت عند الأوربيين . فلم يعد لديهم الحماس الكافى للانخراط فى صفوف الحملات الصليبية القادمة إلى الشرق . أضف إلى ذلك قيام الحملة الالبيجنسية والحروب الدائرة بين المسلمين والمسيحيين الغربيين فى أسبانيا الأمر الذى أمتص جهداً ومالا ورجالا كان من الممكن الاستفادة بهم وضمهم إلى إمكانات الحملة الخامسة . وفوق هذا كله الصراع الذى كان دائراً بين ملوك أوربا من أجل تدعيم مراكزهم[1] ، مما أعجز البابا هونوريوس الثالث عن إرسال الامبراطور فريدريك الثانى إلى دمياط .

ونخص فريدريك الثانى بالذات لأنه كان قد وعد بتحرير الأراضى المقدسة منذ عهد البابا أنوسنت الثالث[2] ، كما حمل الصليب عندما توج فى آخن[3] فى الخامس والعشرين من يوليو ١٢١٥ م[4] . وقام بحث الشعب الالمانى على الانخراط فى صفوف الحملة بعد ما تقررت فى مجلس اللاتيران الكنسى . ولذلك عقد عليه البابا إنوسنت الثالث الآمال الكبار فى قيادة الحملة المرتقبة التى تحدد لها أول يونية ١٢١٧ م.(٢٢ ربيع أو سنة ٦٦٤ هـ) للابحار إلى الشرق . ولم يظهر فريدريك الثانى أية علامة تشير إلى الوفاء بوعده للرحيل مع الحملة فى الموعد المحدد واللحاق بها ، فارسل مونتفرات Montferrot رئيس دير القديس جال Gall يعتذر للبابا هونوريوس الثالث عن الذهاب مع القوات الصليبية بسبب مشاكله مع أوتو ، وحتى يتمكن من تأمين مملكته . ولكى تبحر الحملة

---

(١) Gibbon, op. cit., p. 71.

(٢) Ludlow, The Age of The Crusaades, p. 14

(٣) آخن ، هى مدينة اكس لا شابل الالمانية .

(٤) Rohricht, Beitrage Zur Grschichte der Krenzzuge, pp. 3-4

فى موعدها طلب البابا من أندرو ملك هنغاريا قيادة الحملة فى الوقت الذى لم يستطع فيه القيام بعمل ما ، سوى معاتبة الامبراطور والأمراء الذين ساندوه على عدم الوفاء بوعدهم فى الموعد المحدد(1) .

وبعد ما تطورت الحوادث ووطأت أقدام الصليبيين أرض مصر ، طلب البابا من الامبراطور اللحاق بالحملة ولكنه أعتذر مرة أخرى فى الثانى عشر من يناير عام ١٢١٩ م (٢٣ شوال سنة ٦١٥ هـ) وكانت حجته فى ذلك أن هنرى دوق برونزويك أصبح يهدد ملكته(2) . وأعلن وهو يطلب التأجيل هذه المرة بأن أى إنسان لا يفى بوعده ويلحق بالحملة حتى الرابع عشر من يونية من نفس العام (٢٧ ربيع أول ٦١٦ هـ) يستحق أن يصدر ضده قرار الحرمان . ولكنه عاد مرة أخرى وأخبر البابا بأنه سوف لا يتمكن من اللحاق بالحملة فى هذا الموعد ، فحدد له البابا شهر أكتوبر من نفس العام (رجب — شعبان ٦١٦ هـ) ليكون موعدا يلحق به بقوات الحملة المحاصرة لدمياط . ولكن فريدريك إقترح أن يكون الحادى والعشرين من مارس عام ١٢٢٠ م (١٤ محرم ٦١٧ هـ) موعدا للرحيل ، ولكى يظهر الامبراطور حسن نوياه كان يرسل الامدادات إلى الحملة مثل ما حدث عام ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) وعام ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ)(3) . ومن الملاحظ أن القوات الصليبية كانت تسير فى عملياتها العسكرية عاقدة الأمل على حضور الأمبراطور فيشتد به ساعدها ، وتتمكن من إلحاق الهزيمة الكاملة بالقوات الإسلامية وتغزو مصر .

ويبدو أن البابا قد أحس بأن الامبراطور لا ينوى الذهاب إلى مصر فى الموعد الجديد فأسرع وأرسل اليه كونراد أف متز Conrad of Metz فى السادس عشر من فبراير عام ١٢٢٠ م (١٠ ذو الحجة ٦١٦ هـ) يذكره بالذهاب إلى مصر ويوضح له أن دمياط أصبحت فى يد الصليبيين منذ الخامس من نوفمبر

(1) Wiegler, The Infidel Emperor p. 98.

(2) Brehier, op. cit., p. 197.

(3) Rohricht, op. cit., p, 7.

عام ١٢١٩ م (٢٥ شعبان ٦١٦ هـ) . وفي الواقع لم يكن البابا وحدة هو الذى يطالب الامبراطور بالرحيل ، فان القيادة الصليبية من دمياط كانت تكتب اليه هي الأخرى تبلغه ما دار من أحداث على أرض مصر ، وتطالبه بالحضور اليها[1] . ولكن الامبراطور لم يكن مستعدا للرحيل هذه المرة أيضا وطلب مهلة أخرى فحدد البابا أول مايو ١٢٢٠ م (٢٥ محرم سنة ٦١٧ هـ) بدلا من مارس، وأبدى فريدريك من الأعمال ما يشير إلى تنفيذ وعدة . ولكنه عاد وأعلن أنه سيذهب إلى مصر فى أغسطس عام ١٢٢١ م (جمادى الآخرة – رجب ٦١٨ هـ) ووعد بارسال بعض الامدادات للحملة ، وفعلا وصلت امداداته فى مايو ١٢٢١ م (ربيع ثان ٦١٨ هـ) ، ثم اعقبتها امدادات أخرى فى الوقت الذى لحقت الهزيمة بالقوات الصليبية ، فكان وصولها بعد فوات الأوان .

والواضح أن الأمبراطور لم يكن لديه نية القدوم إلى مصر فى ذاك الوقت كما أنه وجد فى تلهف البابا عليه للذهاب إلى مصر فرصة لتحقيق أطماعه فى أوربا . ذلك أن إبنه هنرى السابع كان يتولى عرش صقلية ، ثم عمل على توليته على ألمانيا ، وحجته فى ذلك أنه لا يستطيع التوجه إلى الشرق دون أن يترك أبنه ملكا على المانيا . وكان الغرض الحقيقى من وراء ذلك هو توحيد عرش صقلية وألمانيا والتهرب من اللحاق بالحملة ، وقد تم ذلك رغم إحتجاج البابا . ومن جانب آخر فان الامبراطور فريدريك إستغل الحملة فى الحصول على اللقب الامبراطورى ، وساوم البابا ليقوم بتتويجه ليتوجه بعد التتويج إلى مصر . وبالفعل إنخدع البابا فى نوايا الامبراطور وكتب إلى المندوب البابوى بلاجيوس فى الرابع والعشرين من يوليو عام ١٢٢٠ م بأن فريدريك سيتوج إمبراطورا فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٢٢٠ م ، وأنه بدون شك ستوجه بعد ذلك

---

(١) كانت الخطابات ترسل تباعا من دمياط إلى البابا وإلى كبار الشخصيات فى أوربا ومنهم الامبراطور فريدريك وعلى سبيل المثال ما أرسل فى ١٠ ، ١١ ، ١٣ نوفمبر ١٢١٩ م . أنظر :
Rohricht, Funften, Funfen Kreuzzuges, pp. 39-43.

إلى مصر[1] . وانتهى عام ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ) دون أن يتوجه فريدريك إلى دمياط . وفى بداية عام ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) عاد فريدريك للمراوغة مرة أخرى وأرسل أوجلينو أف أوستيا Ugalino of Ostia مندوبا عنه إلى شمال إيطاليا لجمع المال والجنود لدعم الحملة[2] ، وتعهد فى ذاك الوقت مرة أخرى بالتوجه إلى مصر فى أغسطس من العام نفسه (جمادى الآخرة — رجب ٦١٨ هـ)[3] . ويبدو أن البابا هونوريوس الثالث كان رجلا ساذجا وأعتبر وعود فريدريك الثانى وعودا صادقة ، فقد ظل يبعث بالرسائل إلى الصليبيين يخبرهم بأن يترقبوا وصول الامبراطور فريدريك وجيشه فى القريب العاجل[4] . وبعد فوات الأوان تنبه البابا إلى نوايا فريدريك الثانى وكتب إلى مندوبة بلاجيوس فى العشرين من يونيه عام ١٢٢١ م (٢٧ ربيع الثانى ٦١٨ هـ) يخبره أن الامبراطور لم يصل قريبا إلى دمياط ، وعليه أن يتصرف بنفسه[5] ، خاصة أن الملك جان دى برين كان غائبا عن الحملة مقيما بعكا فى هذا الوقت. ونظرا لما أبداه الامبراطور فريدريك الثانى من إهمال للحملة ، وعدم الوفاء بوعده واللحاق بالقوات الصليبية التى سبقته ، هذا بالاضافة إلى المراوغة التى إتبعها مما أضاع كثيرا من الوقت على القوات الصليبية ، فقد اعتبره بعض المؤرخين المحدثين الأجانب مسئولا عن فشل الحملة[6] .

هذه هى العوامل الصليبية والأوربية التى أدت إلى فشل الحملة . ولكن فى الحقيقة هناك عامل هام جدا يرجع اليه الفضل الأول فى الهزيمة العسكرية التى لحقت بالقوات الصليبية ، وهذا العامل هو الجانب الإسلامى بقيادة الملك

---

(١) Donovan, op. cit., pp.77-8.
(٢) Rohricht, op. cit., p. 9.
(٣) Wiegler, op. cit., p. 105.
(٤) Runciman, op. cit., III, p. 164.
(٥) Rohricht, Ibid.
(٦) Duggan, op. cit., p. 120. Stevenson, op. cit., p. 307, Rohricht, Geschichte der Kreuzzuge im Umriss, p. 211.

الكامل ومساندة الملك المعظم . فان الفضل يرجع إلى الملك الكامل فى إعداد خط دفاع العادلية فى مواجهة الصليبيين . إذ ظل صامدا هو وقواته طوال ثمانية أشهر ، ولكنه إضطر للتراجع نتيجة مؤامرة إبن المشطوب التى ساعدت القوات الصليبية على العبور إلى الضفة الشرقية وحصار دمياط . ويأتى دور أخيه الملك المعظم فى دفع هذا الخطر وإزالة إبن المشطوب من المعسكر الإسلامى . ثم أعاد الأخوان تنظيم القوات الإسلامية مرة أخرى وبدأ الكامل فى جمع المال والرجال لدعم الجبهة المصرية فى الوقت الذى تولى فيه المعظم الجبهة الشامية والضغط على أملاك الصليبيين فى الشام وهدم القلاع الإسلامية خشية إستيلاء الصليبيين عليها بعد ذلك ، وتركها بحالة يتيسر على المسلمين إستردادها إذا ما سقطت فى يد الصليبيين . أضف إلى ذلك الجهود العظيمة التى قام بها لجمع الإمدادات من الشام وأرسالها إلى أخيه الكامل . حقيقة أن كافة ملوك البيت الأيوبى تعاونوا فى إرسال هذه الإمدادات ، ولكن دور الملك المعظم كان أبرزها على الاطلاق ، فانه لم يتوان لحظة عن إنجاد أخيه الكامل وإنقاذ دمياط . وفى الحقيقة فان عامل الوقت الذى أهمله الصليبيون كان عاملا من أهم العوامل التى ساعدت المسليمن على إعداد هذه الإمدادات ، وجعلت من الميسور على الملك الكامل إستقبالها وإنزالها فى الأماكن الحصينة التى تناسبها . أضف إلى هذا أن الملك الكامل قد استفاد من تراخى الصليبيين فى الزحف صوب القاهرة ، وأقام مدينة المنصورة وهى الصخرة التى تحطمت عليها آمال الصليبيين فعلا .

كما أن الفضل الأكبر فيما لحق بالصليبيين من هزيمة يرجع إلى خطط الملك الكامل البحرية والبرية . ذلك أنه تمكن من تطويق الصليبيين بحرا عن طريق السفن التى سيرها فى بحر المحلة وضرب مؤخرة الأسطول الصليبى وقطع الاتصال بين القوات الصليبية المتقدمة وبين قاعدتها فى دمياط فى الوقت الذى طوقت فيه القوات الصليبية من الخلف . هذا ، بالاضافة إلى إختيار الوقت المناسب لكسر الجسور وإغراق القوات الصليبية بينما حملت القوات الإسلامية على الصليبيين حملة شعواء . فقد كان لهذه العوامل التى تمت فى وقت واحد

تقريبا أثرها البالغ فى إنهاك القوى الصليبية وتبديد قواها والحاق الهزيمة النكراء بها دون خسارة عسكرية تذكر فى الجانب الإسلامى . وعلى ذلك تعتبر الخطة العسكرية التى أعدها الملك الكامل العامل الاساسى فى هزيمة القوات الصليبية وفشلها فى تحقيق أطماعها .

هكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة على مصر سياسيا عندما رفضت عرض الصلح الذى تقدم به الملك الكامل أكثر من مرة للقيادة الصليبية بسبب تعصب المندوب البابوى بلاجيوس . وكذلك بفعل جهل الصليبيين بطبوغرافية ميدان المعركة ، وإهمالهم العامل الزمنى الذى يعتبر من أهم عوامل الحروب فى أى زمان ومكان . أضف إلى ذلك ازدواج القيادة على الحملة ، وفساد وتهور وعصيان القوات الصليبية وعدم توفيق البابا فى إختيار مندوبة على الحملة ، وكذلك إخفاقه فى تحديد الوقت المناسب لقيام هذه الحملة ، وانشغال الامبراطور فريدريك الثانى بأمور دولته فى أوربا عن اللحاق بالحملة فى دمياط . ويكلل هذه العوامل جميعها إتحاد الجبهة المصرية والشامية جيشا وشعبا وعلى رأسها القيادة الرشيدة التى إضطلع بها الملك الكامل محمد فى هذه الفترة العصيبة من تاريخ مصر التى تمكنت من رد المعتدين على أعقابهم مدحورين .

خاتمة

- تخريب مدينة تنيس .
- حملة الامبراطور فريدريك الثانى على الشام .
- تقلص الروح الصليبية .
- نهاية الامارات الصليبية بالشام وموت الفكرة الصليبية .

رحلت الحملة الصليبية الخامسة عن دمياط تجر وراءها أذيال الخذلان ، بعد أن قضت فيها وعلى شاطئها الغربى والشرقى الفترة الواقعة بين الثالث من ربيع أول عام ٦١٥ هـ إلى التاسع عشر من رجب عام ٦١٨ هـ (٣ مايو ١٢١٨ م إلى ٨ سبتمبر ١٢٢١ م) . هكذا غادرت الحملة مصر وهى تحمل عار الهزيمة بعد أن فشلت فى تحقيق أهدافها . وقد ترتب على ذلك نتائج مباشرة وأخرى غير مباشرة .

أما النتائج المباشرة فأولها يتعلق بمدينة تنيس . إذ كانت هذه المدينة هدفا لغارات الفرنج منذ بداية الحركة الصليبية . ولهذا الغرض فقد تم إخلاؤها ونقل أهلها إلى دمياط عام ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) . ولم يبق بها غير حاميتها التى كانت تحمى قلعتها . وقد استولت عليها القوات الصليبية فى الثالث والعشرين من نوفمبر عام ١٢١٩ م (١٤ رمضان ٦١٦ هـ) وبعد سقوط دمياط فى أيديهم بثمانية عشر يوما . وفى عام ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وبعد جلاء القوات الصليبية عن البلاد بحوالى ست سنوات أمر الملك الكامل محمد بتخريبها ، وذلك بسبب كثرة غارات الصليبيين عليها[1] . فخربت أركانها الحصينة وعمائرها المكينة ، ولم يبق منها إلا رسومها فى وسط البحيرة[2] . وهكذا إختفت مدينة تنيس المشهورة بصنع الثياب المعروفة بالتنيسى التى كانت تكسى بها الكعبة[3] ويلاحظ أن هدمها قد أضاع على الخزانة الأيوبية آلاف الدنانير التى كانت تؤول اليها سنويا كعائد عليها من وراء وجود المدينة وإشتغال أهلها بصيد الأسماك من بحيرتها . ولكن السلطات الأيوبية آثرت دكها حتى تأمن شر إعتداء الفرنج عليها مرة أخرى .

---

(١) أبو الفدا . تقويم البلدان ص ١١٨ – ١١٩ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٥ ص ٣١٢ حاشية (٢) .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٢٤ .

(٣) ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ ١ ص ٨٨٢ . المقريزى : الخطط . جـ ١ . ٢٨٦ ، ٢٩٢ – ٢٩٣ .

والنتيجة الثانية المباشرة لهزيمة الحملة وفشلها ، هى قيام حملة صليبية أخرى ونعنى بها حملة الإمبراطور فريدريك الثانى المعروفة بالحملة السادسة فى عداد الحركة الصليبية . وموجز أخبار هذه الحملة أن الإمبراطور فريدريك الثانى قد وعد أكثر من مرة بقيادة الحملة الصليبية الخامسة . ولكن هذا الوعد لم ينفذ ورحلت القوات بدونه ووطأت أرض مصر على أمل أن يلحق بها . وأرسل القادة الصليبيون ورجال الدين إلى البابا يحثونه على دفع الامبراطور للحاق بالحملة فى دمياط . وإنتحل الإمبراطور العذر بعد الآخر حتى هزمت الحملة وجلت عن مصر . وألقى البعض اللوم عليه وإعتبروه السبب فى فشل الحملة . ورغم ذلك فقد كان لدى البعض أمل كبير فى أن يتولى الامبراطور قيادة حملة أخرى لغزو مصر وتحقيق الهدف الذى فشلت فيه الحملة الخامسة . كما أن الملك الصليبى جان دى برين توجه إلى إيطاليا لاستجداء البابا فى إرسال المساعدات لبيت المقدس ، وزار أسبانيا وانجلترا وفرنسا لنفس الغرض . وفى هذه الجولة زوج ابنته إيزابيلا وريثة مملكة بيت المقدس الاسمية إلى الامبراطور فريدريك الثانى فى عام ١٢٢٥ م[1] ، وقد بارك البابا هونوريوس الثالث هذا الزواج حتى يصبح للامبراطور مصلحة فعلية فى التوجه بحملته إلى الشرق . وتعهد فريدريك بالقيام بحملته فى أغسطس عام ١٢٢٧ م (شعبان – رمضان ٦٢٤ هـ)[2] . ومع ذلك ظل يتباطأ فى القدوم بحملته المزعومة إلى الشرق مما دفع البابا جريجورى التاسع Gregery IX (١٢٢٧ – ١٢٤١ م) إلى إصدار قرار الحرمان ضده فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٢٢٧ م[3] .

ولعل هذا التصرف من قبل الامبراطور يرجع إلى عدم توفر الحافز الذى يدفعه للدخول فى حرب ضد الاسلام والمسلمين بالذات ، وهو الذى نشأ فى

---

(١) Kantorowicz, Fredericke the Second p. 139

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية جـ ٢ ص ١١٢ .

(٣) Kantorowicz, op. cit., p. 139.

أنظر أيضا : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٣١ .

صقلية فى كنف الحضارة الإسلامية وشب على حب المسلمين وحضارتهم . ومن هنا قامت علاقة الود والصداقة بينه وبين الملك الكامل ، لأن الأخير كان صورة شرقية الامبراطور[1] . وكان كلاهما بفكرهما يسبقان العصر الذى يعيشان فيه . فكل منهما لا يلجأ إلى السيف إذا إستطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية[2] .

ورغم ذلك فقد دفعت الظروف الامبراطور للخروج بحملته إلى الشرق وجاءت الأسباب التى دفعته إلى ذلك من قبل المسلمين أنفسهم . فقد ساءت العلاقات بين الملك الكامل وأخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، واتصل المعظم بجلال الدين خوارزم شاه[3] (٦١٨ - ٦٢٨ هـ / ١٢٢١ - ١٢٣١ م) ملك الدولة الخوارزمية ووطد علاقته به ليستعين به إذا هاجمه أخوه الكامل . وسعى الكامل من جانبه بعقد صلات الود والصداقة مع الامبراطور فريدريك الثانى وأرسل اليه الأمير فخر الدين يوسف يطلب منه الحضور إلى الشام ليسلمه بيت المقدس[4] . وهكذا إنفرط عقد الدولة الأيوبية وأصبح بيت المقدس عرضة للضياع .

وساعد على قيام الإمبراطور الألمانى بحملته إصرار البابا جريجورى التاسع على ضرورة توجهه إلى الشرق دون ابطاء[5] . وبذلك كان على الامبراطور الذهاب إلى الشرق لإرضاء البابوية من ناحية واستلام البيت المقدس سلما من الملك الكامل من ناحية أخرى .

ووصل فريدريك إلى عكا عن طريق قبرص فى أبريل ١٢٢٨ م (جمادى

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٩٥ - ٩٩٦ .

(٢) جمال الدين الشيال : المرجع السابق جـ ٢ ص ١١٤ .

(٣) عن شخصية جلال الدين أنظر : فؤاد عبد المعطى الصياد : المرجع السابق ص ٩٧٣ وما بعدها .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٥) The Cambridge Medieval History. Vol, 6. p. 146.

الأولى ٦٢٥ هـ) ومعه حوالى خمسمائة فارس بعد أن سبقته اليها قوات الحملة[١] وكان وصوله اليها بعد وفاة الملك المعظم وتولى إبنه الناصر داود (٦٢٤ – ٦٢٦ هـ / ١٢٢٧ – ١٢٢٩ م)[٢] ، ولما كان العاهل الأخير قد اشتغل باللهو وأعرض عن مصالح الدولة[٣] ، لذلك أصبح الكامل فى غير حاجة إلى مساعدة الامبراطور فريدريك الذى أدرك ذلك وأصيب بخيبة أمل شديدة لتبدل الموقف[٤] ، خاصة وأنه خرج من أوربا وهو محروم من الكنيسة معتمدا على وعد الكامل له لاعلاء شأنه بين ملوك أوربا[٥]

أما موقف الكامل فقد كان أشد حرجا من الامبراطور ، فهو يخشى الاصطدام بالصليبيين لتخوفه من الخوارزمية والمغول من خلفهم ، فضلا عن الخلافات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبى . ومما زاد فى تحرج الملك الكامل أن البابا أرسل اليه يحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور حتى لا يكسبه ذلك شرفا ونصرا على البابوية[٦] .

وإزاء هذه الظروف لم يبق أمام فريدريك غير سلاح المفاوضة والاستعطاف واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية لتحقيق هدفه واستلام بيت المقدس[٧] . وانتهى الأمر بين الكامل وفريدريك بعقد صلح يافا فى الثانى والعشرين من ربيع أول ٦٢٦ هـ (١٨ فبراير ١٢٢٩ م)[٨] . وينص هذا الصلح على أن يتسلم الامبراطور بيت المقدس باعتبارها ملكا للصليبيين بشرط أن تظل خربة على

---

(١) Mas Latrie, op. cit., I, pp. 233 - 246.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور . المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٠١ ، ١٠٠٢ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٢٢٥ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٠٤ – ١٠٠٥ .

(٥) Wiegler, op. cit., p. 136.

(٦) Kantrowicz, op. cit., p. 184.

(٧) Wiegler, op. cit., p. 136.

أنظر أيضا : سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٠٩ .

(٨) Mas Latrie, op. cit., I, p. 249

تحالها ، ولا يجدد سورها ، وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم للصليبيين فيها ، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين ولا يدخله الصليبيون إلا للزيارة فقط ، ويتولاه قوام من المسلمين وتقام فيه شعائر الإسلام من الآذان والصلاة . يضاف إلى ذلك استلام الصليبيين لبيت لحم والناصرة[1] وتبنين[2] . وان يطلق الكامل ما عنده من الأسرى الصليبيين نظير أن يتعهد فريدريك بمحالفته ضد أعدائه حتى ولو كانوا من الصليبيين . وكذلك تم الاتفاق على عدم وصول إمدادات صليبية أخرى إلى الامارتين الصليبيتين فى الشام وهما أنطاكية وطرابلس وأن تسرى هذه المعاهدة لمدة عشرة سنوات[3] .

وهكذا استطاع فريدريك الثانى أن يستولى على بيت المقدس دون إراقة الدماء رغم ضعف امكانياته ، وأن يحقق ما عجزت عنه الحملتان الصليبيتان الثالثة والخامسة رغم ضخامة الامكانيات التى حشدت لهما[4] .

وقوبلت هذه المعاهدة بالغضب فى الغرب والشرق على السواء . فقد ثار الصليبيون لأنهم كانوا لا يرون مسالمة المسلمين ويعتقدون بوجوب محاربتهم[5] وثار المسلمون ضد الملك الكامل لتفريطه فى أملاك المسلمين[6] .

ومهما يكن الأمر فقد ظلت الهدنة قائمة بين المسلمين حتى عام ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) حيث قدمت إلى الشام حملة صليبية أخرى دعا إليها البابا

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق جـ ١٢ ص ٣١٥ ، ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٤١ — ٢٤٤ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٣١ .

(٣) Wiegler, op. cit., pp. 136-7.

أنظر أيضا . جمال الدين الشيال المرجع السابق جـ ٢ ص ١١٦ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠١١ .

(٥) Fahri, op. cit., Vol 2. part I, p. 363.

(٦) ابن واصل : المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٤٥ ، المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٣٢١ .

جوريجورى التاسع واستجاب لها بعض الفرسان الفرنسيين وعلى رأسهم تيبوت الرابع Thibaut IV أمير شامبانى وملك نافار ، وهيو الرابع Hugh IV أمير برجنديا ، وبطرس موكلرك Peter Mauclerc أمير بريتانى وغيرهم[1]. ووصلت هذه الحملة إلى عكا فى أول سبتمبر ١١٣٩ م (٣٠ محرم ٦٣٧ هـ).

وعندما علم الناصر داود صاحب الأردن بوصول الصليبيين تذرع بنقض الصليبيين لصلح يافا وقيامهم بتحصين القدس وطردهم منها[2] ، وإنتهى أمر الحملة باستلام الصليبيين للقدس مرة أخرى ومعها طبرية وعسقلان[3] ، بالاضافة إلى قلعة شقيف أرنون وأعمالها وقلعة صفد وبلادها وبعض البلاد الأخرى[4] .

ولم تكد هذه الحملة تغادر الأراضى المقدسة حتى وصلتها حملة أخرى تعرف باسم الحملة الإنجليزية فى الحادى عشر من إكتوبر عام ١٢٤٠ م (٢٢ ربيع ثانى ٦٣٨ هـ) وعلى رأسها ريتشارد أف كورنول Richard of Cornouall أخو هنرى الثالث ملك انجلترا[5] . وقد نجحت الحملة فى تأكيد حق الصليبيين فى ملكية بيت المقدس ، واقليم الجليل وشقيف أرنون وعسقلان ومجدل يافا[6] .

ولم يمضى وقت طويل على رحيل هذه الحملة حتى تمكن الصالح نجم الدين أيوب بمساعدة الخوازمية من إستعادة بيت المقدس فى عام ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) ، وبذلك فقد الصليبيون إلى غير رجعة تلك المدينة المقدسة .

---

(١) Eracles, op. cit., pp. 413-4.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٢٤ .

(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٦ ص ٢٢٢ .

(٤) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٠٣ .

(٥) Mas Latrie, op. cit., I, p. 315.

(٦) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٤٠ . أنظر أيضا : Grousset, op. III p. 394.

.وكان هذا السبب بالإضافة إلى اسباب أخرى دافعا لقيام لويس التاسع بحملته على مصر[1] ، وكان نصيبها الفشل وأسر قائدها لويس التاسع[2] . وكان من الأسباب المباشرة التى ترتبت على حملتى جان دى برين ولويس التاسع على مصر تخريب مدينة دمياط التى عانت الأمرين[3] ، وهكذا كانت الحملات الصليبية شؤما على دمياط[4] .

ولم تكن حملة لويس التاسع على مصر هى الحلقة الأخيرة فى الصراع بين الغرب اللاتينى والعالم الإسلامى . فقد اتجه لويس إلى الشام بعد مغادرته الأراضى المصرية ، ولا يقل الدور الذى قام به فى حملته على الشام (٦٤٨ — ٦٥٢ هـ / ١٢٥٠ — ١٢٥٤ م) عن الدور الذى قام به فى مصر[5] ولكنه فشل فى مهمته وعاد إلى فرنسا مجروحا فى كرامته وعزته وكبريائه . وبعد ثلاثة عشر عاما أخرى قام لويس بحملته على تونس سنة ١٢٧٠ م (٦٦٠ هـ) بقصد استمالة صاحبها محمد بن يحيى الملقب بالمستنصر إلى المسيحية ومواصلة الزحف على مصر ، ولكنه مات وهو على أبواب قرطاج دون أن يتمكن من محو عار هزيمته على ضفاف النيل[6] . وقد عجل موته باضمحلال الروح الصليبية وتقلصها . ومع بداية هذا الشعور لدى الغرب الأوربى ضاع أمل الأمارات الصليبية فى الشام فى أية مساعدة تأتى اليها من هناك[7] .

---

(١) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٤٨ — ٥٠ . وعن هذه الحملة أنظر ابن العبرى تاريخ مختصر الدول ص ٤٥٢ — ٤٥٦ .

(٢) Eracles op, cit.,p. 433, Matthew Paris, English. History, II, p. 458.

(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٥ ص ٣١٢ . حاشية (١) ، جـ ٧ ص ٢٣ ، القلقشندى المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٠٦ .

(٤) ابن واصل : تاريخ الواصلين (مخطوط) جـ ٢ لوحة ٣٧٣ ب .

(٥) عن هذه الحملة أنظر : جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على الشام ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق جـ ١٠٨٣ ص — ١١٠٣ ، العصر المملوكى فى مصر والشام ص ٥٦ — ٥٧ .

(٦) عن هذه الحملة أنظر : السراج : الحلل السندسية جـ ١ ق ٤ ص ١٠٣٢ وما بعدها أنظر أيضا : Joinvills, op. cit., p. 524-531.

(٧) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٢٨١ — ٢٨٢ والعدوان الصليبى على =

وإذا كان ذلك هو حال الامارات اللاتينية بالشام وقتذاك ، فان المماليك الذين خلفوا الايوبيين فى حكم مصر والشام ، لم يكونوا أقل حماسا من سابقيهم فى طرد الصليبيين من رقعة الشرق الأدنى[١] . وكان لدولة المماليك البحرية فضل كبير فى توجيه الضربة القاضية إلى حكم اللاتين بالساحل الشامى ، فقد تمكن الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) من الاستيلاء على أنطاكية فى رمضان عام ٦٦٦ هـ (مايو ١٢٦٨ م)[٢] ، وكان عودة هذه المدينة الحصينة إلى أيدى المسلمين نذيرا بانتهاء حكم الصليبيين فى الشرق[٣] . وسار الملك المنصور سيف الدين قلاوون على نهج أسلافه فأستولى على طرابلس فى ربيع الثانى سنة ٦٥٨ هـ (إبريل ١١٨٩ م)[٤] .

وأخيرا فى يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ هـ (١٨ مايو ١٢٩١ م) استولى الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ / ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م) على عكا آخر معاقل الصليبيين الهامة بالساحل الشامى[٥] ، ولم يبق إلا بعض الجيوب الضعيفة وهى بيروت وصور وصيدا وحيفا ، وقد تم طرد الصليبيين منها فى السنة نفسها ، وانتهى أمر البقية من الوجود الصليبى فى الأرض المقدسة[٦] ، عدا من تحصن منه فى جزيرة إرواد[٧]

= بلاد الشام ص ٣٦٨ . وعن أسباب انصراف الغرب الأوروبى عن الحروب الصليبية أنظر : العدوان الصليبى والرأى العام الغربى ، أضغيرات العام الجامعى ٦٧/ ١٩٦٨ ص ٤٠ وما بعدها .

(١) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى ص ٢٧٦ .

(٢) Eracles, op. cit., pp. 456- 7.

(٣) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٢٨٣ .

(٤) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٧ ص ٣٢١ المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ق ص ٧٤٧ .

(٥) أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٣٤٣ والمختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٢٥ - ٢٦ ، أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٨ ص ٨ ، ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٤٧٠ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٧٦٣ - ٧٦٥ .

(٦) ابن خلكان : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٨ .

(٧) جزيرة ارواد ، جزيرة إلى الغرب من طرطوس ، يرتفع بناؤها عاليا فى الجو وهو حصين وله أربعة أبواب من الحديد وتعتبر الجزيرة كلها نقطة حراسة . لى سترانج المرجع السابق ص ٣١٤ ، ٣١٧ .

التى استولى عليها الناصر محمد فى ولايته الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨ هـ / ١٢٩٠ - ١٣٠٩ م) فى عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م)[١] .

ورغم انتهاء أجل المعاقل الصليبية بالشام فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر القرن السابع الهجرى) فان الحركة الصليبية لم تمت ، فقد قامت عدة حملات أخرى خلال القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) لعل أهمها حملة بطرس لوزجنان Pierre de Lusignan ملك قبرص اللاتينى (١٣٥٩ - ١٣٦٩ م) على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م (٧٦٧هـ)[٢] ومن بعدها صليبية نيقوبوليس عام ١٣٩٦ م (٧٩٨ هـ) التى تحالفت فيها أوربا باسرها لإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان والوصول إلى بيت المقدس . وقد انتهت هذه الحملة بهزيمة القوات الأوربية المتحالفة أمام قوات بايزيد الأول (٧٩١ - ٨٠٤ هـ/١٣٨٩ - ١٤٠١ م)[٣]. ولم تقم للصليبيين من بعد ذلك قائمة وإستبد بهم اليأس مما جعلهم ينصرفون عن فكرة الحروب الصليبية وينشغلون بمصالحهم الخاصة التى استحدثتها النهضة الأوربية والعصور الحديثة[٤] .

وإذا كانت الأراضى المقدسة بخاصة ودول المشرق العربى بعامة قد خضعت للأتراك العثمانيين بعد زوال دول المماليك ، فقد ظلت دول أوربا بعيدة عن منطقة الشرق الأدنى خشية القوة العثمانية . ولكن بعد أن بدأت عوامل الضعف

---

(١) أبو الفدا : المختصر جـ ٤ ص ٤٩ ، ابو المحاسن : المصدر السابق جـ ٨ ص ١١ ومن المراجع الحديثة أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٢٥ - ١٢٢٧ وقبرص والحروب الصليبية ص ٦٢ - ٦٣ والعصر المملوكى فى مصر والشام ص ١٣١ - ١٣٣ .

(٢) Machaut, G. de,Le prise d, Alexandria au Chronique de Roi pierre I de Lusignan, pp. 64 ff.
أنظر أيضا : Atiya, The Cruasade in The Later Middle Ages, pp. 345-373

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٢٥١ - ١٢٥٢ . وللمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة أنظر : Atiya, op, cit., pp. 435-462.

(٤) جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ٢٨٤ .

تدب فى كيان العثمانيين أخذت أوربا تتطلع مرة أخرى إلى أملاك الدولة العثمانية وبصفة خاصة المشرق العربى . وتمكن الإنجليز والفرنسيون من الحصول على الامتيازات فى الشام حتى إستولوا على بيت المقدس فى التاسع من ديسمبر عام ١٩١٧ م[1] ، وعملوا على إقامة دولة اسرائيل فى فلسطين لشطر العالم العربى شطرين ، لتمزيق وحدته تحقيقا للأهداف الاستعمارية فى المنطقة العربية وهى شبيهة بالأهداف التى من أجلها قامت الحركة الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر .

وأن كان هناك ما نخرج به من العدوان الصليبى فى العصور الوسطى والعدوان الصهيونى الاستعمارى فى العصر الحديث فهو ضرورة توحيد القوى العربية لدفع الخطر عن المنطقة وهو ما أكدته الأحداث فى الماضى وما يجب أن نستفيد منه فى عالمنا الحاضر .

---

(١) Antonius, G., The Arab Awakening, p. 229.

المصادر والمراجع

مختصرات لبعض المصادر والمراجع

A.O.L.	-	Les Archives de I'Orient Latin.
Ency. Brit.	-	Enyclopaedia Britannica.
Ency. Intr.	-	Encyclopaedia International.
G.D.F.	-	Bongasr, Gesta Dei per Frances.
Hist. Part. Alex.	-	L'Histoire des Patriarches d'Alexandrie.
L.F. Crusade.	-	The Leaders of The Fifth Crusade.
Mon. Cart.	-	Y. Kamal, Monumenta Crtographica Africae et Aegypti.
R.H.C.H. Occ.	-	Recueil des Historiens des Croisades Historiens Occidentaux.
R.O.L.	-	Revue de l'Orient Latin.

مجموعات الحروب الصليبية

Bongars, J. (ed.) Gesta Dei per Frances, sive orientalium epeditionum et regni Fracorum hierosolimitani historia (ab a. 1095. ad 1420) a variis sed illius aevi scriptoribus, litteris. 2t Hanovar 1611.

Michaud, J., Bibliothéque des Croisades. 4 vols. Paris, 1829 :

I. Chroniques de France;

II. Id. et Chroniques d'Italie et d'Angleterre;

III. Chroniques d'Alelmaghe, des Days du nord, grecques;

IV. Chroniques arabes.

Recheil des Historiens des Croisades, publié par les soins de l'Académie des Inscriptions et Belles- Lettres; in 16 huge folio vols, 1841-1906.

I. Historiens Occidentaux, 5 tomes (1844 - 1845);

II. Historiens Orientaux, (Arabes), 5 tomes (1872- 1906);

III. Historiens Hrecs, 2 tomes (1876 - 1881);

IV. Documents Armeniens, 2 tomes (1869 - 1906);

V. Lois, 2 tomes (1841 - 1843).

Les Archives de l'Orient Latin. publiéés par la Société de l'Orient Latin. 2 vols. Paris. 1881 et 1887. Textes, inventaires, et études originales.

Palestine Pilgrims Text Society. 13 vols. and general Index. London, 1887-1897.

Revue de l'Orient Latin, publiée sous la direction de MM. Le Marquis de Vogué et Ch. Sehefer. Paris. 1893-1911.

دوائر المعارف

Encyclopaedia (An) of The World History, London, 1948.
Encyclopaedia Americana. 29 Vol & Index. New-York 1944-5.
Encyclopaedia Britannica. 22 Vol. & Index. Chicago 1968.
Encyclopaedia International 19 Vol. & Index. New-York 1970.
Encyclopaedia (The) of Islam. Vol. I-III. Leiden 1960-71.

المصادر الأجنبية

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس – ترجمة وقدم له وعلق عليه الدكتور حسن حبشى – القاهرة دار الفكر العربى ١٩٨٥ .

Albertus Standensis,
Chronique se Terminant en L'an 1256, cf, Y. Kamal, Mon. Cart. t. III, fase. IV. 1934. (p. 938).

Alexandre III,
Lettre au Pretre-Jean 1177, cf, Y. Kamal, Mon. Cart. t. III fase. IV, 1934. (pp, 891 - 2) .

Annales de Terrr Sainte, cf. A.O.L., tome II, Paris, 1884. (pp. 429-461).

Burchard of Mount Sion,
A Description of The Holy Land, tran. from The Original Latin by Aubrey Stewart, London, 1896.

Chronique de Tours, d'Auteur Inconnu et se Terminant en 1227, cf, Y. Kamal, Mon. Carn. t. III. fase. IV, 1934. (p. 938).

كلارى ، روبرت :

سقوط القسطنطينية – ترجمة الدكتور حسن حبشى – القاهرة – مركز كتب الشرق الأوسط – ١٩٦٤ .

Devizes, Richard of, & Vinsauf, Geoffrey de, Crusade of Richard Coeur de Lion, tan. by Colonel Johnes Hofod. Chronicles of the Crusades Bohn's ed. London, 1848. (pp. 2-339).

Eracles,
L'Estoire de Eracles Empereur et la Conquette de la Terre d'Outremer, cf. R.H.C.-H. Occ , t, II, 2e. partie, Paris, 1859. (pp. 1-481).

Fabri, Felix,
The Book of Wandering (1480- 1483), 2 Vol, 4 parts. tran. by Aubrey Stewart, London, 1893.

Frederick II,
Promise to Innocent III 1213, cf. Thatcher, O., A Source Book for Mediaeval History, New-York, 1904. (pp. 230-232).

Gesta Crucigororum Rhenanorum, (Les Exploits de Croisés Rhénons), écrits entre 1217 et 1219, cf. Kamal, Mon, Cart, t. III, fase, IV, 1934. (p. 938).

Histoire des Archevéques Latins de L'ils de Chypre, cf. A.O.L. tome II, Paris, 1884. (pp. 207-328).

Innocent III,
Annunce a Crusade in The Lateran Council 1215, cf. Thatcer, O, A Source Book for Mediaeval History. New-York, 1905. (pp. 537-544).

Innocent III,
Lettre to The English Barons 1216, cf. Thatcher, O., A Source Book for Mediaeval History. New-York. 1905 (pp. 219-220).

Innocent III,
Letter to the People of Vince 1198, cf, Thatcher O., A Source Book for Mediaeval History. New-York, 1905, (pp. 535-537).

Joinville, Jean Sire de,
Memoirs of Louis IX. King of France (commonly called Saint Louis), tran, by Colonel Johes of Hafod, cf. Chronicles of The Crusades. Bohn's ed. London, 1818. (pp. 341- 556).

L.F. Crusade,
1- Letter to The Pope Honorius III, dated 5 June 1218, cf. Rohricht,

R., Funften Kreuzzuges, Innsbuck, 1891. (pp. 39-40).

2- | Letter to The Pope Honorius III, dated 10 nov. 1219, cf. Rohricht, R., Funften Kreuzzugest. Jnnsbrck, 1891 (pp 41-43).

3- | Letter of The Pope Honorius III, dated 11 nov. 1219, cf. Rohrict, R., Funften Kreuzzuges Innstucuk, 1891. (pp. 44-46).

4- | Letter to The Pope Honorius III, dated 12 nov. 1219, cf. Rohricht, R., Funften Kreuzzuges Innsbuck, 1891. (pp. 46-48).

Ludolph von Suchem,

. Description of The holy Land, tran. by Aubrey Stewart, London, 1895.

Machaut, Guillaume de,

Le Prise d'Alexandrie ou Chronique du Roi Pierre I de Lusiznan, Publice pour La Premiere fois pour La Societé de L'Orient pas Mas Latrie, Geneve, 1877.

Matthew of Westminster,

The Flowers of History, tran. by C.D. Yonge, 2 Vol. London, 1853.

Matthew Paris,

English History from The Year 1273, tran. from The Latin by J. A. Giles. 2 Vols. London, 1852-3.

Marino Sanuto,

Secrets for True Crusaders tran. by Aubrey Stewart. London, 1896.

Nicolaus I,

Lettre au Pape Honoré III 1222, cf. Michaud, Histoire des Croisades, III, Paris. 629. (pp. 647 - 9).

Nicolaus Trivet,

Chronique se Terminant en L'an 1307, cf. Y.Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc, IV, 1934. (p. 940).

Oliver of Podenborn.

The Capture of Damietta tran. John J. Cavigan, Philadelphia, 1948.

Oliver Scolastiqus,

1- Lettre a Fngelbert, Archeveque de Cologne, cf. Bongars, G.D.F.

Hannover, 1611. (pp. 1185 - 1192).

2- Letter to The King of Egypt, El-Kamel Mohamed (1218 - 1238), cf. Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem (1100 - 1291), Innsbruck, 1898. (p. 753).

Patriarche de Jerusalem,

Rapport au Pape Innocent III, dated 1214, cf. Y. Kamal, Mon. Cart., t. III, fasc. IV, 1034. (p. 932).

Prtriarches de Jerusalem,

cf. R.O.L. II, Paris, 1894. (pp. 192-203).

Pater de Montacute,

1- Letter to A. Martel entitled « Of The Loss of Damietta », cf. Roger of Wendover, Flowers of History, II, London, 1849. (pp. 436-9).

2- Letter to The Bishop of Elimenum entitled « Of The Condition of The Holy Land after The Capture of Damiette » cf. Roger of Wendover, Flowers of History, II. London, 1849. (pp. 433-5).

Philipe de Albeney,

Lettre to Ralph Earl Of Chester entitled « of The Loss of Damiette », cf. Roger of Wendover, Flowers of History, II, London, 1849. (pp. 435-6).

Pretre- Jean,

Lettre au Le Emperor Byzantine Manuel (1143-1180), dated 1155, cf. Y. Kamal, Mon. Cart. t. III, fasc IV, 1934. (pp. 890-1).

Roger of Wendover,

Flowers of History 2 Vol, tran. from The Latin by J: A. Gilles. London, 1849.

Vitry, Jacques de,

Orientalis, fiue Hierosolymitnnse : Alter Occidientalis (Libri-Duo) Isbn 1579, printed in offset, Western Germany, 1971.

The History of Jerusalem, tran. from The Original Latin by Aubrey

stewart, London, 1896.

Historia Hierosolymitana au Historia Orientalis, apres 1220. An extract in Y. Kamal, Mon- Cart. t. III, fasc. IV, 1934. (p. 944).

Lettres de Jacques de Vitry, edition critque par R.B.C. Cuygens Leiden, 1960.

Waltherus de Hemingburgh.

Chronique se Terminant en L'en 1343, cf. Y. Kamal. Mon. Cart. t. III, fasc, IV, 1934. (p. 940).

Wiegler, Paul,

The Infidel Emperor and his Struggles against The Pope. A Chronicle of The 13th. century by p. Wiegler, tran. by Brian W. Downs London, 1930.

William Archbishap of Tyre,

A History of Deeds Done Beyond The Sea, 2 Vol. tran. & annotated by Emily Atwater Babcock & A.C. Kery. New-York 1943.

المخطوطات[1]

إبن أبى السرور (ت ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م) محمد بن أبى السرور زين الدين البكرى :

« النزهة الزهية فى ذكر ولاه مصر والقاهرة المعزية » – دار الكتب المصرية – رقم ٢٦٦ تاريخ .

إبن أيبك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله :

١ – « دور التيجان وغرر تواريخ الأزمان » – دار الكتب المصرية – رقم ٤٤٠٩ تاريخ .

٢ – « كنز الدرر وجامع الغرر » – ٩ جـ – دار الكتب المصرية – رقم ٤٦٤٣ تاريخ .

إبن بهادر (عاش فى القرن التاسع هـ – الخامس عشر م) محمد بن محمد بن بهادر :

« فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر » – دار الكتب المصرية – رقم ٤١١٧ تاريخ .

إبن حبيب الحلبى (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) بدر الدين أبو محمد الحسن بن عمر :

« جهينة الأخبار فى أسماء الخلفاء وملوك الأمصار » – دار الكتب المصرية – رقم ١٦١٠ تاريخ .

إبن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى :

« الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » – دار الكتب المصرية – رقم ١٥٢٢ تاريخ .

---

(١) المخطوطات المصورة رمزت لها بـ (لوحة) والمكتوبة بخط اليد رمز لها بـ (ورقة) .

إبن وسول (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) عباس بن على بن داود بن يوسف بن عمر :

« نزهة العيون فى تاريخ طوائف القرون » – مجلدان – دار الكتب المصرية – رقم ٤٩٦٤ تاريخ .

إبن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات :

« تاريخ الدول والملوك » – ١٨ جـ – دار الكتب المصرية – رقم ٣١٩٧ تاريخ . « تصوير شمس » .

إبن واصل (٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم :

« تاريخ الواصلين » ٢ جـ – دار الكتب المصرية – رقم ٥٣١٩ . تاريخ « تصوير شمس » .

أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين :

« التبر المسبوك فى تواريخ أكابر الملوك – دار الكتب المصرية – ميكروفيلم رقم ١٥٦٧ عن النسخة رقم ٢٠١٨ تاريخ .

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى :

١ – « المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى » ٥ جـ – دار الكتب المصرية رقم ٢٣٥٥ تاريخ .

٢ – « مورد اللطافة فيمن ولو السلطنة والخلافة » – دار الكتب المصرية – رقم ١٣٥٦ تاريخ .

بامخرمة (عاش فى القرن العاشر هـ / السادس عشر م) أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن على :

« قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر » – ٦ جـ – دار الكتب المصرية رقم ٤٤١٠ تاريخ .

البغدادى (ت ١١٠٢ هـ / ١٩٦٠ م) أحمد بن عبد الله :
« عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصر والأزمان » - مجلدان - دار الكتب المصرية - رقم ٣٨١٠ تاريخ . « تصوير شمس » .

السلامى (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين أحمد :
« مختصر التواريخ » دار الكتب المصرية - رقم ١٤٣٥ تاريخ .

العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين :
« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » - ٢٣ جـ فى ٦٩ مجلدا - دار الكتب المصرية - رقم ١٥٨٤ تاريخ « تصوير شمس » .

مرعى المقدسى (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٤ م) مرعى بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد :
« نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين » - دار الكتب المصرية - رقم ٢٠٧٦ تاريخ .

مؤلف مجهول :
« كتاب في التاريخ لم يعلم مؤلفه - دار الكتب المصرية - رقم ٤٠٣٠ تاريخ .

النويرى الكندى (ت ٧٣١ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد :
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » - ٥٥ مجلدا - دار الكتب المصرية - رقم ٥٤٩ معارف عامة « تصوير شمسى » .

اليونينى (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) موسى بن محمد أحمد قطب الدين :
« ذيل مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » - جـ ١٥ و ١٧ - دار الكتب المصرية - رقم ١٥١٦ تاريخ .

المصادر العربية

إبن الاثير الجزرى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) أبو الحسن على بن أبى الكرم الملقب عز الدين :

« الكامل فى التاريخ – ١٢ جـ فى ١٢ مجلد – ليدن ١٨٥٣ م » .

إبن إياس (ت ٩٣٠ / ١٥٣٣ م) أبو البركات محمد بن أحمد :

« كتاب تاريخ مصر ، المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور » – ٤ جـ الطبعة الأولى – القاهرة (بولاق) ١٣١١ – ١٣١٤ هـ .

إبن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله :

« مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » – ٢ جـ – القاهرة (بولاق) ١٩٣٤ – ١٩٣٧ م

إبن جبير (ت ٦١٤ هـ / ٩١٧ م) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسى :

« رحلة ابن جبير » – الطبعة الأولى – القاهرة – (مطبعة السعادة) ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م .

إبن الجيعان (ت ٨٨٥ هـ / ١٥٨٠ – ١ م) شرف الدين يحيى بن المعز :

« التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » – القاهرة (بولاق) ١٣١٦ هـ / ١٨٩٨ م .

إبن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) أبو المظفر شمس الدين :

« مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » – المجلد الثامن – ق ١ ، ٢ – حيدر أباد – ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م .

إبن حوقل (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أبو القاسم محمد

« كتاب صورة الأرض » – الطبعة الثامنة – ليدن ١٩٣٨ – ١٩٣٩ م

إبن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد :

« العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن

عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » - ٧ جـ - القاهرة (بولاق) ١٢٨٤ هـ .

إبن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم :
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » - ٢ جـ - القاهرة (بولاق) ١٢٧٥ هـ .

إبن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) صارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائى :
« الإنتصار لواسطة عقد الأمصار » جـ ٤ و ٥ فى مجلد واحد - بولاق - ١٣٠٩ - ١٣١٠ هـ .

إبن الشحنة (ت ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ م) أبو الفضل محمد بن الشحنة الحلبى :
« الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب » - بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٦٠٦ م .

إبن الشحنه (ت ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) محب الدين محمد بن محمد بن محمود
« روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر » - على هامش كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى - طبعة أولى - القاهرة (المطبعة الأزهرية المصرية) - ١٣٠٣ هـ .

إبن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة :
« سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماه بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٦٤ م .

إبن الطقطقى (المتوفى بعد ٧٠١ هـ / ١٣٣١ م) فخر الدين محمد بن على :
« الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » - راجعه ونقحه

محمد عوض ابراهيم وعلى الجارم – الطبعة الثانية – القاهرة ١٩٣٨ م .

إبن العماد (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) أبو الفلاح عبد الحى بن عبى بن محمد :

« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » – ٨ جـ – القاهرة ١٣٤٠ – ١٣٥١ هـ .

إبن الفارق (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م) :

« تاريخ ابن الفارق » على هامش ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى – بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م .

إبن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على :

« تاريخ إبن الفرات » – المجلد الرابع جـ ١ ، ٢ والمجلد الخامس جـ ١ – عنى بتحرير نصه ونشره الدكتور حسن محمد الشماع – البصرة (مطبعة حداد) ١٩٦٧ – ١٩٧٠ م .

إبن الفوطى (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٣١ م) عبد الرازق بن أحمد الفوطى البغدادى :

« الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة » – بغداد (مطبعة الفرات) ١٣٥١ هـ .

إبن القلانسى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على ابن محمد :

« تاريخ أبو يعلى حمزة بن القلانسى ، المعروف بذيل تاريخ دمشق » – بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م .

إبن كثير القرشى (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر :

« البداية والنهاية فى التاريخ » – ١٤ جـ – القاهرة (مطبعة السعادة)

١٣٥١ – ١٢٥٨ هـ .

إبن منظروح (ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م) جمال الدين يحيى :

« ديوان إبن مطروح » – الطبعة الأولى – قسطنطينية (مطبعة الجوائب) ١٢٩٨ هـ .

إبن مماتى (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) أبو المكارم أسعد بن الخطير أبى سعد :

« كتاب قوانين الدواوين » جمعه ونشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطية – القاهرة (طبعه الجمعية الزراعية) ١٩٤٣ م .

إبن ميسر (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف بن جلب :

« أخبار مصر » – ٢ جـ – نشر هنرى ماسيه – القاهرة (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى) ١٩١٩ م .

إبن النبيه (ت ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م) كمال الدين بن النبيه المصرى :

« ديوان ابن النبيه » – القاهرة ١٣١٣ هـ .

إبن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم

« مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » – ٤ جـ – جـ ١ ، ٢ ، ٣ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال – القاهرة – ١٩٦٠ م جـ ٤ تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع – القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢ .

إبن الوردى (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر :

« تتمة المختصر فى أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ إبن الوردى » جـ ٢ – القاهرة (المطبعة الوهبية) ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن إسماعيل بن ابراهيم بن عثمان شهاب الدين :

١ – « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » – جزءان فى مجلد واحد – القاهرة (مطبعة وادى النيل) ١٢٨٧ –

١٢٨٨ هـ .

٢ - « تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين نشره السيد عزت العطار الحسينى - الطبعة الأولى - القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .

أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل إبن على :

١ - « المختصر فى أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ أبى الفداء » - ٤ جـ - استانة (دار الطباعة الشاهانية) ١٢٨٦ هـ .

٢ - « تقويم البلدان » - نشره رينوودسلان - باريس (دار الطباعة السلطانية) ١٨٤٠ م صورة بالأوفست لمعرفة مكتبة المثنى ببغداد .

٣ - Adulfeda, Descriptio Aegypti, Arabice et Latine, edidit, Loannes David Michaelis Goettingae. 1776.

أبو الفرج الملطى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) غريغور أبو الفرج بن أهرون :

« تاريخ مختصر الدول » - بيروت (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين) ١٨٩٠ م .

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى :

« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » - ٩ جـ - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٨ - ١٣٦١ هـ / ١٩٢٩ - ١٩٤٢ م .

الأصطخرى (عاش فى القرن الرابع هـ / القرن العاشر م (أبو اسحق إبراهيم إبن محمد :

١ - « كتاب الأقاليم » - جوته ١٨٣٩ م ، صورة بالاوفست بمعرفة مكتبة المثنى ببغداد .

٢ - « مسالك الممالك » (وهو معول على كتاب صورة الأقاليم) ليدن ١٩٢٧ م :

البدرى الدمشقى (عاش فى القرن التاسع هـ / الخامس عشر م) عبد الله بن محمد البدرى المصرى الدمشقى المعروف بأبى البقاء :

« نزهة الأنام فى محاسن الشام » – القاهرة (المطبعة السلفية) ١٣٤١ هـ .

البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر :

« فتوح البلدان » – عنى بمقابلته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان – القاهرة (مطبعة الأزهر) ١٩٣٢ م .

بهاء الدين زهير (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) أبو الفضل بهاء الدين زهير :

« ديوان بهاء الدين زهير » – بيروت ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م .

بنيامين التطيلى (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) بنيامين بن يونة التطيلى النبارى الأندلسى :

« رحلة بنيامين » – ترجمتها عن الأصل العبرى وعلق على حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حداد – الطبعة الأولى – بغداد (الطبعة الشرقية) ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

الحسن بن عبد الله (عاش فى القرن الثامن هـ / الرابع عشر م) .

« آثار الأول فى ترتيب الدول » – القاهرة (بولاق) ١٢٩٥ هـ

الدمشقى (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م) محمد أبى طالب الانصارى الصوفى المعروف بشيخ الربوة والمكنى بالدمشقى :

« نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » – بطرسبرج ١٨٦٦ م .

الذهبى (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين :

« دول الإسلام » – ٣ جـ – الهند (مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر أباد الدكن) ١٣٣٧ هـ .

ذو النسبين (ت ٦٢٣ هـ / ١٢٣٥ م) عمر بن الشيخ الإمام أبى على حسن

بن على المكنى بأبى الخطاب والمعروف بذى النسبين دحيه والحسين :

« كتاب النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس » صححه وعلق عليه عباس العزاوى — بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٤٦ م .

السخاوى (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن :

تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات وما يتبع ذلك — الطبعة الأولى — القاهرة (مكتبة النشر والتأليف الأزهرية) ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م .

السراج (ت ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦ م) محمد بن محمد الأندلسى :

« الحلل السندسية فى الأخبار التونسية » — جـ ١ ٤ أجزاء — تحقيق محمد الحبيب الهيلة — تونس (الدار التونسية للنشر) ١٩٧٠ .

السيوطى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين .

١ — « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين » — تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد — الطبعة الأولى — القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

٢ — « كتاب بغيه الوعاء فى طبقات اللغويين والنحاه » — القاهرة (مطبعة السعادة) ١٣٢٦ هـ .

الشابشتى (ت ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م) أبو الحسن على بن محمد :

« الديارات » — تحقيق ونشر كوركيس عواد — بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٥١ م .

الأصفهانى (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد :

« الفتح القسى فى الفتح القدسى » - تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح - القاهرة (الدار القومية للطباعة والنشر) ١٩٦٥ م .

عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م) الملقب بموفق الدين والمعروف بابن اللباد :

« وصف مصر حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد » - القاهرة (مطبعة المجلة الجديدة) .

العمرى (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فضل الله :

« مسالك الأبصار فى ممالك الإمصار » - جـ ١ - نشره أحمد زكى - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

القزوينى (ت ١٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود :

« آثار البلاد وأخبار العباد » - نسخة فى مجلد طبع جوتنجن ، لها مقدمة باللغة الألمانية للاستاذ وستنفلد غوتا - جوتنجن ١٨٤٨ م .

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) أحمد بن على بن أحمد عبد الله :

« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » - ١٤ جـ - القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ /١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ .

الكتبى (ت ٧١٤ هـ / ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين :

« فوات الوفيات » - ٢ جـ - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - القاهرة (مطبعة السعادة ١٩٥١ م .

المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقى الدين أبو العباس أحمد :

١ – « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » – ٤ جـ – القاهرة (مطبعة النيل) ١٣٢٤ – ١٣٢٦ هـ .

٢ – « السلوك لمعرفة دول الملوك » – الجزءان الأول والثانى إلى سنة ٧٤١ هـ – نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة – القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ – ١٩٤٢ م .

٣ – « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخفا » – نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال – القاهرة ١٩٤٨ .

٤ – « اغاثة الأمة بكشف الغمه » – نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال – القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م .

L'Histoire des Patriarches d'Alexandria, extraits tran. Blochet. cf. R.O.L., Vol. XI. Paris. 1908 (pp. 240 - 260).

ياقوت الرومى الحموى (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الملقب شهاب الدين :

« معجم البلدان » – ٥ جـ وفهرس – ليبزج ١٨٩٠ م .

المراجع الأجنبية

Antonius, G.

The Arab Awaking. London, 1938.

Archer, T.A. & Kingsford, C.L.,

The Crusades : The Story of The Latin Kingdom of Jerusalem:- London. 1894.

Atiya, A.S.,

The Crusade in The Later Middle Ages. London, 1938.

Balzani. U.,

Early Chroniclers of Europe; Italy. London, 1883.

Barker, E.,

The Crusades. London, 1925.

Bray, A.,

The Good St., Louis and his Times. London, 1870.

Brehier, L.,

L'Eglise et L'Orient au Moyen age : Les Croisades. 5 me, éd, Paris, 1928.

Brentano, F.

Les Croisades. Paris, 1934.

Cahen, C.,

La Syrie du Nord. Paris, 1940.

Calthrop, M.,

1- The Crusades. London, 1913.
2- The Cambridge Medieval History; 8 Vol, Cambridge, 1911-1936.

Gampbell, G.,

The Crusades. London, 1935.

Chalondon, F.,

Histoire de La Premiére Croisade Jusqu'a L'election de Godefroi de Bouillon. Paris, 1925.

Chesterton, G.K.,

Saint François d'Assise, Paris (Bibliotheque Nationale) 1925.

Conder, C.R.,

The Latin Kingdom of Jerusalem. 1009-1291 A.D. London, 1897.

Delaville Le Roulx, J.,

Les Hospitoliers en Terre Sainte et a Chypre (1100 - 1310) . Paris, 1904.

Donovan, J.P.,

Pelaguis and The Fifth Crusade. Philadephia, 1950.

Duggan, A.,

The Story of The Crusades 1097 - 1291. London, 1963.

Duruy, V.,

Histoire du Moyen Age. 9th. ed Paris, 1877.

Dussaud, R. - Deschamps. P. - Seyrig H.,

La Syrie Antique et Medievale III ustrée Paris 1931.

Frood E.,

The Byzantine Empire. London, 1911.

Gibbon, E.,

The Crusades A.D. 1095-1291. London, 1870.

Grousset, R.,

Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem. 3 Vol. Paris, 1936.

Heyd, W.,

Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age. 2 Vol. Leipzig, 1885-1886.

Iorga, N.,

Bréve Histoire des Croisades et de Leurs Fondations en Terre Sainte. Paris, 1924.

Jullien, C.P.,

Note sur L'Emplacement de L'Amcienne Damiette, cf. Bulletin de Institut Egyptien Caire, 1887. (pp 72-77) .

Kantorowicz, E., Frederick the Second, London, 1931.

King, E.,

The Knights Hospitallers in The Holy Land. London, 1931.

Lacroix, P.,

1- Vie Militaire et Religieuse au Moyen Age et a L'Epoqune de La Renaissance. 2e. ed. Paris, 1873.

2- La Chevalerie et Les Croisades. Féodalité, Blason, Ordres Militaires. Paris, 1887.

Lamb, H.,

The Crusades : The Flame of Islam. London, 1931.

La- Monte, J.,

The World of The Middle Ages. New-York. 1949.

Lane-Poole, St.,

1- A History of Egypt in The Middle Ages. 4th. ed., London, 1925.

2- The Story of Cairo. London, 1902.

Ludlow, J.M.,

The Age of The Crusades. Edinburgh, 1897.

Maimbourg, P.,

Histoire Universelle des Croisades d'aprés Les Principaux Historiens. Paris, 1868.

Mas Latrie, M.L. de.,

Histoire de L'ile de Chypre sous Le Régne des Princes de La Maison de Lusignan. 3 Vol. Paris, 1861.

Maurois, A.,

A History of France. London, 1964.

Michaud, M.,

History of The Crusades. tran. from The French, by W. Robson in 3 Vol. London, 1852.

Miller. W.,

Mediaval Rome from Hildebrand to Clemedt VIII (1073- 1600). London, 1901.

Molinier, A.,

Les Sources de L'Histoire de France depuls Les Origines jusqu'en 1815. cf. Vol. III, Les Capétiens, 1180- 1308. Paris, 1903.

Muir, R.,

British History. London 1936.

Oman, C.,

A Aistory of The Art of war in The Middle Ages. 2 Vol. 2nd. ed. Revised and Englared London, 1924.

Omar Tousson,

Mémoire sur L'Histoire du Nil. 3 t. Le Caire, 1925.

Ostrogorsky, G.,

History of The Byzantine State. tran. by Joan Hussey. Oxford, 1956.

Previté-Orton, C.,

A History of Europe from 1198 to 1378 . London, 1957.

Rohricht, R.,

1- Beitiage zur Geschichte der Kreuzzuge. Berlin, 1874.
2- Funften Kreuzzuges. Innsbruck, 1891.
3- Geschichte des Konigreichs Jerusalem (1100-1291) Innsbruck, 1998.
4- Geschichte de Kreuzzuge in Umriss. Innsbruc, 1898.

Runciman, S,

1- A Story of The Crusades. 3 Vol. Cambridge, 1954.
2- The Christian Arabs of palestine. U.S.A. (University of Essex). 1970.

Mahmud, S.F.,

A Short History of Islam. Oxford, 1960.

Schlumberger, G.,

Campagnes du Roi Amaury I de Jérusalem en Egypte, Paris, 1906.

Setton, K.M., (ed)

A History of The Grusades. 2 Vol. Pennsylvania, 1958-1952.

Smail, R.,

Crusading Warfare (1097- 1193). Chambridge, 1956.

Stephenson, C.,

Mediaeval History : Europe from The Second to The sixteenth. Century.3 th. ed. Nex-York, 1951.

Stevenson, W.,

The Crusoders in The Eost. Cambridge, 1907.

Stubbs, W.,

Germony in The Early Middle Ages, 476-1250, ed. by A. Hassoll. .London, 1908.

Thatcher, O.J., & Mcneal, E. H.,

A Source Book for Medieval History, New-York, 1905.

Thompson, J.W.,

History of The Micdle Ages, 300-1500. Loddon, 1931.

Tilly, A.,

Medievel France. Cambridge, 1922.

Tout, T.,

The empire and The Papacy, European History, 918- 1213. 5th. ed. London, 1909.

Trevelyan, G.M.,

History of England. London, 1943.

Vambery, A.,

Hungary in The Ancient Mediaeval, and Modern Times 3th. ed. London, 1889.

Vasiliev, A.,

Histoire de l'Empire Byzantin, tr. du Russe par P. Brodin et A. Bourguina. Préface de M. Ch. Dichl. 2 Vols. Paris, 1932.

Woodhouse, F.,

The Military Religious Orders of The Middle Ages.
The Hospitallers, The Templars. The Teutonic Knights, and others. London 1878.

Youssouf Kamal,

Monumenta Cartographica A fricae et Aegypti. t.

III. Epoque Arabe, 5 fasc. (1930-5).

Zambaur, E. ed.,

Manuel de Généalogie et de Chronologie pour l'Histoire de l'Islam.
Hanovre, 1927.

المراجع العربية والمعربة

أحمد شلبى (دكتور) :

الحروب الصليبية « إحدى حلقات الصراع بين الشرق والغرب » القاهرة (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) ١٩٦٦ .

أحمد مختار العبادى (دكتور) ، السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام – جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ .

السيد الباز العرينى (دكتور) :

١ – مصر فى عصر الأيوبيين – القاهرة (مطبعة الكيلانى الصغير) ١٩٦٠ .

٢ – مؤرخو الحروب الصليبية – القاهرة ١٩٦٢ .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى – طبعة أولى – (دار المعارف بمصر) ١٩٦١ .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) ، أحمد مختار العبادى (دكتور) :

تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس – بيروت (دار النهضة) ١٩٦٩ .

انستاس مارى الكرملى (البغدادى) الأب :

النقود العربية وعلم النميات – القاهرة (المطبعة العصرية) ١٩٣٩

أرنولد (سيرتوماس) :

الدعوة إلى الإسلام – ترجمة إلى العربية الدكتور حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى – القاهرة (مطبعة الشبكشى بالأزهر) ١٩٤٧ .

أومان (تشارلس) :

الامبراطورية البيزنطية – تعريب الدكتور مصطفى طه بدر – القاهرة – (دار الفكر العربى) ١٩٥٣ .

أومبرتو ريتزيتانو :

صفحة من تاريخ العلاقات بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبى – مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية (المجلد ٥) ١٩٤٩ ص ٤٧ – ٥٨ .

إيريس حبيب المصرى :

قصة الكنيسة القبطية – ٣ جـ – الاسكندرية (مطبعة الكرنك) ١٩٧١ .

جرجس فليوثاوس :

القبط – القاهرة (المطبعة المصرية الأهلية الحديثة) ١٩٣٢ .

جمال الدين الشيال (دكتور) :

١ – مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا – الاسكندرية (مطبعة مدرسة دون بوسكو) ١٩٤٩ .

٢ – تاريخ مصر الإسلامية – ٢ جـ – الاسكندرية (دار المعارف)

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :

بحوث فى التاريخ الاقتصادى – ترجمة توفيق اسكندر – القاهرة (مطابع دار النشر للجامعات المصرية) ١٩٦١ .

جوزيف جاى ديس :

الزنديق الأعظم « قصته وسيرته » ترجمة أحمد نجيب هاشم – القاهرة (داز الكتاب العربى للطباعة والنشر) (د . ت .) .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

١ – الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية – مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية (العدد ١٦) ١٩٦٢ . ص ١٨٣ – ٢٠٥ .

٢ – العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى – الطبعة الثانية – الاسكندرية (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .

٣ – الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبى – الاسكندرية – (دار المعارف بمصر) ١٩٦٧ .

٤ – العدوان الصليبى والرأى العام الغربى – سلسلة محاضرات جامعة الاسكندرية ٦٧ / ٦٨ – مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ .

٥ – العدوان الصليبى على مصر « هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور الطبعة الأولى – الاسكندرية (دار الكتب الجامعية ١٩٦٩) .

٦ – العدوان الصليبى على بلاد الشام « هزيمة لويس التاسع فى الأراضى المقدسة » – الطبعة الثالثة – الاسكندرية (دار الكتب الجامعية) ١٩٧١ .

٧ – نشأة الجامعات والعصور الوسطى – طبعة أولى – الاسكندرية (منشأة المعارف) ١٩٧١ .

جيمس دوورلى :

الماجنا كارتا « العهد الأعظم » ترجمة مصطفى طه حبيب – القاهرة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٦٥ .

حسن ابراهيم حسن (دكتور) :

١ – انتشار الإسلام بين المغول والتتار – القاهرة ١٩٣٣ .

٢ – تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب – الطبعة الثالثة – القاهرة (مكتبة النهضة) ١٩٦٤ .

حسن حبشى (دكتور) :

١ – الحروب الصليبية الأولى – الطبعة الأولى – القاهرة (مطبعة الاعتماد) ١٩٤٧ .

٢ – نور الدين والصليبيون « حركة الافاقة والتجمع الإسلامى فى القرن السادى الهجرى – القاهرة (دار الفكر العربى) ١٩٤٨ .

٣ – الشرق العربى بين شقى الرحى « حملة القديس لويس على مصر والشام » – القاهرة ١٩٤٩ .

حسنين محمد ربيع (دكتور) :

النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين – القاهرة (مطبعة جامعة القاهرة) ١٩٦٤ .

حسين عبد الرحمن :

النقود – القاهرة (مطبعة الاعتماد) (د . ت) .

ديفز (هـ . و .) .

أوروبا فى العصور الوسطى – ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود . الطبعة الأولى – الاسكندرية (منشأة المعارف) ١٩٥٨ .

ديمتريوس الكرام (القديس) :

شرح حساب الكنيسة القبطية – الاسكندرية (مطبعة الكرنك) ١٩٦٩ .

سعاد ماهر (دكتوره) :

١ – البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية – القاهرة ١٩٦٧ .

٢ – مساجد مصر وأولياؤها الصالحون – جـ ١ – (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) ١٩٧١ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

١ – قبرص والحروب الصليبية – القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٥٧ .

٢ – الحركة الصليبية « صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى » ٢ جـ – طبعة أولى – القاهرة (مكتبة الأنجلو المصرية) ١٩٦٣ .

٣ – أوروبا العصور الوسطى ٢ جـ – الطبعة الثالثة – القاهرة ١٩٦٤ .

٤ – العصر المملوكى فى مصر والشام – الطبعة الأولى – القاهرة (دار النهضة العربية) ١٩٦٥ .

سليم أمين حداد :

الرياضيات التجارية والمالية – المجلد الأول جـ ١ – القاهرة ١٣٤٩ هـ / ١٩٤١ م .

عبد الرحمن زكي (دكتور) :

معارك حاسمة فى تاريخ مصر – القاهرة (مطبعة النيل) ١٩٤٥ .

سفن الاسطول الإسلامى وأنواعها ومعداتها فى الإسلام – القاهرة (مطبعة الهلال) بالفجالة بمصر ١٩١٤ .

عبد المسيح صليب المسعودى البرموسى (القمص) :

تحفة السائلين فى اديرة الرهبان المصريين – القاهرة (مطبعة الشمس) ١٩٣٢ .

على ابراهيم حسن (دكتور) :

مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الفتح العثمانى – الطبعة الثانية – القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٤٩ .

على مبارك (ت ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ م) على مبارك بن سليمان بن ابراهيم الرومى :

الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة وتعرف بخطط على مبارك – ٢٠ جـ فى ٤ مجلدات – القاهرة (بولاق) ١٣٠٤ – ١٣٠٦ .

عمر طوسون :

وادى النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطارقة ، مذيل بكتاب تاريخ الأديرة البحرية – الاسكندرية ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م .

عمر كمال توفيق (دكتور) :

١ - مملكة بيت المقدس الصليبية - الاسكندرية مطبعة (رويال) ١٩٥٨ .

٢ - تاريخ الامبراطورية البيزنطية - الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧ .

٣ - مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي « الامبراطور يوحنا تزيمسكس وسياسته الشرقية ٩٦٩ - ٩٧٦ م » - طبعة ثانية - الاسكندرية (دار المعارف) ١٩٦٧ .

٤ - المؤرخ وليم الصوري - مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية (العدد ٢١ لسنة ١٩٦٧) - مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ ص ١٨١ - ٢٠٠ .

فالتر هنتس :

المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها فى النظام المترى - ترجمة عن الألمانية الدكتور كامل العسلى - عمان (مطبعة القوات المسلحة الأدرنية) ١٩٧٠ .

فويج جرجس :

تاريخ الكنيسة القبطية - ٢ جـ - القاهرة (مطبعة الفجالة) ١٩١٧ - ١٩٢٠ .

فؤاد عبد المعطى الصياد (دكتور) :

المغول فى التاريخ - جـ ١ - بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٨٠ .

فيشر (هـ . أ . ل .) :

تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى – جـ ١ – ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الدكتور السيد الباز العرينى – الطبعة الثالثة – القاهرة (دار المعارف بمصر) ١٩٦٦ .

لجنة التاريخ القبطى :

تاريخ الأمة القبطية « خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر » – القاهرة (المطبعة الحديثة) ١٩٣٢ .

محافظة الاسكندرية :

تاريخ الاسكندرية وحضارتها منذ اقدم العصور – الاسكندرية ١٩٦٣ .

محمد صالح داود القزاز (دكتور) :

الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية – النجف – (مطبعة القضاء) ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .

محمد رمزى :

القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين حتى سنة ١٩٤٥ – ٣ جـ – القاهرة (مطبعة دار الكتب مطبعة وزارة التربية والتعليم) ١٩٥٣ – ١٩٦٩ .

محمد زغلول سلام (دكتور) :

ضياء الدين بن الأثير – القاهرة (دار المعارف بمصر) (د . ت) .

محمد كرد على :

كتاب خطط الشام – ٦ جـ – دمشق (دار المطبعة الحديثة) ١٣٤٣ –

١٣٤٧ هـ / ١٩٢٥ - ١٩٣٨ م .

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :

الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ١٠٩٧ م - ١٤٤ م - الاسكندرية ١٩٧٢ .

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة - القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٦١ .

محمد ياسين الحموى :

تاريخ الأسطول العربى « صفحة مجيدة من تاريخ العرب » - دمشق (مطبعة الترقى) ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .

مكسيموس مونروند :

تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب - ترجمة من الفرنسية إلى العربية مكسيموس مظلوم - ٢ جـ فى مجلد واحد - أورشليم ١٨٦٥ م .

منير شكرى :

أديرة وادى النطرون - الاسكندرية ١٩٦٢ .

ميخائيل عواد :

المآصر فى بلاد الروم والإسلام - بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٤٨ .

نعيم زكى فهمى (دكتور) :

دور اليهود فى تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب – طبعة أولى – القاهرة (مطابع سجل العرب) ١٩٧١ .

نورمان بينز :

الامبراطورية البيزنطية – تعريب الدكتور حسين مؤنس ، محمود يوسف زايد – الطبعة الثانية – القاهرة (الدار القومية للطباعة والنشر) ١٩٥٧

وليم سليمان (دكتور) :

الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية – وزارة الثقافة (دار الكتاب العربى للطباعة والنشر) (د . ت) .

لى سترانج :

فلسطين فى العصر الإسلامى – ترجمة محمود اعمايرى – الطبعة الأولى – عمان ١٩٧٠ .

يوسف أشباخ :

تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين – ترجمة ووضع حواشيه محمد عبد الله عنان – ٢ جـ – القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣٥٩ – ١٣٦٠ هـ / ١٩٤٠ – ١٩٤١ م .

يوسف اليان سركيس :

معجم المطبوعات العربية والمعربة – مجلدان – القاهرة (مطبعة سركيس) ١٣٤٦ هـ – ١٩٢٨ م .

فهرس الاعلام والمدن

(ا)

- ب -

- ح -

– ش –

– ص –

– ض –

– ط –

– ظ –

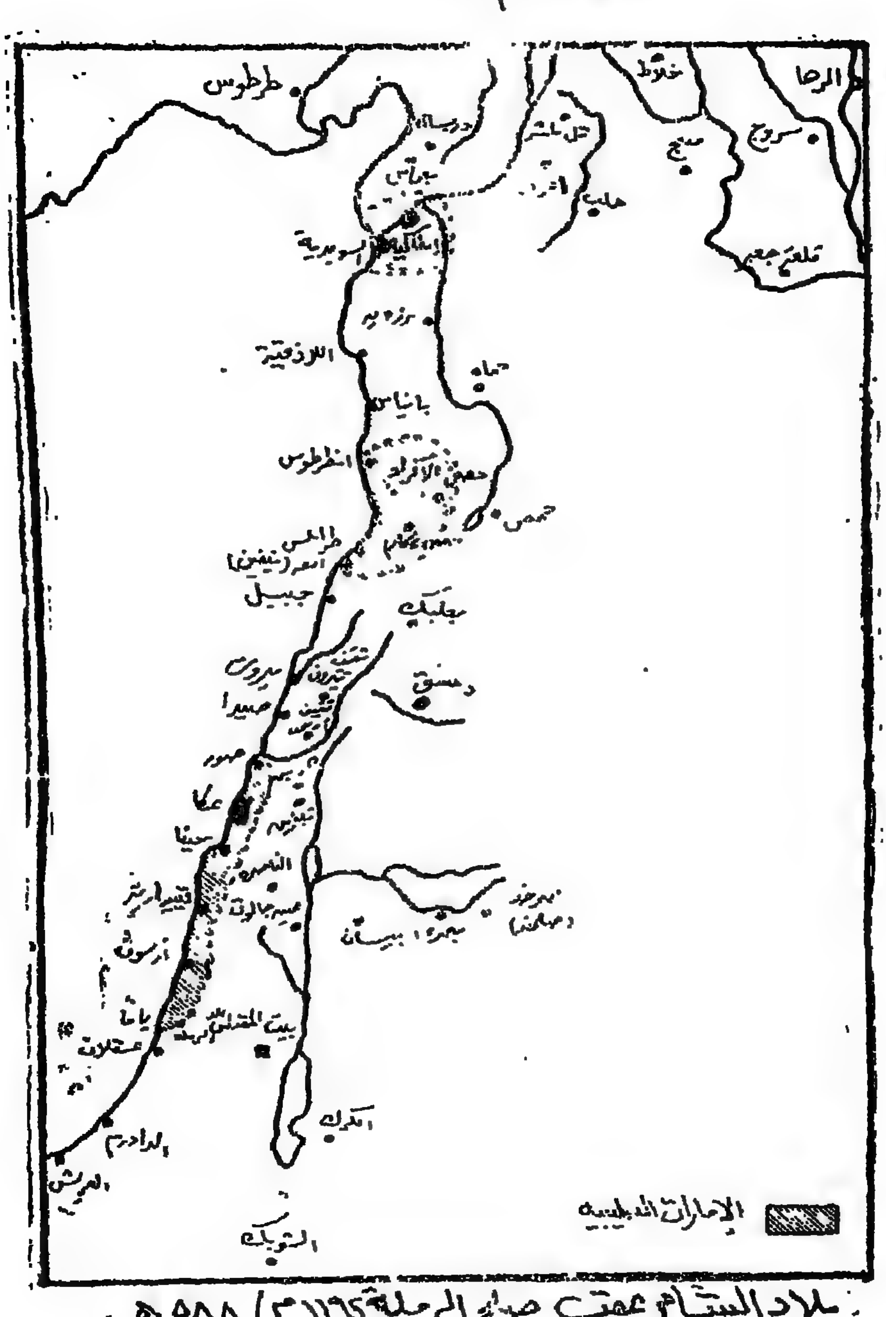
– ع –

- ف -

ق —

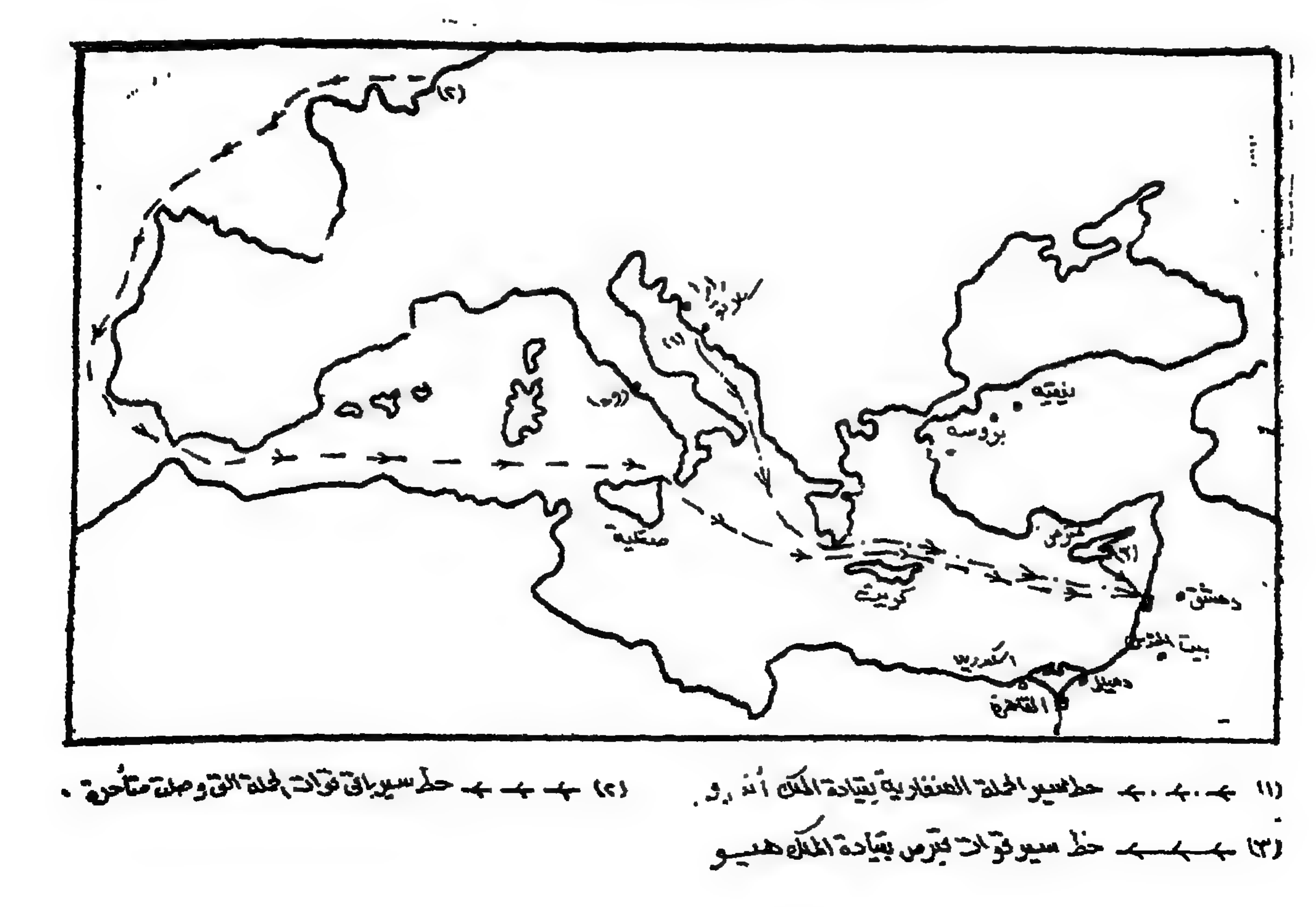
— ك —

خريطة رقم (1)



بلاد الشام عقب صلح الرملة ١١٩٢م / ٥٨٨ هـ

خريطة رقم (٢)

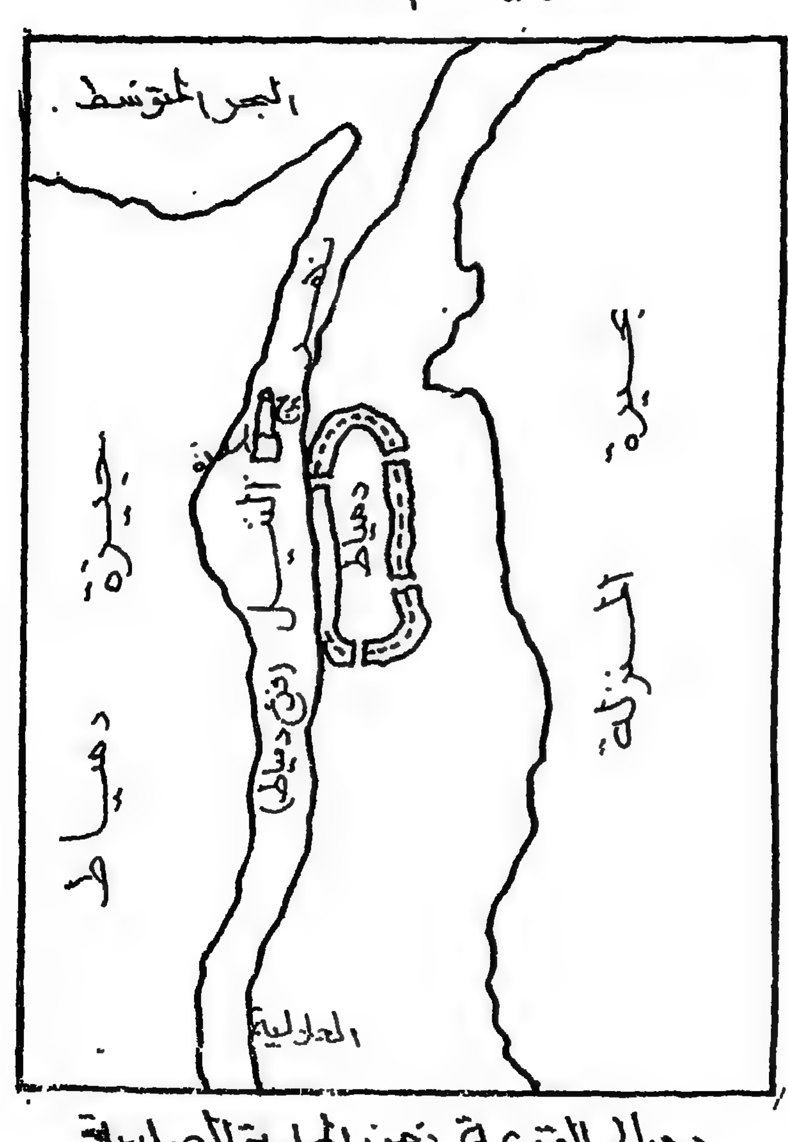


(١) خط سير الحملة الهنغارية بقيادة الملك أندرو.

(٢) خط سير باقي قوات الحملة التي وصلت متأخرة.

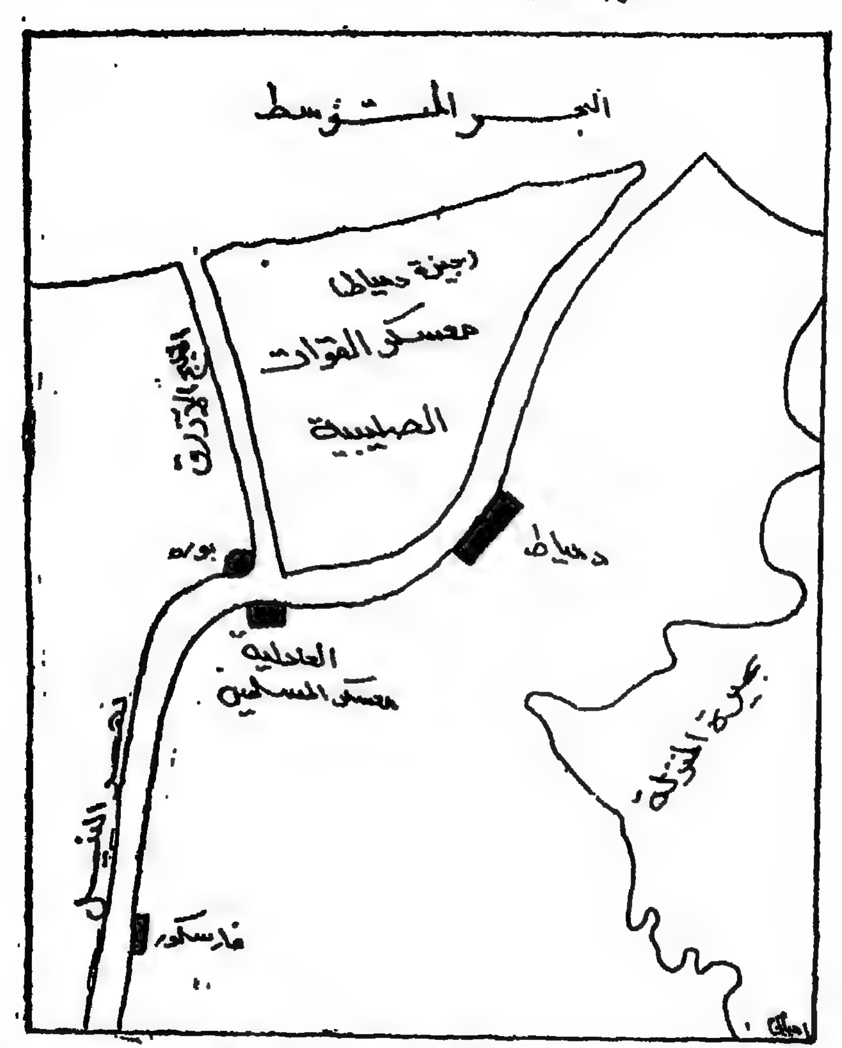
(٣) خط سير قوات قبرص بقيادة الملك هيو

خريطة رقم (٣)



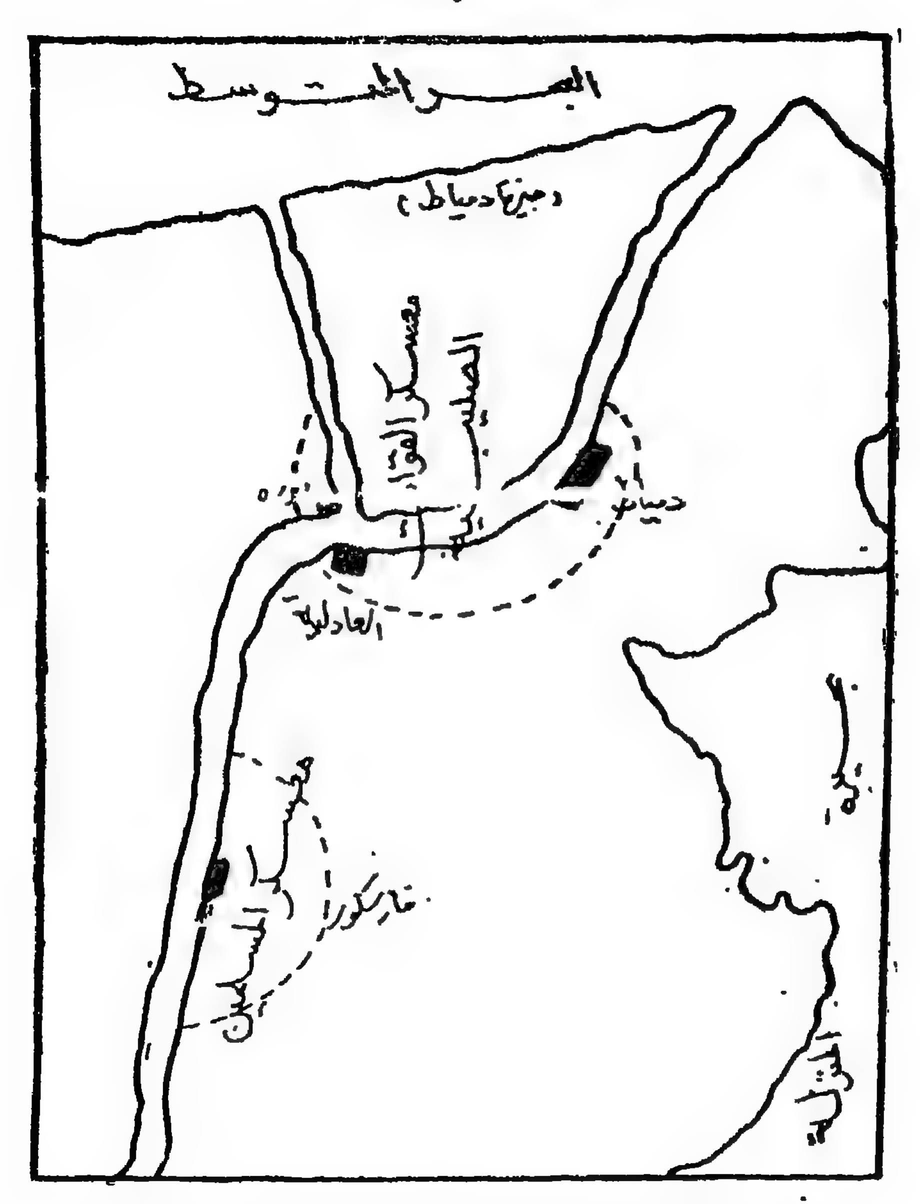
دمياط القديمة زمن الحملة الصليبية

خريطة رقم (٤)



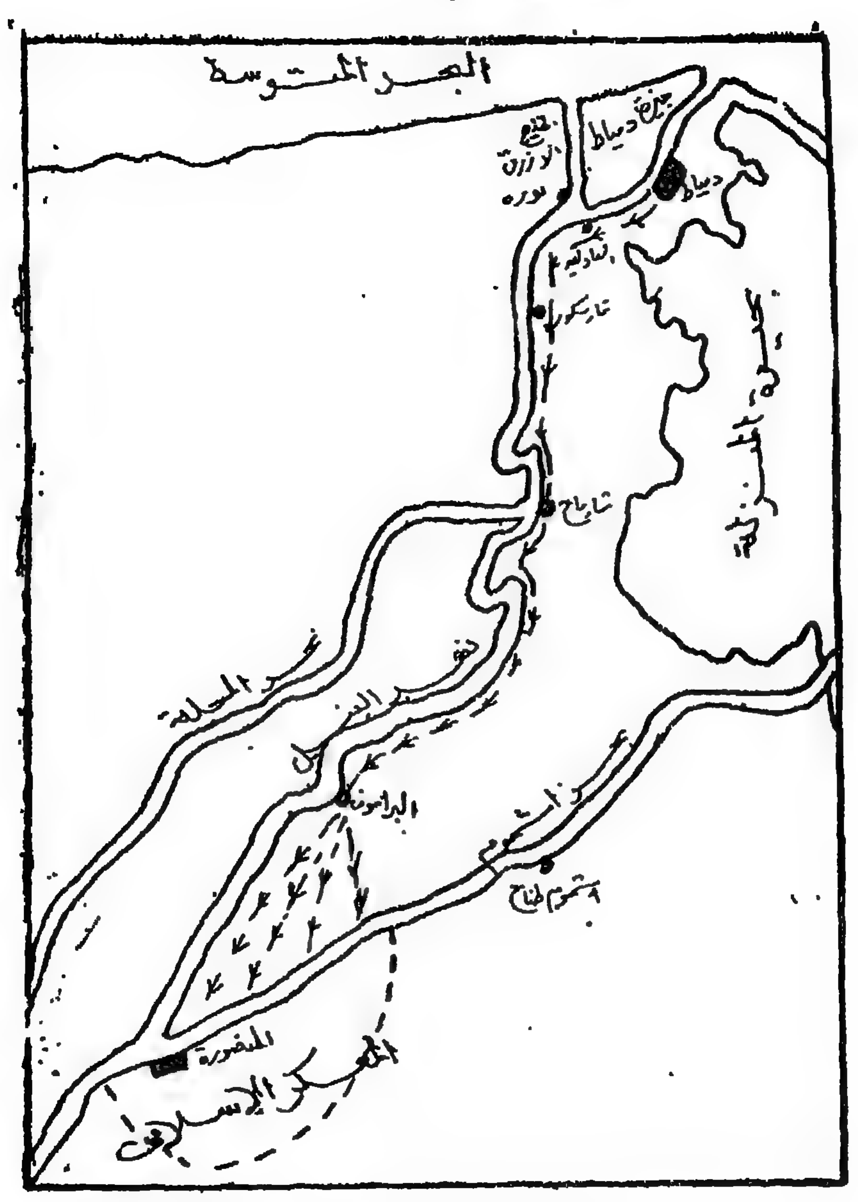
مواقع القوات الإسلامية والصليبية في الفترة من يونية ١٢١٨ إلى ٤ فبراير ١٢١٩م
(ربيع أول إلى ١٧ ذو القعدة ٦١٥هـ)

خريطة رقم (٥)



مواقع القوات الإسلامية والصليبية بعد ٥ فبراير ١٢١٩م / ٨ ذو القعدة ٦١٥هـ.

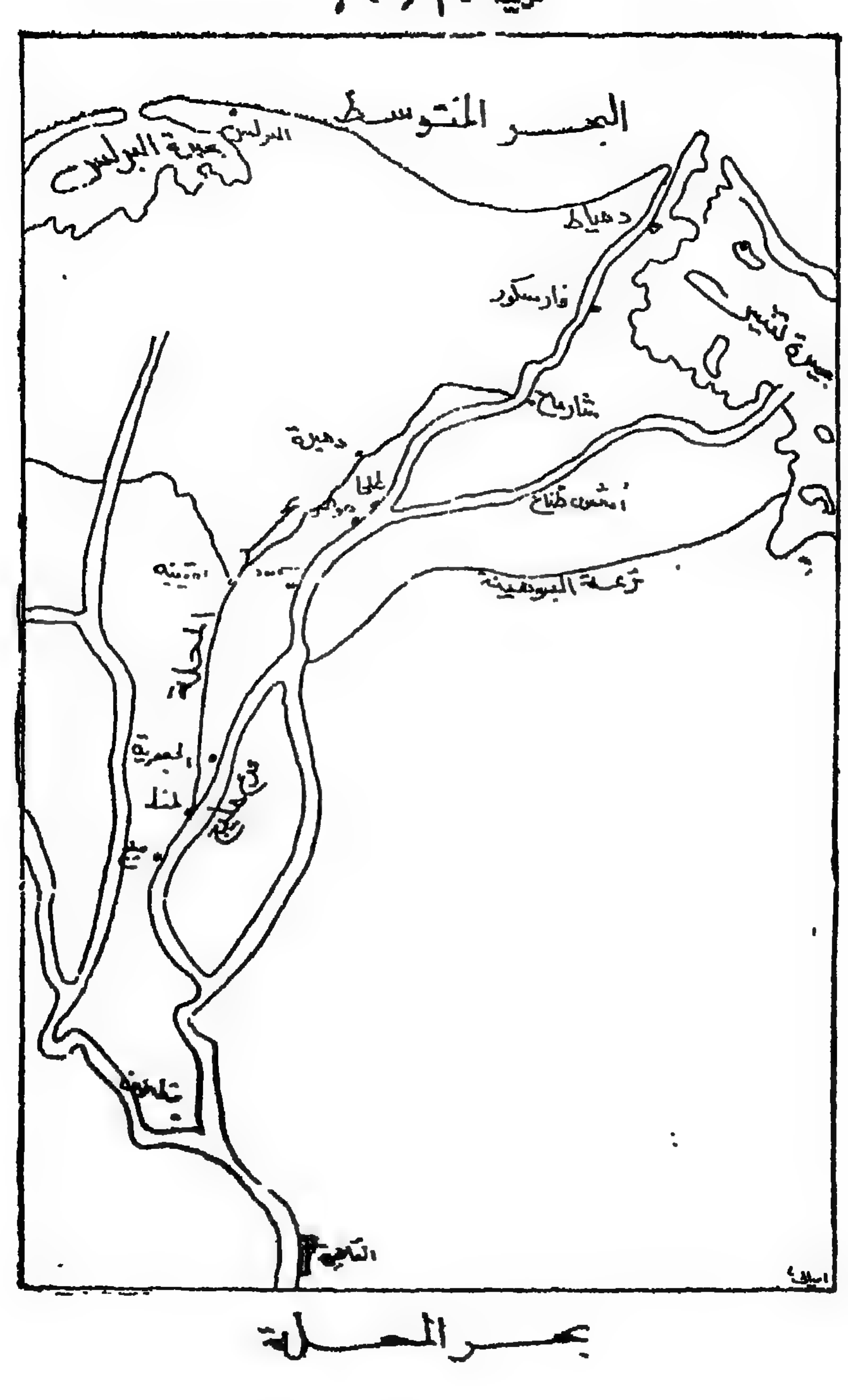
خريطة رقم (٦)



←←← خط سير القوات الصليبية من دمياط إلى المنصورة

(إبتداء من ١٧ يوليو ١٢٢١م / ٢٥ جمادى الثانى ٦١٨هـ)

خريطة رقم (١٧)



بحر المحلة

تم بحمد الله

عظيم شكرى لجميع العاملين الذين عملوا لاخراج هذا الكتاب

د . محمود سعيد عمران


الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

١٢٢٥٥٩ / ١ ‏ ص ٨٠٠

دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة
الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول - ٢ ميدان التحرير (المنشية)